التبشير والاستعمار

في البلاد العربية

عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي

تأليف

الدكتور مصطفى خالدي

رئيس مدرسة التمريض الوطنية في بيروت
أستاذ فن التوليد سابقاً في جامعة بيروت الاميركية
مؤلف كتاب « الحمل والولادة » وغيره

الدكتور عمر فروخ

عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي
عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

اهداء الكتاب

الى كل شابٍ مسلمٍ والى كل شابٍ مسيحي
الى كل شابٍ وشابة في الشرق

نقدم هذا الكتاب

لنبسط لهم فيه وسائل المبشرين في بلادنا العزيزة وانهم لم يرموا من وراء تبشيرهم إلاّ خدمة الاستعمار الغربي .

فالى الجيل الناشىء

الى القيادة العاقلة الكامنة في العالم الاسلامي والعالم العربي

نقدم كتابنا هذا مُرشداً ومنهاجاً

المؤلفان

٢٣ جمادي الاولى ١٣٧٢
٨ شبـــاط ١٩٥٣

فهرست الكتاب

مقدمة الطبعة الثالثة

إذا قلنا إنّ هذا الكتاب قد أدى رسالةً لم نكن مغالين ولا متبجحين (١) . يسرّنا أن يكون هذا الكتاب «التبشير والاستعمار في البلاد العربية» قد شهد خروج الاستعمار من جميع البلاد العربية ، وان كان الاستعمار الذي خرج هو الاستعمار الرسمي في أكثر الاحيان . ولقد كان من المنتظر أن يتوقف هذا الكتاب عن الصدور في طبعات جديدة لأن الغاية الاولى التي رمينا اليها ، وهي فتح عيون المسؤولين سياسياً وثقافياً على أخطار التبشير ، قد تحققت في جانبها الرسمي أو السياسي . غير أن البلاد العربية لا تزال ، مع الاسف ، ترزح في رواسب الاستعمار وتعاني آلام التبشير . من أجل ذلك لا بُدّ من صدور هذه الطبعة الثالثة حتى يظل المسلمون الذين خرجت بلادهم من الاستعمار الرسمي فاتحين أعينَهم على الاستعمار الفعلي الذي يتبدى في التعليم والتطبيب والاذاعات والصحف والمجلات وفي جانب من الادب الذي يسمونه ظلماً أدب الشباب ، وهو في الحقيقة أدب متحلل من القيم الروحية والخلقية والاجتماعية ، وهو يرمي الى أن يفكك عرى الأمة العربية حتى يمكن أغلال الاستعمار من أيديها وأرجلها وأعناقها .

ان المعركة في هذا الكتاب لم تكن ، منذ صدر هذا الكتاب في طبعته الاولى ١٩٥٣ ، معركة خارجية فقط ؛ لقد كانت في بعض جوانبها معركة داخلية أيضاً . فمبررات هذه الطبعة اذن لا تزال كثيرة : رواسب الاستعمار ، أشكال الاستعمار الجديدة بعد انقراض الاستعمار الرسمي في البلاد العربية ، تبدل وسائل التبشير توصلاً الى تثبيت نتائج الاستعمار القديم ثم تنبيه الغافلين من شبان العرب الى المزالق التي تلقى في طريقهم .

في اثناء وجود الطبعة الثانية في الأسواق العربية نقل هذا الكتاب الى اللغة الروسية وظهرت منه طبعتان في تلك اللغة ، فاستطاع هذا الكتاب أن يؤدي رسالة جديدة وراء النطاق الذي كنا قد رسمناه له من قبل .

ان جميع ما خبرناه في العشر السنوات التي شهدت تنقل هذا الكتاب بين الايدي يدل بكل جلاء على أن التبشير وسيلة الى الاستعمار ، وأن المبشرين ليسوا — سواء أعلموا أم

---

(١) راجع الطبعة الثانية ، ص ٩ (رسالة هذا الكتاب) .

لم يعلموا ، قصدوا أم لم يقصدوا — سوى طلائع لمطامع الاستعمار . ان الاستعمار قد قتل باتريس لومومبا ، في عام ١٩٦١ ، مع أن لومومبا صابىء من الوثنية الى النصرانية بفعل التبشير ، لأنه أراد أن يكون في الكونغو استقلال صحيح . وأبرز من ذلك للعيان أن الولايات المتحدة التي ترسل الارساليات الى العالم للعمل على نشر النصرانية قد وقفت ، في عام ١٩٦٣ ، مع البوذيّين في فيتنام ضد الحكومة المسيحية في ذلك البلد . ان الدول التي تموّل الأعمال التبشيرية بملايين الدولارات لا يهمها الذين يصبأون الى النصرانية اذا كان هواهم السياسي لا يوافق هواها الاستعماري .

* * *

ولقد رأينا أن نردف هذه الطبعة ببضع صفحات تتعلق بالتبشير والاستعمار في افريقية، في بلاد عربية وفي بلاد غير عربية ، فالاستعمار شرّ مُمْتَد يتنقل بين البلاد ولا يفرّق بين الجنسيات .

إننا نرجو أن تؤدي هذه الطبعة قسطها من الرسالة التي بدأتها الطبعة الاولى وأكدتها الطبعة الثانية . وعسى أن ينقرضَ الاستعمار كله من جميع البلاد وأن يبطل التبشير احتراماً للحرية الانسانية واحتراماً للدين نفسه إجلالاً له عن أن يكون وسيلة مادية لمغانم دنيوية .

واذا نحن تطرفنا في موقفنا الى الجانب الاقصى رأينا أن نفراً من المبشرين قد احترفوا نقل المعلومات بين الدول في ثياب التبشير :

وزعت وكالة تاس السوفياتية في بيروت(١) مقالاً نشرته جريدة « برافدا » في موسكو لمراسلها في بكين عاصمة الصين . وقد جاء في هذا المقال : « لقد أدخل الاستعماريون الاميركيون الى الصين مبشرين من مختلف المذاهب استخدموهم منذ أمد بعيد في أعمال الجاسوسية » .

في هذا المقال اتهامات موجهة ووقائع مسرودة قد تكون ، من حيث التفاصيل ، موضع جدل ، وقد يكون فيها مبالغة كما قد يكون فيها ظلم لنفر من المبشرين المخلصين لمذاهبهم وعملهم فيما يتعلق بهم أنفسهم . ولكن الذي لا ريب فيه أن الدول المستعمرة ، جميع الدول المستعمرة ، قد لجأت الى الثوب الديني لتثبيت نفوذها ونشر مبادئها وخدمة مصالحها في كل مكان استطاعت فيه الى ذلك سبيلا .

يرى القارىء في ثنايا هذا الكتاب أن نفراً من المبشرين كانوا مخلصين لعملهم الروحي

(١) في النشرة الصادرة في الثالث عشر من حزيران من عام ١٩٥١ (واحد وخمسين) في العدد ١١٣ (مائة وثلاثة عشر) .

أو الديني ، اخطأوا في ذلك أم لم يخطئوا . وليس من غايتنا في هذا الكتاب أن نتعرّض للتبشير كحركة دينية يقع فيها التنازع ، ولكننا نريد أن نبرز الصلة الموجودة في معظم الاحيان بين التبشير في صوره المختلفة وبين التمهيد للنفوذ الاجنبي ثم بين التبشير وبين تثبيت هذا النفوذ في العالم العربي . والواقع أن هذه الصلة موجودة وبارزة جداً .

ومما يلاحظ أن بريطانية وفرنسة حرصتا ، قبل أن تخرجا مضطرتين من عدد من مستعمراتهما الافريقية ، على أن تمهد في كل دولة اعطيت استقلالها السياسي ، لمجيء رجل صابىء الى رئاسة الدولة في المستعمرة المستقلة حديثاً . انهما تعتقدان أن الصابىء يكون أميل الى السياسة الغربية من غير الصابىء ، ذلك لأن المسيحية في رأيهما تجمع بين ذلك الصابىء وبينهما أكثر مما تجمع بين الصابىء وبين قومه الأولين من المسلمين أو الوثنيين . ومع أننا عرفنا نفراً من هؤلاء قد خيّبوا ظن بريطانية وفرنسة في ذلك ، فان نفراً آخرين كانوا كما شاءت بريطانية وفرنسة . ولعل القطعة التالية المأخوذة من مجلة روز اليوسف ، مع شيء من التلخيص والتصرف ، تمثل الحال الثانية تمثيلاً صحيحاً :

تُوقّعُ البعثات التبشيرية في السنغال مع عدد من الاسر السنغالية الفقيرة عقوداً تقدم بموجبها تلك البعثات التبشيرية الى الاسر السنغالية مساعدات عينية (ضئيلة) من ارز مثلاً في كلّ شهر على أن يكون لها حق باختيار طفل من أطفال الاسرة تربيه على حسابها . ويكون في العقد مادة تنص على أن الاسرة مجبرة على ردّ ثمن المساعدات وعلى دفع نفقات ابنها ونفقات تعليمه اذا هي خالفت شروط العقد (بطلب استرداد ابنها مثلاً) .

وتختار البعثة التبشيرية من أطفال تلك الاسرة صبياً دون الخامسة من العمر ثم ترسله الى مدرسة (تبشيرية طبعاً) . وينقطع الصبيّ عن أهله وينُشّأ تنشئة مسيحية ثم يُرسل الى فرنسة لاتمام علمه العالي . بعدئذ يُعاد الى السنغال ليستخدم في الأغراض التي توافق هوى فرنسة .

وحينما يعود الصبيّ السنغالي الذي أصبح رجلاً مسيحياً فرنسياً الى السنغال يمنح حق المواطن الفرنسي في المستعمرات من حيث المستوى الاجتماعي والوظائف . ويضرب كاتب المقال في مجلة روز اليوسف (في العمود الرابع ، الاسطر ٤١ — ٤٤) على ذلك مثلاً فيقول :

— أنت تعلم أن كلمة « سانجور » (اسم رئيس جمهورية السنغال الحالي) معناها

(١) القاهرة ، السنة ٣٩ ، العدد ١٨٤٧ ، بتاريخ الاثنين في ٤ — ١١ — ١٩٦٣ ، الصفحة ٢٦ .

« سان جورج (القديس جورج) » ... وأن رئيس الجمهورية مسيحي .. لكن أبويه واخوته مسلمون .

وفي الصفحة المشار اليها من مجلة روز اليوسف مقطع متمم للمأساة الناتجة من التبشير والاستعمار :

اتفق أن كان أول رؤساء الوزارة في السنغال رجل مسلم اسمه محمد ضيا (١) . وكان محمد ضيا يرى أن من مصلحة بلاده أن تستقل عن المجموعة الفرنسية وتنهج طريق الحياد والاشتراكية . وسافر محمد ضيا الى دول الكتلة الاشتراكية .. ثم عاد ليجد نفسه متهماً بتدبير مؤامرة لقلب نظام الحكم . وسُجِنَ محمد ضيا واصبحت جميع السلطات في يد « سانجور » رئيس جمهورية السنغال بعد أن أصبح نظام الحكم رئاسياً (٢) .

ومما يدل على أن الروح الديني الصحيح شيء وأن التبشير شيء آخر برقية نشرتها جريدة الطيار والتلغراف (١) . هذه البرقية هي التالية :

« برمنغهام — ولاية ألاباما (الولايات المتحدة الاميركية) — رويتر :

دمّر انفجار عنيف كنيس (٢) للزنوج أثناء قداس هنا اليوم وأصاب الأبنية المجاورة بأضرار . وذكر البوليس أن أربعة من الزنوج قتلوا في الحادث وأصيب عدد آخر بجراح » .

ان هؤلاء الزنوج لمّا حُملوا على النصرانية في الولايات المتحدة ، بدوافع مختلفة ، لم يصبحوا جزءاً من المجتمع المسيحي فهم هنالك منبوذون مقهورون بالتمييز العنصري . والاميركيون البيض يريدون من هؤلاء أن يسايروا السياسة الاميركية في الداخل والخارج من غير أن يتمتعوا بشيء من امتيازات البيض أو من حقوق البيض على الاقلّ .

---

(١) جاء محمد ضيا الى بيروت وتزوج فتاة بيروتية مسلمة . ومن الطريف أن عدداً من الجرائد كانت تكتب اسمه هكذا : « مامادو ديا » .

(١) بيروت ، ١٦ — ٩ — ١٩٦٣ ، الصفحة ١٢ أسفل العمود الرابع .

(٢) كذا في الاصل ، والمقصود : كنيسة .

الكلمة الاولى

منهاج هذا الكتاب

لعلّ كتابنا هذا يصلح ان يكون دليلاً في يد الجيل الناشيء يتتبع فيه جهود المبشرين وسعيهم الى زعزعة عقيدة الناشئة الشرقية عامة والإسلامية خاصة ، ثم تهيئة هذه الناشئة باساليبهم المختلفة لقبول النفوذ الغربي والاستكانة الى الاستعمار .

لقد كنا دائماً نعتقد أن المدارس الأجنبية والمؤسسات الأجنبية — حتى الجمعيات الخيرية والعلمية التي ينشئها الأجانب في بلادنا على اختلاف الأسماء والنزعات ، والأديان والدول — انما هي في الحقيقة سبلٌ تتشعب عند الانطلاق ولكنها تلتقي عند غاية قصوى واحدة : السيطرة على الشرق ، السيطرة الثقافية والدينية والسياسية . ولقد تبين لأصحاب هذه المؤسسات ان المسلمين خاصة اصلب الناس عوداً في تقبُّل هذا النفوذ الأجنبي فراحوا يوجهون جهودهم الى المسلمين خاصة ، مع الإهتمام بغير المسلمين من الشرقيين ، على ما يبدو جلياً في ثنايا هذا الكتاب .

ولقد اتفق لكثير من الناس ان اعتقدوا مثلنا ان المدارس والمستشفيات ومؤسسات الإحسان انما هي مؤسسات منظمة للتبشير في الدرجة الأولى . ولكن القليلين فقط يدركون ان هذه المؤسسات نفسها ، وان كثيراً من البيوت التجارية الأجنبية والهيئات الرسمية الأجنبية ، كانت ولا تزال وسائل للتبشير الممهد لبسط النفوذ الأجنبي . ومن منا كان يعتقد ان الفتن الطائفية كان ينفخ فيها رجال أتَوْا الى هذه البلاد يضعون على اجسامهم ثياب التقوى وينتحلون مظاهر العلم؟ ومن منا كان يصدق ان رجالاً جاءوا الى بلادنا ليرأسوا

مؤسسات علمية مشهورة بالعلم كانوا مبشّرين في الدرجة الاولى ؟

لقد حرَصنا نحن على أن نثبت هذه التهم الكبرى بشواهدَ من كتب المبشّرين أنفسهم . تلميحاً أو تصريحاً ، ولقد فضّلنا في الاستشهاد التصريحَ على التلميح .

أما الكتب التي رجعنا اليها ودرسناها فانّها تعيا على الحصر ، انها تعدّ بالمئات ، ولكنّنا نحن لم نثبت الشواهد الا من نوعين من هذه الكتب الكثيرة : كتبِ المبشرين المعروفين ، والكتب التي تصرّح بغاياتها تصريحاً لا التواء فيه ولا غموض (١) .

وكذلك لم نثبت نحن كلّ شيء ورد في هذه الكتب ، فان كثيراً مما ورد فيها مكرّر فيها جميعها ، ثم ان بعض الآراء والحقائق تتفرّع من أصول معروفة . ولقد اكتفينا بأصول الحقائق والآراء واعتقدنا أن القارىء الكريم يستطيع أن يدرك الفروع التفصيلية بأهون نظر .

على أننا في هذا الكتاب سنتناول الكلام على الامة الاسلامية ، وسنخصّ بالكلام بلاد الشرق العربية من مرّاكش غرباً الى العراق شرقاً ، ومن أعالي الشام شمالاً الى اليمن جنوباً .

لم يحاول أحدٌ بعدُ وضعَ مثلِ هذا الكتاب في اللغة العربية . ولقد رأينا أن واجبنا الديني والقومي والوطني يدعونا الى أداء هذا الواجب وحمل هذه الرسالة على بعدها عن مباحث اختصاصنا وعلى طول الوقت الذي تتطلّبه . الاّ اننا أدركنا أن السكوت عن هذا الخطر أشدّ ضرراً على قومنا من اهمال موضوعات اختصاصنا . ونحن نعتقد أن القارىء بعد أن يبدأ قراءة هذا الكتاب سيرى صواب ما نقوله . ان التبشير أشد ضرراً على بلادنا من الاستعمار ، لأن الاستعمار لم يتَنفُذْ الى بلادنا الا تحت ستار التبشير !

فحبذا ان يصل كتابنا هذا الى الأيدي التي تستطيع ان تستفيد مما فيه من درس ومن حقائقه المجموعة ، ثم تضع هي مناهجها الخاصة لمتابعة الرسالة : مقاومة التبشير من الناحية العملية في البيئات المختلفة بكل سبيل ممكنة .

---

(١) راجع الكلمة الثانية .

ان الاسلام صلب الشرق . فاذا وهن الاسلام وهن الشرق كله . فعسى ان نكون فعلاً قد أدينا خدمة للفئة المختارة من قومنا ومن امتنا من اولئك الذين يتطلعون الى اصلاح قريب لانهاض العرب وايقاظ المسلمين .

المؤلفان

٢٣ جمادي الأولى ١٣٧٢
٨ شباط ١٩٥٣

الكلمة الثانية

رسالة هذا الكتاب

•

إذا قلنا ان هذا الكتاب قد أدى رسالة لم نكن مغالين ولا متبجّحين . لقد فتح هذا الكتاب عيوناً كثيرة على أخطار كانت خافية على نفر كبير من المخلصين ممن لا يعرفون اللغات الأجنبية ليقرأوا ما يكتب فيها ، وممن يعرفون اللغات الأجنبية ولكن لم يرزقوا الجلد على تتبع الموضوعات الجافة كموضوع التبشير ، ثم ممن يضيق وقتهم بأعمالهم السياسية او الادارية او المهنية عن القراءات الواسعة في الكتب والمجلات . ثم انه ليس من الحق ولا من الممكن ان نطلب من كل مخلص ان يفعل ما فعلناه نحن : أن يسلخ عشر سنوات في تتبع هذا الموضوع واقتصاص آثار المبشرين في أنحاء الوطن العربي . من أجل ذلك قمنا نحن بهذا العمل وقدمنا خلاصة له في صفحات قليلة . وليثق القارىء بأن الأثر المفيد الذي أحدثه هذا الكتاب قد أنسانا السهر في تقصّي مواده من كل مصدر ومن كل مرجع . ولقد ملأ نفوسنا غبطة ان نفراً كريماً من الحاكمين ومن المشرفين على الحركات الاصلاحية قد عُنوا بهذا الكتاب ورأوا فيه ما قصدنا نحن منه : هنالك أخطار كنا نشعر انها أخطار ، وكنا نعتقد بوجودها من قرائن كثيرة ؛ ولكن الأدلة المقنعة كانت تعوزنا . فلما جاء هذا الكتاب واستخرج الأدلة من كتب المبشرين والمستعمرين انفسهم لم يبق مجال للشك في صحة ما كنا نشعر به وصواب ما كنا نعتقد .

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب منذ ثلاث سنوات ، فلما أردنا اصدار هذه الطبعة

الثانية كان قد تجمّع لدينا مصادر ومراجع كثيرة جداً . وكان بعض هذه قد صدر بعد خروج الطبعة الأولى ، كما كان بعضها قديماً ولكن لم نستطع في ذلك الحين ان نصل اليه . على ان قسماً كبيراً من هذه الكتب لا ينطوي على مادة جديدة ، ولم يكن من خطتنا ان نجمع الأشياء المتشابهة — وإن كان جمعها يفيد احياناً — لئلا يزيد حجم الكتاب كثيراً فيخرج من متناول القارىء العام ويفقد جانباً من رسالته . وكذلك حرصنا على ان نقصر اعتمادنا في هذه الطبعة ايضاً ، كما فعلنا في الطبعة السالفة ، على المصادر الأجنبية مما بينا الغاية منه في « الكلمة الأولى » . ولكننا شذذنا عن هذه القاعدة فيما يتعلق بثلاثة كتب :

أ — الغارة على العالم الاسلامي (١) :

كانت مجلة العالم الاسلامي الفرنسية (٢) قد نشرت موجزاً لمقررات عدد من المؤتمرات التي عقدها المبشرون البروتستانت بقلم أ. لوشاتليه . وقد رأى مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب ان يلخصا ما نشره لوشاتليه وينشراه تباعاً في جريدة المؤيد التي كانا يحرران فيها ، وذلك في سنة ١٣٣٠ للهجرة (١٩١٢ م) . ثم انهما أعادا نشر هذه المقالات نفسها في جريدة الفتح المصرية سنة ١٣٤٩ للهجرة (١٩٣٠ م) . بعدئذ جمعاها في كتاب مستقل صدر عن المطبعة السلفية ومكتبتها في العام التالي . ولا ريب في أن وضع مثل هذا الكتاب في يد القارىء المسلم كان عظيم النفع . ولكن الكتاب في حقيقته خلاصة خلاصة لجهود المبشرين كما يراها المبشرون ، فهو وان كان ينبه على أضرار التبشير فانه لا يربط جهود المبشرين بالنتائج الدينية والسياسية التي أدت فعلاً الى الاضرار بالعالم الاسلامي . ثم ان هذا الكتاب خلاصة عربية لخلاصة افرنسية لمادّة انكليزية محدودة .

ومع ان جميع الملخصات في كتاب « الغارة على العالم الاسلامي » كانت في شكلها المطول وفي كتبها الأصلية من مصادر كتابنا « التبشير والاستعمار » ، فاننا نعتقد ان كتاب « الغارة » هذا قد أدى خدمة في زمنه ، وان مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب قد حاولا فتح عين المسلمين على شيء من أخطار التبشير منذ نحو جيلين من الدهر .

---

(١) مجموع مقالات « لخصها ونقلها الى اللغة العربية مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب » من :
La Conquête du Monde Musulman, par A. Le Chateller,
نشرت في جريدة المؤيد (مصر) سنة ١٣٣٠ (للهجرة) وفي صحيفة الفتح (مصر) سنة ١٣٤٩ هـ ، ثم جمعت في كتاب نشرته المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م) .

(2) Le Monde Musulman.

ب — لبنان الطائفي (١) :

أريد من هذا الكتاب ان يكون « رداً » على كتاب « التبشير والاستعمار » ، ولكنه جاء سنداً له وشهادة مزكّاة فيه . ثم ان صاحبه قد ذكر فيه أشياء لو ذكرناها نحن او لو ذكرنا مثلها لأثرنا عاصفة هوجاء تضيع في ريحها الغاية التي توخيناها .

ألّف هذا الكتاب أنيس صايغ ، وهو مثلنا خريج الجامعة الأميركية في بيروت . ونشر الكتاب « دار الصراع الفكري » ، وهي مؤسسة يشرف عليها الحزب القومي السوري . فاذا كان أنيس صايغ قد ألّف هذا الكتاب بدافع من نفسه هو فقد وجب علينا شكره لأنه عرض للموضوع باخلاص . ومع انه قد نسب إلى الإسلام وإلى نفر من المسلمين تهماً متعددة ، فاننا نغتفر له هفواته فيها لقلة عنايته بالتاريخ وتعليله ولحداثة سنه وضآلة اختباره . ثم انه قد عرض للطائفية وللتبشير وللدول الأجنبية التي استترت وراء التبشير والمبشرين لتغذية الطائفية وإثارة الفتن توصلا إلى الاستعمار ، وخصوصاً في سورية ولبنان ، بصراحة وإصرار نزعا عن الدسائس الاستعمارية في بلادنا ستاراً كان كثيفاً . ومع ان انيس صايغ قد حاول ان « يوزّع » التهم بين الذين اتهمهم بالسوية ، فانه جعل مركز الثقل في مكان دون مكان ، لأن ضميره كان مستيقظاً وهو يؤلف كتابه ، سوى غفوات يسيرة كان يذكر فيها « المسيحيين » وهو يقصد « البيزنطيين » . ولكنه كان أحياناً يعود فيستيقظ وشيكاً ليذكر البيزنطيين من غير ان يحاول الإيحاء للقارىء ، من طريق تسميتهم باسم آخر ، بأنهم من أهل البلاد الوطنيين . والواقع ان المراجع التي أخذ عنها قد خدعته كثيراً في هذا الشأن .

واما اذا كان انيس صايغ قد استجاب في تأليف كتابه لنفر افلتت الإشارة إليهم منه في مواضع ظاهرة في ثنايا كتابه ، فان علينا ايضاً ان نشكره . لقد أرادوا منه ان يحملهم على ضميره فحملهم على علمه ، وأرادوا منه أن يعينهم على خصومهم فأعان الحق عليهم.

اننا نحن لا نزال نعتقد ان التبشير كله شر . لأن الاميركيين والانكليز والافرنسيين والهولنديين ومن لف لِفهم يقولون خيراً بأفواههم بينما آثار ايديهم ظاهرة لنا في فلسطين والمغرب والهند الصينية وقبرس وكشمير وجنوبي افريقية وفي الولايات المتحدة نفسها . ان على هؤلاء كلهم ان يغسلوا ايديهم من دماء ضحاياهم على الأقل قبل ان يمثلوا على

---

(١) تأليف أنيس صايغ ، دار الصراع الفكري ، بيروت ١٩٥٥ .

مسرح الانسانية دور المحسن الكريم . ان اساتذة الجامعات في الولايات المتحدة هم الذين يشنقون الزنوج الأميركيين على جذوع الأشجار ، وهم الذين ينشرون الظلم الأميركي في العالم . ان هؤلاء الأساتذة يملكون توجيه الناشئة في أيديهم ، والناشىء الأميركي لا يولد وهو يحمل العداوة للشعوب الملونة ، ولكنه يحملها بعد أن يولد ، يحمّله اياها أبواه او معلموه او قادته . فكيف يصح في العقل ان الأساتذة الأميركيين الذين يعلمون أهل الأرض يَعجزون عن تعليم أبنائهم ؟ اما نحن العرب فاننا خيّرون ، على اختلاف أصولنا ومذاهبنا . وما تناحرنا الحاضر إلا لأن المصالح الأجنبية تتعهدنا بالشر . يجب على الحكومات العربية كلها ان ترقب نشاط هذه المؤسسات الأجنبية كلها — والمؤسسات العلمية في الدرجة الأولى حتى يرتفع الشر كله من البلاد العربية .

لقد كان من المنتظر ان يُحدث كتاب « لبنان الطائفي » ضجة لأنه تكلم عن نفر من ذوي المراكز المرموقة وعن بعض المؤسسات بما يوجب اتهام بعضها عند بعض في قوميتها ووطنيتها ، حسب ما ينظر كل فريق من الفريقين الى القومية والى الوطنية . ثم انه سمى اشياءً بأسمائها ونسبها الى أشخاص بأسمائهم . ولكن ضياع اثر الكتاب بعد خفوت صوته دليل على انه لم يلق « ترويجاً » ، إذ يبدو ان الذين كان يهمهم ان يظهر هذا الكتاب على ما تخيلوا ليروّجوا له رأوه ، بعد أن طبع ، على خلاف ما أمّلوا فسكتوا . أمّا رأينا في هذا الكتاب فهو انه يجب على المواطنين المحبين لوطنهم ان يقرأوه حتى يعرفوا الزوايا التي يهب علينا منها ريح الاستعمار ، والحفر التي تثب منها القلاقل والفتن .

ج — الاستعمار عدو الشعوب :

هذا الكتاب بقلم عبدالعزيز فهمي (١) ، ويمتاز بأنه يحاول ان يرى الاستعمار في صوره المختلفة ، غير انه يؤكد جوانبه المادية وحدها ويعرّج على التبشير تعريجاً . وهذا الكتاب يضرب أمثلة مفيدة تساعد على فهم الاستعمار الغربي النازل بالشرق مع المشاريع الاقتصادية الغربية .

* * *

وهنالك كتاب آخر لا بد من ذكره هنا وان كنا لن نأخذ منه شيئاً ولن نعطيه شيئاً ولن

(١) مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

نستشهد به ، لأن غايتنا مخالفة لغايته ، وطريقنا الى القارىء غير طريقه . هذا الكتاب اسمه « لبنان وطن قومي للنصارى في الشرق الأوسط » . هذا الكتاب الذي ظهر في اللغتين العربية والانكليزية ، وفي الفرنسية والاسبانية وغيرهما في الأغلب ، ثم وزع في المهاجر المختلفة في الأكثر لا يحمل اسم مؤلف ولا اسماً لمكان الطبع ولا تعييناً لزمان الطبع . والذي يقرأ هذا الكتاب لا يخفى عليه ما أريد منه من الدس على أبناء الوطن وعلى التاريخ والحقيقة . ومع أن هذا الكتاب الصغير (فهو واحد وخمسون صفحة باللغة العربية ، وخمسة وثلاثون بالانكليزية) قد يثير حفيظة الجاهل إذا قرأه فانه يثير شفقة العاقل على الذين كتبوه ونشروه ، فهو فضلاً عما فيه من افتراء على التاريخ ، بعيد جداً عن كل فكرة سياسية صحيحة . ونحن لا نريد تفنيد ما في الكتاب بعد ان قررنا ألا نستشهد به في كتابنا .

* * *

اننا نرجو ان يستمر كتابنا هذا في اداء رسالته بين عامة القراء فيفتح عيونهم على اخطار التبشير ثم ينبههم الى الطرق التي يتلافون بها تلك الأخطار . وكذلك نرجو ان يظل دليلاً صالحاً في ايدي القائمين على الحركات الاصلاحية . ان هذا الكتاب اذا حقق ذلك ، او حقق بعضه فقط ، يكون قد أدى رسالته كلها ، او أدى بعض رسالته على وجهها .

الأحد ٣ شوال ١٣٧٥

المؤلفان

١٣ ايار ١٩٥٦

مصادر هذا الكتاب

مصادر هذا الكتاب كثيرة جداً ، ولكننا نجتزىء هنا بذكر نحو مائة مصدر ومرجع ؛ ثم بعدد آخر يجده القارىء في ثنايا الحواشي . ويلاحظ القارىء اننا اهملنا في هذا الفهرس أنوعاً من الكتب : أولها الكتب العربية بأنوعها ، لأن المهم ان نرى ما يتول الأجانب لأنفسهم عنا ، لا أن نرى ما نقول عن انفسنا . ثم اننا أهملنا الكتب التي تبحث في الاسلام بحثاً موضوعياً ، إذ لا صلة لها بموضوعنا البتة . وكذلك أهملنا كتب الردود والمهاترات والكتب التي ألفها أصحابها للتحامل على الاسلام فقط ، ذلك لأنها كتب لا قيمة لها في شيء . ونحن نحب ان يلاحظ القارىء أنواع هذه الكتب واتجاهها وما تدل عليه عناوينها . فانها وحدها دراسة تامة . ثم ان القارىء يستفيد من هذه الكتب إذا أراد ان يتابع الموضوع بنفسه .

Addison — The Christian Approach to the Moslem, By James Thayer Addison, N. Y. 1942.

All-Persia intermission Conference. Teheran 1926, Mission problems in New Persia, London 1926.

The American Mission in Egypt 1851 - 1896, Pittsburg 1896.

Becker — Islamstudien, von C. H. Becker, zwei Baende, Leipzig 1924 und 1932.

Bianquis - Les nouveaux devoires du protestantisme français en Syrie, Paris 1926

Bliss — Reminiscences of Daniel Bliss, London 1920.

Bliss (E) — Ecumenical Missionary Conference, By Edwin M. Bliss, N. Y. 1900.

Bliss (En) — The Encyclopedia of Missions, by Edwin M. Bliss (Editor) 2 vols. N. Y. 1891.

Bliss (R) — The Religions of Modern Syria and Palestine, by Frederick Jones Bliss, N. Y. 1912.

Browne — The Prospects of Islam, by Laurence E. Browne, London 1944

Bunson — Islam or True Christianity, by Ernest de Bunsen, London 1889.

Bury — Pan Islam, by G. Wyman Bury, London 1919.

Cash —The Moslem World in Revolution, by W. Wilson Cash, London 1926.

Cash (E) — The Expansion of Islam, by W. Wilson Cash, London 1928.

Cauly — Recherche de la vraie religion, par Mgr. E. Cauly, Paris 1928.

Christian Workers — Conference of Christian Workers among Moslems, N.Y. 92.

Christians and Mohammedams, by George Herrick, N.Y. ca. 1912.

Christian Literature in the Moslem Lands, by a Joint Committee, N. Y. 1923.

Christian (The) Mission in Moslem World, by William David Schermerhorn, N. Y. 1933.

Christian Missions and Oirental Civilization by Maurice Thomas Price, Shanghai 1924.

Christian Missions and Social Progress, by James S. Dennis, 3 vols., N. Y. 1898,

Continental Survey of Foreign Missions, by Rev. James Dennis, N. Y. 1902.

Coöperation and the World Mission, by James Raleigh Mott, N. Y. 1938.

Danby — Why «Christian» Schools ? or what can Christian Schools contribute ? with particular Reference to Palestine, by H. Danby, Jerusalem 1936.

The Decisive Hour of Christian Missions, by John Raleigh Mott, N. Y. 1910.

The Democratic Movement of Asia, by Tyler Dennett, N. Y. 1918.

Echos from Edinburg, by William Henry Gairdner, N. Y.

Enc. Am. — Encyclopedia Americana.

Enc. Br. — Encyclopaedia Britannica.

Enc. Miss. — Encyclopedia of Missions.

Faris — Reapers of His Harvest, by John T. Faris. London 1911.

The Evangelisation of the World in this Generation. by John Raleigh Mott, N. Y. 1900.

Five Decades and a Forward View, by John Raleigh Mott. N. Y. 1939.

Foreign Missions after a Century, by James S. Dennis, 3ed, edition. N.Y. 1893.

Garrison — The March of Faith, by Winfred Ernest Garrison, N. Y. 1933.

Harrison — Doctor in Arabia, by Paul W. Harrison, London 1943.

Hartmann — Islam, Mission, Politik, von Martin Hartmann, Leipzig 1912.

History of Protestant Missions, by Gustav Warneck, Edinburg 1901.

The History of the Protestant Missions in India, London 1884.

International Missionary Council, Jerusalem 1928, 8 vols., London 1928.

Islam and Missions, by E. M. Wherry, S. M. Zwemer and C. G. Mylrea, N. Y. 1911.

L'Islam et l'Occident (les cahiers du Sud, 1947).

The King's Highway, West Melford (ca. 1915.)

The Layman's Foreign Mission Inquiry, Report, 7 vols., N. Y. 1933.

Jessup — Fifty-Three years in Syria, by Henry Harris Jessup, N. Y. 1910.

Les Jesuites en Syrie 1831-1931, 12 parties en deux vols., Paris 1931.

Jung — Les arabes et l'Islam en face de nouvelles croissades et Palestine et sionisme, Paris 1931.

Kilgour — The Bible throughout the world, by R. Kilgour, London 1939.

Lawrence — Modern Mission in the Near East, by Edward A. Lawrence New York 1895.

Levonian — Islam and Christianity, by Lootfy Levonian, London 1940.

Levonian (M) — Moslem Mentality, by Lootfy Levonian, London 1928.

Lucknow Conference, Lucknow (India) 1911.

Macdonald — Najla, the Sheikh's Daughter, by Jan Macdonald, London 1944.

Margoliouth — Mohammedanism, by David Samuel Margoliouth, London 1921.

Medical Missions, by John Lowe. N. Y. 1896.

Methods of Mission work among the Moslems, Being those papers read at the First Missionary Conference on behalf of the Mohammedan World held at Cairo, Apr. 4th. to 8th.; 1906 (Crossed: For private Circulation only), N. Y. 1906.

Milligan — Facts and Falks in Our Fields Abroad, by Anna A. Milligan, Philadolphia 1921.

Missionary Herald, Letters of the Missionaries in Syria and the Near East 1830 - 1842, Boston 1830 - 1842.

Missionary Heroines, by E. R. Pitman, N. Y. 18 —.

The Missionary Out look in the Light of war and the Religious Outlook. N.Y. 1920

Mission Fields — Religionsof Mission Fields as Viewed by Protestant Missionaries, ... 1905.

Missions from the Modern View, by Robert A. Hume, N. Y. ca. 1905.

The Modern Mission Century, by Arthur T. Pierson, N. Y. ca. 1901.

MW — The Moslem World, A Christian Quarterly Review of Current Events, Literature and Thought among the Mohammedans, N. Y.

Nashville Convention, 1906, Students and the Modern Missionary Crusades,

The New Horoscope of Missions, by James Dennis, N. Y. ca. 1908.

Oxford — What is the Oxford Group ? by Layman, with a Notebook, London 1933

The Pastor and Modern Missions, N. Y. 1904.

Penrose — That They May Have Life, by Stephen B. L. Penrose, N. Y. 1941.

The Picket Line of Missions, by W. F. McDowell, N. Y. 1897

The Present - Day Summons to the World Mission of Christianity, Nashville 1931

Report on he Lebanon Schools, Edinburg 1856 - 8 - .

Re - Thinking Missions, by the Committee of Appraisal (Ernest Hocking, Chairman) N. Y. & London 1932.

Richter — A History of the Protestant Missions in the Near East, by Julius Richter (English Translation adapted by the Author) N. Y. 1910.

Rochester Convention 1910, Students and the present Missionary Crisis, N. Y. 1910

Scherer — Mediterranean Missions 1808 - 1870, by George Scherer, Beirut.

Scott — In the High Yemn, by Hugh Scott, London 1942.

The Story of the American Board, Boston ca. 1910.

Student Volunteer Movement for foreign Missions; Christian Students and the World Problems, N. Y. 1924.

TIRM — The International Review of Mission, London & N. Y.

Two Thousand years of Missions ...., by Lemuel Call Barnes, 6th. ed., Chicago 1906.

Van Ess -- Meet the Arab, by John Van Ess, N. Y. 1943.

Véou -- Chrétiens en Péril au Moussadagh (Enquète au Sandjak d'Alexandrette), par Paul de Véou, Paris 1939.

Ways of Sharing with other Faiths, by Daniel Johson Fleming, N. Y. 1928.

Wismar — A Study of Tolerance as practised by Muhammad and His immediate Successors, by Adolph L. Wismar, N. Y. 1927.

World Missionary Conference, 1910 N. Y. 1910.

-- -- Carrying the Gospel, 452 pages.

-- -- The Church in the Mission Field, 380 pages.

-- -- Cooperation, 241 pages.

-- -- Education, 471 pages.

-- -- History and Records of the Conference, 367 pages.

-- -- The home Base, 565 pages.

-- -- The Missionary Message, 333 pages.

-- -- Missions and Governments, 189 pages.

-- -- The Training of Teachers,

The world Mission of the Church : Findings and Recommandations of the International Missionary Council, Tambaram, Madras, India, Dec. 12-29, 1938 (N. Y. 1938).

World Student Christian Federation, Report of the Conference at Robert College Costantinople, 1911.

Zwemer -- Islam, a Challange to Faith, by Samuel S. Zwemer, N. Y. 1907.

* * *

وفي ما يلي مصادر نشرت بعد صدور كتابنا أو لم يتح لنا يومذاك ان نطلع عليها . ثم يحسن أن نعلم ان هذه القائمة الجديدة ، كالقائمة القديمة ، لا تضم كل ما صدر في موضوع التبشير والاستعمار :

BATAL, James, Assignment Near East, New York 1950.

BETHMANN, Erich W., Bridge to Islam, London 1953.

BINGLE, E. J., World Christian Handbook, London 1949.

BUHRER, J. et P. - J. André, Ce que devient l'Islam devant le Monde Moderne, Paris 1952.

BULLARD, Sir Reader, Britain and the Middle East, New York etc. 1951.

BURROWS, Millar, Palestine is our Business, Philadolphia 1950 (?).

LE CHATELIER, A., La Conquête du Monde Musulman.

COMMENTARY (Monthly), published by the American Jewish Committee, New York.

CONGREGATION de la Mission de St. Vincent de Paul, Mémoires de la Congrégation .... (en Afrique du Nord), 2 vols, Paris 1864.

DOMINIQUE, Pierre, la Politique des Jesuites, Paris 1955.

DORMAN, Harry Gaylord, Jr., Toward Understanding Islam, New York 1948.

FORDER, Archibald; With the Arabs in Tent and Town, London 1902.

GAIRDNER, W. H. T., The Reproach of Islam, London 1909.

GOYAU, Georges, Un Précurseur : François Piquet, Consul du Louis XIV en Alep et évêque de Babylone, Paris 1942.

GRUBB, Kennith G. (ed.), World Christian Handbook, London 1947.

HOLDANE, James, Trekking among Moroccan Tribes, London 1948.

HOSKINS, Halford L., The Middle East, New York 1954.

JEANSON, Colette et Francis, L'Algérie hors de loi, 2ème. édition, Paris 1955.

MASSIGNON, Louis, Annuaire du Monde Musulman, 4e édition, Paris 1955.

MILLIEZ, U., La Croisade du Levant, Paris 1943.

MORRISON, S.A., Middle East Survey. London 1954.

MOTT, John R., Cooperation and the World Missions, New York, 1935.

MOTT, John (editor), The Moslem World of To-Day, London 1925.

OLIVER, Roland, The Missionary Factor in East Africa, London 1952.

PADWICK, Constance E., Temple Gairdner of Cairo, London 1929.

PARFIT, Joseph Thomas, Among the Druzes of Lebanon and Bashan, London 1917. ...

PATTON, Cornilius H., The Business of Missions, New York, 1924.

PATTIER, René, Le Cardinal Lavigerie, Paris 1947.

SAMUEL, Jacob, Jaurnal of a missionary tour through the Desert of Arabia to Bagdad, Edinburg 1844.

SCHUTZ, Paul, Zwischen Nil und Kaukasus, Kassel 1953.

STORM, W. Harold, Whiter Arabia ? London, New York 1938.

TRIMINGHAM, John Spencer, The Christian Approach to Islam in the Sudan, London 1948.

-- -- -- , Islam in Ethiopia, London 1948.

TUCHMAN, Barbara W., Bible and Sword, New York 1956.

WILSON, J. Christy, The Christian Message to Islam, New York 1950.

توطئة

وجه الحاجه الى هذا الكتاب

لا سبيل الى احصاء ما كتبه المبشرون وانصار المبشرين عن الشرق ولا عن العرب والاسلام، فان « شترايت وَدِندنغر (١) » قد اصدرا بين عام ١٩١٦ وعام ١٩٣١ سبعة مجلدات ذكرا فيها اسماء المصادر والمراجع التي تدور حول المبشرين وجهودهم وتسهيل اعمالهم . ثم ان اكثر هذه الكتب مفصلة تفصيلاً كبيراً ، فان الرسائل التي كتبها المبشرون من سورية والشرق الأدنى فقط الى زملائهم بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٢ طبعت في ثلاثة عشر مجلداً من أصلٍ ثمانية وثلاثين مجلداً (٢) .

ولما اجتمع مؤتمر التبشير العالمي في ادنبره (في اسكوتلندة) عام ١٩١٠ اصدر تقريراً، عن النواحي المختلفة التي يجب ان يهتم لها المبشرون ، تمّ طبعه في عشرة مجلدات (٣) . اما مؤتمر التبشير الدولي الذي اجتمع في القدس عام ١٩٢٨ مدة اسبوعين فقط (من ٢٣ آذار الى ٨ نيسان) فقد وضع تقريراً في ثمانية مجلدات (٤) . وهنالك عشرات من أمثال هذه الكتب والتقارير قد ظهرت كلها في مجلدات عديدة ضخمة .

وفي عام ١٨٦٩ كانت أعمال مدارس التبشير الافرنسية في الشرق تقتضي اربعة مجلدات تقع في نحو الف وخمسمائة وخمسين صفحة (٥) ، كما ان مدارس التبشير الانكليزية في جبل لبنان كانت قد أصدرت تقريراً عن أعمالها بين ١٨٥٦ و ١٨٦٨ — يعني في عهد فتنة سنة الستين فقط — يقع في مجلد كامل (٦) .

---

(1) R. Streit & J. Dindinger, Bibliotheca missionum, vol. 1-7, Mùnster & Achen 1916-31.
(2) Missionary Herald, Letters of Missionaries in Syria & the Near East 183o-42, Vols. 26-38, Boston.
(3) World Missionary Canference of 1910, Edinburgh and New York 1910.
(4) The International Missionary Council of Jerusalem, 8 vols., London 1928.
(5) Oeuvres des Ecoles d'Orient (1862-9), 4 vols. St. Cloud; Belin; 1862-9.
(6) Reports on the Lebanese Schools, Edinburgh 1856-68.

أما المجلات التبشيرية التي صدرت في بلدان مختلفة وبلغات مختلفة فهي اكثر من ان يحصيها العد . أضف الى ذلك ان ثمة في العالم كله جرائد ومجلات سياسية او أدبية او علمية لا تظهر عليها صبغة التبشير ، ولكنها في الحقيقة وسائل قوية من وسائل المبشرين .

ومع هذا كله فليس في اللغة العربية الى اليوم كتاب واحد يكشف النقاب عن غايات المبشرين الحقيقية وينبه على الأخطار التي يود المبشرون أن يعرّضوا لها الشرق والعرب والإسلام ، مع أن لهؤلاء المبشرين الوف الكتب والكراريس يحاولون أن ينشروها بكل سبيل في طول البلاد العربية وعرضها . ثم انهم قد ألقوْا عن وجوههم القناع وأسفروا عن حقيقة غاياتهم في الكتابة عن الاسلام ورجاله وعن العرب وحياتهم ، وكانوا النواة الأولى لطلائع الاستعمار السياسي والاقتصادي ، يساعدهم في عملهم هذا مع الأسف نفر من أهل البلاد العربية .

ليست كتب المبشرين هي التي تقتضي وضع هذا الكتاب لكشف النقاب عن آثار تلك الأصابع الحاذقة التي تمتد الى كل صوب في العالم الاسلامي ، بل هناك المؤسسات التبشيرية ، تلك المؤسسات التي تبدو في مظاهر مختلفة ، بعضها واضح المعالم وبعضها الآخر بعيد عن التهمة كل البعد ، كالمدارس والجامعات والمستشفيات والمياتم والاندية والجمعيات ومؤسسات البر والأحسان .

وقد أراد القائمون على التبشير ان يكون « للاحسان والتعليم » مقام كبير في الخطط التي توضع لأعمال التبشير ، ولكن على ان تكون وسائل فقط لا غاية في نفسها (١) . ان المبشرين يريدون افساد الخصائص القومية في الشعوب الشرقية الإسلامية والعربية — كما يريدون افساد خصائص البوذيين وغيرهم ممن يأبوْن ان يخضعوا لسلطة الغربيين السياسية والاقتصادية.

ولقد ساير التبشير الظاهر بالمسيحية حركة اشد خطراً على الأمة الاسلامية وعلى الشعب العربي ، فقد نشأ في اوروبة واميركة نفر سخروا أقلامهم للمبشرين وجعلوا يطعنون العرب والاسلام ويشوهون صورتهما ، ويبثون ذلك في المدارس التي يسيطرون عليها ، وفي المجلات والجرائد والكتب التي يصدرونها . ان السكوت عن هذه الافتراءات تخاذل وتقصير معيب ، فيجدر بنا اذن ان نرد هذه الافتراءات وأن نفندها دفاعاً عن كياننا القومي والديني ، وحفظاً لخصائصنا التي هي أهم دعائم الحياة فينا .

ويجب ان نذكر دائماً ان المبشرين هم اصابع أممهم وعيون بلادهم ، يحاولون دائماً ان

(1) Enc. of Missions (2 ed. ed. 1904) p. 9 c.

يثيروا الفتن والقلاقل في البلاد العربية والاسلامية حتى تتمكن أممهم من السيطرة علينا سياسياً واقتصادياً — اما الناحية الاجتماعية والثقافية فقلما تهمهم الا بمقدار ما تسهل لهم مهمتهم السياسية والاقتصادية .

وهذا اعتقاد لنا لسنا فيه وحدنا ، بل يشركنا فيه اولئك الذين ارسلوا المبشرين الى بلادنا . لقد عمل هؤلاء المبشرون عمداً أو عفواً ، على اثارة سوء التفاهم والشغب . وبما اننا سنرى كثيراً من آثار ذلك في فصل السياسة من هذا الكتاب ، فسنكتفي هنا بايراد رأي رجل اميركي هو استاذ للتاريخ في جامعة من جامعات الولايات المتحدة نفسها ، واليك ترجمته :

نشرت مجلة « العالم الاسلامي (١) خلاصة مقال كتبه الاستاذ ادوارد ميد ايرل (٢) ، احد اساتذة التاريخ في جامعة كولومبية في الولايات المتحدة ، لمجلة « الشؤون الخارجية » عنوانه (٣) : الارساليات الأميركية في الشرق الأدنى ، جاء فيه :

« ماذا يمكن ان يقال الآن عن اعمال التبشير الأميركي في الشرق الأدنى بعد قرن كامل
« من الدهر ؟ يمكننا ان نحشد احصاءات هائلة تتعلق بملايين الدولارات وبألوف النفوس
« التي ضحيت في هذا السبيل . ولكن هذه أيضاً ليست هبة كافية توازي النتائج التي حققت
على ايدي الارساليات الاميركية والمبشرين الأميركيين في هذا المركز المهم من الشرق . ان
« نفراً من هؤلاء الرجال والنساء امثال سيرس هملن ودانيال بلس (أول رئيس للجامعة
« الأميركية في بيروت) وماري ميلز باتريك (٤) كانوا علماء وضباط ارتباط بين الشرق
« والغرب . وكذلك كان نفر آخرون منهم معلمين كباراً او اطباء محبوبين يشترط فيهم طول
« الأناة والصبر . ان جميع هؤلاء قد حملوا معهم من اميركة جرأة نادرة .. لولاها لما أمكن
« كتابة الجزء الأوفر من تاريخ الجهود الأميركية في الشرق الأدنى . ولكن الجرأة وحدها
« ليست كافية ، **كما ان الوقت لم يحن بعد للحكم على قيمة ما حققه** المبشرون عموماً . هناك
« وجه واحد من هذا الموضوع يجب الا يهمل بحال من الأحوال هو ان الرأي العام الأميركي
« فيما يتعلق بالشرق ، قد خلقه المبشرون منذ قرن كامل . **فاذا كان الرأي العام الاميركي ،**
« **قد طويت عنه بعض المعلومات او غذي بمعلومات خاطئة او دفع الى موقف عدائي ،** فان
« المبشرين هم الملومون في اكثر ذلك ، لأن النظر الى التاريخ على اساس انتشار النصرانية

(1) Moslem World; Jan. 1940. 71-72.
(2) Edward Meade Earle; Associate Professor of History at Colombia University.
(٣) ان مجلة الشؤون الخارجية Foreiegn Affairs من المجلات الرصينة في الولايات المتحدة ، وهي تبحث في الشؤون الاجتماعية الدولية من ناحيتيها العلمية والقانونية .
(4) Cyrus Hamlin; Daniel Bliss. Mary Mills Patrick.

« قد حمل هؤلاء المبشرين على ان يقدموا لنا في الولايات المتحدة **صورة ناقصة مشوهة او**
« **ساخرة في بعض الاحيان للمسلمين وللاسلام** . وبينما كان المبشرون يرمون في تبشيرهم
« الى التسامح كانوا احياناً ومن غير ان يشعروا **يزرعون بذور سوء التفاهم** . وكذلك حينما
« جاء المبشرون الى تصوير أحوال الامبراطورية العثمانية ، يوم كانت الامبراطورية العثمانية ،
« عجزوا عن ان يشيروا الى أن الآلام **التي تحتملها الاقليات المسيحية قد تحملها ايضاً**
« **المواطنون الأتراك كلهم** (١) . فاذا كان الفلاح الأرمني قد تعرّض لغارة كردية ، فكذلك
« كان شأن الفلاح التركي . واذا ارهق الفلاح البلغاري بالضرائب ، فكذلك كانت حال
« الفلاح التركي . وعدا ذلك فان التركي وحده (يقصد : المسلم) ، ظل الى عام ١٩٠٩
« مجبراً على الخدمة العسكرية بينما كان المسيحي معفى منها لقاء ضريبة ضئيلة يدفعها . ولكن
« بما ان **المبشر قد حذف كثيراً من الخصائص والحقائق من الصورة التي رسمها للامبراطورية**
« **العثمانية** يومذاك ، فان الشعب الأميركي لا يستطيع ان يميز ، من النظر الى هذه الصورة
« التي وصلت اليه ، **بين الظالم والمظلوم . ان الشعب الاميركي لم يكن عالماً ان المسلمين**
والنصارى قد تألموا — على السواء — في الحياة تحت حكم امبراطوري فاسد » .

« ولقد لجأ المبشرون — كيما يستطيعون ان يجمعوا الأموال — الى استغلال حقائق
ناقصة ، وكذلك اخذت تفعل بعض جمعيات الأغاثة منذ زمن قريب . فنتج من ذلك ان
العقل الأميركي قد حيل بينه وبين الحقيقة الواضحة ، وهي ان سكان الشرق الأدنى قد
كانوا ضحايا كوارثَ واحدة بقطع النظر عن جنسياتهم وأديانهم .. »

ولا حاجة الى التعليق على رأي صريح هذه الصراحة ، واضح هذا الوضوح (٢) .

*

ومن المبشرين نفرٌ يشتغلون بالآداب العربية والعلوم الاسلامية او يستخدمون غيرهم في
سبيل ذلك ، ثم يرمون كلهم ، مما يكتبون ، الى ان يوازنوا بين الآداب العربية والآداب
الأجنبية ، او بين العلوم الاسلامية والعلوم الغربية (التي يعدونها نصرانية ، لأن امم الغرب
تدين بالنصرانية) ليخرجوا دائماً بتفضيل الآداب الغربية على الآداب العربية الاسلامية ،
وبالتالي الى ابراز نواحي النشاط الثقافي في الغرب وتفضيلها على امثالها في تاريخ العرب
والاسلام . وما غايتهم من ذلك إلا خلق تخاذل روحي وشعور بالنقص في نفوس الشرقيين

(١) يستعمل الكاتب كلمة « اتراك » ويعني بها « المسلمين » .
(٣) لما نقدت مجلة « العالم الاسلامي » هذا الكتاب حاولت ان تتأول ما فيه، ولكن لم يستقم لها التأويل.
The Muslim World, Oct. 1953. p. 304.

وحملهم من هذه الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية المادية الغربية (١) .

وإذا كان ثمة نفر قليلون جاءوا الى الشرق **للتبشير فحسب** ، وهم **مقتنعون شخصياً**
بالناحية الدينية ، فانهم في الدرجة الأولى مخطئون لأنهم **لم يأتوا الينا بقيمة روحية واجتماعية**
اسمى مما عندنا — ولا مثلها . ثم انهم قد وضعوا انفسهم في ايدي رجال الاستعمار
السياسي والاقتصادي يستخدمونهم كيف شاءوا ، وعلى غير علم منهم في بعض الأحيان .

* * *

ولقد صبر الشباب العربي المسلم على هؤلاء المبشرين وعلى انصارهم المحليين ، مع كل
ما تعرض به هؤلاء المبشرون للكرامة الشرقية والعربية والاسلامية في جميع نواحي حياتنا
الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية — وخصوصاً في الحقبة المتأخرة . لقد كان
علينا ان نسكت عن هؤلاء لأننا في نزاع سياسي مع الغرب ، ولأن هؤلاء عيون الغرب
وآذانه وأصابعه ايضاً . إننا نسعى الى هدف سامٍ كبير لا نستطيع الحصول عليه اذا أغضبنا
الغرب مباشرة . من أجل ذلك كان من المحتوم علينا ان نُغْضِيَ عن اولئك الأنصار الذين
باعوا انفسهم للمستعمر الغاشم فجعلهم مطية الى استعباد بلادهم والى اذلال اخوانهم في
الدار وفي النسب أحياناً .

أما الحجة الكبرى التي حملْنا بها انفسنا على السكوت وعلى الظهور بهذا الحلم الذي
لا مثيل له في طباع غيرنا من البشر ، فهو ان عدداً عديداً من إخواننا في الدار قد نذروا
أنفسهم أيضاً لما نذرنا نحن انفسنا له ، وكانوا على الأجنبي واستعماره اشد منا نحن احياناً ،
لأن المستعمر قد أتي في ذلك من حيث لم يحتسب . على ان حلمنا كان يجب ان ينتهيَ
لسببين اثنين ، اولهما ان هذا النفر الكريم قد بدأ يحمل اضطهاداً اكثر من الذي تحتمله
نحن . وثاني السببين ان النفر الذين باعوا أنفسهم للمستعمر ، وانصارَهم معهم ، ما
زالوا يظهرون بمظهر المتحدي في حقل الاجتماع والوطن ، وفي كل حقل آخر . ولقد
كان هؤلاء لا يهمهم دينهم لانهم قليلو الاحتفال بمبادئه ، بل كان يهمهم ارضاء
النفوذ الأجنبي ، لأنهم كانوا يرتزقون منه رزقاً حسناً (٢) .

* * *

(١) راجع الفصل العاشر .
(٢) راجع مجلة « الانباء » ، لسان حال الحزب التقدمي الاشتراكي (بيروت) ، لصاحبها كمال جنبلاط ،
وخصوصاً العدد ٦٩ ، السنة الثانية (٧ تشرين الثاني ١٩٥٢) .

وما إحالة الحكومة اللبنانية لصحافيَّيْن بارزين من أصحاب الصحف الصادرة باللغة الأجنبية في لبنان الى المحكمة ، وهما جورج نقاش وكسروان اللبكي من اسرة جريدة الأوريان (١) في بيروت إلا لأن الجريدة المذكورة قد نشرت سلسلة من المقالات بامضاء جورج نقاش ، كان من شأنها — لو لقيت آذاناً مصغية — ان تثير نزاعاً طائفياً في لبنان فوق ما فيها من التعرض لأساس الكيان اللبناني .

وفي ما يلي موجز الاتهام والحكم (٢) :

حوكم جورج نقاش وكسروان اللبكي لاقدامهما على نشر مقال افتتاحي في جريدتهما « الأوريان » بالعدد الصادر بتاريخ ١٠ آذار سنة ١٩٤٩ رقم ٦٦٩١ ، فيه اثارة النعرات الطائفية وحض عناصر الأمة بعضها على بعض ..

« وتناولت المحكمة المقال المذكور .. وبعد ان رجعت الى مجموعه وروحه تبين لها أن السيد جورج نقاش قد تناول القضية اللبنانية في الصميم ومس كرامة الحكم اللبناني الاستقلالي وجعل من الحكم الوطني الاستقلالي كابوساً ترزح تحت عبئه البلاد وتئن منه العباد .

« وبما أن الكاتب السيد جورج نقاش بعد أن طعن وطنه لبنان وحكمه الوطني ... وخرج عن حرية الرأي وحقّر الدولة ونعى على الاستقلال وبُناته وأثار النعرات من وراء كتابته .. وقصد الطعن بالوضع الحالي وبالقضاء الوطني مع اثارة النُعرات .. وبما انه أسند الى مجموعة الأمة اللبنانية بأن اتفاق طوائفها على وضع ذلك الميثاق الوطني الشهير (١) لم يكن إلا خيالياً ، ونعى على الوضع الاستقلالي منذ نشأته ، واحكم معول الهدم فيه دون ان تبدر منه عبارة واحدة يستشم منها اندفاعه ورغبته في ايجاد الألفة والمحبة ...

« لذلك ... تقرر الحكم بحبس جورج فيليب نقاش مدة ... ثلاثة اشهر وتغريمه مائة ليرة .. وحبس كسروان نعوم اللبكي شهراً واحداً وتغريمه خمساً وعشرين ليرة .. وتوقيف جريدة « الاوريان » عن الصدور مدة ثمانية اشهر » .

هذه القضية اثارت مشادة ، في خارج المحكمة ، او مشادتين على الأصح : واحدة

---

(1) L'Orient .

(٢) جريدة الديار (بيروت) ، السنة الثامنة ، العدد ١٨١٦ ، الاحد في ٢٠ آذار ١٩٤٩ و ٢٠ جمادي الأولى سنة ١٣٦٨ ، الصفحتان الثانية والرابعة . ثم راجع الصحف البيروتية الاخرى الصادرة في هذا التاريخ .

(٣) يقصد الاتفاق في خريف عام ١٩٤٣ بين جميع طوائف الشعب اللبناني على طلب الاستقلال والتخلص من الحكم الأجنبي .

بين المحامين واخرى بين الصحف .

اما مشادة المحامين فتدور حول اعتذار المحامي ادمون رباط عن الدفاع عن المتهمين ، بعد أن كان قد قبل مبدئياً الدفاع عنهما .

ولقد كان من المفروض ان ينتصر اصحاب الصحف اللبنانية لزميلهم الصحافي ، يحكم عليه هذا الحكم . ولكن هذا الانتصار له قد اقتصر على اتخاذ شكل رمزي ، هو ان الحكم نفسه كان قاسياً ! أما الكاتب فقد ليم اشد اللوم على أنه كتب هذه الكتابة وتناول الموضوع من هذه الزاوية وبهذه الروح (١) .

وبعد ، فمن ذا الذي يستفيد من المقالات التي نشرها جورج نقاش وأدت الى الحكم عليه ؟ لاشك في أن هذه المقالات تسيء الى الوطن والى نهضته وتسر الأجانب من أصحاب المصلحة !

* * *

أما نحن المؤلفَيْن فسنسمع غداً اخواناً لنا نحترمهم يقولون بعد صدور هذا الكتاب : عيب على رجلين مثقفين ان يكتبا مثل هذا الكتاب في هذه الحقبة من الكفاح القومي . في هذه الحقبة يجب الا نذكر شيئاً من هذا ، بل يجب الا نذكر « كلمة » اسلام او نصرانية ولا « كلمة » مسلم و « كلمة » مسيحي .

ان إخواننا هؤلاء ، من الذين نحترمهم ، سيقولون ذلك إذا قرأوا عنوان كتابنا ثم قلبوا صفحاته بين أناملهم تقليباً آلياً فقط . أما اذا فعلوا ما هم به خليقون فانهم سيبدّلون رأيهم بلا ريب .

أجل سيقوم غداً من يقول لنا : من العيب ان ندافع عن قومنا ووطننا وأن ندل على جذر للاستعمار ما زال ، على رغم اختفائه عن الأعين ، من اعمق الجذور في سجل مصائبنا القومية . ولكن لم يقم من هؤلاء رجل قال لسيادة المطران مبارك شيئاً حينما كان عام ١٩٤٨ في باريس فصرح بما يلي :

« إن لبنان بلد كاثوليكي ، ويحاول المسلمون ان يستعبدوه كما يحاولون استعباد جميع المواطنين الذين يسكنون معهم في بلد واحد كاليهود في فلسطين .

« يجب ان يكون لليهود وطن قومي كي يتمكنوا من العيش الهادىء ، والا فان اية

---

(١) راجع الصحف البيروتية التي صدرت بعد ٢٥ آذار ١٩٤٩ .

« ولاية غير اسلامية لا تستطيع ان تعيش بحرية وتمارس معتقداتها الدينية تحت سيطرة « اسلامية بحت » (١) .

وفي اليوم نفسه ، نعم في اليوم نفسه ، في ٢١ حزيران عام ١٩٤٨ ، صدرت النشرة المزدوجة من محاضرات دار الندوة (٢) فيها محاضرة للسيد فؤاد افرام البستاني الموظف في وزارة التربية الوطنية بالجمهورية اللبنانية ، عن مار مارون يقول فيها :

« حتى اذا أطلت طلائع الصليبيين (على لبنان) امكن الموارنة ان يمدوهم بثلاثين الف نبّال ، أجمع الفرنجة على الإعجاب بشجاعتهم ومهارتهم .. فالمارونية بنت لبنان ، ولبنان في الكثير من مزاياه وخصائصه صنع المارونية .. فلا وطن لها سواه ولا كيان له بدونها .. (٣) فهما ثابتان على كرور الأيام ، لا انتقاصاً من حق قريب ولا عداء لجار ، مندفعان ولا تهور ، صابران ولا يأس ، راجيان ولا غرور ! » (٤)

فمن قام ، ممن يحب هذا الوطن ، وقال لهذين : نحن في سبيل كفاح قومي فمن العيب ان تكتبا ما كتبتما ؟ ولكن لما احببنا نحن المؤلفين ان ندافع عن قومنا وبلادنا وأن نقول للمصلحين : هذا مكمن الخطر ! قيل لنا هذا عيب .

هنا نود ان نثبت كلمة — في هذا المعنى — ظهرت في مجلة كل شيء (٥) ، عصرها كاتبها من قلبه ومن قلب كل مخلص في هذا الوطن . هذه الكلمة ، التي تصور حالنا وحال إخواننا غداً ، هي :

كل اسبوع

الحق اننا نعيش في زمن تنقلب فيه الاوضاع ايما انقلاب ، وتنعكس مفاهيم

---

(١) مجلة بيروت المساء ، بيروت ، في ٢١ حزيران عام ١٩٤٨ ، الصفحة ٥ ، نقلا عن مجلة Paris - Soir الباريسية .

(٢) السنة الثانية ، النشرتان ٥ — ٦ (بيروت) ٢١ حزيران ١٩٤٨ ، ص ١٦٧ ، ١٦٩ .

(٣) هذه النقط من اصل المحاضرة .

(٤) كذا بالأصل . القريب : المسلم في لبنان . الجار : السوري . صابران (لبنان والمارونية) : اي على الوضع الراهن . راجيان : اي لتبدل الحال ... « وهذه الجمل تحتمل من المعنى اكثر من ذلك مما لا يخفى على المتبصر في العواقب ! » .

(٥) مجلة « كل شيء » (بيروت)، العدد ١١٩ ، السنة الثالثة ؛ الجمعة ٨ تموز ١٩٤٩ ، الصفحة الأولى . وقد ظهرت هذه الكلمة بلا توقيع .

الاشياء ايما انعكاس .

وقد اصبح علينا ، في هذه الغمرة من اختلال المقاييس وتشويه القيم ، ان نصطلح على معنى واحد واضح لكلمة « العيب » في لبنان .

فلا يكاد أحدنا يأتي عملاً او يقول قولاً (١) حتى تنقبض بعض الوجوه وتنطلق بعض الألسن : « عيب ، عيب » ..

عيب ان نعتب على « المطران » (٢) ، وليس بعيب على سيادته ان ينشيء في لبنان سفارة لاسرائيل !

عيب ان نعتب على وزير مسؤول لارساله « برقية حكومية رسمية » بالتعزية في سمسار لليهود ، وليس بعيب ان يبحث بهذه البرقية للوزير المسؤول !

عيب ان نطالب الحكومة بما يحدد موقفها من الاتهامات الكبرى التي توجه علناً في دمشق الى « شخصيات لبنانية » ، وليس بعيب ان تلزم الحكومة في هذا الأمر جانب الصمت العميق ..

عيب ان يرتفع صوت المرء بالعقيدة التي يؤمن بها ، والفكرة التي يعتنقها ، ويعمل صادقاً من أجل العقيدة والفكر ، وليس بعيب ان يصبح المرء دونما عقيدة ولا فكر بعد ان كان من أبطال العقائد والافكار ..

وعيب بعد ذلك ان نقول للأعور أعور ، وليس بعيب ان نزيد الأعور عمى في البصر والبصيرة ..

هكذا تصبح المقاييس عندنا في آخر الزمان ..

.. عيب ، صحيح عيب !

• • •

على ان الواقع يقضي بأن نقول ان الشيخ بطرس الجميل (١) قد قال لاحدنا الدكتور عمر فروخ ، انه والكثيرين من ذوي الرأي لا يقرون المطران مبارك على أقواله وأعماله ، وانهم قد عاتبوا المطران مبارك عتاباً مراً . إلا أن هذا العتاب ناقص

---

(١) المقصود : عملا في دفاع عن كرامة وقولا فيه مطالبة بحق .

(٢) المطران مبارك ، وكان قد كتب كتاب توصية بافراد الى بعض الهيئآت الاسرائيلية .

(٣) رئيس حزب منظمة الكتائب اللبنانية .

في نظر المخلصين في هذا الوطن ، او انه لم ينهَ هؤلاء عن الاستمرار في ضلالتهم . ثم ان هذا العتاب لم يؤدِ غايته الشكلية على الأقل ، لأنه لم ينشرْ فيعرفَ !

هذه كلمة عتاب نسوقها الى إخوان سيقولون لنا ما سيقولون ، او على الأصح قد قالوا لنا ما قالوه ، ولكننا لانشكُ في انهم — اذا قرأوا هذا الكتاب — سيعودون الى الانصاف وسيدركون ان سوانا كان احرى بوضع هذا الكتاب للرد على المفترين . ولكن لما لم يسد هذه الثغرة احد ممن يجب عليهم ان يسدوها لم يبق ثمت مندوحة عن ان نتطوع نحن للقيام بهذا العمل .

من أجل ذلك كله احببنا ان نجلوَ وجه الحقيقة فوضعنا هذا الكتاب : انه من الخيانة ان نترك كياننا في مهب الخطر بسكوتنا عن مكمن هذا الخطر . اننا نعرف ان اسلاك هذا الخطر تمتد في خارج الوطن العربي كله وتمتد اليه ايضاً . فواجبنا إذن ان ندل على ذلك.

ولعل أروع ما نضربه من الأمثال ان العالم العربي والعالم الاسلامي قد اجمعا على انقاذ فلسطين من براثن الصهيونية ، ذلك الخطر المشرف على الشرق كله (١) ، أما موضع العجب فهوأن المبشرين والذين يشايعون المبشرين عندنا ما زالوا يعملون على الانتصار لليهود كرهاً بالعرب ، مع ان خطر الصهيونية ليس خطراً على العرب بل على غير العرب ايضاً ، ولا هو خطر على الاسلام فحسب بل على النصرانية كذلك ، ولا هو خطر على الشرق وحده بل على الغرب والشرق معاً .

واخيراً ، اذا كان المبشرون واتباع المبشرين قد وضعوا عشرات الألوف من الكتب وملأوها بالطعن على العرب وبالنيل من الاسلام ، يستعملون التجني والمكابرة في ذلك ، فان من حق عربيين مسلمين ان يضعا كتاباً واحداً ، وفي حدود العلم والادب ايضاً ، يدافعان به عن قومهما ودينهما في وجه المبشرين وصنائع المبشرين . وهؤلاء اليوم هم انشط منهم في كل وقت آخر ، بل هم قد انتهزوا محنة فلسطين ليتخذوها سلّماً الى قهر العرب والنصارى والمسلمين الذين يعتزون بقوميتهم العربية وتضامنهم الوطني .

ونحب ان نقدم مثلين اثنين عن تأثر المؤسسات الغربية ، التي تسمى انسانية ، بالعداوة التي تحملها للشرق .

إن العرب كلهم يخوضون اليوم حرباً ضد الصهيونيين ، والحرب ضد الصهيونية

(١) هذا القسم كتب قبل حرب فلسطين ، إذ كنا قد بدأنا تأليف هذا الكتاب في آب ١٩٤٤ .

في حقيقتها معركة من معارك استعمار الشرق . ولقد ارغم العرب في اثناء هذه الحرب على هدنة اربعة اسابيع (١) ، اخذت فيها المؤسسات الغربية كلها تساعد اليهود ، حتى مؤسسة الصليب الاحمر الدولي . والمفروض في مؤسسة الصليب الاحمر ان تواسي الجرحى أياً كان دينهم واياً كان جنسهم . ولكن هذه هي مهمة الصليب الاحمر خارج الشرق . اما في الشرق ، وفي الحرب بين العرب واليهود ، فمهمته الاجهاز — عملياً ومن سبيل الاهمال — على العرب ثم مساعدة اليهود .

نشرت جريدة الديار (بيروت ، السنة الرابعة ، العدد ١٦٢٨ ، الصادر في ٧ تموز ١٩٤٨ ، الصفحة الثانية) احتجاجاً للدكتور جورج حنا رئيس لجنة اغاثة فلسطين في بيروت وعضو جمعية الصليب الاحمر اللبناني واحد الكتاب الأحرار الانسانيين نثبته كاملاً في ما يلي :

حتى الصليب الاحمر الدولي يتحيز لليهود

كتاب الدكتور جورج حنا رئيس لجنة اغاثة فلسطين

حضرة المركيزة دو فريج رئيسة جمعية الصليب الاحمر اللبناني المحترمة .

تحية واحتراماً . وبعد ، أرى من واجبي أن اطلع حضرتك على المعلومات التي وصلتني مؤخراً عن مستشفى الصليب الاحمر اللبناني الموجود في عكا . وانه ليؤسفني جداً بهذه المناسبة ان اتقدم بالشكوى المرة من الاهمال الذي يبديه الصليب الاحمر الدولي تجاه المستشفى المذكور بالرغم عن اني فهمت ان مؤسستكم كانت كلفته برعايته بعد احتلال عكا من قبل القوات الصهيونية . فعدا عن ان الصليب الأحمر الدولي لم يهتم باعادة الاطباء والممرضات والمساعدين اللبنانيين الى لبنان كما تفرض عليه رسالته الانسانية ، فانه ما زال يبرهن عن تغاضيه عن مساعدة هؤلاء اللبنانيين الذين دفعتهم انسانيتهم لتحمل المشاق لمساعدة الجرحى والمنكوبين . وفيما نرى الصليب الاحمر الدولي يعني بتموين ورعاية الجرحى واللاجئين والمحاصرين من اليهود فهو يتظاهر بالعجز عن مساعدة مستشفى الصليب الاحمر اللبناني .

ان جميع المعلومات التي وصلتنا من مصادر لا يشك بثقتها تدل على ان الاشخاص

(١) راجع الحاشية ١ من الصفحة ٣٠ .

العاملين في مستشفى الصليب الاحمر اللبناني في عكا والمحجوزين فيها يقاسون العذاب والحرمان ، وان اولئك الابطال الانسانيين مهملون من قبل الصليب الأحمر الدولي المفروض فيه ان يكون عوناً لهم . فالصليب الاحمر الدولي على ما اعلم مؤسسة انسانية عالمية لا تفرق بين الجهات المختلفة ولو كانت متحاربة . وهذا ما لا نراه مع الأسف في الحالة القائمة في فلسطين . لذلك :

١ ـ ارفع احتجاجي على تصرفات الصليب الاحمر الدولي في فلسطين وعلى تغاضيه عن الاهتمام ببعثة الصليب الاحمر اللبناني في عكا وتحيزه للجانب اليهودي .

٢ ـ اسأل الصليب الاحمر اللبناني فيما اذا كان يرضى عن هذه المعاملة المغرضة وهو عضو في الصليب الاحمر الدولي .

٣ ـ بوصفي عضواً في الصليب الاحمر اللبناني اطلب بالحاح رفع احتجاج صارخ الى المقر العام للصليب الاحمر الدولي والى الوسيط الكونت برنادوت .

٤ ـ بذل جميع المساعي لاعادة الاطباء والممرضات والمساعدين اللبنانيين فوراً .

٥ ـ في حال سكوت الصليب الأحمر الدولي عن إجابة هذا الطلب اقترح ان تخابر مؤسسات الهلال الاحمر العربية وايقافها على حقيقة الأمر لاتخاذ اللازم مع مؤسسة الصليب الاحمر الدولي » .

* * *

على ان احتجاج سيادة المطران جاورجيوس حكيم(١) ، مطران حيفا وعكا والناصرة وسائر منطقة الجليل لطائفة الروم الكاثوليك ، كان اشد وادل على فقدان العنصر الانساني في تلك المؤسسات الانسانية ، اذا اصطدمت مصالح دولها في الشرق . قال المطران حكيم يذكر حال العرب في فلسطين بعد الحرب الصهيونية ويشير الى مدينة عكاء خاصة :

« إن حالتها تدمي الفؤاد إذ أن العرب فيها ، وعددهم ثلاثة آلاف عربي تقريباً محصورون بين أسوار البلدة القديمة وحالتهم الصحية والغذائية سيئة للغاية . وقضاء عكا في حالة يرثى لها ، فالعرب الباقون فيه يعاملون كالحيوانات لا يهتم بهم احد ولا يجد معظمهم مسكناً او مأوى ، كما لا يجد مرضاهم اي نوع من العناية » .

وعاد المطران حكيم يوجه اللوم الى مؤسسة الصليب الاحمر التي تعمل في خدمة

(١) جريدة الديار ، العدد ١٦٢٦ ، الاحد ٤ تموز ١٩٤٨ .

اليهود ثم هي تهمل العرب عمداً ، فقال متألماً : آسف ان يعمل الصليب الاحمر الدولي تحت راية الصليب »(١) .

* * *

وسيرى القارىء في فصول هذا الكتاب ايضاً ان المبشرين يتسترون بنشر العلم وبالتطبيب المجاني والأعمال الاجتماعية وما الى ذلك في سبيل غاية واحدة : انهم يريدون ان ينفذوا من خلال هذه المظاهر الى تحطيم الجدار الاسلامي لينفذوا من خلاله الى الحقل القومي . وبما ان هذا الجدار قد انثغر الآن ثغرات متعددة ، فقد وجب العمل على سد هذه الثغرات قبل ان ينهار الجدار كله .

من أجل ذلك نرى ان لوضع هذا الكتاب مبرراً عظيماً ، بل ان وضعه قد اصبح واجباً علينا لنفتح اعين قومنا على الخطر الحقيقي للمبشرين بين العرب خاصة وفي الشرق عامة . وكذلك يجب ان نعلم ان الصهيونية ايضاً ليست شيئاً سوى وسيلة من الوسائل التي يحاول الغرب بها ان يستمر في استعباد الشرق العربي بعد تصديع جداره وتجزئة رقعة ارضه . ان هذا الكتاب اذن ليس كتاباً « هداماً » ، ولكنه محاولة مخلصة لكشف الستار عن « الهدامين » . انه واجب نقوم به في سبيل أمتنا وقومنا ووطننا .

١٣ رمضان ١٣٦٨
٩ تموز ١٩٤٩

المؤلفان

(١) مجلة « كل شيء » (بيروت) ، السنة الثانية ، العدد ٦٨ ؛ ٩ تموز ١٩٤٨ ، الصفحة الاولى ، تحت صورة الكونت برنادوت .

الفصل الاول

بواعث التبشير الحقيقية

*

يظن بعض الناس ان المبشرين يأتون الى الشرق لنشر الدين على انه هدفهم الاسمى .
والحق ان نشر الدين امر ثانوي جداً في جميع الحركات التبشيرية . قد نجد اشخاصاً قليلين يمولون حملات تبشيرية على الشرق ، ثم افراداً قليلين ايضاً يأتون في هذه الحملات لينشروا الدين حباً بنشر الدين واعتقاداً منهم بأنهم يقومون بعمل سام . على ان الكثرة المطلقة من الذين يموّلون تلك الحملات ، ومن الذين يأتون فيها ، لا صلة بين أهدافهم الحقيقية وبين الدين الذي يزعمون انهم قد جاءوا لنشره .

إننا اذا تأملنا العالم الغربي وجدناه عالماً ملحداً لا يؤمن بدين ، وعالماً مادياً لا يعرف للروح معنى : ان امريكة التي تعبد الحديد والذهب والبترول — كما يقول امين الريحاني — قد غطت نصف الارض بمبشرين يزعمون انهم يدعون الى حياة روحية وسلام ديني .
وبينما نرى فرنسة دولة علمانية في بلادها نجدها الدولة التي تحمي رجال الدين في الخارج .
ان اليسوعيين المطرودين من فرنسة هم خصوم فرنسة في الداخل واصدقاؤها الحميمون في مستعمراتها . وكذلك ايطالية ، التي ناصبت الكنيسة العداء وحجزت البابا في الفاتيكان ، كانت تبني جميع سياستها الاستعمارية على جهود الرهبان والمبشرين . حتى الروسية السوفياتية التي تدعو في بلادها الى محاربة الاديان — كما يقال — رأيناها ، بعد الحرب العالمية الثانية ، حينما أرادت أن تحقق لنفوذها توسعاً اقليمياً وسياسياً ، قد تظاهرت بالعطف على رجال الدين ودعت الى مجمع مسكوني في موسكو وحملت اليه المؤتمرين في طائراتها . ثم شرف ستالين نفسه اولئك المؤتمرين بمقابلته . وكثيراً ما كان الرجال العسكريون من الانكليز خاصة يحضون حكوماتهم على بث المبشرين في العالم ، كما

نصح الجنرال هايغ للحكومة البريطانية ان ترسل مبشريها الى شبه جزيرة العرب (١) .
حتى الأفراد الذين ينتشرون في الارض للتبشير بزعمهم لم يأتوا في واقع الأمر للتبشير . ان منهم من يحب المغامرات والاسفار ، ومنهم من يطمح الى السيطرة الشخصية على من حوله ، ومنهم من يحب فرض رأيه على الآخرين (٢) . فاذا لم يستطع احدهم ان يفعل ذلك في بلاده ، ولم يملك ان يفعله باسمه هو في خارج بلاده ، خرج الى العالم تحت ستار التبشير ليشبع اطماعه الشخصية . وكثيراً ما كشفت الجمعيات التبشيرية عن أطماع المبشرين الشخصية واكتشفت بينهم المكرة ، او الذين احبوا ان يستغلوا الجمعيات التبشيرية ليسافروا في العالم على حسابها ، وهم في الحقيقة تجار او رجال دعوة (اجتماعية او اقتصادية) لا صلة لها بالتبشير (٣) . بل ان ثمت شيئاً اكبر من ذلك : ان هؤلاء لا يتحلّون بالاخلاق الحميدة . كتب الشاعر القروي المجيد رشيد سليم الخوري في مجلة « العصبة الاندلسية » (٤) يتكلم باسم النصارى الذين يتألمون — كالمسلمين ايضاً — من أضرار المبشرين كلهم والبروتستانت خصوصاً فيقول : « أما من الناحية الدينية فإن اقامتي الدليل على عدم نزاهتهم لا تقتضي ان اكون بارعاً في الجدل او عالماً شهيراً بالتاريخ .. ! ان طوائفنا العديدة .. قد زيدت بفضل تعرفنا على الرسالة الامريكية طائفة جديدة اسمها الطائفة الانجيلية .. وكم انفق الامريكيون .. لكي يعرفونا بمواطننا السيد المسيح وبدينه .. كأننا اشد افتقاراً الى فضائل المسيحية من الامريكيين انفسهم ! »
والمؤلفون عادة لا ينكرون ان التبشير قد اتخذه الكثيرون آلة للتجارة والسياسة ، وان المبشر الاميركي خاصة لم يستطع ان يتحرر من نفوذ حكومته وغاياتها .
وكثيراً ما غادر المبشر جمعية الى جمعية حسب اهوائه ، فان وليم بلغرايف (٥) الانكليزي قد دعته اطماعه الخاصة الى أن ينقلب راهباً يسوعياً ويجادل البروتستانت قومه . ولما استغنى عن اليسوعيين عاد بروتستانتياً ، حتى انه سمي « الحرباء » (٦) .
وليس هذا فقط ، بل ان من المبشرين نفراً يسعَون وراء اطماع ومغامرات شخصية شوهت اسم النصرانية في الشرق (٧) . فلقد ذكر جسب في كتابه الذي طبع ١٩١٠

---

(1) Jessup 530.
(2) Re-Thinking Missions 9.
(3) ibid. 10
(٤) عام ١٩٤٧ ، العدد الرابع .
(5) William Gifford Palgrave.
(6) Jessup 295.
(7) Re-Thinking Missions, p. 13.

انه قد ثبت على اليسوعيين مؤخراً أنهم فضحوا فتاتين من طائفة الروم الارثوذكس واخفوهما حيناً ، ولكنهم ارغموا على ردهما بعدئذ لأهلهما (١) . ويهاجم جسب نظام الأديرة كله ويذكر انه كان لعنة على سورية ، ثم يقول ان بعض هذه الأديرة كان مستقراً للفاحشة (٢) .

على ان جميع المبشرين ، سواء أكانوا انتهازيين دنيويين ام كانوا مخلصين في مهمتهم ، تتميز كل فرقة منهم بعداوة شديدة نحو العرب المسلمين ، وبعداوة ظاهرة نحو أهل الفرق النصرانية المباينة لفرقتهم ايضاً .

اثر الحروب الصليبية

ولا ريب في أن مرد هذه العداوة الشديدة انما هو إلى الحروب الصليبية . على ذلك اجمع مؤرخو التبشير كلهم ، وهم في ذلك على صواب . ثم ان هذا يؤيد ما ذهبنا اليه من ان العداوة دنيوية سياسية لا صلة لها بالدين . ان المبشر جسب مثلاً يود ان يمحي الاسلام من العالم (٣) .

خطر الوحدة الاسلامية على الغرب

يرى بعضهم ان السبب الأساسي في هذا الكره إنما هو بلا ريب راجع الى العداوة التي اثارها الصليبيون (٤) ، والى ان المسلمين لا يزالون متأثرين بموقف الدول النصرانية من الإسلام في اثناء الحروب الصليبية (٥) . إلا أن المستشرق الالماني كارل بكر يرى السبب أبعد قليلاً من ذلك ، انه يرى ان الاسلام لما انبسط في العصور الوسطى اقام سداً في وجه انتشار النصرانية ثم امتد الى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها (٦) . وقريب من هذا ما رآه غاردنر (٧) . ان القوة التي تكمن في الاسلام هي التي تخيف اوروبة . ويحاول المبشرون ان يروا العداوة بين الإسلام وبين الغرب دينية ، ولكن الحقيقة لا تلبث ان تظهر في فلتات ألستنهم فاذا هي سياسية . إن يوليوس رشتر يؤنب

(1) Jessup 433 .
(2) Jessup 669 - 680 .
(3) Cf. Jessup 493, 581 - 2 .
(4) Levonian 126 .
(5) cf Devonian 109 : Schermerhorn 43; Gairbner 532 .
(6) Becker I 3 .
(7) Gairdner 303 f, ; cf MW, Apr, ' 37, pp. 167 - 178 .

النصارى على قصر نظرهم في اثناء الأعصر المتطاولة التي تلت ظهور الإسلام ، فإنهم كانوا فيها وادعين غافلين بينما كانت الأمبراطورية البيزنطية (الرومانية الشرقية) تغيب شيئاً فشيئاً في الامبراطورية الاسلامية حتى سقطت القسطنطينية نفسها عام ١٤٥٣ بيد الأتراك العثمانيين (١) . ولا ريب في أن رشتر يتألم للناحية السياسية ، لأنه هو نفسه يذكر ان سكان الامبراطورية الشرقية كانوا نصارى بالاسم (٢) ، اضف الى ذلك أنه كان مبشراً بروتستانتياً بينما سكان الامبراطورية الشرقية كانوا على المذهب الارثوذكسي .

ولكن كل ما ذكرناه يعود الى قبل الف عام من الدهر ، فهل ثمت مبرر لاستمرار هذه العداوة الى أيامنا هذه ؟

إذا اعتبرنا ان أساس العداوة سياسي دنيوي لا روحي ديني أيقنا ان هذه العداوة من المبشرين نحو الاسلام لا يزال لها مبرراتها . لقد ابرز لورنس براون هذا الموقف في صورة واضحة حينما قال : « اذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن ان يصبحوا لعنة على العالم وخطراً ، او أمكن ان يصبحوا ايضاً نعمة له . أما اذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير (٣) . أما القس سيمون (٤) فكان اوضح في التعبير لما قال ان الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب السمر (كذا) وتساعدهم على التملص من السيطرة الاوروبية . **ولذلك كان التبشير عاملاً مهماً في كسر شوكة** هذه الحركة ، ذلك لأن التبشير يعمل على اظهار الاوروبيين في نور جديد جذاب ، وعلى سلب الحركة الاسلامية من عنصري القوة والتمركز اللذين هما فيها : **إذا كانت الوحدة الاسلامية تكتلا ضد الاستعمار الاوروبي ، ثم استطاع المبشرون ان يظهروا الاوروبيين في غير مظهر المستعمر ، فان الوحدة الاسلامية حينئذ تفقد حجة من حججها وسبباً من اسباب وجودها .** من أجل ذلك قالوا يجب ان نحوّل بالتبشير مجاري التفكير في الوحدة الاسلامية حتى تستطيع النصرانية ان تتغلغل في المسلمين (٥) . وكذلك كان الأفرنسيون يخافون من المساعي لتحقيق الوحدة الاسلامية (٦) .

وعلى هذا الأساس أصبح الأتراك خطراً على اوروبة منذ دخلوا في الاسلام ، لا

(1) Richter 13. 14, 271 - 2 ; cf. Addison 3 .
(2) Richler 14 .
(3) cf Browne, 37; cf, Islam anb Missions 44-48.
(4) Rev. G. Simon ,
(5) Islam and Missions 93, 68. 69.
(6) Potrier 993 .

لأنهم مسلمون بل لأنهم قد اصبحوا قوة تستطيع ان تقف في وجه الأطماع الاوروبية (١). حتّى السنوسية ، وهي فرقة من المرابطين — المجاهدين — نشأت في طرابلس الغرب ، قد اصبحت على قلة أشياعها وقلة انتشارها قوة ترهب الاستعمار (٢) ، لا لشيء إلا لأن الاتحاد قوة تفسد على المستعمرين اعمالهم . ولقد بالغ المبشر صموئيل زويمر (٣) حينما هاله ان يرى نفراً من النصارى يدعون الى مصادقة المسلمين في الصين . ان هذه « الصداقة » في رأي زويمر تخلق في نفس النصارى جبناً عن التبشير (٤)

على ان اليسوعيين لا يريدون ان يتنازلوا عن روحهم الصليبية ، انهم لا يزالون يذكرون المبشر بلغة فخمة ملونة مملوءة بالحقد والضغينة والاستفزاز ، انهم يقولون (٥) : ويأتي المبشر تحت علم الصليب ... يحلم بالماضي وينظر الى المستقبل وهو يصغي الى الريح التي تصفر من بعيد ، من شواطىء رومية ومن شواطىء فرنسة . وليس من احد يستطيع ان يمنع تلك الريح من ان تعيد على آذاننا قولها بالأمس وصرخة اسلافنا (الصليبيين) من قبل : ان الله يريدها (٦) .

هذا قول قاله الأب شانتور الذي رأس الكلية اليسوعية في بيروت زمناً طويلاً في أيام الانتداب وظل في منصبه سنين طوالاً بعد ذلك . لقد كان الأب شانتور ذا نفوذ ضخّمه له المستعمرون فاستخذى أمامه الحكام . وقلما صعد أحد منهم كرسياً إلا إذا كان الأب شانتور يراه أهلاً لتنفيذ سياسة الانتداب . ويمكننا ان نعرف سياسة اليسوعيين من كلمة واحدة قالوها . انهم قالوا : يجب ان تكون الادارة الافرنسية في العلويين (وفي غير بلاد العلويين ايضاً) تتمة للاحتلال الصليبي (٧) .

لقد رأى القارىء بلا ريب ان المبشرين يمزجون الدين بالسياسة . ولكنه رأى ايضاً وراء كل ريب ان الدين كان الوسيلة ، أما السياسة فكانت الهدف الحقيقي . والسياسة هنا معناها استعباد الغرب للشرق .

(1) Addison 59.
(2) Islam and Missions 48 .
(3) Samuel M. Zwemer .
(4) MW Apr 28, pp - 109 ff
(5) Les Jesuites en Syrie 10 : 8 .
(٦) حينما جاء الصليبيون الى الشرق كانوا يرددون صرخة واحدة : ان الله يريدها ، اي ان الله هو الذي اراد الحرب الصليبية .
(7) Les Jesuites en Syrie 10 : 13 .

افتراءات المبشرين

لا نريد ان نجعل هذا الكتاب تاريخاً للتبشير ، ولكننا نريد ان نبين ما جره التبشير من المضارّ القومية والاجتماعية على العرب خاصة والمسلمين عامة . وكذلك لن نأخذ أنفسنا بالرد على سخافات الذين ألّفوا الكتب في الطعن على العرب والاسلام ، لاننا سنضطر حينئذ الى ان نكتب مجلدات كثاراً . ولكننا نحب هنا ان نقول ان بوسع كل انسان أن يأخذ كل شخصية في العالم وكل فكرة في التاريخ ثم يتهكم عليها حقاً او باطلاً ، او ينسب اليها المطاعن والافتراءات بلا دليل . والذي لاحظناه في مئات مما كتبه المبشرون من الكتب انهم لا يُحجمون عن الاستهزاء والتهكم على كل مظهر من مظاهر الاسلام ، ثم هم ينكشفون عن جهل فاضح ، سندل على بعضه في الصفحات التالية . ونحن بعد لن نقيس ايمانهم بمقدار علمهم .

من جهل المبشرين وبعدهم عن العلم انهم اذا بحثوا في الدين لم يرَ أحدهم لغير مذهبه هو فضلاً ولا حقاً في الوجود ، ثم هم يحبون ان نلقي أقوالهم بالاذعان والتسليم . ومما نذكره هنا ما اتفق لاحدنا لما كان في اوروبة ، قال : لقيت نفراً مثقفين كانوا يحبون شيئاً من المناقشة في الدين . ولقد اتفق مراراً ان تناول البحث صاحب الرسالة الاسلامية ، فكنت أقول : « محمد رسول الله » . وربما أحب أحدهم ان يتهكم فيقول لي : وأنت الرجل المثقف تريد أن تبحث بحثاً علمياً ثم تدعي ان محمداً « رسول الله » بلا دليل عقلي علمي ! وعلمت ان المنطق لا ينفع مع صاحبي ، فكنت أقول لـه (وقد اتفق لي ذلك مراراً) : ولكن يا أخي ، اتنكر عليّ — في باب البحث العلمي — أن أقول : « محمد رسول الله » ، بينما أنت تقول : « أن المسيح هو الله » ؟ فيُبهَت صاحبي ، ثم نستمر في نقاشنا .

من اجل ذلك ترى احدهم اذا تكلم عن المسلمين قال عنهم انهم « اعداء الصليب واعداء الديانة الكاثوليكية (١) ، ظاناً انه ألحق بهم سبة . ثم لا يفوته ان يذكر جريدة البشير فيقول عنها (٢) انها زعيمة الصحافة الكاثوليكية في الشرق ، لنشر الأمور الكاثوليكية في الدرجة الاولى ، ثم الأمور المسيحية الاخرى ، ثم الردود (على الاسلام طبعاً) . وجريدة البشير جريدة صفراء كانت تصدر في بيروت حتى أواخر عهد

(1) Les Jesuiles en Syrie 6 29 : 30 .
(2) ibid 6 : 31 .

الانتداب ثم توقفت على الصدور اختياراً لأنه لم يبق مجال لصدورها في هذا الشكل الاستعماري الكاره لكل تقدم قومي والداعي الى التفرقة بين ابناء الوطن الواحد . ولقد كان توقفها عن الصدور حسنة من حسنات الاستقلال الذي ينعم به لبنان الآن .

ومن أشد أعداء العرب والمسلمين رجل أرمني اسمه لطفي ليفونيان ألّف بضعة كتب للنيل من الاسلام . ومع ان العلم قليل في كتبه ، فإنه خص هذه الكتب باستعراض اركان الاسلام والتهكم عليها . ويبلغ بلطفي ليفونيان الجهل الى أن يقول إن المسلمين جهلة لأنهم يعتقدون التنزيه في الله تعالى (١) . والتنزيه في علم العقائد الدينية هو أن ننفي عن الله سبحانه وتعالى صفات هي للبشر كالجسم والأنف واللحية .

ومن الأمور التي تستحق التفكه بها قول مبشر اسمه نلسن (٢) يزعم فيه ان الاسلام مقلد ، وأن احسن ما فيه مأخوذ من النصرانية ، وسائر ما فيه أُخذ من الوثنية كما هو او مع شيء من التبديل (٣) . ويبلغ التدجيل ذروته بمبشر اسمه المحترم جون تاكلي (٤) ؛ انه يقول عن المسلمين : يجب ان نستخدم كتابهم (اي القرآن الكريم) ، وهو امضى سلاح في الاسلام ، ضد الاسلام نفسه لنقضي عليه تماماً . يجب ان نري هؤلاء الناس ان الصحيح في القرآن ليس جديداً ، وأن الجديد فيه ليس صحيحاً (٥) .

أما المبشر الاميركي جسب فيقول : ان الاسلام مبني على الأحاديث اكثر مما هو مبني على القرآن . ولكننا اذا حذفنا الأحاديث الكاذبة لم يبق من الاسلام شيء ، وصار اشبه بصبيرة طومسون (٦) .

وطومسون هذا رجل اميركي جاء الى لبنان فقدمت له مرة صبيرة فحاول ان ينقّيها من البذر . فلما نقى منها كل بذرها لم يبق في يده منها شيء .

ويتعرض المبشرون عادة بعقليتهم هذه لتفسير القرآن الكريم ويكثرون من الانتقاد والتهكم . زعم فريدريك بلس (٧) ان القرآن الكريم لم يفرق بين مريم والدة عيسى عليه السلام وبين مريم ابنة عمران ، أخت موسى وهرون (٨) . ويقول بلس :

(1) Levonian 68 .
(2) W. S. Nelson .
(3) Islam and Missions 43 .
(4) Rev . John Takle .
(5) Ialam and Missions 217 f .
(6) Jessup 297 f .
(7) Frederick Jones Bliss .
(8) Bliss (R) 174 .

خاطب القرآن مريم على لسان قومها بعد ان ولدت عيسى ، ولم يكن لها زوج ، بقوله : « يا اختَ هرون ، ما كان ابوك امرأ سوء وما كانت امك بغياً » (١) . ثم انه قال : كيف تكون مريم اخت موسى التي عاشت قبل المسيح بألف واربعمائة سنة هي امَّ المسيح . ولكن بلس لم يعرف ان هذا من باب الكناية في علم البلاغة ، ومؤدّاه : مريم التي تشبه (في العفة) ابنة عمران اخت هرون ، كما نقول نحن مثلاً : « يا أخا العرب » مدحاً لرجل لا صلة له بالعرب أحياناً .

وكذلك اساء ادولف فيزمار (٢) ، وهو دكتور في الفلسفة ، فهمَ قوله تعـالى يخاطب رسوله الكريم : « أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٣) . ولم يفهم المعنى الصحيح البسيط وأن الجملة استفهام انكاري لا استفهام عادي ؛ كأن نقول لإنسان : ألا تحب ان تكون من الناجحين !

الاسلام والسيف

وبعد الاخطاء الدالة على جهل المبشرين تأتي سلسلة طويلة من التحامل والافتراء . واشهر هذه التهم ان الاسلام قام بالسيف (٤) . قال نلسون (٥) : واخضع سيف الاسلام شعوب افريقية وآسية شعباً بعد شعب (٦) . ويزعم لطفي ليفونيان ان تاريخ الاسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح (٧) . ولا اريد ان استشهد بكل ما قيل في ذلك ، ولكني احب ان اجلو النقطة التالية فقط .

قسم الاسلام الناس عرباً وغير عرب . اما العرب فلم يكن يقبل منهم الا الاسلام ، فمن ابى منهم قتل . وذلك واضح في تسع وعشرين آية من سورة براءة او التوبة (٨) . هذه الآيات تتعلق بمشركي العرب ، ذلك لأن الدين الذي نشأ في بلاد العرب وجب ان يعتنقه جميع العرب . اما من ليسوا عرباً من اليهود والنصارى فان الاسلام يعرض عليهم ،

(١) القرآن الكريم . السورة ١٩ (مريم) : ٢٨ .
(2) Adolph H. Wismar, Ph. D.
(٣) القرآن الكريم . السورة ١٠ (يونس) : ٩٩ .
(4) Richter 2, and others.
(5) Rev. W. S. Nelson.
(6) Islam and Missions 43.
(7) Levonian 9.
(٨) القرآن الكريم ٩ : ١ – ٢٩ .

فان قبلوه فذاك والا فهم احرار يعيشون مواطنين للمسلمين . فالاسلام اذن لم يعرض على البشر كلهم بالسيف ، وانما عرض عليهم فقط . اما العرب خاصة فلم يقبل منهم إلا الاسلام . ذلك كله معروف في مواضعه من القرآن الكريم .

وأما الذين يتعرضون لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم بالافتراء فمبشرون كثيرون جداً ، بل كل المبشرين . فقد قال ف . ج . هاربر (١) : إن محمداً كان في الحقيقة عابد أصنام ، ذلك لان ادراكه لله في الواقع «كاريكاتور» (٢) . وسماه بعضهم «كذاب مكة» (٣) . ومنهم من زعم ان محمداً لم يستطع فهم النصرانية ، ولذلك لم يكن في خياله منها الا صورة مشوهة بنى عليها دينه الذي جاء به الى العرب (٤) . اما المسلمون فيقول عنهم هؤلاء المبشرون انهم لا يفهمون الاديان ولا يقدرونها قدرها (٥) . ثم ليس الاسلام فيما زعموا الا مزيج مشوه من الآراء والمدركات الخاطئة (٦) . وكذلك قال آخرون عنهم انهم لصوص وقتلة (٧) ومتأخرون ، وان التبشير سيعمل على تمدينهم (٨) .

وهناك مزعم ثالث ، هو ان الأسلام تنقصه الناحية الروحية ، وانه دين مادي . حتى اليهودية ليست عند هؤلاء ديناً مادياً (٩) كالاسلام . وكذلك يزعم هؤلاء ان الاسلام نظام شرعي (١٠) اكثر منه نظاماً اخلاقياً روحياً . ان الواجبات الدينية والخلقية على ما يزعم هؤلاء فرضت على المسلمين فرضاً ، وكل ما يستطيع المسلمون ان يفعلوه هو ان يؤدوا هذه الفروض كما فرضت عليهم (١١) . ويبدو جهل المبشرين في مزعم آخر ، وهو ان المسلم يتزوج اربع نساء كما يشاء ثم يطلقهن كما يهوى لسبب او لغير سبب (١٢) . ويتوسع بعضهم في هذه المزاعم فيقول جسب مثلاً ان المسلمين قد حكموا على المرأة بأن تبقى جاهلة ، ثم انهم يضربونها على هذا الجهل : انهم افسدوها

---

(1) F. J. Harper.
(2) Methods of Mission Work among Moslems 25.
(3) Addison 178.
(4) Addison 18.
(5) Re-Thinking Missions 16.
(6) Garrison 66 f.
(7) Jessup 501 f.
(8) Milligen 171-173.
(9) Beowne 111, 113, 116.

(١٠) يقصد فقهي (شكلي) .

(11) Levonian 71. 73.
(12) Cash 98.

ثم اخذوا يضربونها لانها فاسدة . وكذلك يزعم جسب نفسه ان القرآن يدعو الى ضرب المرأة . حتى المرأة الفاضلة تخشى مثل هذا العقاب (١) ، ذلك لان الاسلام نظام ناقص والمرأة فيه مستعبدة (٢) .

ويتميز المبشر الاميركي هنري جسب بمزيج من الافتراءات والخرافات ، فقد زعم ان الشيخ يوسف الاسير علم اولاده اغاني مسيحية باللغة العربية (٣) . والشيخ يوسف الاسير علم معروف في بيروت واولاده معاصرون لنا ، واحفاده لا يزالون يحيون ، بيننا ولم نعرف ذلك عن احد منهم .

وادعى كثيرون من المبشرين انهم نصّروا جماعات من الناس ، كل هذا احتيالا على اموال الجمعيات والافراد الذين ينفقون على مثل هذه المشروعات . من هؤلاء مبشر انكليزي اسمه بلدوين ادعى انه نصر فريقاً من المسلمين ، فأرسلت الهيئة التي يعمل بلدوين هذا تحت اشرافها رجالاً ليتحققوا من دعواه فلم يجدوا مسلماً واحداً صبأ على يديه (٤) .

ويزعم رشتر ان اكثر الدروز قد اصبحوا بروتستانتيين قلبياً . ولولا ان الدولة العثمانية منعتهم بالقوة من إعلان بروتستانيتهم لأصبحوا كلهم بروتستانتاً ظاهراً وباطناً (٥) . ثم ينسى رشتر هذا الزعم فيذكر بعد بضع عشرة صفحة عن الدروز انفسهم انهم لا يفكرون في أن يصبحوا نصارى (٦) . ورشتر نفسه يزعم هذا الزعم على النصيرية ايضاً .

وقد كان جسب يؤمن بالخرافات ويمزج ايمانه هذا بملاحظات بعيدة عن الشعور الانساني . ففي كانون الثاني عام ١٨٦٢ (رجب سنة ١٢٧٨) فاضت الاودية في مكة من مياه المطر واحدثت خسائر في الأبنية والنفوس . فربط جسب هذه الكارثة بفتنة سنة ١٨٦٠ في لبنان ، ثم علق على ذلك بقوله ، بعد ان زعم ان لشريف مكة صلة بالفتنة : ان طوفان الكعبة قد جاء دليلاً على ان مكائد مثيري الفتن تقع احياناً على رؤوسهم (٨) .

---

(1) Jessup 28.
(2) Miiligan 20-21.
(3) Jessup 145 f.
(4) Jes sup 547.
(5) Richter 192 f.
(6) ibid 204.
(7) ibid 184. 195 f.
(8) Jessup 241-2.

ويظهر ان رينيه بوتيه (١) اخذ هذه الفرية من جسب لما قال : « وهكذا نجد منذ بدء عام ١٨٦٠ علامات واضحة للعداوات تظهر في سورية ضد نصارى لبنان ، كما يخبرنا الأب لافيجيري أن مؤامرة كان قد حاكها الحزب الاسلامي المتعصب ، اما مركزها فكان في مكة . ونحن نعلم — وقد لا يهمنا ان نعلم — اذا كان الكردينال شارل مارتيال لافيجري (١٨٢٥ — ١٨٩٢) قد قال ذلك او ان رينيه بوتيه قد قاله على لسانه . ان الذين يعرفون تاريخ سورية ولبنان ويعرفون تاريخ فتنة عام ١٨٦٠ يعلمون ان قول الكاردينال لافيجيري خبط وجهل عريض بتاريخ هذه البلاد ، او كذب صراح يراد منه الدس والكيد وتسويد صفحات للامم وللشعوب توصلاً باسم التبشير بالدين الى اغراض دنيوية سياسية . لقد بدأ لافيجيري حياته مبشراً في شمالي افريقية والسودان ، كلفه بذلك البابا بيوس التاسع (١٨٤٦ — ١٨٧٨) نفسه (٢) . وبيوس التاسع قاوم الوحدة الأيطالية .

وجاءت مرة بوارج اميركية وانكليزية الى مياه بيروت فكتب جسب يقول : ان غوغاء المسلمين الفشارين المتعصبين قد خبأوا رؤوسهم حيناً من الزمن (٣) .

وبينما كان يوليوس رشتر (٤) يكتب عن ثورة المهدي على الانكليز في السودان بلغت به الحماسة الى ان قال : « ... هذا التعصب الاسلامي الضيق الأفق بكل ما فيه من بغض للثقافة » (٥) .

على ان أغرب ما في تلك المزاعم الجاهلة مزعم المستشرق الافرنسي لويس ماسينيون . لقد انصرف ماسينيون في عهده الاخير عن العلم الى التبشير لأن التبشير وسيلة الى استعباد الذين يبدلون دينهم على يد المبشرين . زعم ماسينيون ان المسلمين يعتقدون في شأن عيسى بن مريم على ما جاء في القرآن . من أجل ذلك يرجو ان توجه الجهود الى جعلهم يعتقدون بعيسى ابن مريم نفسه ، ولكن باسمه المسيحي (٦) . ولقد غاب عن ماسينيون (وذلك مستغرب) ان نظر المسلمين ونظر المسيحيين الى عيسى بن مريم مختلفان ، ولا شأن لنا بذلك الآن . على اننا نود ان نقول للمستشرق ماسينيون ان « العلماء » لا يؤخذون بالاسماء وتشابه الالفاظ ، ولا هم ايضاً يسترون مكائدهم الاستعمارية بالعلم .

(1) René Pottier, Le Cardinal Lavigerie, 38-39.
(2) ibid 110-111.
(3) Jessup 748.
(4) Julius Richter.
(5) Richter 366.
(6) L'Islam et l'occident 164.

وان الذين يعرفون لويس ماسنيون ويعرفون كتبه وبحوثه لا يمكن ان يعتقدوا ان اموراً يسيرة في العلم والتاريخ والاجتماع مثل هذه تخفى عليه !

هذه هي الآراء التي ينشرها المبشرون على أقوامهم في اوروبة واميركة ، وهكذا كانوا يصورون الاسلام حتى يبرروا دوام التبشير بين المسلمين لتدوم لهم دراهم تدر عليهم من جماعات غافلة عن الحقائق او انها لا تزال تعتقد ان للاعلان والافتراء قيمةً في القرن العشرين .

طريق الاستعمار

ولا ريب في أن الباعث الحقيقي والاول في رأي القائمين على التبشير انما هو « القضاء على الأديان غير النصرانية » (١) توصلاً الى استعباد اتباعها . ان المعركة بين المبشرين وبين الاديان غير النصرانية ليست معركة دين ، بل هي معركة في سبيل السيطرة السياسية والاقتصادية . حتى ان البروتستانت مثلاً لا يكتفون بأن يظل المسيحي ارثوذكسياً ، بل يجب ان يصبح مسيحياً بروتستانتياً . ان هوى الكاثوليك مع فرنسة وهوى الارثوذكس مع الروسية ، فاذا انتقل هذان الى البروتستانتية اصبح هواهما مع اميركة في الدرجة الأولى ومع انكلترة في الدرجة الثانية .

وفرنسة ايضاً كان تخشى قوة الاسلام ، لأن الاسلام القوي خطر يهدد استعمارها . قال الكاردينال لافيجيري (٢) : « وبينما كان الاسلام على وشك أن ينهار في اوروبة مع عرش السلاطين (من آل عثمان) كان لا يزال ناشطاً في تقدمه وفتوحه على أبواب مملكتنا الافريقية (٣) .

ويبدو بوضوح ان اشد الاديان مراساً في اباء الاستعباد انما هو الأسلام ، ولذلك يتمنى المبشرون ان ينصروا المسلمين كلهم (٤) . ومع أن التبشير يتناول البوذيين والبرهميين ايضاً ، فان المقصود الأول بالجهود التبشيرية هم المسلمون (٥) . ولقد استوى في هذه الرغبة جميع المبشرين ، على الرغم من اختلاف طوائفهم وتباين الاقنعة التي يرفعونها على وجوههم . حتى المستر بنروز (١) رئيس الجامعة الاميركية الجديد (٢) يقول : « ان

(1) Missionay Gutlook 35 b.
(٢) انظر ص ٤٤ .
(3) Pottier 113.
(4) Christian Workers, cf. 17.
(5) Christian Workers 7 f., 13; cf. Jung 67.

المبشرين يمكن ان يكونوا قد خابوا في هدفهم المباشر ، وهو تنصير المسلمين جماعات جماعات ، إلا انهم قد احدثوا بينهم آثار نهضة ... » ثم يتابع المستر بنروز قوله فيقول (٣) « ولقد برهن التعليم على انه أثمن الوسائل التي استطاع المبشرون ان يلجأوا اليها في سعيهم لتنصير سورية ولبنان » .

لقد كان خليقاً برجل يأتي ليتولى اعظم مؤسسة علمية في الشرق الادنى ان يفطن الى أمرين ، احدهما ان النهضة المزعومة التي بعثها المبشرون ترجع في الحقيقة الى عوامل عامة اتفق ان سايرها المبشرون . ان النهضة التركية ونهضة اليابان ونهضة الروسية مثلاً لم تقم على ايدي المبشرين البروتستانت ، ولكن العالم كله مندفع منذ امد نحو تقدم مستمر ، ولا يمكن لأحد ان يقف في وجه هذا التقدم الطبيعي ، ولا ان تتقدم أقطار ثم تظل أقطار اخرى لا تحس بهذا التقدم (٤) .

اما ثاني الامرين فهو ان الاضرار المقصودة التي احدثها التبشير في البلاد العربية تفوق كل نفع عارض يمكن ان يكون التبشير قد أتى به .

لقد كنا نود ان يأتي المستر بنروز الى رئاسة الجامعة الامركية بعقلية العالم ، بعقلية أرحب افقاً من تلك التي ينكشف عنها كتابه . على ان المستر بنروز قد أدرك في اثناء رئاسته للجامعة الاميركية (١٩٤٨ — ١٩٥٤) كثيراً من أوجه الرقي والقومية عند العرب .

ويعترف المبشرون بأن التبشير الرسمي واكتساب المسلمين الى صفوف النصرانية قد خاب (٥) . من أجل ذلك قنع هؤلاء المبشرون ان يكون عملهم « الانساني » قاصراً على زعزعة عقيدة المسلمين على الاقل (٦) . من أمثال هذه الجملة ينفذ القارىء الى حقيقة بواعث التبشير : انه ليس الاصلاح والحياة الروحية . بل هو الافساد والتوسل الى السيطرة .

هذه المرارة من الخيبة في التبشير ، وهذه النقمة على العالم الأسلامي . وهذا الافتراء على المسلمين تلمحه في كلام المبشرين أنفسهم . يتكلم المبشر رايد (٧) عن طرابلس

(1) Stephan B. L. Penrose, Jr. (توفي المستر بنروز في ٩ كانون الاول عام ١٩٥٤)
(2) Penrose 5.
(3) ibid 7.
(٤) راجع الكلام على ذلك في فصل : الاعمال الاجتماعية ...
(5) Re-Thinking Missions 194 and others.
(6) Islam and Missions 277.
(7) W. Reid.

الغرب كلاماً يمكن ان نعده معبراً عن طوية كل مبشر في بلاد الأسلام ، قال (١) :

« ان عمل (المبشر) المسيحي بين هذا الشعب صعب جداً . فبعد عمل امتد خمسة عشر عاماً صح عندي ان الطريقة الوحيدة لاكتساب هذا الشعب انما هي في النفوذ الشخصي اليه — نفوذ الرجال والنساء الذين امتلأوا بروح القدس (فجعلت لهم) قوة في حياتهم الشخصية وخلقهم الشخصي . وحتى يستطيع المبشر أن يستغل هذه القوة يتحتم عليه أولاً ان يقارب المسلمين مقاربة شديدة . وهنا تبرز الصعوبة ... ان المشكلة في العمل بين المسلمين ، إذن ، وفي شمالي افريقية خاصة ، انما هي في ايجاد الطريقة التي تساعد فعلاً على الاقتراب منهم .

« ثم ان ذلك الحاجز العظيم الذي يدعى عادة بالتعصب ، وهو ذلك الجدار الشاهق من الشك والاعتزاز بالذات ومن الكره ، قد بناه الاسلام حول اتباعه ليحميهم في داخله وليترك المبشر خارجه . انه جدار طالما اثبت ، مع الأسف ، ان تسلقه او اختراقه مستحيل . ان رجالاً من (المبشرين) قد عملوا سنين متوالية ، وفي مدينة واحدة ، ثم لم يستطيعوا ان يكتسبوا صديقاً او صديقين .

« من الصعب ان تحب مسلماً لأن المسلم ليس محبباً الى النفس ، ولأنه هو عادة يشمئز من الذين يحاولون الاقتراب منه اذا نالوا ثقته » .

إعداد المبشرين

يدرس الذين يريدون ان يعملوا في التبشير مناهج خاصة مبنية على تفهيمهم روح الشرق . هنالك سياسة تهيمن على ذلك المنهاج ، هي تصوير الشرق بصورة من التأخر والسوء تحمل طالب التبشير على ان يندفع في مهمته اندفاعاً اعمى . ولقد اوجدت مدارس لهذه المهمة منذ زمن بعيد في رومية وباريس وفي طليطلة باسبانية اضافت الى مناهجها تدريباً عسكرياً للتبشير بالقوة (٢) .

ولم يكن من المستغرب ان تقوم الرهبنات الاجنبية على اختلاف نزعاتها بالتبشير . ان فرقاً مختلفة من الرهبان قامت منذ أوائل القرن الثالث عشر بالتبشير ، ثم استمرت في عملها هذا بعد ذلك . ومنذ القرن الرابع عشر الى القرن الثامن عشر كان الرهبان الدومينكان والفرنسيسكان يعملون جاهدين في مراكش والجزائر وتونس ومصر والشام

(1) Gairdner 263-160.
(2) Addison 57 f.

وكايكية . ثم برزت في اواخر القرن السابع عشر فرق اخرى ، منها اللعازريون والكبوشيون والإغسطينيون . ومع أن هؤلاء قد عملوا في الاكثر بين العبيد والاسرى النصارى ، فانهم كانوا من حين الى حين يتعرضون للمسلمين .

على ان هنالك افراداً ليسوا رهباناً ، ولكنهم تعلموا في المعاهد الرهبانية وفي معاهد اليسوعيين خاصة . ان هؤلاء ايضاً يقومون بأعمال تبشيرية مختلفة (١) . هذا النوع من الرجال يعرفون باسم اليسوعيين ذوي الثياب القصيرة (٢) . حتى الراهبات اللواتي يُظن انهن نذرن انفسهن لخدمة المرضى وتعليم الجاهلين ومؤاساة المساكين لسن سوى مبشرات . يقول اليسوعيون في كتابهم الذي أصدروه في بيرت عام ١٩٣١ :

« ان الاخوات لسن راهبات معلمات فقط ، ولكنهن ايضاً راهبات مبشرات . انهن في كل مكان يوجدن فيه يعملن الى جانب عملهن التعليمي اعمالاً تبشيرية » (٣) . وهنّ لا يكتمن ذلك بل يعلنّ انهن يعملن لضم الخراف الضالة أو المهملة الى حظيرة المسيح المللك (٤) .

ولقد استخدم المبشرون جميع الطرق في سبيل التبشير واستغلوا جميع المناسبات ، فصناعة التطبيب والتعليم والوعظ ونقل الكتب من لغة الى لغة ، كلها يجب ان توجه توجيهاً يفيد التبشير (٥) . ان الطبيب كارنيليوس فانديك ارسل الى سورية على انه طبيب مبشر (٦) .

والمبشرون مجمعون على ان جميع الوسائل — مهما كانت — يجب ان تستغل في سبيل التبشير (٧) . حتى اعمال البر يجب ان تستغل استغلالاً بحتاً ، من ذلك قولهم : «كان التطبيب والتعليم من وسائل التبشير ، ويجب ان يبقيا كذلك . اما أعمال الاحسان فيجب ان تستعمل بحكمة كيلا تذهب في غير سبيلها . يجب ان تعطى الأموال اولاً للبعداء عن الكنيسة ثم تقل تدريجاً كلّما اقترب اولئك من الدخول في الكنيسة (اعتناق مذهبها) ، فاذا دخلوها منع عنهم الاحسان مرة واحدة (٨) .

(1) Les Jesuites en Syrie 12 : 7 ss.
(2) Voir Larousse :Jesuites à robes courtes.
(3) Les Jesuites en Syrie 12 : 18, cf. 2:28.
(4) Les Jesuites en Syrie 11 : 28 s.
(5) Jessup 68 ; Richter 80.
(6) Richter 179.
(7) Cf. Jessup 29, 37 ; Bliss (B) 313.
(8) Re-Thinking Missons 67 f., cf. 70 f.

ومن وسائلهم انهم اذا دخل في خدمتهم رجل لاينتمي الى مذهبهم حملوه على الدخول فيه . عمل شاب درزي في المطبعة الاميركانية فصبأ الى المذهب البروتستانتي . ثم عمل بعد ذلك في المطبعة الكاثوليكية فانتقل الى المذهب الكاثوليكي (١) . ولعل هذا الشاب ظل درزياً ولكنه كان لحاجته الى العمل يتظاهر أمامهم بما يرويدونه منه .

وكان المبشرون يتخذون من زيارة المسجونين ومن العمل في المستشفيات وسيلة الى التبشير (٢) . في الحرب العالمية الأولى اخذت الدولة العثمانية عدداً من الراهبات للعمل في المستشفيات والمياتم ، فقال الكتاب المئوي اليسوعي عن هؤلاء : « وفي منصبهن الجديد بقيت الأخوات مبشرات يلقّن التعليم المسيحي ويُعدْدن للمناولة الاولى ، ويعلمن الصلوات على الرغم من التحذير والتهديد اللذين كان المفتشون الأتراك يوجّهونهما اليهن (٣) . وهكذا كان المبشرون والمبشرات يتقدمون الى الانسانية بوجه من فعل الخير والسهر على المتألمين بينما هم ينْفذون من خلال هذه الآلام المبرّحة الى طرق جديدة للتبشير . ومع انهم لم ينجحوا الا قليلاً ، فانهم ادخلوا الى نفوس الكثيرين آلاماً جديدة كثيرة ووصموا الضمير الانساني بالنفاق .

وكانت قلة الذوق بالمبشرين تبلـــغ إلى حد ان أحدهم لم يكن يتأخر عن عرض بضاعته في التبشير بين أهل المبت ، والميت لا يزال بين أهله . ذهب المبشران كلهون (٤) وجسب يعزيان بوفاة شاب درزي . فما ان استقر بكلهون المقام حتى قال (٥) « ما رأيت جسداً ميتاً لأخ لي في الانسانية الا ملئت اشمئزازاً ، بل ملئت بغضاً . اجل ملئت ببغض الخطيئة التي أتت بالموت الى هذا العالم وكانت سبب احزاننا واضطرابنا وآلامنا . فلمَ لا نمقت الخطيئة إذن ثم نحب ذلك الذي لم يعرف الخطيئة ، ولكنه ذاق الموت في سبيل كل انسان آخر ؟ » . يقصد كلهون انه يكره الميت ، اذا كان غير مسيحي ، اذ انه يموت وهو مملوء بالخطيئة . اما الميت المسيحي فان المسيح يكون قد حمل عنه خطاياه لما مات فداء عن البشر ، كما يقول النصارى .

نحن لا نعلم مكاناً ينبو فيه الذوق عن مثل هذا العمل كالمآتم . لقد جهل هؤلاء كلهم ان للموت حرمة ورهبة . ثم إنهم طعنوا النفس الانسانية حينما ظنوا انها تصل الى الله

(1) Les Jesuites en Syrie 12 : 27.
(2) ibid 7 : 28, 11 : 24.
(3) ibid. 11 : 24.
(4) Rev. H. S. Calhoun.
(5) Jessup 101.

بكلمات تلقن او باشارات تمثّل . وبعد ذلك كله نسوُا ان بين قلب كل انسان وبين الله طريقاً مفتوحاً يسلكه الانسان نفسه بلا قائد ولا وسيط .

ولما خابت هذه الاساليب كلها عمد المبشرون الى الرشوة يفسدون بها ضمائر الذين يستميلونهم . حينما ظهر اليسوعيون للمرة الأولى في شرق الأردن رشَوا نفراً من النصارى الارثوذكس للانضمام الى الكنيسة الرومانية (١) . على ان البروتستانت كانوا اشد ايغالا في افساد الضمائر ، فقد اتخذوا سماسرة يجلبون لهم الذين كانوا يرضَون ان يبدلوا دينهم ، وكانوا يدفعون عن كل رأس عشرة قروش ذهباً (٢) .

على ان إعداد المبشرين يختلف بين زمن وآخر . وكذلك طرق التبشير اختلفت من جيل الى جيل ، ومن قطر الى قطر . فبينما كان التبشير في القرن التاسع عشر خاصاً بأشخاص اتخذوا التبشير عملاً لهم ثم حاولوا نشر النصرانية بجدال المسلمين ومحاولة تبيان فضل النصرانية على الاسلام وباصرار على الجانب الغيبي من حياة المسيح ، وجدنا زعماء التبشير في العالم البروتستانتي خاصة يرون ان هذا المظهر الديني الصارخ يعرقل أعمال المبشر (٣) . من أجل ذلك يرى المبشر الاميركي المشهور جون رالاي موط في كتابه « خمسة عقود ونظرة الى المستقبل » ، الذي أصدره في عام ١٩٣٥ ، صواب الحركة التي بدأت في مطلع القرن العشرين ، وفي الولايات المتحدة خاصة ، تلك الحركة التي استغلت الطلاب والاساتذة وعوامّ الناس في التبشير (٤) . ان المبشر جون موط يعتقد أن المظهر البريء في الطالب والاستاذ والعاميّ من الناس لا يصرف المسلم مثلاً عن سماع أقوال هؤلاء ، بينما الثوب الذي يظهر فيه المبشر يعمل على تنفير القلــوب .

وكذلك جعل المبشرون ، في السنين الاخيرة ، يتركون الطرق الايجابية المباشرة في نشر آرائهم الى طرق اكثر التواء وخفاء . ويبدو ان هذه الطرق الملتوية الخفية لم تنجح ايضاً . يقول السر ريدر بولارد ، الذي كان وزيراً مفوضاً ثم سفيراً لبريطانيا في ايران من عام ١٩٣٩ الى عام ١٩٤٦ ان مسلمين كثاراً يقدّرون اعمال الجمعيات التبشيرية في التعليم والتطبيب ، ولكنهم يصمون آذانهم عن دعوتها الدينية (٣) .

(1) Richter 247.
(2) Jessup 35.
(3) Middle East Survey, cf 175-7.
(4) Mott, Five Decades, cf 1-4.
(5) Bullard 163.

وتلبّس المبشرون بجميع المظاهر ، حتى في ثوب المستكشفين الذين ظهروا أمام العالم علماء أعلاماً . فقد كان دافيد ليفنغستون (١٨١٣ – ١٨٧٣) رحالة بريطانياً اخترق اواسط افريقية من مرفأ سان بول دي لاوندا في انغولا البرتغالية شرقاً الى كيليمان عند مصب نهر زامبيسي في مضيق الموزمبيك تجاه مدغشقر شمال خط العرض العشرين غرباً . على ان ليفنغستون كان مبشراً قبل ان يكون رحالة ، ولم تكن رحلته المشهور في تاريخ الاستكشافات الجغرافية الا تمهيداً للبعثات التبشيرية . قال رولاند اوليفر في كتابه « العامل التبشيري في شرق افريقية » (١) :

« ... ولقد أعد (ليفنغستون) نفسه منذ سنواته الاولى ، حينما كان يعمل في جمعية التبشير اللندنية ، للاضطلاع بمشاكل التبشير الخاصة بأفريقية الاستوائية وبالعمل بين شعوب فطرية في بلاد لم تكن قد سكنها الاوروبيون .. وفي عام ١٨٥٦ كان ليفنغستون لا يزال يفكر ، بطبيعة الحال ، في التجارة اكثر من الاستعمار . وبما انه كان أولاً ، وقبل كل شيء ، مبشراً مسيحياً ، فلقد اختار ، كعضو في هذه الحركــة (التبشيرية) ، ان يبحث عن نهر تستطيع السفن ان تمخر فيه الى داخل البلاد ... » .

لقد أراد ليفنغستون ان يستكشف طرقاً في افريقية للمبشرين لا للمدنية .

الغاية تبرر الواسطة عندهم

كل هذه الوسائل لم تُجدِ نفعاً كبيراً ظاهراً ، فظهر في عام ١٩٣٢ كتاب اسمه « التفكير الجديد في أمر الارساليات » (٢) ، أصدرته لجنة المبشرين . لقد رأى هؤلاء ان التبشير يجب ان يستمر ، ولكن وسائله يجب أن تتبدل (ص ٤–٥–١٨) . ذلك انهم رأوا ان العالم يتبدل فأحبوا ان تتبدل خططهم حتى توافق الاحوال الجديدة (٣) ؛ والمبشرون يفرضون على انفسهم ان يكونوا مستعدين لأن يقبلوا بأمور تخالف العقيدة المسيحية (٤) . من ذلك مثلاً ان المسيحية تعتقد ان الله واحد ، ولكنها تستطيع ان تتسامح مع أصحاب العقائد التي تعدد الله فتقول تقرباً اليهم بأن الله يتشكل في مظاهر مختلفة (راجع ص ٥٣) . وهذا الكتاب يجيز للمبشرين – كيلا ينفروا منهم ابناء الديانات المخالفة للنصرانية – ان يتأولوا التعبير المسيحي « المسيح ابن الله »

(1) Missionary Factor in East Africa, 1, 9, 11.
(2) Re-Thinking Missions.
(3) Re-Thinking Missions, p xi ; Le Jesuites en Syrie 10 : 41 ss.
(4) Levonian, cf. 13, pp. 129-136.

تأويلاً روحياً (ص ٥٦) .

وكذلك يرى هذا الكتاب ان جميع المبشرين من بلاد رأسمالية ، ولكن هذا يجب الا يمنعهم من تفهم المذاهب الاقتصادية الاخرى كالاشتراكية والشيوعية . وعليهم ان يطعنوا الرأسمالية اذا كان ذلك يفتح لهم قلوب الخاضعين قهراً لها ، حتى انه ليس ثمت مانع يمنع مصادقة الشيوعيين ايضاً (ص ٢٥٢–٢٥٤) ، وان كانت الشيوعية عدوة للنصرانية .

من هنا نرى بوضوح ان المبشرين ينصحون لأنفسهم بالتلون في سبيل الوصول الى قلوب بعض الناس . هنالك كتاب اسمه « طرق العمل التبشيري بين المسلمين (١) » يقول : « لنجعل هؤلاء القوم المسلمين يقتنعون في الدرجة الاولى بأننا نحبهم فنكون قد تعلمنا ان نصل الى قلوبهم ... يجب على المبشر ان يحترم في الظاهر جميع العادات الشرقية والاسلامية حتى يستطيع ان يتوصل الى بث آرائه بين من يصغي اليها . وعليه مثلاً أن يتحاشى ان يقول عن المسيح إنه ابن الله (٢) حتى لا ينفر منه اولئك الذين لا يؤمنون هذا الايمان فيستطيع ان يقاربهم حينئذ بما يريد أن يدعوهم اليه » . واما المحترم تشارلس واطسون (٣) فيقول (٤) : « يجب ان يظلوا (أي المبشرون) برءاء كالحمام ، ولكن هذا لا يمنعهم ايضاً من ان يكونوا حكماء كالحيات » .

* * *

ومما يدل على قلة احتفال المبشرين بالمثل العليا الحقيقة وبالاحداث التي تساعد على تقدم المدنية نحو مدى اوسع واجمل موقفهم من اعلان الحرية العثمانية في تموز عام ١٩٠٨ .

لقد كان اعلان الحرية العثمانية واعادة الدستور في الامبراطورية العثمانية كلها حدثاً عظيماً في تاريخ تركية نفسها وفي تاريخ العرب ، وكذلك كان له تأثير كبير ايضاً في السياسة الدوليـــة .

اما المبشرون فلم يروا في تلك المناسبة الفذة في تاريخ امبراطورية كالامبراطورية العثمانية الا فرصة جديدة لنجاح حركة التبشير . وبعد ان يشير جسب الى هذه المناسبة العظيمة في الامبراطورية العثمانية ، يقول : « ان القضية التي تواجهنا بطبيعة الحال

(1) Methods of Mission Work among Moslems, cf. p 31.
(2) Methods of Mission Work, p p. 45 ff., 51 f., 53.
(3) Rev. Charles R. Watson.
(4) Islam and Missions 192.

هي : ماذا يكون من أمر هذا الانقلاب العظيم على دين الامبراطورية (العثمانية) ؟ ويجيب جسب نفسه على هذا التساؤل فيقول : إن هذا سيساعد على طبع الكتب البروتستانتية ، وسيصبح المرء (العثماني) حراً في ان يغير دينه (٢) .

وبينما كان المبشرون المؤتمرون في القاهرة في نيسان عام ١٩٠٦ يعترفون ضمناً بصعوبة التبشير ، وان التبشير كان الى ذلك الحين فردياً يتناول الفرد بعد الفرد ، وانهم يأملون ان يصبح التبشير اجماعياً يتناول جماعات بقضها وقضيضها (٢)، اذا بهم يقررون في مؤتمر بيروت غير الرسمي ، قبيل عام ١٩١١ ، ان يبدأوا تنصيراً بين المسلمين مباشراً يسير في سورية وفلسطين خاصة بهدوء وبوسائل مختلفة . ولا يجد المبشرون حرجاً في ان يعلنوا ان نشر الدستور العثماني قد جعل التنصير المباشر اكثر إمكاناً وسهولة . من أجل ذلك قرروا ان يجددوا جهودهم وان يسيروا بأعمالهم الى الامام (٣) .

واستغل المبشرون مناسبة ثانية لتوسيع اعمالهم . لقد استغلوا الانتداب الذي فُرض على البلاد العربية بالقوة ، ثم احتمَوا بالدول المنتدبة وراحوا يخلقون المشاكل الدينية والقومية بين أبناء الوطن الواحد باتيانهم اعمالاً تستفز الشعور وتزيد البغضاء في القلوب : تلك البغضاء التي لا تنفجر احياناً دينياً وان كانت تنفجر دائماً ، بلا ريب ، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وأدبياً .

جنينة رسلان

ونظر اليسوعيون في منطقة الانتداب الافرنسي فاختاروا ان يوسعوا جهودهم التبشيرية في بلاد العلويين بين النُصيرية ليفرضوا على المستضعفين منهم المذهب الكاثوليكي. فزعموا أن نفراً من هؤلاء قد جاءوا الى الراهبات اليسوعيات في صافيتا وطلبوا منهن ان يقبلنهم في المذهب اللاتيني . ويقولون إنّ الراهبات المذكورات اتصلن ببيروت فأسرع رهبان يسوعيون من بيروت الى بلاد العلويين واستكتبوا رجلاً اسمه محمد تامر — او زعموا ذلك اسماً لرجل نصيري — كتاباً ، ثم ارسلوا كتابه الى البابا ، وفيه يقول بزعمهم ان النصيرية من أحفاد الصليبيين ، وان التعليم الديني عند الرهبان جعلهم يرون ان النصرانية خير الأديان .

(1) Jessup 790 f.
(2) Addison 148.
(3) Islam and Missions 39 f.

وهكذا تمكن اليسوعيون بمساعدة الافرنسيين ، او الجيش الافرنسي على الاصح ، ان ينقلوا اثنتين وعشرين اسرة (او نحو ثمانين شخصاً) الى المذهب اللاتيني المسيحي بعد أن جمعوهم في جنينة رسلان في الخامس عشر من آب (أغسطس) عام ١٩٣٠ .

ويعلق اليسوعيون على ذلك بقولهم وبلغتهم :

Le premier pas était fait, il était décisif

ـ لقد خطونا الخطوة الاولى ، ولقد كانت خطوة حاسمة ! (١) ـ

بمثل هذه الروح يعمل اليسوعيون في بلادنا . ولا غرو فلقد كانوا مسلحين دائماً بالرضى الفرنسي لأن معاهدة فرساي قد نصت في مادتها الثامنة والثلاثين بعد الاربعمائة على جواز التبشير في سورية .

وبعد شهرين من هذا الحادث ، في السادس من تشرين الاول عام ١٩٣٠ ، اسفر اليسوعيون عن وجههم تماماً وذهب الاب شانتور ، رئيس الجامعة اليسوعية يومذاك ، مع خمسة من المبشرين ليؤسسوا مركزين للتبشير في بلاد العلويين وفي قرق خان (٢) .

تنافس المبشرين

لو كان التبشير دعوة خير لما تنازعت فيه طوائف المبشرين ولما تنافست فرقهم ومذاهبهم . والدليل القائم على ذلك ان اهل كل مذهب ديني ينشرون مع مذهبهم ، وهم يبشرون به ، هوى سياسياً معيناً . ولقد كانت الدول تهتم بمبشريها لاعتقادها ان مبشريها طلائع نفوذها ومقدمات لتبسّطها في الأرض .

لما اتسع نفوذ المبشرين الامريكيين في الامبراطورية العثمانية ، بين عام ١٨٤٠ ١٨٥٠ ، وكثر تدخلهم في شؤون البلاد تنفيذاً لسياسة استعمارية ، عزمت تركية على اخراجهم من الامبراطورية كلها . ولكن وزير الخارجية الاميركية رفض أن يتخذ مثل هذه الخطوة . ثم استطاعت الولايات المتحدة ان تحول انتباه الباب العالي الى امور اخرى (٣) ، اي ان الولايات المتحدة اثارت لتركية مشاكل كبيرة صرفتها عن امر المبشرين . وهكذا ظل المبشرون الأمريكيون يتمتعون في الامبراطورية العثمانية بحقوق الرعايا الامريكيين كما تنص معاهدة «الامتيازات الأجنبية» التي تمنح الأجانب

(1) Les Jesuites en Syrie 10 : 23-9.
(2) ibid 10 : 7.
(3) Islam and Missions 159.

المرغوب في وجودهم في الامبراطورية العثمانية حقوقاً واسعة . ولكن المبشرين كانوا يتسلحون بهذه المعاهدة ويأتون بأعمالهم التبشيرية والسياسية ، حتى أنقذت تركية نفسها من هذه المعاهدة الجائرة عام ١٩١٤ ، إذ ألغتها بعد نشوب الحرب العالمية الاولى .

وأدرك المبشرون ان اختلافهم يضعف قواهم من ناحيتين : ان المنافسة بين الجمعيات التبشيرية يضطرها الى بذل جهود كبيرة ثم يجعل بعضها ينافس بعضاً ، وهكذا تُضعف حركة التبشير نفسها . كذلك يحط اختلاف المبشرين فيما بينهم من مقامهم في عيون الشعوب فيقل تأثيرهم بقلة احترام الناس لهم . لذلك فرح المبشر جون موط لما اجتمع في مؤتمر ادنبره (اسكوتلندة) عام ١٩١٠ مندوبون عن مائة وتسع وخمسين جمعية تبشيرية من جميع أقطار العالم ثم ألفوا لجاناً مشتركة لمتابعة اعمال التبشير المختلفة . ولكن هذه اللجان المشتركة لم يكتب لها نجاح كبير ، فقد حالت الحرب العالمية الأولى دون قيامها بالعمل الموحد . ثم انتهت الحرب العالمية الاولى ، ولكن القيادات الدينية في العالم المسيحي لم تشأ أن تتنازل عن زعاماتها الخاصة ، مما جعل جون موط نفسه يقر بأن الجمعيات المسيحية غير موحدة توحيداً ظاهراً ولا فعلياً ، لا في البلاد غير المسيحية ولا في اميركة نفسها (١) . إن توحيد جهود المبشرين لم يتحقق لأن لكل دولة من وراء التبشير غايات سياسية تخالف غايات سائر الدول .

ولما حاول جون موط ان يرسم صورة للشخصية التي يجب ان تتحد تحت قيادتها جهود الامم النصرانية في ميدان التبشير أصر على نقطتين اساسيتين : اما اولاهما فهي أن تكون القيادة جامعة ، لأن العصر الذي نعيش فيه جعل العبقريات تتخطى الحدود القومية . ثم أكد ، في المقام الثاني ، العنصر الاقتصادي في القيام بأعباء التبشير (٢) . فاذا نحن علمنا ان جون موط كان قد عرض في كتابه للناحية الاقتصادية في فصل كامل سماه «اطلاق قوة المال (٣)» وذكر فيه ـ بالاستناد الى دائرة المعارف البريطانية ـ ان الولايات المتحدة هي اغنى الدول ، بل اغنى من عدد كبير من الدول الغنية مجتمعة ، لم نعد الصواب اذا قلنا إنه كان يريد هذه الزعامة لأمته الاميركية البروتستانتية . وهذا أمر لا تقره بطبيعة الحال فرنسة الكاثوليكية ولا انكلترة البروتستانتية نفسها . اضف الى ذلك كله الانانية والنظرة الاقليمية الضيقة والكره المتأصل بين المذاهب مما يحول دون

(1) Five Decades 48 - 49, 60 - 61.
(2) ibid 119 - 133.
(3) ibid 62 - 82.

تحقيق التعاون على وجه ناجح (١) . وهذا من حسن حظ المسلمين وحظ سائر البشر .

المبشرون يحتالون على النظام الجمركي

ولم يكتف المبشرون منذ اول أمرهم بأن يقيموا حيث شاءوا في الامبراطورية العثمانية ، بل اتخذوا من ضعف الدولة العثمانية سبباً الى التخلص من دفع الضرائب لأنهم اجانب !

ويبدو لنا بكل وضوح أن الامتيازات التي أصبح الأجانب يتمتعون بها في الامبراطورية العثمانية كانت تزيد كلما زاد ضعف تلك الامبراطورية . فالامريكيون مثلاً لم يكونوا قبل عام ١٨٦٥ مُعْفَيْنَ من الضرائب (٢) . ويبدو ان الرهبان اليسوعيين خاصة كانوا يتمتعون بالاعفاء من الضرائب قبل المبشرين الامريكيين (٣) . وأخيراً اصبحت الامبراطورية العثمانية من الضعف بحيث سمحت لجميع الاجانب بأن يتمتعوا في امبراطوريتها بامتيازات واسعة فلا يدفعون ضرائب على ما يستوردون من الخارج اذا كان لحاجاتهم الخاصة . ولكن تركية عاودتها في آخر الأمر جرأتها وألغت الاعفاء الجمركي لأنها عرفت ان رجال الدين الاجانب الذين جاءوا لاعمال البر والاحسان بين ظهرانيّنا قد جعلوا يستوردون البضائع المختلفة ثم يبيعونها للتجار الوطنيين ، او يبيعونها لحسابهم الخاص ولكن بواسطة التجار الوطنيين (٤) .

ولقد كانت الدول الاجنبية تبسط الحماية على مبشريها في بلاد الشرق لأنها تعدهم حملة لتجارتها وآرائها ولثقافتها الى تلك البلاد . بل لقد كان ثمت ما هو أعظم من هذا عندها : لقد كان المبشرون يعملون — بطرق مختلفة كالتعليم مثلاً — على تهيئة شخصيات شرقية لا تقاوم التبسط الاجنبي (٥) .

في الرابع من نيسان عام ١٩٢٤ عقد اتفاق بين الولايات المتحدة وفرنسة في باريس ، ولكن لم يعلن الا في الثالث عشر من آب ، جاء في المادة العاشرة منه :

« ان اشراف الدولة المنتدبة على الارساليات الدينية في سورية ولبنان يجب ان

(1) Cooperation and the World Mission 45.
(2) Jessup 293, 572, 470.
(3) Jessup 534 etc. etc.
(4) Jessup 293.
(5) Re-Thinking Missions 11, 14, 15.

يقتصر على حفظ الأمن وتسيير الحكم (١) . ثم ان نشاط هذه الارساليات الدينية يجب الا يُعترض سبيله ، كما ان رجال هذه الارساليات يجب الا يخضعوا لتدابير يقيدهم بسبب جنسيتهم (٢) ، ما دام نشاطهم قاصراً على الحقل الديني ... » .

هذه المادة تدل ضمناً على القيام بالتبشير ، لأن التبشير هو المقصود بالتركيب « نشاط هذه الارساليات الدينية » ، مما يلاحظ من اماكن مختلفة ، سنراها في الفصول التالية . وليس المقصود منها « ممارسة العبادات » : ان رعايا الدول الاجنبية كلها تمارس عبادتها في لبنان وفي غير لبنان من غير ان تكون قد عقدت معاهدة مع الدولة الفرنسية المنتدبة .

على ان فرنسة المنتدبة على سورية ولبنان قد استغلت كل فرصة لتنقل امتيازات الارساليات المختلفة الى الارساليات الفرنسية وحدها . ففي تشرين الثاني من عام ١٩٢٥ نقلت الحكومة الفرنسية حق الاشراف على المؤسسات التبشيرية ، التي كانت للالمان قبل الحرب العالمية الاولى في بيروت خاصة ، الى المؤسسات التبشيرية والتعليمية الفرنسية ثم جعلتها تتمتع باشراف الحكومة الفرنسية نفسها واشراف المفوض السامي في سورية (٣) .

هذه لمحة عامة في بواعث التبشير وملابساته وغاياته الظاهرة والباطنة نمر بها مسرعين . وسيرى القارىء الكريم اوجه التبشير مفصلة في الأبواب التالية .

ونحن نحبّ من القارىء ان يتبين ان حب الخير والتعليم والتطبيب وما اليها هي وسائل للتبشير . ثم ان التبشير الديني نفسه ستار للتبشير التجاري والسياسي وأساساً متيناً للاستعمار . ولنذكر دائماً ان اكثر الفتن الداخلية في الشرق ، من دينية وسياسية واجتماعية ، انما قام بها المبشرون والذين استأجرهم المبشرون ، على ما نراه في الصفحات التالية كلهـا .

(١) في الاصل : Good Government
(٢) المقصود : يجب الا يحرم الامريكيون من امتيازات تتمتع بها الارساليات الدينية الفرنسية .
(3) Bianquis 3 - 5.

الفصل الثاني

التطبيب حيلة للتبشير

*

حينما يتخرج الطبيب في كليته يقسم ، بعد أن يتسلم الشهادة ، يميناً تسمى يمين أبقراط ، وتعرف في الكتب العربية باسم وصية ابقراط . وصورة هذا العهد هكذا (١) :

« اني اقسم بالله رب الحياة والموت وواهب الصحة وخالق الشفاء وكل علاج ، واقسم بأسقليبيوس (٢) ، وأقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعاً واشهدهم جميعاً على انني أفي بهذه اليمين وهذا الشرط ... واقصد في جميع التدابير ، بقدر طاقتي ، منفعة المرضى . واما لأشياء التي تضر بهم وتدني منهم بالجور عليهم فامنع منها بحسب رأيي . ولا أعطي — اذا طلب مني — دواء قتالاً ولا أشير ايضاً بمثل هذه المشورة . وكذلك ايضاً لا أرى ان ادني من النساء فرزجة (٣) تسقط الجنين . واحفظ نفسي في تدبيري وصناعتي على الزكاة والطهارة ... وكل المنازل التي ادخلها انما أدخل اليها لمنفعة المرضى ، وانا بحال خارجة عن كل جور وظلم وفساد ارادي مقصود اليه في سائر الاشياء ... واما الأشياء التي اعاينها في أوقات علاج المرضى او أسمعها ، او في غير اوقات علاجهم ، في تصرف الناس من الاشياء التي لا يُنطق بها خارجاً فأمسك عنها وأرى ان مثالها لا ينطق به ... » .

هذه اليمين تنكشف عن نفس نبيلة انسانية ، ذلك لأن المريض المتألم يضحي اشياء كثيرة في ملكه حتى يتخلص من آلامه . واذا رأى أحدٌ قريباً له او ابناً على الأصح مريضاً زاد رضاه بالتضحية وقلت قيمة كل شيء في عينيه في سبيل شفاء ابنه او أمه او ابيه او زوجه

(١) طبقات الاطباء ١ : ٢٥ .
(٢) اسقليبيوس اول من تكلم في الطب من اليونانيين كما ذكر مؤرخو الطب (طبقات الاطباء ١ : ١٤).
(٣) كذا بالأصل .

استغلال آلام البشر

ولقد أدرك المبشرون هذا الميل في البشر فخرجوا عن كل نبل في الطبيعة الانسانية وسخّروا الطب في سبيل غايات ، حسبك دليلاً على نوعها قولهم هم : حيث تجد بشراً تجد آلاماً ، وحيث تكون الآلام تكون الحاجة الى الطبيب (١) ، وحيث تكون الحاجة الى الطبيب فهنالك فرصة مناسبة للتبشير . وهكذا اتخذ المبشرون الطب ستاراً يقتربون تحته من المرضى .

وقد كان اول من غير سنة ابقراط الجميلة الامريكيون حينما بدأوا ينشئون عيادة طبية في سيواس (بتركية) عام ١٨٥٩ م (٢) . وهكذا نظر الامريكيون منذ ذلك الحين الى الطب على انه معين على التنصير . ومنذ ذلك الحين اعتبر الامريكيون الطب « مشروعاً مسيحياً » (٣) . وعلى هذا قال الطبيب بول هاريسون (٤) في كتابه « الطبيب في بلاد العرب » (ص ٢٧٧) :

« ان المبشر لا يرضى عن انشاء مستشفى ولو بلغت منافع ذلك المستشفى منطقة (عُمان) بأسرها . لقد وُجدنا نحن في بلاد العرب لنجعل رجالها ونساءها نصارى ! »

ولا ريب في أن الطبيب يستطيع ان يصل الى جميع طبقات الناس حتّى اولئك الذين لا يخالطون غيرهم . ولذلك قال المبشرون ان بامكان الطبيب المبشر ان يصل بتبشيره الى جميع طبقات المسلمين بواسطة المرضى الذين يعالجهم (٥) . ثم انهم فرضوا ان يكون الطبيب المبشر « نسخة حية من الأنجيل » . ان بامكانه ان يغير الذين حوله ويجعل منهم نصارى حقيقيين او ان يترك في نفوسهم أثراً عميقاً (٦) على الأقل .

والمبشرون يصرحون بذلك . كتب س.ا.موريسون (٧) في مجلة العالم الاسلامي التبشيرية يقول :

« نحن متفقون بلا ريب على ان الغاية الاساسية من اعمال التنصير بين المرضى

(1) Milligan 133.
(2) Addison 92.
(3) Re - Thinking Missions 991 .
(4) Paul W. Harrison, ND., Doctor in Arobia.
(5) cf. 253 f.
(6) Harrison 276.
(7) S A Morrison.
(8) I W, April 1920 pp 129 ff.

الخارجيين (١) في المستشفيات ان نأتي بهم الى المعرفة المنقذة ، معرفة ربنا يسوع المسيح ، وان ندخلهم أعضاء عاملين في الكنيسة المسيحية الحية » . ويرى الكاتب ان للتبشير بين هؤلاء المرضى طريقين . وهو يفضل ان يزور الطبيب المبشرُ المريض (للمسلم) حتى يكون هذا المريض واسطة لجمع عدد غفير من المسلمين عنده في انتظار زيارة الطبيب . وحينئذ تكون الفرصة سانحة حتى يبشر هذا الطبيب بين اكبر عدد ممكن من المسلمين في القرى الكثيرة في طول مصر وعرضها .

وفي عام ١٩٢٤ أقام المبشرون مؤتمراً عاماً وعقدوا جلساته في القدس واستانبول وحلوان (مصر) وبرمّانا (لبنان) وبغداد . وقد اهتم المؤتمرون ، وخصوصاً في جلسة القدس ، بالتطبيب على انه وسيلة الى التبشير (٢) وفصلوا طرق ذلك . اما مؤتمر برمانا (لبنان) فلم يتعرض مفصلاً للتطبيب ولكنه اكد اهميته (٣) .

واحب ان أذكر هنا اسماء عدد من الذين حضروا جلسات برمانا حتى نعرف اولئك الأشخاص الذين يعيشون عيشتين : عيشة حيادية برئية يدعون فيها الوطنية وتأليف القلوب ثم عيشة تبشيرية . مـــن هؤلاء القس مفيد عبدالكريم (بيروت) ، القس خليل عواد (اللاذقية) ، القس بشارة بارودي (سوقالغرب) ، القس ج ستيوارت كروفورد (الجامعة الامريكية في بيروت) ، بيارد ضودج (الجامعة الامريكية في بيروت) ، امرأة جبر ضومط (بيروت) ، جليل ايراني (القدس) ، داوود كاتبة (يبرود) . الياس مرموره (نابلس) ، الدكتور نجيب سعد (بيروت) ، نجيب شمعون (برمانا) ، المستشرق مارغوليوث (لندن) (٤) .

اهمية المتوصفات والمستشفيات

اما اذا كان للاطباء المبشرين مستوصف او مستشفى ، فان مهمتهم الثانية ، او الاولى على الاصح ، تكون أسهل . حينئذ يستطيع الطبيب ان يجد في غرفة الاستشارة او في العراء فرصاً مناسبة لينثر بذور التبشير في قلوب المرضى (٥) . في هذه الحال

(١) المرضى الذين يأتون الى المستشفى للمداواة من غير ان يناموا فيه .
(2) Christian Workers 32 - 4.
(3) ibid. 121.
(4) ibid. 123. f.
(4) Richter 552.

يكون كل من دخل المستشفى او اتي الى المستوصف للمعالجة قد تلقى من طبيبه المبشر تلك الكرازة (١) التي توجهه نحو المسيح (٢) .

من أجل ذلك عُني المبشرون ، اول ما عُنوا ، بالتطبيب على انه واسطة الى غاية . ان اليسوعيين مثلاً قد أسسوا اكثر اعمالهم التبشيرية في سورية الى جانب مراكز التطبيب . بل ان مراكز التبشير قد بدأت عندهم مراكز للتطبيب في أول الأمر . وفي هذه المراكز وجهوا عنايتهم الاولى الى كبار الموظفين والى الاعيان . وكانوا يستغلونهم من هذه الطريق لمصالح تبشيرية بحت . ومع الأيام أخذت عناية اليسوعيين بالتطبيب تقل وقيامهم بالتبشير يزيد حتى حل التبشير المحض محل التطبيب (٤) الذي كان رءاء الناس .

كبار الاطباء مبشرون

ومنذ عام ١٨٧٥ م وجهت الجمعيات التبشيرية اهتمامها الى سورية وانشأت مراكز طبية في غزة ونابلس وغيرهما من المدن ، في سورية وفلسطين . وكذلك كان لهم اطباء دوّارون يزورون القرى ليلاحقوا الناقهين الراجعين الى قراهم فيكرزوا فيهم ، ولكنهم لم ينجحوا (٤) . وكذلك يجب الا نعجب اذا علمنا ان اكثر الأطباء البروتستانت الذين نعرف اسماءهم ما جاءوا الى بلاد العرب الا حباً بالتبشير لا بالتطبيب . ثم أنّ جلهم ، إن لم نقل كلهم ، قد اوقعوا في البلاد اضراراً تفوق الخدمات الطبية التي أسدوها اضعافاً مضاعفة . إن آسا دودج وفورست وكارنيليوس فانديك وجورج بوست وتشارلس كلهون وماري أدي والدكتور طومسون (٥) كلهم كانوا اطباء في الظاهر . اما في الباطن فكان ضررهم على البلاد يزيد او ينقص بحسب الاستعداد الشخصي لكل واحد منهم وبحسب الفرص التي سنحت لهم .

اعترافهم بخداع المرضى

واذا أنت أردت ان تعرف مبلغ اهتمام هؤلاء الاطباء بالتبشير لا بالتطبيب فاعلم

(١) الكرازة تعبير مسيحي معناه القاء النصائح على الآتين الى الكنيسة ، كرز أو خرز (بالسريانية) : وعظ .
(2) Harrison 141.
(3) Les Jesuite en Syrie 12 : 12 f.
اما الآن فان اليسوعيين قد عادوا فأنشأوا مركزاً كبيراً للتطبيب في البقاع .
(4) Bliss(R) 316 f.:Jessup 802,804
(5) cf. Jeesup 37, 108, 804.

ان نفراً منهم انشأوا مستوصفاً في بلدة الناصر في السودان ، وكانوا لا يعالجون المريض ابداً الا بعد أن يحملوه على الاعتراف بأن الذي يشفيه هو المسيح (١) ، وان كان الكاتب قد وضع هذا المعنى في تركيب بلاغي يختلف عن هذا الذي قلناه نحن في اللفظ فقط .

ومثل هذا كان فعلهم في أماكن مختلفة ، ففي بلدة الناصر هذه مثلاً كان التنصير والتطبيب يسيران جنباً الى جنب كما يقول المؤلف نفسه (٢) . وفي الحبشة كانت المعالجة لا تبدأ قبل أن يركع المرضى ويسألوا المسيح أن يشفيهم (٣) . ومن الحيل التي استعملها المبشرون في وادي النيل انهم استخدموا ثلاثة مراكب وجعلوها مستوصفات نقالة على النيل . وكانوا يعلنون عن مجيء الطبيب قبل أن يصل بوقت طويل ، فيأتي الناس من كل صوب يحملون مرضاهم ، وينتظر الجميع قدوم الطبيب . في هذه الأثناء يقوم فيهم من يبشر (٤) فرحاً بالجموع ، من غير أن يتحرك ضميره لهذه الآلام التي يتحملها المرضى في وضح الشمس ومضض الانتظار عمداً وخداعاً .

ومثل هذا كانوا يفعلون في بلدة الشيخ عثمان في اليمن . كان الناس يأتون من مكان بعيد يحملون مرضاهم ، وكان أولئك الاطباء ، الذين لم يضع الله في قلوبهم شيئاً من معاني الانسانية ، لا يبدأون بعلاج المرضى الا بعد ان يكرزوا عليهم (٥) . وحملت ام مرة طفلها المريض وجاءت به الى مستوصف الناصر بالسودان ، ولكن الطفل مات في أثناء الطريق الطويلة ، فلم يُعزّ الطبيب هذه الأم الثكلى بل جلس يكرز عليها (٦) .

وكان المبشرون يعلنون ذلك ولا يكتمونه ، فقد قال رشتر : في هذه المناسبات من التطبيب في مستوصف او مستشفى يمكن للطبيب ان يخاطب المسلمين بكلام كثير لو سمعوا بعضه في مكان غير المستشفى ومن شخص غير الطبيب لامتلأوا غيظاً وغضباً (٧) . اما حيث تمتزج الصفاقة بالتدجيل ويمتزج الجهل بموت الضمير فكلام إيرا هاريس . قالت إيرا هاريس تنصح الطبيب الذاهب بمهمة تبشيرية :

« يجب ان تنتهز الفرص لتصل الى آذان المسلمين وقلوبهم فتكرز لهم بالانجيل . اياك أن تضيع التطبيب في المستوصفات والمستشفيات فانه أثمن تلك الفرص على الاطلاق .

---

(1) Milligan 158
(2) Milligan 101
(3) Milligan 32
(4) Milligan 142
(5) Gairner 278 f.
(6) Milligan cf. 158.
(7) Richter 252; cf. Methods of Missions 54.

ولعل الشيطان يريد أن يفتنك فيقول لك : ان واجبك التطبيب فقط لا التبشير . فلا نسمع منه » (١) . ولقد تنبه دانيال بلس ، الرئيس الاول للجامعة الاميركية في بيروت ، الى كل هذا والى غيره ايضاً فأشار الى الأطباء الدجالين الذين يتعرضون لمداواة الناس ، فاذا جاءهم المريض انصرف من عندهم بنسخة حسنة الطبع من الانجيل وبوصفه خاطئة . ويعلق دانيال بلس نفسه على هذا الحديث بقوله : وبعد أيام يكتشف المريض ان انجيل الطبيب كدوائه (٢) . وهنالك حوادث وأقوال مشابهة لهذه التي عددناها ، أو هي تخالفها قليلاً ، لا نميل الى تعدادها لانها تحمل على الملل . ولكن لا بأس من ان ننبه عليها تنبيهاً (٣) .

جهلهم وكرههم للعلم

ولكن لم تكن جميع اخطاء الأطباء المبشرين في الطب جهلاً ، بل كان بعضها عناداً وتعصباً. ذكر الشيخ مصطفى الغلاييني في خطاب ألقاه في ذكرى مولد الرسول في ١٢ ربيع الأول ١٣٢٨ (٢٤ آذار ١٩١٠) شيئاً من هذا قال (وإن لم يقصد هو به ما نريد به نحن) :

« وأقرب مثال على هذا امر جرى في بيروت ، وذلك ان الدكتور ورتبات الاميركاني الفيلسوف العالم الطبيب كان ينكر عدوى الجذام ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : فرّ من المجذوم فرارك من الأسد » . ثم تبين له صحة الحديث وتحقق عدوى هذا المرض فصرح بأنه معد ... » (٤) .

*

بقي هنالك أشياء قليلة يجب أن تقال مفصلة . يقول بعضهم : ان مكان التنصير انما هو في مستشفيات الارساليات التبشيرية . ثم يذكر ان المستشفيات قد استغلت لهذه الغاية بصراحة . وهنالك اليوم عزم للاعتماد على الأعمال الطبية للوصول الى الآذان

---

(1) Methods of Missons 105
(2) Re - Thinking Missions 203
(3) Gairdner 278, 292: Richter 164, 191 f,. 201 - 209 : Milligan 32 ; Islam and Missions 167; Methods of Missions 103; Cash 138 f. ; Abdison 159, 168.
(٤) مجلة النبراس (بيروت) المجلد الثاني ، الجزء الثالث ، ص ١٢٧-١٢٨ .

والحصول على متنصرين (١) . ويرى هذا القائل نفسه ان المستشفيات يجب ان تسخر للتبشير على ان يصل المبشرون الى الأشخاص المحترمين من ذوي الفائدة (٢) الذين يمكن ان يؤثروا في غيرهم من أبناء ملتهم . والتبشير من طريق التطبيب كان عندهم عاملاً مهماً منذ زمن طويل ، حتى ان هنالك كتباً في هذا الموضوع منها مثلاً كتاب « ارساليات (التبشير) الطبية » من تأليف جون لو ، وقد صدر عام ١٨٩٦ (٣) .

العنصر النسائي في التبشير

ولم ينس المبشرون مقام المرأة في الأسرة فوجهوا اهتمامهم الى التأثير عليها وجعلوا يبشرون في مستشفيات النساء وفي المستوصفات . وكذلك أرسلوا الطبيبات المبشرات الى البيوت والقرى للاتصال مباشرة بالنساء واستخدام نفوذ المرأة في الوصول الى اهدافهم التي يزعمون انها نبيلة ، ولكنها لا تنكشف دائماً الا عن سعي لبسط نفوذ سياسي استعماري .

ولقد استغلّ المبشرون كل شيء في سبيل التنصير (او محاولة التنصير) حتى الممرضات . يرى المبشرون (٤) . ان الممرضة لا تعمل على تخفيف الألم عن المرضى فقط بل تحمل اليهم ايضاً رسالة المسيح ، ولذلك حرص المبشرون على انشاء مدارس للتمريض في ايران خاصة .

*

يلاحظ القارىء ان فصل التبشير والتطبيب هذا قصير ، وسبب ذلك هو اننا لم نحب ان نذكر الآراء والحوادث المتشابهة . فحسب القارىء اذن ان يرى هذه النماذج ثم يعلم ان ثمت أمثلة كثيرة من جنسها .

---

(1) Re - Thinkiug Missions 200.
(2) ibid 199 - 201 .
(3) John Lowe, Medical Missions, New yorw 1896.
(4) cf. MW, Oct. 1936, p 283.

الفصل الثالث

التعليم ميدان فسيح للتبشير

(١) التعليم عموماً

°

وَلَوْ أنّ أهلَ العلمِ صانوهُ صانَهم ، وَلَوْ عظّموهُ في النفوسِ لعُظِّما .
وَلكنْ أهانوهُ فهانَ ، ودَنّسوا مُحيّاهُ بالأطماعِ حتى تجهّما .

كانت العصور الوسطى في التاريخ الانساني تدعى العصور المظلمة لأنها كانت عصوراً خبا فيها نور العلم . فلما طلع العلم بنوره على اوروبة من الشرق بدأت غياهب تلك الظلمات تنجاب عن اوروبة شيئاً فشيئاً حتى ازدهرت المدينة فيها وعمتها الحضارة . فأوروبة المتحضرة بنتٌ العلم وحده ولست بنت الدين . لقد كانت الروح الدينية في العصور الوسطى على أشدها في اوروبة وكانت اوروبة لا حضارة لها . فلما فضلت اوروبة العلم اصبحت قبلة الحضارة في العصور الحديثة .

«كل مولود يولد على الفطرة (١) » ، ولكنه يولد وفيه استعداد طبيعي يتوجه به نحو الخير او الشر ، ونحو صناعة دون اخرى . ولا ريب في اننا اذا استثنينا بعض عوامل الوراثة الطبيعية وجدنا ان الموجّه الحقيقي لكل فرد انما هو البيئة الأولى التي احتضنته صغيراً . على ان عوامل البيئة تظل تعمل في الافراد والجماعات ، ولكن تأثيرها يقلّ كلما تقدم الانسان في السن .

ولقد أدرك المبشرون هذه الخاصة في البشر ، هذه الخاصة التي يجب ان تستغل في سبيل الانسانية وفي سبيل جلاء شخصية الفرد وبناء شخصية المجموع . ولكن المبشرين ضربوا بهذا كله عُرض الحائط واستخدموا العلم والتعليم في سبيل غايات

---

(١) حديث شريف .

صغيرة وشغلوا أنفسهم بتبديل عقائد الأفراد الدينية باذلين جهوداً كباراً في سبيل منافسة غير نبيلة : عداوة على تجاذب الأشخاص بين اليسوعيين والبروتستانت ، ومكائد بين فرق البروتستانت أنفسهم ، ثم رياء لا حد له في تزيين الآراء وتسويد صفحات التاريخ .

ونحن هنا دائرون بك حول نقطتين : حول استغلال المبشرين للعلم بطرق لا تنكشف الا عن ضيق في الافق ، الا ان هذا قليل الأهمية لأن الانسان لا يلبث ان يرى هذا الأفق الضيق فيجازي به اصحابه . وأما النقطة الثانية فهي حرص المبشرين على افساد النبل الانساني وجعل العلم ، العلم الذي هو نعمة في سبيل تحرر الانسانية ورقيها ، وسيلة الى استعباد الأفراد والأمم ثم سوقهم بسيف الاستعمار الى الاستكانة امام سلطان السياسة المادي . لقد سخر المبشرون اسم الله في سبيل ترويج بضائع أممهم ونشر النساد الاجتماعي في العالم ، ولا ريب في ان بعضهم قام بما قام به غير عارف بما سيترتب على عمله من العواقب . ولكن العاقبة على كل حال لم تكن حميدة .

ليس للتعليم عندهم غاية سوى التبشير

قال نفر من المبشرين :

« ان اهداف المدارس والكليات التي تشرف عليها الارساليات في جميع البلاد كانت دائماً متشابهة . ان المدارس والكليات كانت تعتبر في الدرجة الأولى واسطة لتمرين قسس للكنيسة ... حتى أن الموضوعات العلمانية التي تعلم ، من كتب غربية وعلى يد مدرسين غربيين ، تحمل معها الآراء النصرانية (١) . وعلى هذا (الأساس) كتب المبشر هنري هريس جسب الى المحترم و. ستوارت دودج في الخامس من كانون الأول عام ١٨٧٠ : « لنبتهل الى الله في سبيل تعميد نفوس اولئك الشبان الذين يترددون على الكليات » (٢) . ويرى هنري جسب نفسه : « ان التعليم في (مدارس) الارساليات المسيحية إنما هو واسطة الى غاية فقط . هذه الغاية هي قيادة الناس الى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا افراداً مسيحيين وشعوباً مسيحية . ولكن حينما يخطو التعليم وراء هذه الحدود ليصبح غاية في نفسه وليخرج لنا خيرة علماء الفلك وطبقات الأرض وعلماء النبات وخير الجراحين والأطباء في سبيل الزهو العلمي ... فاننا لا نتردد حينئذ في أن نقول ان رسالة مثل هذه قد خرجت عن المدى التبشيري المسيحي الى مدى علماني محض ،

(1) Re - Thinwing Missions 118.
(2) Jessup 378.

الى مدى علمي دنيوي . مثل هذا العمل يمكن ان تقوم به جامعات هايدلبرغ وكمبردج وهارفرد وشيفيلد ، لا الجمعيات التبشيرية التي تسعى الى أهداف روحية فحسب » (١) .

وكان جسب قد قال قبل ذلك : ان المدارس شرط أساسي لنجاح التبشير ، وهي بعد هذا واسطة لا غاية في نفسها . لقد كانت المدارس تسمى بالاضافة الى التبشير « دق الاسفين » وكانت على الحقيقة كذلك في ادخال الانجيل الى مناطق كثيرة ، لم يكن بالامكان ان يصل اليها الانجيل او المبشرون من طريق آخر » (٢) . ويرى بعضهم ان المدارس قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي اكثر من كل قوة اخرى (٣) . ثم ان هذا التأثير يستمر حتى يشمل اولئك الذين سيصبحون يوماً ما قادة في أوطانهم (٤) .

ورأيُ المبشرين في ذلك لم يتغيـر قط ، حتى المستر بنروز الذي جاء في عام ١٩٤٨ ليتسلم زمام الرئاسة في جامعة بيروت الامريكية كان أيضاً خاضعاً لهذه الفكرة ، انه يقول (٥) : لقد أدى البرهان الى ان التعليم أثمن وسيلة استغلها المبشرون الامريكيون في سعيهم لتنصير سورية ولبنان ... ومن أجل ذلك تقرر ان يُختار رئيس الكليـة البروتستانتية الانجيلية (الجامعة الاميركية اليوم) من مبشري الارسالية السورية » .

وفي الوقت الذي كان الدكتور بنروز يعد مواد كتابه التبشيري ، انعقد في القدس (في نيسان ١٩٣٥) مؤتمر تحت اشراف فرع فلسطين من لجنة التعليم للمجلس التبشيري المتحد . ولم يضع المؤتمر تقريراً على عادة المؤتمرات الاخرى ، بل عهد الى احد اعضائه ه.دانبي ليضع كتاباً توجيهياً يتضمن ما وصل اليه المؤتمرون من الملاحظات والآراء (٦) .

يقول دانبي في كتابه (ص ١) : كان التعليم ... وسيلة قيمة الى طبع معرفة تتعلق بالعقيدة المسيحية والعبادة المسيحية (في نفوس الطلاب) » .

والمؤلف يفرق بين المدارس المسيحية والمدارس التبشيرية . ان المدارس التبشيرية تحاول أن تنقل الطلاب من مذاهب مختلفة الى مذهبها هي . أما المدارس « المسيحية » فانها تحاول ان تهيىء للطالب ، من اي مذهب كان ، جواً مسيحياً وتحمله فيه على ممارسة

(1) Jessup 592, 567.
(2) Jessup 562p 592.
(3) Anna A. Milligan, Milligan 108.
(4) Milligan 124 - 5.
(6) Penrose 7, 10.
(٦) جميع ارقام الصفحات المحصورة بن الاهلة في متن المقاطع التالية تعود الى :
H. Danby, Why « Christian » Schools ? or what can « Christian » Schools contribute ? with parlicular reference to Palestine,Jerusalem1936.

التقوى المسيحية وسلوك المسيحي (٨٨ وما بعدها ، ٩٩) ، وخصوصاً ما دام طفلاً" . وهكذا ينشأ الطالب وتنشأ معه فلسفة مسيحية للحياة (ص ٣٠) .

وقبل دانبي وبنروز ذكر المبشر المشهور جون موط نفسه كلاماً اكثر وضوحاً ، وفي ما يتعلق بالتعليم بين الصغار خاصة ، قال (١) :

« يجب ان نؤكد في جميع ميادين (التبشير) جانب العمل بين الصغار وللصغار . وبينما يبدو مثل هذا العمل وكأنه غيرية ، ترانا مقتنعين لأسباب مختلفة بأن نجعله عمدة عملنا في البلاد الاسلامية . ان الأثر المفسد في الاسلام يبدأ باكراً جداً . من أجل ذلك يجب ان يحمل الأطفال الصغار الى المسيح قبل بلوغهم الرشد وقبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الاسلامية . ان اختبار الارساليّات في الجزائر ، فيما يتعلق بهذا الأمر ، وكما ظهر من بحوث مؤتمر شمالي افريقية ، اختبار جديد ومقنع ... وهكذا نجد ان وجود التعليم في يد المسيحيين لا يزال وسيلة من احسن الوسائل للوصول الى المسلمين » .

كيف تختار هذه المدارس اساتذتها

والمؤلف لا يطلب من المعلم ان يكون مسيحياً فحسب ، بل يجب أن يكون مسيحياً من كل قلبه وأن يطبق الحياة المسيحية على المبادىء الاجتماعية والسياسية والدولية (ص ٣٠ — ٣١) . ولهذا كان المعلم الاجنبي أفضل من المعلم الوطني ، وخصوصاً اذا كان المعلم الوطني مسلماً . يقول المؤلف دانبي :

« ثم يتسع الشك على كل حال حينما نأتي الى استخدام معلم غير مسيحي ليعلم موضوعات لا نجد لتعليمها معلماً مسيحياً . أجل ، ان البراعة في التعليم لا صلة لها بدين المعلم . ومما لا ريب فيه ان معلماً مسلماً ذا خبرة بمهنته وذا كفاية يمكن أن يكون له من الجانب الشخصي وقوة الخلق والشعور بالواجب ما يجعل منه معلماً يبعث الحياة في طلابه او مربياً صالحاً . ثم هو يمكن ان يؤثر في طلابه اكثر من المعلم المسيحي المجرد من الصفات التي يتصف بها ذلك المعلم المسلم . ولكن اذا كانت الغاية من التعليم في المدارس المسيحية (كما يجب أن تكون) انما هي تزويد الطلاب باستشراف مسيحي للحياة ، وتمرين لهم على ممارسة المبادىء المسيحية وتقريبهم من اختبار شخصي

(1) Mott, The Moslem World of To - Day 371 - 372.

للايمان المسيحي ، فكيف يمكن للمسلم الأمين ان يعاوننا على بلوغ هذه الغاية ؟ ثم اذا كان هو يعتقد بهذه الغاية (لأنه ضعيف الشخصية خنوع) ولكنه لا يخطو خطوة يصبح بها مسيحياً ، أفلا يكون له حينئذ على تلاميذه تأثير سلبي فيستنتجون من سلوكه ان الدين ليس موضوعاً ذا أهمية حاسمة ؟ (ص ٦٢ ، ٦٧ — ٦٨) .

فللمدارس المسيحية اذن رسالة تؤديها . ولرسالتها هذه غاية قصوى ، هي أن تجعل الشعوب كلها في المستقبل تابعة للكنيسة (ص ١٠١ ، راجع ص ١٤ وما بعدها الى ١٨) .

من أجل ذلك كله ترفض هذه المدارس — وفي فلسطين خاصة — أن تتقيد بالمنهاج الرسمي للبلاد (١) : انّ تقيّد هذه المدارس بالمناهج الرسمية يفقدها صفتها التبشيرية المسيحية ويجعلها مدرسة في عداد المدارس الوطنية فتبطل الغاية من وجودها (راجع ص ٦ — ١٠) .

وهكذا نرى ان عقلية الاجانب ، الذين يأتون الى بلادنا باسم العلم ونشر العلم ، لم تتغير قط في القرن الذي انقضى على بدء مجيئهم الى هذه البلاد ، منذ ايام دانيال بلس الى ايام ستيفن بنروز : كلهم مبشرون في الدرجة الأولى ، وناشرون للعلم بالعرَض فقط . وما يقال عن الجامعة الاميركية يقال عن الجامعة اليسوعية وعن كل ارسالية اجنبية .

وبما ان التبشير رأساً لم يجعل احداً من المسلمين يصبأ الى النصرانية ، فقد اتفق المبشرون على ان يقتربوا من المسلمين بطريقة غير مباشرة . والكل متفقون على ان التعليم أفضل هذه الطرق غير المباشرة (٢) . من أجل ذلك يجب الا نستغرب إذا كانت اكثر مدارس البنين والبنات — والمدارس الاميركية خاصة — لا تزال مرتبطة بالارساليات (٣) . ومع أن الارساليات التبشيرية تحاول النفوذ الى الطوائف المسيحية المتعددة في الشرق ، كأن يكتسب البروتستانت مثلاً نفراً من الأرثوذكس ، فان المقصود الاول بالتبشير من طريق التعليم هم المسلمون ، وخصوصاً بعد أن تبدلت الأحوال والعقليات بعد الحرب العالمية الأولى . وهكذا كان « تاريخ الاعمال التبشيرية في البلاد الاسلامية ، الى حد كبير ، تاريخاً للتعليم الاجنبي » (٤) .

(١) ان مدارس الارساليات في لبنان تحاول كلها الا تتقيد بالمنهاج الرسمي في التعليم وتطالب بجعل التعليم حراً
(2) MW, Juiy, 36, pp 224 ff.
(3) MW,Oct. 1931. p 389.
(4) cf Milligan 20; Christian Workers 21. lll ; Gairdner 277 f.

لهذه الأسباب يعمل المبشرون على استغلال الجهل بين الشعوب والامم لينفذوا الى غاياتهم . كتب بنيامين ماراي مقالاً في مجلة العالم الاسلامي موضوعه : « شمالي نيجرية ميدان للتبشير » (١)، استعرض فيه حالة تلك البلاد وما هي عليه من التأخر العلمي على الأخص، إذ ان الذي يحسنون القراءة والكتابة، او شيئاً من الكتابة فقط ، لا يتجاوز اثنين ونصف بالمائة، ثم قال (ص١٨١): « وهذا يتيح فرصة عظيمة للتعليم التبشيري المسيحي ».

وسائل التبشير في اثناء التعليم

لما بدأ المبشرون عام ١٨٣٤ يفتحون المدارس في بلادنا كان معظمهم يقصر التعليم على التوراة والانجيل فقط لا يريد أن يتعداهما ، اذ ان غاية المبشرين الحقيقية كانت إعداد شبان للتعليم في مدارسهم او للعمل في مكاتبهم (٢) توسيعاً لحركة التبشير . على ان بعضهم كان يود ان يعلم الطلاب شيئاً آخر سوى التوراة والانجيل (٣) . ولكن المبشرين كلهم اجمعوا على ان التعليم الديني شيء أساسي في سبيل غايتهم ، واقترحوا فوق ذلك ان يوحد المبشرون مشروعهم المسيحي في التعليم (٤) .

في ذلك الحين كان العلم قليل الانتشار في بلادنا . يقول هنري جسب : اننا اذا استثنينا القرآن وكتب الدين (كالتفسير والحديث والفقه) بين المسلمين ، ثم كتب اللاهوت (الفقه المسيحي) بين النصارى ، لم يكن ثمت في البلاد العربية كتب (٥) . على ان في هذا مبالغة . لقد كان ثمت كتب لغة وكتب أدب ودواوين شعر كثيرة . ولكن هذه الكتب كلها كانت على كل حال قليلة الانتشار بين عامة الشعب . ويشهد جسب انه كان في ذلك العصر كثيرون من المسلمين يقرأون (ويكتبون ايضاً) ، أما بين النصارى فكان الذين يستطيعون القراءة والكتابة نفراً قليلين . من أجل ذلك كله فكر المبشرون كلهم بأن يتخذوا من التعليم وسيلة وستاراً الى التبشير . ولقد رتبوا ذلك على المنهاج التالي :

(1) Northern Nigeria as a Mission Field, by Benjamin J. Marais, « The Moslem World », April 1935 pp. 173 ff.
(2) Richter 161 .
(3) cf. Re-Thinking Missions 162: Richter 191.
(4) Re-Thinking Missions 164, 263; Bliss (R) 334: Jessup 593 ff. etc.
(5) Jessup 27.

« ان المبشر الاول هو المدرسة » !

١ ـ يجب أن يكون ثمة مدارس حتى يستطيع المبشر أن يتصل بالناس ويدعوهم الى مذهبه الديني . ولذلك قال اليسوعيون : ان المبشر الأول هو المدرسة (١) .

٢ ـ ولما أراد المبشرون ان يجعلوا التعليم قاصراً على التبشير فقط ، من غير ان يطلعوا على سر ذلك احداً ، اشترطوا أن يكون المعلم في هذه المدارس اجنبياً غير وطني . أما اذا دعت الحاجة الى معلم وطني فليكن مسيحياً في الدرجة الاولى (٢) ، ولكن يجب أن يكون متمرناً على التبشير (٣) . ونحن اذا راجعنا اسماء الاساتذة الذين يعملون في مؤسسة كالجامعة الامريكية مثلاً رأينا ان جميع الذين تعهدوا هذه المؤسسة من قبل ، او عملوا فيها ، كانوا مبشرين . ولا يزال الى اليوم فيها نفر مبشرون في الدرجة الاولى . وبالأمس القريب في عام ١٩٤٥ او ١٩٤٦ وجه استاذ ، من الأساتذة الذين لا يمكن ان تظن انهم مبشرون ، كل عنايته الى طالب وأدخله في المسيحية . ثم ان الجامعة أرسلت هذا الطالب الى أحد الأديرة في بلجيكة . وان احدنا ليعجب أن تكون الجامعة الامريكية إلى اليوم ايضاً مسرحاً للتبشير . (٤) .

ولا تزال جميع المدارس الاجنبية تسير على سياسة الاستغناء عن المعلم المسلم ما امكن ، حتى الكلية العلمانية . أما مدارس اليسوعية والفرير فلا يمكن أن يعلم فيها مسلم ابداً ، وأما الكلية العلمانية في بيروت ففيها مدرس وحد مسلم ، على ما نذكر . وأما الجامعة الامريكية في بيروت فكانت قد مالت منذ عام ١٩٢٥ إلى أن يكون فيها عدد من المدرسين المسلمين اختارتهم من أبناء الاسر المعروفة في بيروت والقدس ونابلس وحلب وحماه ودمشق ، وكانت ترسلهم قبيل بدء كل عام مدرسي الى المدن الداخلية ليشجعوا أبناءها على الدخول في الجامعة ، ثم انها اضربت عن ذلك ايضاً .

ولا حاجة بنا الى القول بأن هؤلاء المدرسين لم يكونوا يعاملون ، من حيث الراتب والرتبة ، كالمدرسين الامريكيين ولا كالمدرسين الوطنيين من غير المسلمين ايضاً ، مع العلم بأن حال بعض المدرسين الوطنيين من غير المسلمين لم تكن حالاً تدعو الى الغبطة . ولقد لقي بعض هؤلاء المدرسين المسلمين من الجامعة الاميركية عنتاً شديداً .

(1) cf. Les Jesuites en Syrie 10 : 97.
(2) Jessup 304, 518, 519.
(3) Jessup 593; Bilss (R) 334.
(٤) وقد عاد هذا الطالب في اراسط ١٩٤٩ بعد ان درس هناك ما قيل له ان يدرسه .

٣ — وكذلك طبقت مدارس المبشرين سياستها الضيقة على كتب التدريس ، واعتمدت في أول امرها كتاباً واحداً هو التوراة (١) . ولما أدركت ان هذا الكتاب وحده لا يكفي ورضيت أن تدرس التاريخ والجغرافية كانت تدرسهما من ناحية صلتهما بالتوراة فقط . ثم أضافت الى ذلك كله موضوعات مشابهة (٢) :

الكتب المدرسية خاصة والطعن على الاسلام

وأخيراً جاءت العلوم الحديثة ، ولم يبق بالامكان أن تتجاهل المدارس الاجنبية علوماً عظيمة نافعة كالرياضيات والكيمياء والحقوق والاجتماع والاقتصاد والرسم وما شابهها . فلجأت تلك المدارس حينئذ الى سياسة جديدة ، الى سياسة الدس على الاسلام والتاريخ الاسلامي . أليست هذه المدارس مدارس تبشيرية ؟ أوليس هدفها الأول مقاومة العرب والاسلام ؟ فلماذا لاتضيف اذن الى خطتها العملَ على تشويه سمعة خصمها ؟ وهكذا انحدر التبشير والمبشرون الى درك في التاريخ والعلم لا يحمدون على الانحدار اليه . فلنستعرض بعض آراء هؤلاء في الكتب التي يقررونها في مدارسهم .

لنأخذ أولاً الكتاب التالي ففيه أسوأ ما يمكن ان يقال ، ثم لنفرّع منه الآراء المنبثة في غيره من الكتب .

اسم الكتاب الذي أعنيه : البحث عن الدين الحقيقي (٣) ، وهو محاضرات في التعليم الديني ، تأليف المنسنيور كولى . وقد صدر عن اتحاد مؤسسات التعليم المسيحي في باريس (طبعة ١٩٢٨) . هذا الكتاب قد نال رضا البابا ليون الثالث عشر في عام ١٨٨٧ ثم عاش في المدارس المسيحية في الشرق والغرب الى اليوم يطوى الصدور على الأحقاد نحو العرب والمسلمين ، ويستفز شعور المسلمين استفزازاً شديداً .

جاء على الصفحة ٢٢٠ من هذا الكتاب ما يلي :

« الاسلام — في القرن السابع (للميلاد) برز في الشرق عدو جديد ، ذلك هو الاسلام الذي أسس على القوة وقام على أشد انواع التعصب . لقد وضع محمد السيف في ايدي الذين اتبعوه ، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق ، ثم سمح لاتباعه بالفجور

(١) العهد القديم والعهد الجديد : او التوراة والانجيل « Bible » .

(2) Jessup 593 ; Bliss (R) 334: Re-Thinking Missions 264 .

(3) Recherche de la vraie religion (cf Bibliographia) .

والسلب ووعد الذين يَهلِكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات . وبعد قليل اصبحت آسية الصغرى وافريقية واسبانية فريسه له ، حتى ان ايطالية هددها بالخطر . وتناول الاجتياح نصف فرنسة . لقد اصيبت المدنية . ولكن هياج هؤلاء الأشياع (المسلمين) تناول في الأكثر كلاب النصارى ... ولكن انظر ، ها هي النصرانية تضع بسيف شارل مارتل سداً في وجه سير الاسلام المنتصر عند بواتيه (٧٥٢ م) . ثم تعمل الحروب الصليبية في مدى قرنين تقريباً (١٠٩٩ — ١٢٥٤ م) في سبيل الدين فتدجج اوروبة بالسلاح وتنجي النصرانية . وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب وانتصر الانجيل على القرآن وعلى ما فيه من قوانين الأخلاق السهلة ... » (١) .

هذا نوع من الكتب التي تؤلف في الغرب عن الشرق ، بل ان هذا النوع هو الغالب على أهل الغرب حينما يكتبون عن الشرق العربي او الشرق المسلم : تعصب ذميم وتشويه للحقائق وإيقاد للاحقاد . ثم هم يأتون بهذه الكتب ويدرسونها في الشرق العربي والشرق المسلم . ويظهر ان هذا الكتاب الذي نحن بصدده يدرس ، او كان يدرس على الاقل ، في مدارس الاخوة المسيحية (الفرير) في بيروت وفي جميع المدارس التابعة لهذه الرهبنة في غير بيروت .

هذا النوع من التأليف هو الذي اقلق السلام بين الشرق والغرب منذ أقدم الازمنة ، وهو الذي يهدد السلام كل يوم وخصوصاً في الشرق . وليس بعجيب أن تكون حكومة الانتداب الماضية قد حمت هذا النوع من التأليف وفرضته عل البلاد بالقوة . ان قارىء امثال هذا الكتاب هو احد ثلاثة نفـر : اما ان يكون من الذين يسرون بمثل هذه الشتائم ليشفي صدراً حقوداً ، وهو خطـر على الوطن لانه يجر عليه اسوأ العواقب ؛ واما انه رجل من سواد العامة يثار بمثل هذه الأمور فيقابلها حينئذ بمثلهـا ، فيرد عليه آخرون قوله ثم تنتهي الحال بفتنة عمياء تأتي على كل شيء ، وذلك ايضاً خطر على الوطن ؛ واما انه رجل عاقل يرى في ثنايا ما يقرأ نفساً صغيرة وغاية حقـيرة فيحتقر صاحبها ثم يوسع حكمه الى احتقار الذين يرضون عن صاحبها ، فاذا هو ممتلىء شكوكاً وحذراً واشمئزازاً من الذين يعيشون معه ، وفي ذلك ايضاً خطر على الوحدة الوطنية .

(١) لا تزال امثال هذا الكتاب تدرس في مدارس الارساليات الأجنبية في لبنان . وفي كل حين تضطر وزارة المعارف اللبنانية الى منع كتاب او اكثر .

اضف الى ذلك كله ان هذا تشويه للحقائق وكذب على التاريخ ، وان الأمم التي تريد ان تحيا حياة نبيلة عظيمة صحيحة يجب أن تكون ارفع من تنحدر الى ذلك .

وقد تكون المصيبة هينة لو ان صاحب هذا القول رجل من عُرض الناس ، ولكنه رجل كاهن قانوني مثقف يمثل أحسن طبقات قومه . ثم ان البابا نفسه قد استحسن كتابه : قد استحسن اتجاهه واستحسن تفاصيل ما فيه من حوادث وأحكام واستحسن اسلوبه .

واجب الحكومات الوطنية

وبعد ، فان من أول واجبات الحكومات الوطنية ان تزيل اسباب التنافر والشقاق بازالة هذا النوع من الكتب من بين ايدي طلاب اليوم ورجال الغد كي توجد في كل قطر وفي كل زمن وطناً موحداً سليماً من الأحقاد والمخاطر ؟

وهذا كتاب آخر يدرس مثلاً في الصف الرابع من المدرسة البطريركية في بيروت ، ويدرس بلا ريب في مدارس اخرى كثيرة في لبنان ، وفي غير لبنان (وهو مطبوع في لبنان) والاسم الكامل لهذا الكتاب هو هذا :

تاريخ محاضرات ج . ايزاك . حررها أ . ألبا
للشرق الأدنى ، لطلبة الصف الخامس (العصور الوسطى)
طبعته مطابع الآداب الفرنسية في بيروت (١)

جاء في هذا الكتاب :

ص ٣١ — واتفق لمحمد في أثناء رحلاته ان يعرف شيئاً قليلاً من عقائد اليهود والنصارى. ولما أشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤى اقنعته بأن الله اختاره رسولا .

ص ٣٢ — والقرآن مجموع ملاحظات كان تلاميذه يدونونها بينما كان هو يتكلم ، وقد أمر محمد أتباعه ان يحملوا العالم كله على الاسلام بالسيف اذا اقتضت الضرورة .

ص ٣٦ — وبينما كان محمد يعظ كان المؤمنون به يدونون كلماته على عجل .

ص ١٢٦ — ودخلت فلسطين في سلطان الكفرة منذ القرن السابع للميلاد .

(1) Histoire, cours J. Isaac, redigée par A. Alba pour le Proche-Orient. Classe de 5éme. Moyen Age (Les Lettres Françaises, Beyrouth).

وهنالك أيضاً كتاب آخر يستحق اهتمامنا . اسمه تاريخ فرنسة (١) ، تأليف هـ. غيومان وف. لو ستير (لصفوف الشهادة الابتدائية) .

هذا الكتاب يدرس في مدرسة القديس يوسف للبنات في بيروت وفي مدارس هذه الارسالية في غير بيروت بلا ريب (٢) وقد جاء فيه مما نحن بصدده :

ص ٨٠ — ٨١ : ان محمداً ، مؤسس دين المسلمين ، قد أمر اتباعه ان يخضعوا العالم وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو. ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنين وبين النصارى . إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة وقالوا للناس : « أسلموا أو تموتوا » ، بينما اتباع المسيح ربحوا النفوس ببرهم واحسانهم .

ماذا كانت حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا ؟ اذن لكنا نحن اليوم مسلمين كالجزائريين والمراكشيين .

بمثل هذا الحقد يكتب المبشرون الكتب . ويضعونها في المدارس لابنائنا ثم يزعمون انهم جاءوا للتعليم والتهذيب . لقد صدق العرب : ان فاقد الشيء لا يعطيه . أفبمثل هذا يسعى سعاة الأمم بأن يقروا السلام في العالم والاطمئنان بين الشعوب والأمم ؟ ان الاطمئنان والسلام لن يسودا ما دام هؤلاء المبشرون يزرعون ارض العالم احقاداً وبغضاء .

٤ — ويلحق بكتب التدريس التي عني بها المبشرون والتي تتضمن تهجماً على العرب والاسلام كتب الخلافات ، وهي كتب تتضمن ردوداً على الاسلام واعتراضات على عقائده وتاريخه (٣) . هذه الكتب لا تختلف كثيراً عن النموذج الذي رأيناه قبل بضعة أسطر ، ولكن يقصد بها طبقات القراء من الناس لا الذين لا يزالون على مقاعد الدراسة فقط .

٥ — ومن سياسة المبشرين اقامة الاجتماعات التي تلقى فيها الخطب وتقام فيها المناظرات والمجادلات (٤) .

(1) Histoire de France, du Cours moyen au certificat d'études, par H. Guillemain et F. Le Ster, Paris (Les éditions des écoles), 11, rue de Sèvres.

(٢) قد تكون ادارة مدرسة القديس يوسف قد بدلت الآن هذا الكتاب بكتاب آخر احسن منه اتجاهاً او أسوأ . ولكن حينما كنا نضع كتابنا هذا ؛ كان الكتاب المذكور يدرس هنالك .

(3) cf. Gairdner 285, 288.

(4) Gairdner 285, 288; cf. Re-Thinking Missions 163 - 264; cf. Methods of Mission 65 f.

٦ — ومن سياستهم أيضاً بناء كنيسة الى جانب كل مدرسة (١) . ولا ضرر مخصوص من ذلك .

٧ — ويرى المبشرون أن يتظاهروا بدرس مشاكل الشباب المختلفة وبذلك ينفذون الى نفوس الشباب من أهون الطرق لاجتذابهم الى أديانهم ومذاهبهم . واذا لم يستطيع المبشرون ذلك فما عليهم الا ان يوجهوا الشباب توجيهاً مسيحياً (٢) .

فالمبشرون اذاً ، اذا عملوا في التعليم ، فانهم لا يقصدون بذلك وجه العلم . انهم يحاولون ان يستغلوا العلم في سبيل شيء آخر .

نشاط المبشرين من طريق التعليم

لقد أساء المبشرون الى اشرف مبادىء الانسانية ، الى العلم ، لما اتخذوا منه وسيلة الى التبشير . ان الاب الذي يأتمن على ابنه مدرسةً ما من المدارس يقدم أثمن ما لديه وهو يعتقد انه وضع ابنه — وهو لا يزال ساذجاً بريئاً — بين يدي انبل الناس ، بين يدي المعلمين . ولكن المعلم المبشر مخلوق قد نفرت من قلبه أجمل معاني الانسانية ، فقد نفرت من قلبه الأمانة والاستقامة والصدق . نحن نفهم ان يتعرض المبشر لرجل ناضج ويحاول ان يستميله بضروب الاستمالات ، كما يتعرض الشيوعي او الجمهوري او الملكي او الاشتراكي الى الناس ليقنعهم بصواب مذهبه . اما أن يتخذ رجل اشرف ثوب أسبغه الله على الانسانية ليخادع به الاطفال ومن فوقهم قليلا ، فهذا عندنا وعند الناس كلهم منتهى الكفران للأمانة التي علقت في رقاب البشر . ألم يقل شاعرنا شوقي :

قم للمعلم وفّه التبجيــــلا ، كاد المعلم ان يكون رسولا !
أعلمت أشرَفَ أوَ أجلّ من الذي يبني وينشىء انفساً وعقـــولا ؟

هذا الذي ظنه شوقي ، وظنه الناس كلهم ، أشرف الناس قد جاء الى بلادنا يلبس ثوب التقى ويتظاهر بعنوان الانسانية بينما تنطوي نفسه على أعظم قسط من الرياء يستغله في أشرف مكان على هذه الأرض ، في المدرسة . واذا نحن علمنا ان الاسلام قد قال على لسان رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم : « علم ساعة خير من عبادة سبعين سنة » ، أدركنا مقدار ما في نفوس المبشرين ، الذين يتخذون العلم وسيلة الى غاية ضيقة ومستورة ،

(1) Jessup 591,
(2) Re-Thinking Missions 163 f., 264.

من النفاق والرياء والجناية على الانسان والروح الانسانية .

على ان المبشرين استغلوا العلم النبيل ستاراً لغايات هي بدورها ستار لغايات اخرى ، لقد تظاهروا بالعلم وتظاهروا بالاحسان الى الناس وتظاهروا بالدين ، ولكنهم في الحقيقة يريدون — هم ومن استخدمهم — ان يصلوا من طريق هذا النشاط البريء في ظاهره الى استعباد الشرق واستغلاله سياسياً واقتصادياً .

في عام ١٢٩٤ للميلاد ظفر رامون لل (١) بمقابلة من البابا سلستين الخامس وقدم له كتابين فيهما خطة للتبشير بين المسلمين في الأكثر . وكانت خطة رامون لل ذات شقين ، اولهما ان تتخذ الكنيسة العلم والمدارس وسيلة للتبشير ، وثانيهما ان ينصّر المسلمين بالقوة اذا لم تنجح فيهم الجهود السلمية (٢) .

ومع ان البابا سلستين هذا لم يصغ تمام الاصغاء الى رامون لل (٣) . فان التبشير مشروع بابوي متميز حتى من النصرانية نفسها (٤) . ان غريغوريوس السادس عشر الذي أصبح بابا عام ١٨٣١ قد شجع اليسوعيين على المجيء الى سورية وامر هم بالعمل فيها (٥) . وكذلك أعطى البابا ليون الثالث عشر اليسوعيين في سورية عام ١٨٨١ حق منح الشهادات بأنواعها . وهكذا اصبحت جامعة القديس يوسف جامعة باباوية (٦) .

اما بيوس الحادي عشر الذي جاء الى عرش رومية عام ١٩٢٢ فقد كان يسمى بابا التبشير (٧) . وهكذا نرى أن التبشير من طريق التعليم مشروع باباوي في أساسه وتطوره .

وللتعليم عند المبشرين غاية واحدة ، هي تنصير التلاميذ الذين يحضرون الى المدارس . في الكلية الانكليزية في القدس طلاب مسلمون ونصارى ويهود . وكانت سياسة المدرسة ان تبشر فيهم كلهم (٨) . الا ان المقصود بالتبشير هو المجموع الاسلامي . ذلك لأن تاريخ الأعمال التبشيرية في بلاد الاسلام كان الى حد كبير تاريخاً للتعليم التبشيري (٩) .

ولقد استغل المبشرون التعليم لأن للتعليم أثراً فعالا ، بل هو اقوى وسائل التبشير . وعلى هذا الاساس بدأ المبشرون بانشاء مدارسهم . حتى انهم انشأوا اول مدرسة

(1) Ramon Lull.
(2) Addison 45.
(3) Addison 46,
(4) cf. Jung 10.
(5) Les Jesuites en Syrie 1: 8, 9.
(6) ibid. 1:10, 11.
(7) Page de Mission, cf. Les Jesuites en Syrie 1 : 7.
(8) Cash 149.
(9) Christian Workers 20

للبنات في الامبرطورية العثمانية عام ١٨٣٠ في بيروت (١) . والمبشرون يرون ايضاً ان الوسيلة التي تأتي بأحسن الثمار في تنصير المسلمين انما هي تعليم اولادهم الصغار (٢) .

من أجل ذلك لم نستغرب ان يدعوَ المبشرون الى انشاء مدارس كثيرة في البلاد الاسلامية ، فانهم بهذه الطريقة يخرجون التلاميذ المسلمين من عناية المدارس المسلمة . ففي مصر مثلاً ترى المبشرين يكثرون من مدارسهم لينتزعوا المسلمين والاقباط على السواء من مدارس الحكومة فيخرجون التلاميذ من نطاق التعليم الاسلامي الى مدى التعليم المسيحي (٣) . وهكذا رأينا البروتستانت خاصة ينشرون مدارسهم في جميع انحاء الشرق الادنى (٤) . ويفتخر جسب بأن مجموع عدد التلاميذ في المدارس الامريكية البروتستانتية كان في عام ١٨٩١ يبلغ ٧١١٧ ، فاذا اضيف اليهم عدد الطلاب في سائر المدارس البروتستانتية كان ثمت خمسة عشر الف طفل في قبضة التعليم الانجيلي (٥) . وبعد ثماني عشرة سنة ، أي عام ١٩٠٩ ، كان للامريكان وحدهم مائة واربع وسبعون مدرسة في سورية وحدها منثورة في المدن والقرى (٦) . والمبشرون يحرصون على أن تكون المدارس هذه أجنبية لانها هي التي تجعل المسلمين اقرب الى التوراة (٧) .

ولكي يكون التبشير كاملاً يرى المبشرون ان يتولوا هم التعليم في جميع انواعه ودرجاته (٨) . فرياض الأطفال مثلاً مهمة جداً لان التعليم الديني في هذه المدارس يجعلها باباً مفتوحاً للتبشير وللتأثير في عقول الاطفال الغضة . ثم ان الذين يشرفون على رياض الأطفال يكونون اكثر اتصالاً بأهل الطلاب من الذين يشرفون على المدارس العالية (٩) . وكذلك التعليم الابتدائي وسيلة ثمينة للتبشير لأنه يمكن المبشرين من ان يثبتوا اقدامهم في القرى (١٠) تحت ستار التعليم الابتدائي الذي تحتاج اليه القرى في الدرجة الاولى. وللمدارس الابتدائية فضل على الكليات لانها تمكن المبشر من ان يصل الى العقول وهي لا تزال تتأثر بما يلقى اليها . ثم ان المدارس الابتدائية كرياض

(1) Bliss (R) 327.
(2) Christian Workers 5 .
(3) Methods of Mission 64.
(4) Richter 221.
(5) Jessup 593.
(6) Jessup 805 - 808.
(7) Islam and Missions 385.
(8) Christian Workers 22, 23,58 f.
(9) Re - Thinking Missions 274 f.
(10) Addison 123.

الأطفال تساعد على أن يتصل المبشرون بأهل الطلاب (١) . واكثر ما وصل اليه المبشرون البروتستانت انما كان عن طريق المدارس الابتدائية (٢) .

اما اليسوعيون خاصة فيجعلون الصفوف الدنيا في عهدة الراهبات ، لأن الطلاب « الصغار » (٣) هم فسائل (شتل) تغرس فيما بعد في الكليات ، فيجب ان تكون هذه الفسائل مطبوعة طبعاً خاصاً (٤) .

التبشير وقادة البلاد في المستقبل

والتعليم العالي عند المبشرين لا يقل أهمية عن سائر درجات التعليم ، ذلك لأنه يساعدهم على الوصول الى الطبقات المثقفة ، بل لعله اهم منها كلها . ولقد أدرك المبشرون منذ زمن ان التبشير قد خاب لأن الأفراد الذين لقنهم المبشرون عن الاسلام الى النصرانية كانوا قليلين ، ولم يكن لهم الأثر المنتظر . فلما اعتقدوا ان لا قدرة لهم على جعل المسلم نصرانياً احبوا ان يجعلوا الآراء المسيحية تتسرب الى المسلمين والى المثقفين منهم خاصة . ثم إنهم اعتقدوا ان هذه الآراء تتسرب بعدئذ من تلقاء نفسها الى المجتمع الاسلامي . هذه هي الفكرة التي اقنعت المبشرين بضرورة انشاء المعاهد العالية في البلاد الاسلامية (٥) .

وكذلك كان للمبشرين غاية اخرى من التعليم العالي ، هي ان يؤثروا في قادة الرأي في البلاد ، وفي الجيل الناشيء في الشرق الادنى خاصة ، ذلك التأثير الذي لا يمكن ان يتحقق اذا لم يكن ثمة تعليم عال (٦) . وعلى هذا الأساس اوجد المبشرون البروتستانت كلية في بيروت عام ١٨٦٢ وجعلوا على رأسها المحترم دانيال بلس (٧) . هذه الكلية اصبحت فيما بعد : الكلية السورية الانجيلية ، ثم هي اليوم الجامعة الاميركية في بيروت .

ومن رأي المبشرين ان تؤسس الكليات في المراكز الاسلامية ، ولذلك لم يكتفوا ببيروت بل ارادوا أن يكون ثمة كلية في القاهرة نفسها الى جانب الجامع الا زهر (٨) .

(1) Re - Thinking Missions 118.
(2) Bliss (R) 517.

(٣) في الاصل Minimes اي الصغار .

(4) Les Jesuites en Syrie 5 : 14 .
(5) Re-Thinkins 164.
(6) Milligan 124-5.
(7) Rev. Danial Bliss. cf Jossup 241
(8) Milligan 123 f.

وهكذا اصبح للمبشرين الامريكيين الكلية الامريكية في القاهرة ، بعد كلية روبرت في استانبول ايضاً . ولم يكن رأي المبشرين الفرنسيين مخالفاً لذلك فأنشأوا كلية لهم في مدينة لاهور (١) ، وهي مدينة من المدن الاسلامية الكبرى في الهند (وعاصمة مقاطعة النجاب في باكستان اليوم) .

نشاط المبشرين في انشاء المدارس

لما نزل المبشرون الامريكيون من البروتستانت في سورية حوالي ١٨٢٠ كانت الفكرة التي تراودهم منذ ذلك الحين أن يبشروا من طريق التعليم ، ولذلك لا نستغرب اذا رأيناهم ينتشرون في كفرشيما (قرب بيروت) وفي بحمدون بجبل لبنان ثم في طرابلس وحمص وغيرها . الا ان بؤرة نشاطهم التعليمي التبشيري كانت في بلدة عبيه الدرزية في جبل لبنان ، حيث انشأوا مدرسة لتخريج المعلمين والواعظين (المبشرين) عام ١٨٤٣ وجعلوها برئاسة الدكتور كارنيليوس فان ديك (٢) . وفي كانون الثاني من عام ١٨٥٩ اسس البروتستانت الامريكيون في عبيه ايضاً مدرسة للبنات (٣) . ومثل البروتستانت فعل اليسوعيون : لقد أنشأ اليسوعيون مدرستهم الأولى في غزير (في كسروان — جبل لبنان) ، ولكنهم فيما بعد نقلوا نشاطهم الى بيروت (٤) كما فعل الامريكيون من قبل . وسنرى تفصيل ذلك كله (٥) .

ومع كثرة المنافسة بين فرق المبشرين المختلفة في التعليم وفي غير التعليم فان هذه الفرق اتفقت كلها على المسلمين . ففي عام ١٩١٢ كان في سورية كلها ثمان وثلاثون مؤسسة تبشيرية ما بين انكليزية واسكوتلندية وايرلندية والمانية وسويدية ودنماركية واميركية طبعاً ، لها مدارس كثيرة . وقد كانت هذه المؤسسات ، مع تضارب سياساتها ومع كل ما بينها من التنافس ، متفقة على وضع التوراة في العربية بين ايدي الطلاب على انه كتاب تدريس اساسي (٦) . ولقد اتفقت المؤتمرات المحلية التي عقدت عام ١٩٢٤ في القدس وبرمانا (لبنان) وقسطنطينة (الجزائر) وحلوان (مصر) وفي بغداد

(1) Gairdner 245.
(2) Cornilius Van Dyck, cf. Bliss 1o5 ff.
(3) ibid 123 .
(4) Les Jesuites en Syrie 5 : 8.
(٥) راجع الفصل التالي .
(6) Bliss (R) 328. cf. 329..

على التعاون بين المبشرين كلهم للوصول الى أهدافهم في العالم الاسلامي (١) . والتبشير من طريق التعليم مقصود به المسلمون خاصة (٢) .

ولقد استطاع المبشرون ان يبعثوا كثيراً من العداوة بين الطلاب حينما اتبعوا سياسة تقضي باستخدام الطلاب النصارى في مدارسهم وسطاء الى التبشير بين الطلاب المسلمين ، كما حدث في مصر (٣) .

اجبار المسلمين على دخول الكنيسة في مدارس المبشرين

ان المدارس الأجنبية كانت تجبر جميع طلابها على دخول كنيسة المدرسة مرة كل يوم . ولا تزال مدارس الارساليات الفرنسية تفعل ذلك الى يومنا هذا أو أنها ظلت تفعل ذلك الى زمن قريب على الأقل .

وكذلك كانت الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الاميركية اليوم) تفعل ذلك فتُجبر جميع طلابها على دخول الكنيسة وعلى حضور درس التوراة . فلما أُعلنت الحرية عام ١٩٠٨ اقسم عدد من الطلاب ألا يحضروا دروس الدين المسيحي وألا يدخلوا الكنيسة . وعجزت الكلية عن أن تطردهم لأن عددهم كان مائة وستين تلميذاً . فاضطرت الى ان تعفيهم من حضور دروس التوراة ومن دخول الكنيسة معاً .

في ذلك الحين كان هوارد بلس ، مدير الكلية ، غائباً . فلما عاد عمد الى تسوية مبنية على ان الطلاب غير النصارى مُعفَوْن من دخول الكنيسة ، ولكنهم غير معفين من حضور دروس التوراة . وهذا هو الذي ابقى في رأي المبشرين على الشخصية الدينية للكلية (٤) . وفي سنة ١٩١٢ كان على جميع الطلاب ان يحضروا قداس الوعظ يوم الأحد . وكان ثمت اجتماعات دينية يتوجب حضورها على بعض طبقات الطلاب (٥) .

وحتى عام ١٩٢٢ كانت الجامعة الاميركية لا تزال تصر على تعليم التوراة في صفوفها اذا استطاعت . في العام المدرسي ١٩٢١ — ١٩٢٢ انتقلت (٦) من مدرسة رأس بيروت التابعة لجامعة بيروت الاميركية الى الجامعة نفسها ودخلت الى الصف الثالث الاستعدادي .

(1) Christian Workers 27-8, 40-42; 77-9; 105 f: 135 f.
(٢) راجع ما قبل .
(3) Methods of Mission 64.
(4) Jessup 788.
(5) Bliss (R) 311.
(٦) الكلام هذا للدكتور عمر فروخ .

كانت الجامعة لا تزال يومذاك في عهدها المخضرم تخير طلابها بين ان يحضروا صفوف التوراة وبين أن يتلقوا دروساً في الأُخلاق . ولم يكن مستغرباً ان تختار الفرقة التي كنت انا فيها دروس الأخلاق . على اننا فوجئنا بكتاب وضعته الجامعة بين ايدينا لا يختلف عن التوراة في شيء الا في اسمه فقط ، اما موضوعاته فقصص مأخوذة من التوراة ومن اخبار القديسين . فرفضنا نحن شراء الكتاب او قبول تعيين درس منه .

ولقد أحسنت ادارة الدائرة الاستعدادية يومذاك الاختيار فاستدعتني أنا وألقت علي تهمة تحريض الصف — مع ان هذا الشرف لم يكن لي وحدي — وخاطبني الرئيس وليم هول بكلام قاس ، ثم قال لي : بما ان اعتراضك كان حقاً فقد ألغينا الكتاب ، ولكن بما أن ردك على المستر كلاتس في أثناء الصف كان خارجاً عن اللياقة المدرسية فقد وجب عليك « الحجز » بعد ظهر الاربعاء . ولقد كان مراقب الحجز في ذلك اليوم الاستاذ فريد مدور .

وكان من الحكمة ان أتقيد بأمر الرئيس وليم هول طائعاً مختاراً ، لأن حجزي ألقى علي قضية الاختيار بين دروس التوراة ودروس الأخلاق نوراً فاضحاً . وبعد اسبوع دعا الاستاذ كلاتس تلاميذ الفرقة التي أنا فيها وأقام لنا في غرفته حفلة بسيطة دلت على ان الهيئات التبشيرية قد تستطيع احياناً ان تسدل دون الضمير الانساني ستاراً ، ولكنها لا تستطيع ان تميته . ان هذا الحجز القصير قد ربح قضية لم تكن تافهة على الاطلاق : لقد ألغي منذ ذلك اليوم درس التوراة نهائياً في الجامعة الاميركية واستعيض عنه بدرس للاخلاق والتربية المدنية علمنا اياه في العام التالي المستر بيارد ضودج (الرئيس ضودج فيما بعد) .

التبشير بين الاميين

يستطيع المبشرون من طريق المدارس أن يصلوا الى المتعلمين . اما الاميون فلا سبيل الى الوصول اليهم من هذه الطريق . ولقد عد المبشرون ذلك صعوبة بالغة (١) ، ثم تفتقت قريحتهم عن ان يعمد المبشر الى الاتصال الشخصي بالأميين وأن يبدأ الكلام معهم على مقام عيسى عليه السلام في القرآن الكريم ، فيتكلم مثلاً عن المسيح بأنه روح الله كما جاء في القرآن ، أو يقول عنه « حضرة عيسى » كما يقال في الهند . وعلى المبشر

(1) Christian Worker 86 .

ان يقول أمام الاميين « القرآن الكريم » ، وان يذكر الشفاعة والجنة وما الى ذلك من الالفاظ الاسلامية استمالة للسامعين الاميين . فاذا وثق من آذانهم صب فيها تبشيره (١) .

ولقد وقع لويس ماسينيون استاذ جامعة فرنسة في باريس والداعية المبشر في قسم الشؤون الشرقية في وزارة المستعمرات الفرنسية على هذه الطريقة فمضى يقول بها في خطبه ومقالاته وأحاديثه . الا ان لغته في هذا الباب لغة مثقلة بالاستعارات والرمز لا تعذب احياناً في السمع . ومع أن هذه الخطب والمقالات والأحاديث تدل على اطلاع واسع ، فانها لا تدل على صفاء في التفكير أو على صفاء في الضمير على الاصح . يتمنى ماسينيون في احدى مقالاته أن يعود الاعتقاد الاسلامي في رجوع عيسى بن مريم فيتفق مع الحادث الثاني للمسيح النصراني الذي يعمل المهدي العربي على انتصاره (٢) . ويقصد ماسينيون بكلمة ثانية اوضح أن يعود المسلمون عن قولهم : عيسى بن مريم الى القول : عيسى ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وفحوى مقال ماسينيون كله انه ما دام لدى المسلمين اخبار برجوع المسيح عيسى بن مريم ، فلماذا لا يكون هذا المسيح الراجع هو المسيح الذي يعتقد به النصارى اليوم ؟

ولقد ردد ماسينيون هذه الفكرة المأخوذة عن غيره والمدخولة في نفسها وجعلها عمدة عبقريته في الدعوة الى ان يُحمل المسلمون على ترك دينهم حتى يسهل استعمارهم على أهل الغرب . اقول (٣) هذا وانا أتألم اذ اقوله عن رجل عرفته استاذاً لي استمع منه (٤) . ولكن الحق اكبر من ماسينيون ، ومن علمني حرفاً كنت له عبداً في الحق لا في الباطل .

التعليم الرسمي والتبشير

رأى المبشرون ان المدارس الرسمية في البلاد التي تكثر فيها المذاهب الدينية لا تتشدد في تعليم الدين ، بل تتساهل حتى لا تنفر احداً من مواطنيها ، وحتى لا يحمل بعض المواطنين كرها لبعض . ولقد رأى المبشرون في ذلك ثغرة احبوا ان ينفذوا منها الى عقائد الطلاب في مثل هذه المدارس . قال وليم هول (٥) ، مدير الدائرة الاستعدادية في الجامعه الاميركية في

(1) Methods of Mission 36 f.

(2) L'islam et l'occident (Les cahiers du Sud 1947) p. 164 .

(٣) الكلام هنا للدكتور عمر فروخ .

(٤) في كلية فرنسة في باريس ١٩٣٦ .

(5) Mott, The Moslem World of To-Day 180 .

بيروت (١٨٩٦ — ١٩٢٧) في شأن هذه المدارس :

والتعليم في نفسه قوة تبشيرية اساسية . ان مؤتمر شمالي افريقية قد ذكر ان مدارس الحكومة (المدارس الرسمية) تمهد الطريق أمامنا بنفي التحزب ثم بفتح آفاق جديدة . تلك هي نتائج جميع نظم التعليم الحديثة . ان مدارس الارساليات المسيحية الغربية يجب أن تتقدم (على كل ما سواها) في الاحتفاظ بهذه الزعامة : ويجب على المبشرين ان يحتفظوا في كل زمن بوجهة نظر المسيح فيما يتعلق بالحياة الفياضة .

لما فُرض الانتداب الافرنسي على سورية ولبنان عام ١٩١٩ فرض معه منهاج للتعليم الرسمي . وكان هذا التعليم الرسمي في مناطق الانتداب يساعد المبشرين في أعمالهم . لقد كان المبشرون في اول أمرهم (قبل الانتداب) ينشئون المدارس في جبل الدروز (على الاخص) بطلب من بعض زعماء الجبل . ولكنهم كانوا يغلقون تلك المدارس اذا قصرت موادرهم عن اداراتها (او اذا لم يستطيعوا التبشير فيها بنجاح على الاصح) . اما بعد الانتداب فقد أصبح التعليم ، وعلى الأخص في جبل الدروز ، موضع تعاون وثيق بين المبشرين وبين السلطات العامة (١) .

وبما أن الحكومة الافرنسية كانت تساعد الارساليات الكاثوليكية في عملها ، فان مدارس تلك الارساليات كانت تحبب فرنسة الى التلاميذ النصارى (٢) .

ولم يكتف الافرنسيون طوال مدة انتدابهم ، بأن يساعدوا اليسوعيين في أعمالهم المستقلة ، بل فسحوا المجال ليكون لليسوعيين نفوذ كبير في توجيه المستشارين الافرنسيين المشرفين على التعليم في منطقة الانتداب ، وخصوصاً فيما يتعلق بالمناهج ومنح الشهادات الرسمية . وهذا ما جعل المناهج الرسمية كأنها خاضعة لليسوعيين مباشرة ، مما لا صلة له ببحثنا . ولكننا نود ان نقول كلمة واحدة في سياسة الافرنسيين في التعليم الرسمي في منطقة انتدابهم وسنستعير ما نقوله من «تقارير عن احوال المعارف في سورية خلال سنة ١٩٤٥» وضعها ساطع الحصري (٣) .

لما درس العالم الاجتماعي ساطع الحصري مناهج التعليم في الجمهورية السورية لفت نظره أشياء كثار تدعو الى الغرابة فقال (٤) :

«هذا ، ويجدر بنا أن نتساءل ، في هذا المقام : كيف تأسست هذه النظم الغربية في

(1) Les Jesuites en Syrie 10 : 65.
(2) ibid, 2 : 8 .

(٣) دمشق ، مطبعة الجمهورية السورية : ١٩٤٦ .
(٤) ص ٢٥ — ٢٤ .

سورية ؟ وكيف دخلت في عداد تقاليد دوائرها الحكومية ؟

«انني كنت عثرت على جواب هذا السؤال من خلال التصريحات التي كان أدلى بها إليّ أحد المطلعين على هذه النظم ودخائلها . ان هذه النظم انما وضعت لغايات تحكمية ، خدمة لمصالح الدولة المنتدبة وحدها .

«فان رجال الانتداب عندما شعروا بضرورة اعطاء بعض السلطات الى الحكومات المحلية والموظفين الوطنيين ، أرادوا ان يوجدوا نظاماً ادارياً خاصاً يضمن لهم تحقيق الغايتين التاليتين :

آ — إلهاء الموظفين بمعاملات قرطاسية مطولة ومعقدة لا تترك لهم مجالاً للالتفات الى الأمور الجوهرية من جهة ، ثم تخفي عن الأنظار زمام السلطة الحقيقية من جهة اخرى .

ب — تنظيم مجاري المعاملات الادارية على اساس «مركزية مفرطة» لا تترك مجالا لإفلات معاملة من المعاملات عن نطاق اطلاع رجال الانتداب ، وشبكة سيطرتهم السافرة او المقنعة .

«هذا هو السر الحقيقي في نشأة البوروقراطية المضحكة والمركزية الغريبة التي تشاهد في جميع نظم الادارة السائدة في سورية . ان هذه النظم التي تخالف ابسط قواعد الادارة السليمة واوضح مبادىء العقل والمنطق — انما وضعت لهذا السبب ولهذه الغاية .

«ان انسحاب الايدي الأجنبية التي كانت تحرك اهم عتلات هذه الماكينة ، وانتقال هذه المعاملات الى الايدي الوطنية لا يغير شيئاً من حقيقة الحال . ان هذه الماكينة — لا تزال كما كانت — ماكينة مرتبة لخدمة المصالح الأجنبية — بعيدة عن خدمة مصالح البلاد الحقيقيـة .

«أعتقد ان التخلص من هذه الماكنة — الباقية من عهد الانتداب — والاستعاضة عنها بماكينة ادارية جديدة مرتبة ترتيباً تخدم مصالح البلاد الحقيقية — وفقاً للقواعد المألوفة في البلاد المستقلة — يجب ان يعتبر من أوجب الواجبات التي تترتب على رجال سورية في عهدها الاستقلالي هذا» .

هذه كلمة عامة قالها ساطع الحصري في تنظيم الادارة لخدمة مصلحة الانتداب يوم كان الانتداب السافر موجوداً . ثم هو يعتقد ان زوال الانتداب لم يُزل آثاره . واما فيما يتعلق بالثقافة خاصة فقد بسط ساطع الحصري رأيه في نحو ثلاثين صفحة من «تقاريره» . ولقد بين في أثناء ذلك ان الانتداب لم يسخر التعليم الرسمي لاغراض فرنسة المنتدبة فقط ،

بل سخره ايضاً لاغراض المعاهد التعليمية الفرنسية ثم تحيز لها تحيزاً مفرطاً جعلها في الحقيقة صاحبة « امتياز » ، أو صاحبة « احتكار » على الأصح . قال (١) ؛

« ان النظم العديدة التي وضعت في سورية — في عهد الانتداب الفرنسي — انما
« كانت وضعت تنفيذاً لسياسة مرسومة بوضوح واتقان . ونستطيع ان نقول ان غاية هذه
« السياسة كانت تأمين سيطرة الثقافة الفرنسية والنظم الفرنسية على معارف البلاد سيطرة
« مطلقة من غير التفات الى ما تتطلبه اصول التربية السليمة والعلم الصحيح . انها كانت
« تعطي للغة الفرنسية وللشهادات الفرنسية امتيازات هامة ، وتتحيز للمعاهد التعليمية
« الفرنسية تحيزاً مفرطاً ، يجعلها احياناً — ليست صاحبة امتياز فحسب — بل صاحبة
« انحصار واحتكار ايضاً » .

بعدئذ يمضي ساطع الحصري مؤيداً حكمه هذا بوقائع من نظم المعارف السورية في ايام الانتداب (ص ٦٩ الى ٩٠) .

*

وهكذا ترى بجلاء كيف ان الانتداب الفرنسي قد سخر التعليم كله لاغراض المدارس التبشيرية : والمدارس الافرنسية منها خاصة .

التعليم النسائي خاصة

ان للتعليم النسائي أهمية خاصة في بناء المجتمع . هذه الأهمية لم تغب طبعاً عن أعين المبشرين فأولوها عناية عظيمة . ولن نتعرض هنا لموضوع المرأة في التبشير ، فذلك له فصل خاص ، ولكن سيقتصر هذا الفصل على تعليم البنات فقط .

وكذلك نرى من اضاعة الوقت ان نعيد في الكلام عن التعليم النسائي ما ذكرناه في باب تعليم الصبيان . من أجل ذلك سنقتصر في هذا الفصل ايضاً على ما هو خاص بتعليم البنات مما لم يرد في تعليم الصبيان .

لما جاء المبشرون الى العالم العربي كان العلم بين الرجال قليل الانتشار ، اما بين النساء فكان أقل انتشاراً . وادرك المبشرون ان هذه حال لا يمكن أن تدوم ، وان المرأة ذات أثر في التربية أكثر من الرجل فأولوها اهتماماً عظيماً ، حتى قال جسب : « ان مدرسة

(١) تقارير عن احوال المعارف في سورية ، ٦٩ وما بعدها .

البنات في بيروت هي بؤبؤ عيني . لقد شعرت دائماً ان مستقبل سورية انما هو بتعليم بناتها ونسائها . لقد بدأت مدرستنا (للبنات) ، ولكن ليس لها بعد بناء خاص بها . وها هي قد أثارت اهتماماً شديداً في أوساط الجمعيات التبشيرية » (١) .

ان المبشرين لم يتأخروا في فتح مدارس البنات . ان أوّل مدرسة للبنات في الامبراطورية العثمانية فتحها المبشرون في بيروت عام ١٨٣٠ (٢) . ولقد فتح المبشرون مدارس كثيرة للبنات في مصر والسودان وسورية كلها وفي الهند والأفغان (٣) .

وكان اهتمام المبشرين بالمدارس الداخلية للبنات أشد . قالوا : ان التبشير يكون اتم حبكاً في مدارس البنات الداخلية لما يكون فيها من الأحوال المؤاتية والفرص السانحة . ان المدرسة الداخلية تفضل المدرسة الخارجية لانها تجعل الصلة الشخصية بالطالبات اوثق ، ولانها تنتزعهن من نفوذ حياة بيتية غير مسيحية (٤) . ويفرح المبشرون اذا اجتمع في مدارسهم الداخلية بنات من أسر معروفة ، لأن نفوذ هؤلاء يكون حينئذ في بيتهن أعظم . وتتكلم المبشرة أنّا ميليغان فتقول : في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات اباؤهن باشاوات وبكوات . وليس ثمة مكان آخر يمكن ان يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي ، وليس ثمت طريق الى حصن الاسلام اقصر مسافة من هذه المدرسة (٥) .

من أجل ذلك طلب المبشرون الامريكيون منذ عام ١٨٧٠ مبلغ ثلاثين الف دولار لمدرسة دينية للبنات في بيروت وعللوا طلبهم هذا بقيمة المرأة في الحياة البيتية وان تلك المدرسة ستساعد على تنصير سورية في المستقبل (٦) .

التبشير بين الدارسين في الخارج

على الرغم من كل ما ادعى المبشرون من انهم جعلوا طلاباً مسلمين يصبأون الى النصرانية ، فانهم يبالغون كثيراً في نجاحهم . نحن لا نشك في ان افراداً مسلمين قد انقلبوا بعد ايمانهم . ولكن هؤلاء افراد قليلون جداً ، ثم انهم يعيشون في عزلة أو شبه

(1) Jessup 280.
(2) Bliss (R) 327.
(3) Milligan 121 ff., 102: Richter 249; Gairdner 203-5.
(4) Milligan 102.
(5) Milligan 121.
(6) cf. Jessup 223.

عزلة لا يستطيعون ان يتحدّوا المجتمع الذي يعيشون فيه .

ولقد أدرك المبشرون ذلك كله . وبما أن غاية المبشرين ليست دينية في الدرجة الاولى بل هي « إفسادية » : يحاولون بها أن يفككوا وحدة الأمة الاسلامية ليحكموا شعوبها ، فانهم قنعوا ان يفسدوا هذه الشعوب ، لأن افساد الشعوب يصل بالمبشرين الى غايتهم القصوى وهي تمكين الدول الغربية من حكم البلاد الاسلامية . اما النصرانية فان الذين يمولون المبشرين لايهتمون بها البتة . ان هؤلاء المبشرين الذين يُرسَلون الى الشرق لاكتساب نفوس جديدة الى صفوف النصرانية — في الظاهر — يصرخون في كل مكان : « اعيدوا أولاً الى الكنيسة طلابنا نحن ، وفي امريكة نفسها » (١) .

إذن يجب على المبشرين أن يفسدوا الطلاب المسلمين ، يقول المبشر تكلي (٢) : « يجب أن نشجع انشاء المدارس ، وأن نشجع على الأخص التعليم الغربي . ان كثيرين من المسلمين قد زُعزع اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الانكليزية . ان الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقي مقدس امراً صعباً جداً » .

ويبدو بوضوح ان المبشرين لم يستطيعوا افساد المسلمين بالقدر الذي تمنوه فقنعوا بأن « يلونوا » الطلاب المسلمين بالنصرانية تلويناً يبعدهم بعض البعد عن عقيدتهم الأولى ثم يدنيهم بعض الدنو من النصرانية .

*

مما لا ريب فيه ان ذهاب الطلاب الشرقيين الى اوروبة وامريكة يكسبهم شيئاً من أساليب الحياة الغربية ومن الاتجاه الغربي في التفكير والعلم والسلوك وما الى ذلك . ولا ريب ايضاً في ان لذلك حسناته وسيئاته . ولكن المبشرين يريدون ان يفيدوا من دراسة الطلاب الشرقيين في الخارج أمراً آخر . انهم يريدون أن يجعلوا من هؤلاء الطلاب « نصارى » بالفعل او مماثلين للنصرانية (٣) .

ويدخل في هذا الباب زواج المسلمين بالغربيات ، الأوروبيات والاميركيات ، وسيأتي الكلام عليه مبسوطاً في مكانه .

وتطيب هذه الفكرة للمستشرق المبشر وللمستشار الشرقي في وزارة المستعمرات

(1) Missionary Outlook 275 .
(2) Takle, cf. 217 : cf. Islam and Missions : cf. also Missionary Outlook 275-6.
(3) Missionary Outlook 276 ff .

الافرنسية ، لويس ماسينيون ، فيدبج المقالات الطوال ويقول لقومه : ان الطلاب الشرقيين الذين يأتون الى فرنسة يجب ان يلونوا بالمدنية المسيحية (١) .

*

وهكذا يجب ان نخرج من هذا الفصل بهذه الفكرة : ان المبشرين والذين هم وراء المبشرين ، يبذلون كل جهد لاستخدام العلم والتعليم في سبيل التبشير . غير ان لتبشيرهم ظاهراً وباطناً . اما ظاهره فدعوة الى سلوكٍ هم لا يسلكونه . وتلك دعوة على كل حال لم تتم : إن الذين يريدون ان يبشروا بالنصرانية بين غير النصارى ، هم انفسهم قليلو الاحتفال بالدين كله . وان من عاش مدة يسيرة في اوروبة والولايات المتحدة يدرك ذلك تمام الادراك . واما باطن التبشير فهو تفكيك أواصر القربى الروحية في الأمة الاسلامية خاصة حتى يستطيع الغرب ان يحكم الشعوب الاسلامية ويستغل بلادها اقتصادياً وحربياً .

(1) Revue « Dieu Vivant ». No. 4, pp. 7 ss.

الفصل الرابع

التعليم ميدان فسيح للتبشير

(٢) المؤسسات التبشيرية :
الكليات والجامعات خاصة

نشأ في الجمهورية اللبنانية احزاب ومنظمات كثيرة لا يحصيها العد . من هذه الاحزاب والمنظمات حزب (محلول اليوم) اسمه الحزب القومي السوري انشأه في عام ١٩٣٢ شاب اسمه انطون سعادة وبنى عقيدته على أن سورية بحدودها الطبيعية وحدة جغرافية . هذه الوحدة الجغرافية يجب ان تؤلف يوماً ما دولة قومية ، لأن السوريين امة . « وعلى هذا تؤلف المسألة اللبنانية جزءاً متمماً للقضية السورية . وجميع المسائل السورية ، بما فيها المسألة اللبنانية يجب ان توحد في برنامج واحد وقضية واحدة » (١) .

وبعد اربعة أعوام ، اي في عام ١٩٣٦ ، نشأ على الضفة الثانية لهذا الكفاح السياسي منظمة اسمها « الكتائب » اللبنانية (وهي ايضاً محلولة اليوم كمنظمة وموجودة كحزب) . هذه المنظمة تقول « ان لبنان وحدة سياسية وتاريخية وجغرافية (٢) ، وان اللبنانيين أمة (٣) . ولذلك قالت منظمة الكتائب ايضاً (٤) : نأبى التسليم « بنظرية سورية الجغرافية » لأنها لا تقر بحقيقة لبنان الطبيعية ، فضلاً عن ان هذه « النظرية » — وهي من صنع المستشرقين المسخرين لسياسات الاستعمار — لا ترتكز الى اساس تاريخي ..

ومع ان للحزب القومي السوري ولمنظمة الكتائب اللبنانية شروحاً لمبادئهما كثاراً ،

(١) راجع : بلاغ من زعيم السوريين القوميين الى الرأي العام، ٥ يونيو (حزيران) ١٩٣٦، ص١٠، ١١.
(٢) اهدافنا (الكتائب اللبنانية ، مصلحة الدعاية والنشر) ، ١٩٣٦ — ١٩٤٤ ، ص ٧ .
(٣) مثله ٨ .
(٤) مثله ١٢ .

فان الذي يهمنا هنا شيء آخر . ان الذي يهمنا هنا ان الاحتكاك والتراشق بينهما لم يفتر قط ، بل كان يقوى كلما تقدم بهما الزمن وزاد انصارهما . ومنذ أواخر عام ١٩٤٣ ، أي بعد ان خرجت الجمهورية اللبنانية من قيود الانتداب الفرنسي الى بحبوحة الاستقلال برزت العداوة بين الحزب القومي وبين الكتائب اللبنانية بروزاً ظاهراً تراءى في الانتخابات النيابية وفي الأعياد المحلية وفي حفلات الخطابة . وفي أواخر حزيران وقع الاحتكاك العلني الاول بين أفراد الحزب القومي وبين أفراد منظمة الكتائب في بيروت ، فقبضت الحكومة اللبنانية على نفر من هؤلاء ونفر من هؤلاء . إلا أن المقبوض عليهم من أفراد الحزب القومي السوري كانوا أكثر عدداً . ثم اتسعت حركة الاعتقال بين القوميين بتهمة تدبير انقلاب سياسي بقوة السلاح .

ولم يكد ينتهي حزيران حتّى اخذ أفراد الحزب القومي السوري يهاجمون المخافر اللبنانية في ضواحي بيروت وفي أماكن متفرقة في جبل لبنان والبقاع . ثم انهم وسعوا حركتهم الثورية حتّى اضطرت الحكومة اللبنانية الى ان تجرد عليهم قطعة من الجيش ، فاستطاعت في ايام قلائل ان تحبط حركتهم ، ثم قبضت على عدد غفير منهم . واخيراً تمكنت من القبض على زعيم الحزب انطون سعادة وحاكمته محاكمة عسكرية ثم أعدمته رمياً بالرصاص (فجر الجمعة ٨ تموز ١٩٤٩) .

وفي صباح اليوم التالي صدرت جريدة العمل (١) ، لسان حال منظمة الكتائب اللبنانية ، وفي صدر صفحتها الأولى مقال افتتاحي عنوانه : «كونوا متيقظين » . كان في هذا المقال الافتتاحي مقطع هو :

« ولكم اشرنا إلى ان في الكلية الاميركية في بيروت بؤرة ملأى بالدس على لبنان وعلى كيانه . ان اكثر الضالين من اللبنانيين ضلوا بين أحضانها ، وكل المهوشين علينا من جيراننا تلقنوا بغض لبنان وأساليب السعي ضده تحت اكنافها . وهل كانت حركة انطون سعادة تمكنت لو لم يجد لها ارضاً خصبة في تلاميذ الجامعة الاميركية ، لبنانيين وغير لبنانيين .

« فالى متى هذا الاغضاء ؟

« ان المحنة التي اجتازتها البلاد ينبغي الا تتجدد ولو اقتضى الأمر الى اعتقال كل « اللاجئين الاشرار (٢) والى اقفال الجامعة الاميركية » .

(١) جريدة العمل بيروت ، السبت ٩ تموز ١٩٤٩ ، السنة العاشرة العدد ١٠١٥ .
(٢) اشارة الى ان كثيرين من الذين قاموا بالحركة التي ادت الى التصادم بين الحزب القومي وبين الحكومة كانوا سوريين او فلسطينيين يتعلمون أو يسكنون في لبنان (المقال نفسه) .

وفي اليوم التالي (١٠ تموز ١٩٤٩) صدرت جريدة الديار (١) بمقال افتتاحي عنوانه : « فضل الجامعة الاميركية علينا » ردت فيه على جريدة العمل فقالت ، بعد ان قدمت لمقالها بالمقطع السابق الذي اقتطعناه نحن من مقال « العمل » . قالت جريدة النهار :

« فاذا كان المقصود من الضلال ارباب العقيدة العربية السليمة فان طلبة الجامعة
« ليفتخرون بمعهد ايقظ فيهم روح العزة العربية ، وجمع ابناء البلاد العربية في حظيرة هذه
« القومية . وانهم يشفقون على معتنقي قوميات شعوبية سواء كانت قوميات لبنانية او
« فينيقية او سورية .

« واذا كانت العمل متأثرة من الحزب القومي السوري فعليها ان تدرس بدقة ،
« فيتبين لها ان مقاومة مبدأ (هذا) الحزب في دنيا العرب تقوم على اكتاف طلاب الجامعة
« الاميركية . ان مليون حجة تبنى على قومية محلية لا تقنع سورياً او عراقياً بفساد نظرية
« القومية السورية ، بل الاقناع يأتي من التطلع الى قومية واسعة ناسخة ، هي القومية
« العربية . ان هذه المهمة يتبرع بها طلاب الجامعة الاميركية ، وهم رسل القومية العربية
« في انحاء الشرق العربي وحملة اعلام التحرر والاستقلال ، يوم كان طلاب المعاهد
« الاخرى يغوصون في عبادة الاستعمار الى ما فوق الرقاب » .

وفي اليوم نفسه (١٠ تموز ١٩٤٩) عقدت جريدة « بيروت » مقالاً افتتاحياً (٢) في الرد على جريدة العمل » عنوانه « الى الكتائب ! » قالت فيه تنعت مقال العمل الافتتاحي المذكور :

« أقوال جارفة لم يتعود أبناء الجامعة أن يطلقوها جزافاً ، فاين الاسلوب « العلمي في التفكير ... واين البحث والنظر ... واين اعينكم وعقولكم يا رجال الكتائب ؟ »

« ولكن المعرفة سهلة والعمل عسير . والناس لا يتفاوتون كثيراً في معرفة القانون ،
« ولكنهم يتفاوتون جد التفاوت في تطبيق القانون . فما بال رجال الكتائب ، وجلهم من
« رجال المعرفة ، يهرفون بما لا يعرفون ، واين برهانهم وهم يكتبون ما يكتبون ؟ انهم
« يكتبون ما تمليه عليهم الظنون والأوهام ، وتسطره الأذهان غير العملية ، وما تفرضه
« السياسة ذات الاتجاه الواحد.. انحن ، شباب الجامعة ، الضالون وأنتم المهتدون ،
« لأن رجلاً كالزعيم انطون سعادة تبنى عقيدة ما ؟ لقد استنكرنا هذه العقيدة قبل

(١) جريدة الديار ، بيروت : الاحد في ١٠ تموز ١٩٤٩ ، السنة الثامنة ، العدد ١٩١١ .
(٢) جريدة بيروت ، بيروت ، الاحد في ١٠ تموز ١٩٤٩ ، السنة ١٣ ، العدد ٣٣٩٢ ، الصفحة الاولى.

« الكتائبيين ، وحاربناهم قبلهم . غير ان واحداً لا يستطيع ان ينكر ان هذه العقيدة ،
« مهما تكن أسسها واهية ، ألفت بين المسيحي والمسلم واذابت الطائفية التي نشكو منها
« جميعاً ، والكتائب في الطليعة ، الكتائب التي لم توفق عملياً الى هذا ، او الى شيء من هذا
« فظلت على الرغم من جهاد استمر اثنتي عشرة سنة ذات لون واحد وصبغة واحدة .
فهل تبنى الاوطان على عنصر (واحد) من المواطنين يحيا مع عناصر كثيرة ؟ »

لسنا هنا في مقام الموازنة بين عقيدة الحزب القومي وبين عقيدة الكتائب ، ولا نحن في مقام المقارنة بين شكل المقالات الثلاث التي استشهدنا بها . غير اننا نريد ان نوجه البحث الى صلب الموضوع : « الجامعة الاميركية » من حيث هي جامعة اجنبية ، ثم « الجامعة اليسوعية » من حيث هي جامعة اجنبية ايضاً . ان مقال جريدة بيروت ومقال جريدة الديار قد مسا هذا الموضوع مساً ، ولكن مقال جريدة بيروت كان اكثر رفقاً — كما هو معروف من سياسة هذه الجريدة — اما مقال الديار فكان اوضح قليلاً .

جريدة العمل تقول : ان الجامعه الاميركية يجب ان تزول لأن كثيرين من الذين ينتمون الى الحزب القومي السوري —عدو الكتائب. كانوا من الجامعة الاميركية .

فتقبل جريدة الديار هذا التحدي شكلاً وتقول : ان نظرة طلاب الجامعة الاميركية اوسع من ذلك . انهم « أرباب عقيدة عربية » . ثم انها تغمز الكتائب في ميلهم الى القومية الفينيقية ، وتغمز طلاب المعاهد الأجنبية الاخرى غمزة شديدة فتقول :

يوم كان طلاب المعاهد الاخرى يغوصون في عبادة الاستعمار الى ما فوق الرقاب .

هذا هو مجال المقارنة : ما مقام المدارس الأجنبية في حياتنا القومية ؟

قد تتفاضل المعاهد الأجنبية في ذلك كثيراً او قليلا ، ولكن المعاهد الأجنبية معاهد أجنبية قبل كل شيء . ولقد اتفق للجامعة الاميركية ان اعتنقت فكرة قومية اوسع ، لأن افقها كان اوسع ، ولأن طلابها كانوا من بلاد اوسع انتشاراً في الأرض ، ولأن الولايات المتحدة بلد مساحته ثمانية ملايين كيلومتر مربع ، بينما الجامعة اليسوعية وجدت لتحبب فرنسة الى اهل لبنان ، او الى قسم من اهل لبنان على الاصح . ومع ذلك فان هذا لا دخل له في موضوعنا الأساسي ، فلنلتفت الى ما كان لهذه المؤسسات الأجنبية كلها من مضار على حياتنا القومية والدينية والثقافية والاجتماعية ، والى ما كان لها من نفع .

اما نحن فنرى ان الجامعات اداة توجيه في البلاد ، من اجل ذلك لا يجوز ان تكون

اداة لتوجيه هذه في أيد اجنبية . مهما كانت هذه الايدي الاجنبية رفيقة نظيفة خيرة ! ولكن الانسان قد يُدفع احياناً الى اختيار اهون الشرين عملياً ، وان كان لا تفاضل في الشر من الناحية النظرية على الاقل .

*

يعترف القائمون على المؤسسات الاجنبية بأن هذه المؤسسات كانت في اول امرها تبشيرية ، ولكنها اليوم لا تُعنى بالتبشير . على ان هذا مخالف للواقع ، وانما هو قول يتسترون به لأن العصر الذي نعيش فيه اصبح يأبى هذا التعبير : « في سبيل التبشير » . وحتى نستطيع ان ندل على ان هذه المؤسسات لا تزال الى اليوم تبشيرية فاننا سنقص طرفاً من تاريخ عدد منها ، وسنتوسع في تاريخ الجامعة الاميركية ونتخذه نموذجاً للمؤسسات الاجنبية كلها .

رأى المبشرون ان التبشير يجب الا يقف عند انتهاء مرحلة التعليم الابتدائي او الثانوي ، بل يجب ان يستمر الى مرحلة التعليم العالي لأنه هو الذي يهيّىءُ قادة الشعوب . فاذا استمال المبشرون ، اذن ، بعض هؤلاء الذين ينتظر ان يكونوا قادة في بلادهم ، فقد كفلوا التأثير على الشعب كله . من اجل ذلك تبلورت سياسة الارساليات الاميركية حول اقامة كليات مجهزة تجهيزاً جيداً في استنبول وبيروت وازمير والقاهرة وغيرها من مراكز البلاد الشرقية (١) .

ومع الايام اصبح الاميركيون يعتقدون ان المؤسسات التبشيرية ، سواء أكانت معاهد علمية أم مؤسسات اخرى ، إنما هي « مصالح امريكية » تجب المحافظة عليها . وهم لا ينكرون ان هذه « المصالح » كلها قد نشأت من التبشير وعلى ايدي المبشرين (٢) .

١) مدرسة عبيه (لبنان) :

اهتم المبشرون الاميركيون ببلدة عبيه منذ نزولهم بسورية لأنها بعيدة عن مراقبة الحكومة المركزية في بيروت ولأنها في وسط ظنوه يسهّل عليهم عملهم التبشيري : بعدٌ عن العمران السياسي ووجود طوائف مختلفة في عبية وما جاورها . من أجل ذلك نزل فيها دانيال بلس وزوجته ومكثا فيها في اول الأمر عامين ونصف عام (٣) .

(1) cf Enc. of Missins 600.
(2) cf, MW. Apr. 1939. pp. 121 ff.
(3) Bliss p. lll, cf. Jessup 59, 60, 76,107.

وفي عام ١٨٤٣ انتقل الدكتور طومسون والدكتور كرنيليوس فانديك الى عبية وأدارا مدرسة دينية للصبيان . ثم ظلا هنالك يعلمان ويعظان حتى نقلا الى صيداء عام ١٨٥١ (١) . على ان مدرسة عبية نفسها تأسست في الرابع من تشرين الثاني عام ١٨٤٦ على يد الدكتور كرنيليوس فان ديك (٢) . وفي عام ١٨٤٩ انتقلت ادارة هذه المدرسة الى عهدة المبشر سيمون كالهون . وهكذا استطاعت مدرسة عبية ان تساعد كثيراً على الغاية التي جاءت الارساليات من أجلها (٣) . ولقد ظلت مدرسة عبية تمثل دورها حتى تأسست الكلية السورية الانجيلية عام ١٨٦٥ في بيروت (٤) . لقد كانت مدرسة عبية سلفاً للكلية السورية الانجيلية (٥) .

وكذلك انشأ المبشرون الاميركيون مدرسة للبنات في عبيه ايضاً عام ١٨٤٧ بادارة السيد دي فورست وزوجته (٦) .

٢) كلية روبرت في استانبول :

هي كلية مسيحية غير متسترة لا في تعليمها ولا في الجو الذي تهيئه لطلابها (٧) . ويقول دانيال بلس ان كلية بيروت وكلية استنبول ليستا اختين فقط بل توأمان (٨) . ان هذه الكلية قد انشأها مبشر ولا تزال الى اليوم لا يتولى رئاستها الا مبشر (٩) .

٣) الجامعة الامريكية في بيروت :

ومع ان المبشرين الاميركيين قد انشأوا في عبيه مدرسة للصبيان واخرى للبنات ، فانهم لم يعفوا بيروت من نشاطهم ، فقد اسس سيمون كالهون منذ عام ١٨٣٥ مدرسة في بيروت ليساعد في حملة التبشير (١٠) التي شنها البروتستانت على سورية . ولكن لما تأسست الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الامريكية اليوم) في بيروت (عام ١٨٦٥) لم يبق من

(1) Jessup 60 .
(2) Jessup 96, Bliss 111.
(3) Jessup 163.
(5) Jessup 96.
(5) Bliss 111.
(6) Jessup 96.
(7) Jessup 513.
(8) Addison 91, cf. 99, 298.
(9) MW, Apr, 1933, p. 130.
(10) Bliss 163, 212.

حاجة الى مدرسة عبيه ولا الى مدرسة كالهون ، فان الكلية السورية الانجيلية اخذت مكانهما.

وجاء في تقرير لدنيال بلس ، الرئيس الأول للكلية السورية الانجيلية في بيروت ، هذه الحقائق نثبتها موجزة فيما يلي (١) :

في عام ١٨٦١ و ١٨٦٢ كان دانيال بلس والدكتور وليم طومسون يبحثان في ضرورة ايجاد معهد عال لسورية ولسائر العالم العربي في الشرق الأدنى ، فان ذلك افضل من ان يتعلم الطلاب علومهم العالية في الخارج : في اميركة وانكلترة مثلاً . ذلك لأن ثمت افراداً تعلموا قليلاً او كثيراً في انكلترة واميركة ثم انهم استقروا نهائياً حيث تلقوا علومهم ، أو أنهم رجعوا الى بلادهم في الشرق الأدنى من غير أن يؤثروا في قومهم قط (أي لم يساعدوا المبشرين على التبشير بين اهل البلاد) ، بينما الذين تعلموا في مدرسة عبيه قد اتخذ منهم المبشرون مدرسين لمدارس التبشير وواعظين ومساعدين في أعمال مختلفة ...

واعتمدت الكلية السورية الأنجيلية في تأسيسها على الرجال الذين يمولون التبشير ، وخصوصاً من الانكليز والاميركيين .

في ٢٣ كانون الثاني من عام ١٨٦٢ اقترح الدكتور طومسون ان يكون دانيال بلس رئيساً للكلية . وفي ٢٧ كانون الثاني اقترح طومسون وبلس معاً ان يكون الاعتماد الأول على الارسالية الاميركية للتبشير (٢) . وقد وافقت الارسالية على ذلك وعلى أن يكون دانيال بلس رئيساً للكلية ايضاً ... على الا يتعارض ذلك مع عمل الارسالية في سورية ...

وعلى هذا الأساس سافر دانيال بلس في ١٤ آب ١٨٦٢ الى نيويورك فوصل اليها في ١٧ ايلول . وفي ايار من عام ١٨٦٣ خطب دانيال بلس في الكنيسة المشيخية (٣) في نيويورك فأكد الحاجة في الشرق الأدنى الى اطباء والى تعليم ديني تكون التوراة فيه كتاب تدريس دائم . أما عمل الكلية فيجب ان يكون وضع كتب مسيحية تساعد على الاتصال بملايين الناس في آسية وفي افريقية وعلى اسباغ النعمة (المسيحية) عليهم .

وبعد أن عاد دانيال بلس من الولايات المتحدة ببضعة اشهر انعقد اجتماع في بيت الدكتور فانديك في الثلاثين من كانون الاول ١٨٦٣ حضره فانديك نفسه وفورد وجسب وهرتر من الارسالية الاميركية . ثم حضر جونسون قنصل الولايات المتحدة في بيروت .

(1) Bliss 162 ff: cf Penrose 8.
(2) cf. Jessup 241.
(3) Presbyterian .
من فرق المذهب البروتستانتي

وقد قرر المجتمعون يومذاك ، بعد أن تذاكروا في انشاء الكلية السورية الانجيلية ، اتجاه تلك الكلية فقالوا :

« نحن نصر على الطابع التبشيري للكلية ، وعلى أن يكون كل أستاذ فيها مبشراً مسيحياً » . وكذلك تبنّى المجتمعون شرعة الاتحاد التبشيري على أن تكون تلك الشرعة هي الخطة التي يجب أن يعمل كل أستاذ عليها . وفي عام ١٩٠٢ — أي في العام الذي اعتزل فيه دانيال بلس رئاسة الكلية — زال الاصرار على الفقرة فقط (١) .

وهكذا نرى أن الكلية السورية الانجيلية قد ولدت في رؤوس المبشرين ثم تعهدها المبشرون بعد ذلك ايضاً . ولقد اشترط المبشرون على القائمين بأمر الكلية ألا تفسد هذه الكلية عليهم عملهم (أي ألا تعلم ما يناقض مبدأهم التبشيري) وأن تكون مؤسسة بروتستانتية (٢) .

وهكذا نرى ايضاً بكل وضوح ان الكلية السورية الانجيلية كانت نتاج التعليم البروتستانتي ووليد الارسالية الامريكية للتبشير (٣) . ومع ان الكلية كانت تعتمد في أول أمرها فقط على مساعدة الارسالية المادية ، فانها كانت دائماً تتفق معها في الغاية : في السياسة التبشيرية وفي العمل معها في هذه السبيل (٤) .

وفي أول الامر مالت الكلية الى كتمان جهودها التبشيرية — وإن ظلت تبذلها — تجنباً لسخط الحكومة العثمانية ، ولذلك قال دانيال بلس نفسه :

« إن السنوات الاولى التي شهدت تطور الكلية قضت ان تسير الكلية في مجراها بهدوء قدر الامكان ، فلا تلفت اليها نظر رجال الحكم قبل أن تثبت جذورها في الأرض « ٥ » . فلما ثبتت جذورها تركت التستر واصبح لها اجتماعات دينية ظاهرة فأجبرت جميع الطلاب على حضور الصلوات في الكنيسة كل يوم ، وأجبرت الطلاب الداخليين خاصة على ان يحضروا صلاة يوم الأحد ايضاً .

ولما زار المبشر جون موط الكلية السورية الانجيلية عام ١٨٩٥ أسست الكلية فرعاً لجمعية الشبان المسيحيين (٦). إلا أن الاسم كان محرجاً أمام غير النصارى، فغيرته الكلية

(1) Jessup 274
(2) Bli s 163-9 .
(3) cf Jessup 298, Bliss (R) 329 .
(4) Bliss (R) 392 : Jessup 298. 817.
(5) Bliss 217 .
(٦) وهي اليوم « الجمعية المسيحية للشبان » او جمعية الشبان المسيحية .

وجعلته « الاخوية » (١). وهذه الاخوية لا تزال قائمة الى اليوم ولكنها كانت تدعى بأسماء مختلفة في الادوار المختلفة. ومع أن الدخول في هذه الجمعية، « جمعية الاخوية »، كان اختيارياً لجميع الطلاب، فان اساتذة الكلية السورية الانجيلية (٢) كانوا كثيراً ما ينحدرون الى مستوى يعطفون فيه على التلاميذ المتأخرين في التحصيل اذا كانوا اعضاء في هذه الاخوية. وتخرج احدنا عام ١٩٢٨ وكان كل طالب لا يزال يشعر هذا الشعور. ولقد اصطدمت (٣) أنا بعقبات كثيرة ذللتها بجهد شخصي، ولو انني كنت احضر الصلوات في الكنيسة أو أنني كنت عضواً في الاخوية لوفرت على نفسي كثيراً من الازعاج:

لقد كان اجتماع الصباح إجبارياً إما في الكنيسة وإما في منتدى وست هول. وكان بديهياً ان اختار الحضور في وست هول حيث تكون الاجتماعات بعيدة عن الدين قليلا أو كثيراً. وفي يوم من الايام دعاني عميد الدائرة العلمية الاستاذ ادورد نيقولي وسألني لماذا كنت غائباً عن الكنيسة. فقلت له أنا لا أحضر الكنيسة ولكن أحضر اجتماعات وست هول، فصرفني. ولكن في اليوم التالي دعاني ثم ذكر أنه يستغرب كثرة غيابي عن الكنيسة، فأعدت عليه القول بأنني منذ أول العام قد اخترت الحضور في وست هول. واخيراً أدرك الاستاذ نيقولي ان الايحاء إلي بحضور الكنيسة غير ممكن، فتركني وشأني.

ولا يزال الاصرار على الطابع الديني التبشيري للكلية السورية الانجيلية قائماً الى اليوم. نشر الكاتب لدفيك برنهارد في الكتاب السنوي الروسي لعام ١٩٠٥ مقالاً عنوانه « اميركة في الشرق » صور فيه الكلية السورية الانجيلية على انها محاولة مدروسة لتمهيد الطريق امام المصالح الاميركية، والتجارية منها خاصة. فرد عليه رشتر (٤) بقوله: ان مثل هذا الرأي في هذه المؤسسة يصدق على ناحية واحدة منها ويضلل عن هدفها الحقيقي. ان الكلية مؤسسة تبشيرية. وليس هذا فقط، بل هي كما يقول جسب (٥) اوضح سياسة دينية وتبشيرية من سائر المدارس الاميركية في الشرق، ككلية روبرت في استانبول مثلاً. اما رشتر فقال عنها (٦): انها ارقى مدرسة في الامبراطورية العثمانية. ان عمل الكلية التبشيري يتناول المسلمين في الدرجة الاولى، وهذا ما يجعلها بارزة في ذلك بين جميع

---

(1) Bliss 217 - 8, Brotherhood.

(٢) الجامعة الاميركية في بيروت.

(٣) الكلام هنا للدكتور عمر فروخ.

(4) Richter 220,
(5) Jessup 737.
(6) Richter 74.

المدارس الامريكية في الامبرطورية العثمانية وايران (١)، اذ هي التي تهيىء المدرسين المبشرين للمدارس الامريكية المنثورة في الشرق الأدنى كله (٢).

فالجامعة الامريكية في بيروت كانت عند انشائها مؤسسة تبشيرية، ولم تؤسس للتعليم العلماني، ذلك لأنها كانت نتاج حركة التبشير الامريكية (٣). هذا ما أجمع عليه الذين كتبوا عن هذه الجامعة (٤).

على ان الغريب ان الجامعة الاميركية لا تزال الى الآن تبشيرية. يقول ستيفن بنروز (٥) ومع ذلك فان (الجامعة الاميركية) كانت ولا تزال مؤسسة تبشيرية. ثم انه يصر على انها تبشيرية، بل ان التبشير كان المبرر الوحيد لتأسيسها (٦). وذلك بعد ان صرح فقال: ان الغاية القصوى للكلية (السورية الانجيلية) ان تحتضن التبشير المسيحي وتبذر بذور الحقيقة الانجيلية. وعلى هذا الأساس ذهب دانيال بلس الى امريكة ليثير رغبة الجمهور المسيحي لمحاولة تأسيس معهد أدبي يعمل على نشر الارساليات البروتستانتية والمدنية المسيحية في سورية والأقطار المجاورة (٧).

ولما اعتزل دانيال بلس ادارة الكلية عام ١٩٠٢، وقد بلغ يومذاك ثمانين عاماً (٨)، خلفه ابنه هوارد بلس.

هوارد بلس

ولد هوارد بلس عام ١٨٦٠ في سوق الغرب بجبل لبنان (٩)، ولكنه نشأ في الولايات المتحدة، وكان قسيساً راعياً (١٠). ظل هوارد بلس بعد أن تولى الكلية السورية الانجيلية قسيساً مبشراً ومعلماً مبشراً (١١). ولقد حضر، وهو رئيس للكلية، مؤتمراً لاتحاد الطلاب المسيحيين في العالم عقد في كلية روبرت في استانبول عام ١٩١١، وحضر معه

---

(1) Gairdner 27 - 8.
(2) Richter 221.
(3) Penrose 3 9, 309, cf. 5, 13 139, f
(4) cf. Bliss 214 f Gairdner 277 -8; Jessup. 274, 298, 737, 818; Richter 74, 220, Bliss (R) 329, Addison 91.
(5) Penrose 46.
(6) ibid. 180. 181.
(7) ibid. 81 f.
(8) cf. Bliss II, 214-5.
(9) Bliss 130.
(10) Bliss 214-5 (يسميه نصارى لبنان: خوري رعية)
(11) Bliss 228.

من الاشخاص (١) الآنسة مريم بارودي ، الدكتور فيليب حتّي واخوه حبيب حتّي ، الآنسة ماري كساب (موسسة المدرسة الأهلية للبنات في بيروت) ، والاستاذ بولس الخولي ، طانيوس سعد (٢) وادوارد نيقولي عميد الدائرة العلمية (ت ١٩٣٧) ..

أما غاية هذا المؤتمر فهي مثبتة على الصفحة الأولى من المتن (٣) : انها توحيد حركات الطلاب المسيحيين ومنظماتهم في العالم ... وجمع المعلومات المتعلقة بالاحوال الدينية للطلاب في كل العالم ... وقيادة الطلاب حتّى يصبحوا تباعاً ليسوع المسيح على انه مخلصهم الوحيد وربهم ... ثم ضم جهود الطلاب للتعاون على مد مملكة المسيح في جميع العالم ... وعلى الاخص في البلدان غير المسيحية . ولقد تكلم في هذا المؤتمر هوارد بلس نفسه (ص ١٣١ — ١٣٨) والدكتور فيليب حتّي (ص ٢٢٩ — ٢٣٠) .

بيارد ضودج

ولما توفي هوارد بلس عام ١٩٢٠ بقيت الجامعة الاميركية في بيروت بلا رئيس اصيل حتّى عام ١٩٢٣ حين عين لها بيارد ضودج .

كان بيارد ضودج في الأصل تلميذ لاهوت ثم نال شهادة دكتور في اللاهوت (٤) ، ولقد بقي سبع سنوات رئيساً مساعداً لجمعية الشبان المسيحيين (١٩١٣ — ١٩٢٠) ، ومع ذلك فانه لم يتسامح في ان يصبح احدنا الدكتور مصطفى خالدي رئيساً لجمعية الشبان المسلمين في بيروت وأن يظل في الوقت نفسه استاذاً في الجامعة . ولقد صارحه ضودج بأن جهوده في سبيل فلسطين وفي سبيل الشبان المسلمين لا يمكن أن ترضى عنها الجامعة . ولم يكن من المعقول أن يتخلى الدكتور مصطفى خالدي عن خدمة اجتماعية ، في رئاسة الشبان المسلمين والشابات المسلمات ، تشبه الخدمة الاجتماعية (٥) التي يقوم بها بيارد ضودج نفسه في رئاسة جمعية الشبان المسيحية (٦) ! وكذلك لم يكن من المعقول أن يتخلى الدكتور مصطفى خالدي عن الاهتمام بقضية فلسطين وهي القضية التي كان يهتم لها الرئيس ضودج نفسه .

---

(1) World Student Christian Federation 5, cf, 236 f.

(٢) كذا في الاصل : ولعله (القس) طانيوس سعد مؤسس مدرسة الشويفات الوطنية (ت ١٩٥٣).

(3) World Student Christian Christian Federation 5 cf. 6 f.

(4) cf. Penrose 304 ff.

(٥) تخل الدكتور مصطفى خالدي عن الرئاسة في جمعية الشبان المسلمين والشابات المسلمات فيما بعد للانصراف الى رئاسة مدرسة التمريض الوطنية التي انشأها هو ، وللسهر على المستشفى الذي اسسه .

(6) Penrose 204 .

وهكذا فضل الدكتور مصطفى خالدي ان يعتزل التدريس في الجامعة .

ولا ريب في أن شعور الطلاب بالتبشير المكشوف كان قليلاً جداً في رئاسة الدكتور بيارد ضودج ، وذلك لسببين اثنين : اولهما بلا ريب أن شخصية الرئيس بيارد ضودج لم تكن شخصية مهاجمة قهارة ، كالذي يروى عن دانيال بلس مثلاً . وكان في الرئيس ضودج تسامح كبير ، إلا أننا نعلم ان في الجامعة وللجامعة اناساً كان الرئيس ضودج مضطراً الى تنفيذ رغباتهم : ثم إن الجامعة لم تتخلّ بعد عن سياسة التبشير قط . ويكفينا دليل واحد على ذلك : ان الجامعة قد استغنت عن العدد الأكبر من المدرسين المسلمين في رئاسة الرئيس ضودج ، وان النشاط اليهودي كان في ايامه كبيراً . واذا نحن رجعنا الى المساعدات المالية التي تعطيها الجامعة رأينا قسماً منها بلا ريب خاصاً بأفراد مسلمين او بمؤسسات تساعد أفراداً مسلمين ، ولكننا اذا نظرنا الى (المساعدات المنظمة) نراها شيئاً آخر .

وثاني السببين ان اليقظة العربية تطورت تطوراً كبيراً في مدة رئاسة الدكتور ضودج (١٩٢٣ — ١٩٤٧) ، فمن الثورة السورية الى قضايا فلسطين الى استقلال البلاد العربية الى ولادة جامعة الدول العربية ، كل ذلك غمر العالم العربي حتّى أصبحت كل سياسة تبشيرية مكشوفة بجانبه تدعو الى كثير من الاستغراب .

على ان هذا كله لا ينسينا الاعمال العظيمة التي عملتها جامعة بيروت الاميركية ، ولا الرجال الذين نثرتهم في العالم نجوماً للسارين وشهباً للظالمين المستبدين وعلماء وأدباء ، ولكننا كنا نحب ان لو كانت هذه الاعمال خالصة من غاية لم يبق لها اليوم قيمة في عالم العقل والقومية .

ستيفن بنروز

والدكتور بيارد ضودج لم يكن قليل الذكاء ، ولكن القصة التي يرويها عنه ستيفن بنروز (١) ، الرئيس السابق للجامعة الاميركية في بيروت ، بعيدة عن المعقول . قال بنروز :

كان الدكتور ضودج كثيراً ما يروي انه رأى مرة في القطار الكهربائي في بيروت رجلاً مسلماً مسناً يحاول أن يصلي . كان هذا الرجل المسن لا يكاد يوجّه نفسه في وقوفه نحو مكة (القِبلة) حتّى يكون القطار قد دار حول منعطف في الشارع فيضطر المسكين الى ان يصحح اتجاهه . وقبل أن يمضي وقت طويل كان هذا المسكين قد اضطرب تماماً

---

(1) Penrcse 301 .

واخذ ينظر الى الراكبين بذلة وانكسار كأنه يطلب منهم معونة لا يستطيعون ان يسدوها اليه . ان هذا الرجل (والكلام للدكتور ضودج ، كما يزعم بنروز) كان يمثل الصعوبة التي تواجهها التقاليد الاسلامية في عصر يتبدل بسرعة لا تصدق » .

واستغربت انا(١) هذه القصة يرويها الدكتور ضودج لانني أعرفه معرفة تامة ، فلقد كان يعلمنا « دروس الاخلاق » في الدائرة الاستعدادية ، قبل ان يصبح رئيساً للجامعة . من أجل ذلك كتبت الى بنروز اسأله اذا كان قد نقل هذه الحكاية من كتاب مطبوع او انه سمعها سمعاً فقط . فتلقيت من بنروز الرسالة التالية (أنقلها اولاً الى اللغة العربية ثم اثبتها بنصها الانكليزي مصوراً بالزنكوغراف) .

الجامعة الاميركية في بيروت والكلية الثانوية

دائرة الرئيس — ١٣ ايار ١٩٥٢

الدكتور عمر فروخ
ص . ب . ٩٤١
بيروت ، لبنان

عزيزي الدكتور فروخ :

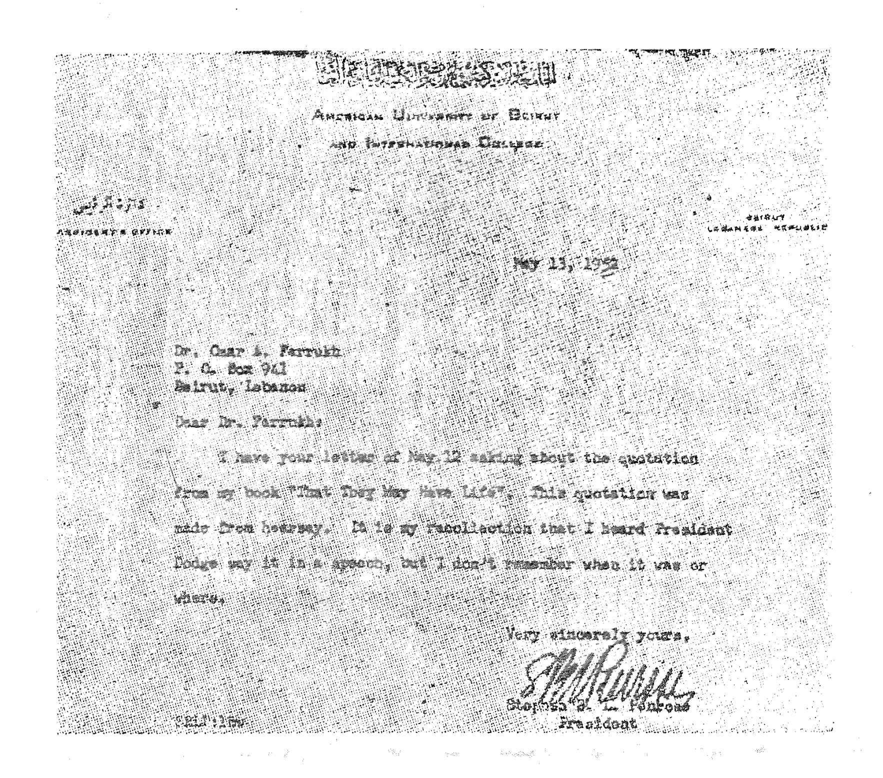
تلقيت رسالتك المؤرخة في ١٢ ايار تسألني عن قول استشهدت به في كتابي «كيما تكون لهم الحياة » . ان هذا القول قد اخذته من طريق السماع . والذي أذكره انني سمعت الرئيس ضودج يقوله في خطاب له ، ولكنني لا أتذكر متى كان ذلك ولا اين كان .

المخلص لك كثيراً

الامضاء : ستيفن ب . ل . بنروز

الرئيس

(١) الكلام هنا للدكتور عمر فروخ .



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
AND INTERNATIONAL COLLEGE

PRESIDENT'S OFFICE — BEIRUT, LEBANESE REPUBLIC

May 13, 1952

Dr. Omar A. Farrukh
P. O. Box 941
Beirut, Lebanon

Dear Dr. Farrukh:

I have your letter of May 12 asking about the quotation from my book "That They May Have Life". This quotation was made from hearsay. It is my recollection that I heard President Dodge say it in a speech, but I don't remember when it was or where.

Very sincerely yours,

Stephen B. L. Penrose
President

SBLP:lbw

ان مثل هذه القصة ، قصة المسلم العجوز الذي يصلي في حافلة القطار الكهربائي ، لا يمكن ان تجد الا راوياً اميركياً . والذين يعرفون بيروت والقطار الكهربائي في بيروت ويرون المسلمين في الشوارع يستطيعون ان يدركوا الى اي حد بلغ الخيال بواضع هذه القصة.

اما نحن فنستغرب ان يشترك رئيسان لأعظم جامعة في الشرق الأدنى في رواية مثل هذه القصة التي لا يمكن ان تكون الا سخيفة . نقول هذا بقطع النظر عن انها بعيدة عن الحقيقة ، وخصوصاً اذا قبلنا ان تكون منسوبة الى الدكتور بيارد ضودج الذي قضي في الشرق خمسة وثلاثين عاماً ، ودرس اللغة العربية والدين الاسلامي على العلامة الشيخ احمد عمر المحمصاني ، تلميذ المصلح الكبير الشيخ محمد عبده (رحمهما الله) . على اننا نحب ان نقول رأينا في هذه الحادثة .

ان اغلب الظن ان الدكتور بنروز قد اختلق هذه القصة رأساً من أساسها ، بعد أن دله مبشر جاهل على المسألة الفقهية المتعلقة بها ، أو أنه هو قد قرأ هذه المسألة الفقهية

ولكن لم يفهمها :

« في الفقه الاسلامي ، ان المسلم اذا كان سائراً (على جمل او في واسطة اخرى للنقل وأراد الصلاة ثم اتجه الى القبلة ، فانه يلزم اتجاهه هذا مهما تبدل اتجاه الواسطة التي يستعملها ».

ان الذين يأتون الى الشرق ليعلمونا يجب أن يكونوا هم أنفسهم اكثر علماً منا ، او يجب ألا يتعرضوا لما لا يعرفون على الاقل ! وبعد ، فأي وزن لحادثة يذكرها المؤرخ او العالم الاجتماعي اذا كان لا يعرف اين وجدها ولا متى سمعها . ولكن المستر بنروز اختلق القصة ثم جعل يزعم ، بالاستناد اليها ، ان المسلمين متأخرون جهلة اغبياء ! على ان المستر بنروز ليس ملاماً لأنه صرح في كتابه بأن الغاية الاولى من تأسيس الجامعة لم يكن تعليم العلم وبث الأخلاق الحميدة ، بل نشر المذهب البروتستانتي . ولكن لعله نسي ان الجامعة قد أعلنت منذ مدة طويلة انها غيرت سياستها هذه !

وهنا نحب ان نشير الى ان القائمين على امر الجامعة الاميركية في بيروت لم يكتفوا ، من أول امرهم ، بأن يكون رئيس هذه المؤسسة مبشراً ، بل اصروا على ان يكون جميع المدرسين فيها مبشرين . ان الدكتور جورج بوست جاء الى الشرق الادنى مبشراً كزملائه ثم ذهب الى طرابلس عام ١٨٦٣ كطبيب مبشر (١) . وكذلك كان كورنيليوس فانديك ، وابنه هنري فانديك ، ويوحنا ورتبات كلهم أطباء مبشرين (٢) .

وكان على هؤلاء المدرسين ان يوقعوا يميناً يقسمون فيها بأن يوجهوا جميع أعمالهم نحو هدف واحد ، هو التبشير ، ولم يقبل منهم أن يكونوا نصارى بروتستانتيين فقط ، بل وجب ان يكونوا مبشرين ايضاً (٣) . ومع الأيام ألغت الجامعة توقيع هذه اليمين ، ولكنها لم تلغ مؤداها .

وكانت الجامعة تحرص على أن يظهر جميع اساتذتها بمظهر المبشرين ثم تحملهم على ان يحضروا المؤتمرات التبشيرية . ولعل المرحوم الاستاذ بولص الخولي لم يُعنَ بالتبشير — مما نعرفه نحن — ولكنه حُمل بلا ريب هو والدكتور فيليب حتي على ان يحضرا مؤتمر استانبول مع الدكتور هوارد بلس عام ١٩١١ ، تكثيراً للاسماء الوطنية .

ومع ان الجامعة الاميركية لم تعلن سياستها التبشيرية في مطلع حياتها خوفاً من ان يغلقها العثمانيون ، فانها لم تأل جهداً في التبشير في كل درس . حتى في الدروس التي لا

(1) Penrose 39.
(2) ibid. 8, 36, 37 etc.
(3) ibid. 83 f.

صلة خاصة بينها وبين الدين ، كانت المبادىء المسيحية موضع تأكيد وتزيين كلما سنحت لذلك فرصة . فمن أمثال ذلك مثلاً ان درس اللغة الانكليزية كان يستغل في نقل نصوص التوراة الانكليزية الى اللغة العربية . وفي هذه الأثناء كان الاستاذ ينتقل الى مناقشة المشاكل الدينية ، من الزاوية التبشيرية طبعاً (١) .

وهذا أمر غير مستغرب في المدارس التبشيرية . لقد قرر مؤتمر القدس المنعقد عام ١٩٣٥ ان يستغل كل درس في سبيل تأويل مسيحي لفروع العلوم كالتاريخ وعلم النبات الخ (٢)

ومع ان الجامعة الاميركية ، كما يقول بنروز ، لم تفكر بأن تفرض المذهب البروتستانتي على طلابها فرضاً ، فأنها كانت تستغل كل فرصة سانحة ليعرف أولئك الطلاب الحقيقة كما تريدها النصرانية البروتستانتية . وكان الدخول الى الكنيسة فرضاً على كل تلميذ (٣) .

واتفق في عام ١٩٠٩ ان احتج الطلبة المسلمون على اجبارهم على الدخول الى الكنيسة فاجتمعت عمدة الجامعة الموقرة وأصدرت منشوراً طويلاً جداً ، جاء في مادته الرابعة ما يلي (٤) :

ان هذه كلية مسيحية ، أسست بأموال شعب مسيحي : هم اشتروا الأرض وهم أقاموا الابنية ، وهم أنشأوا المستشفى وجهزوه ، ولا يمكن للمؤسسة ان تستمر اذا لم يسندها هؤلاء . وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليماً يكون الانجيل من مواده ، فتعرض منافع الدين المسيحي على كل تلميذ ... وهكذا نجد أنفسنا ملزمين بأن نعرض الحقيقة المسيحية على كل تلميذ ... وإن كل طالب يدخل الى مؤسستنا يجب أن يعرف مسبقاً ماذا يطلب منه .

وكان هذا التهديد المجرد من الذوق والروح العلمية كافياً لأن يعلن الطلاب الاضراب .
الا ان العمدة تصلبت في ظاهر أمرها ، فترك ثمانية طلاب العلم في المؤسسة المتعصبة (٥) .
ولم تتأخر الكلية عن أن تعلن بلسان مجلس الأمناء ان الكلية لم تؤسس للتعليم العلماني ولا لبث الأخلاق الحميدة (كذا) ، ولكن من اولى غاياتها أن تعلم الحقائق الكبرى التي في التوراة ، وان تكون مركزاً للنور المسيحي وللتأثير المسيحي ، وان تخرج بذلك

(1) Peneose 46.
(2) Danby 31 etc.
(3) Penrose 135 f
(4) Penrose 137 f ; cf. Bliss (R) 331 ; Jessup 788.
(5) cf. Penrose 137. f. ; Bliss (R) 331 ; 788.

على الناس وتوصيهم به (١) .

الا ان الروح الحرة لم تلبث ان انتصرت فثابت الجامعة الاميركية الى نفسها ورأت ، ولو بعد حين ، وجه الصواب فتنازلت حينئذ عن رأيها الذي لم يكن من العلم في شيء ، ولا من الحرية في شيء ، ولا من الانسانية في شيء .

لقد شاهدت الجامعة الاميركية يقظة العرب على هذا التراب الطاهر في الشرق الأدنى ، وشاهدت جميع الشرقيين والعرب يتجهون أفواجاً نحو هيكل العلم النبيل ، في افق يسع المشرق والمغرب ويسع الأديان كلها والألوان جميعها . فأي فضل للجامعة بعد ذلك اذا اعترضت هذا الموكب الفخم المهيب لتسوق جزءاً منه نحو الكنيسة البروتستانتية ! أما حجتها فكانت أوهي من عملها . انها احتجت بأن نفراً من المتمولين الاميركيين لا يعينون الجامعة بأموالهم التي جمعوها الا اذا علموا بأنها تزيد عدد البروتستانت في الشرق . وهكذا حكمت الجامعة الاميركية على نفسها بأنها مسوقة في تيار قوم آخرين ، وأنها مستأجرة لتنفيذ رغبات لا تشرف صاحبها فضلاً عن منفذها .

*

على ان استغرابنا قد زاد عام ١٩٤٨ ولم ينقص . ان الجامعة الامريكية تعترف بأنها بدأت تبشيرية ثم تخلت عن التبشير في عصر القومية الواسعة والتسامح العظيم والتعاون الشامل .

الا ان الدكتور ستيفن بنروز — رئيس الجامعة الامريكية السابق . قد أتي ، مما هو ظاهر واضح في كتابه ، بعقلية دانيال بلس لا بعقلية بيارد ضودج على الأقل : لقد جاء مبشراً لا معلماً . ولو انه جاء معلماً لا مبشراً لأرخ الجامعة الاميركية في بيروت تأريخاً مختلفاً — من حيث الاتجاه والتوجيه على الأقل ، لا من حيث المادة .

ولكننا نعود فنقول : اننا نحن نعرف الجامعة الامريكية ونعرف الرجال العظام الذين نثرتهم في العالم العربي خاصة ، فلا نحكم عليها بما فعل دانيال بلس ولا بما يقول ستيفن بنروز . ولكننا كنا نود ان لو كان الذين تَوَلَّوْا امر الجامعة اصدق في التعبير عن حقيقة انفسهم وابصر بمقام الجامعة الحقيقي .

لما صدر هذا الكتاب أثار ضجة شديدة في الجامعة الاميركية خاصة . ولقد توجه

(1) Penrose 139.

الينا عتبان اساسيان ، لا سيما ونحن مؤلفي هذا الكتاب ، من خريجي الجامعة الاميركية .

اما العتبان فهما :

(١) أننا حملنا من اللوم على الجامعة الاميركية أكثر مما حملنا على الجامعة اليسوعية مثلاً .

(٢) أن الجامعة الاميركية نشأت نشأة تبشيرية ، ولكنها اليوم ليست مؤسسة تبشيرية .

اما العتب الاول ، او الاعتراض الأول على الاصح ، فالرد عليه يسير جداً . ان الكتب التي كتبها المبشرون الاميركان اكثر من تلك التي كتبها المبشرون الفرنسيون . ومن هنا فقط جاء عدد الصفحات التي خصصنا بها الجامعة الاميركية . هذا من ناحية . اما من الناحية الثانية فان المادة التبشيرية التي جمعناها عن اليسوعيين لا تقل من حيث الأهمية ولا من حيث الاذى السياسي الذي نزل ببلادنا عن تلك التي جمعناها عن الاميركان ، بقطع النظر عن عدد الصفحات . وأما العتب الثاني فالكلام عنه اشد تعقيداً .

لا شك في ان سياسة الجامعة الاميركية اليوم تختلف عما كانت عليه في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . ان النظر الى التبشير قد تبدل عند المبشرين أنفسهم . فليسمح لنا اصدقاؤنا في الجامعة الاميركية في بيروت أن نضع أمامهم الحقائق التالية :

(١) هنالك شاب من صيدا كان طالباً في الجامعة الاميركية في بيروت وتخرج فيها برتبة بكالوريوس علوم عام ١٩٤٣ ، وقد صبأ هذا الطالب الى النصرانية في أثناء وجوده تلميذاً في الدائرة العلمية . هنالك شاب آخر من جنوبي لبنان كان طالباً في الجامعة الاميركية تخرج فيها برتبة بكالوريوس علوم ١٩٤٤ وبرتبة استاذ علوم عام ١٩٤٧ . وكان قد علم في الجامعة الاميركية في بيروت من عام ١٩٤٤ الى العام ١٩٤٧ . ثم انه نال شهادة الدكتوراه عام ١٩٤٩ من جامعة ادنبره . ولقد صبأ ايضاً الى النصرانية وهو اليوم استاذ في الجامعة . هذان تلميذان في الجامعة الاميركية في بيروت صبأ صنا ! الى النصرانية بالأمس القريب وبين جدران الجامعة ، فقول القائلين بأن الجامعة تركت سياسة التبشير القديمة بين طلابها قول تقوم الشواهد على خلافه .

(٢) ان مفهوم التبشير قد تبدل الآن . في العاشر من تشرين الثاني عام ١٩٥٤ ، وكنت قد بدأت أنا والدكتور خالدي بجمع موادّ جديدة للطبعة الثانية ، كتبت الى الدكتور بنروز رئيس الجامعة الاميركية في بيروت أسأله عما اذا كانت الجامعة الاميركية مؤسسة علمية بحت او ان لها طابعاً علمياً وتبشيرياً معاً . وقد أجابني الدكتور بنروز في الثاني عشر من الشهر المذكور جواباً مطولاً قال فيه ان الجامعة الاميركية في بيروت لم تكن

على الحصر مؤسسة « تبشيرية » ، مع ان الارسالية الاميركية البروتستانتية هي التي أنشأت تلك الجامعة . ثم قال الدكتور بنروز ان جميع رؤساء الجامعة قبله كانوا قسساً ، اما هو شخصياً فلم يكن قسيساً ، وان أطروحته لنيل الدكتوراه كانت في الفلسفة ولم تكن في الفقه أو اللاهوت .

أما فيما يتعلق بسؤالي عن الطابع التبشيري للجامعة فقد قال الدكتور بنروز في رسالته المذكورة إليّ :

« ان الجامعة ... لا تقوم بجهد لتجعل الطلاب يصبأون الى النصرانية ... اننا على كل حال نهتم بأن نثير في طلابنا الاهتمام بالأمور التي تتصل بالدين عموماً (لا بدين خاص) ... فاذا كنت تعد هذا نشاطاً تبشيرياً ، وجب علي ان أقول اننا تبشيريون ولكن بهذا المعنى فقط ... »

ثم يقول الدكتور بنروز : ان هذه مسألة معقدة ، وأحب ان لو نجتمع لنبحث فيها بتفصيل أوفى . ولكني أنا لم أجد ضرورة للاسراع بضرب موعد لكثرة العمل المدرسي في مطلع السنة الدراسية — تشرين الثاني . وجاء أمر الله وتوفي الدكتور بنروز في التاسع من كانون الأول من العام ١٩٥٤ نفسه . وحاولت بعد ذلك ان اثير الموضوع مع بعض خلفه فلم أجد عنده قبولاً للخوض فيه . ثم باحثت الاستاذ فؤاد صروف ، نائب رئيس الجامعة الاميركية المولج بالصلات الاجتماعية ، فأكد اهتمام الجامعة باذكاء الحياة الروحية بين الطلاب .

ومما يتصل بموضوعنا هنا ان الجامعة الاميركية في بيروت تحتضن حركتين متصلتين اليوم بالاستعمار اتصالاً وثيقاً : حلف بغداد (أو سياسة المعسكر الغربي) ثم الدعوة الى اللغة العامية مكتوبة بالحروف اللاتنية . أما الدعوة العامية فالبحث فيها سيأتي في فصل يتلو . وأما سياسة المعسكر الغربي فمكان البحث فيها هنا .

تُجمع البلاد العربية ، باستثناء حكومة العراق قبل تأميم قناة السويس ، على ان سياسة الاحلاف الأجنبية أمر يجلب الأذى على العرب . ولكن الجامعة وأساتذة الجامعة — والمعنى واحد — تقف الى جانب حلف بغداد لأنه اميركي وتسفه رأي خصومه . وقد نشر جورج كيرك ، استاذ الاقتصاد والعلوم السياسية في الجامعة ، مقالاً في مجلة الكلية يسفه فيه رأي العرب — أو مصر خاصة والعرب عامة — لأن العرب لما أيسوا من التسلح من دول الغرب التي سلحت اليهود وتسلح دولتهم اليوم بكل كرم وتعينها في اعتداءاتها المتكررة على تخوم البلاد العربية ، بدأوا يعقدون صفقات لشراء أسلحة تشيكوسلوفاكية على اسس تجارية بحت . ولكن جورج كيرك ، الاستاذ في الجامعة الاميركية ، نصب

نفسه هازئاً بالعرب وبقصر نظرهم في السياسة ، ثم أخذ يهول على العرب بالنتائج الوخيمة التي ستنال العرب من جرأة صفقة الأسلحة هذه .

نحن لا نطلب من جورج كيرك ان يتبنى وجهة نظر العرب ولا ان يستيقظ ضميره من هول الجريمة البريطانية الاميركية في فلسطين ، ولكننا كنا ننتظر من استاذ في الجامعة الاميركية أن يترك هذا الموضوع للجرائد وألا ينغمس هو فيه ويغمس معه الجامعة الاميركية. على ان الجامعة الاميركية ستقول ان جورج كيرك يمثل نفسه ، وهو حر في أن يكتب ما يشاء ولا صلة للجامعة بما كتب . ولكن هذا القول مردود رأساً . ان الجامعة الاميركية لن تسمح لجورج كيرك ، ولا لغيره جورج كيرك ، من اساتذتها ، بأن يشجبوا حلف بغداد او اعمال النقطة الرابعة او اعمال لجنة الاغاثة او ان يدللوا على جريمة الولايات المتحدة في خلق اسرائيل ومدها بأسباب الحياة ، أو أن يكتبوا عن همجية الشعب الاميركي في معاملته للاميركيين الزنوج والحمر . ان الجامعة الاميركية ، وان كل مؤسسة كالجامعة الاميركية ، مسؤولة عن رأي اساتذتها في الأمور العامة ، والا فأي ضرورة تبقى لوجودها بعد ذلك ؟

حينما كنا طلاباً كنا نتخذ القرار بالاضراب السياسي في قلب الجامعة الاميركية ، وكانت المظاهرات تتحرك من الجامعة الاميركية — معقل الوطنية — ثم كان الطلاب يعودون من المظاهرات ويدخلون الى صفوفهم في اليوم التالي كأنهم آتون من عطلة أو راجعون من رحلة او عائدون من مباراة في كرة القدم . وأذكر مرة ان طالباً من ضعاف الايمان لم يشأ أن يضرب في يوم اضراب فدخل الى الصف . ولكن المعلم الاميركي قال له : اخرج الى رفاقك ، إنه عار عليك أن تدخل الى الصف وهم مضربون . اما اليوم فان الطلاب الذين يضربون يعاقبون ويطردون ، لأن الاضراب اليوم في اكثر الأمور معناه الاستياء من السياسة الاميركية في الشرق العربي .

•

٤ — سائر المدارس الاميركية :

ان الكلمة المفصلة التي سبقت في الكلام على الجامعة الاميركية (والكلية السورية الانجيلية سابقاً) تغنينا عن التفصيل في الكلام على المؤسسات التعليمية التي نشرها الاميركيون في بلدان الشرق . وسنقتصر في هذا الكتاب على ذكر كلية جيرارد في صيداء في الجمهورية اللبنانية .

نشأت كلية جيرارد ، أو كلية الاميركان في صيداء (١) من حاجة تبشيرية خاصة . ان المبشرين الاميركيين كانوا قد أدركوا ، بعد خمس عشرة سنة من التجارب ، ان المتخرجين من الكلية السورية الانجيلية في بيروت لا يصلحون لأعمال التبشير في القرى ، ذلك لأنهم يأتون عادة من بيئة بعيدة عن القرى ثم يقضون سني تعليمهم وتدريبهم في بيئة حضرية . من أجل ذلك قرر المبشرون الاميركيون انشاء مدرسة عالية في مكان قريب من البيئة القروية لاعداد معلمين ومساعدين على التبشير في القرى نفسها (٢) .

ومثل هذا يقال في الكليات الاميركية المختلفة في خربوط وعينتاب ومرعش وطرسوس (٣) ، وفي طرابلس والقاهرة وحلب وسواها .

٥ — كلية غوردن في الخرطوم (الانكليزية) :

ومن اطرف ما يمكن ان يستشهد به هنا موقف المبشر هنري جسب ورأيه في كلية غوردن في الخرطوم بالسودان المصري .

اسس الانكليز عام ١٩٠٣ كلية في الخرطوم سموها « كلية غوردن » باسم ضابط انكليزي هو تشارلس غوردن ، ويعرف ايضاً باسم غوردن باشا . وكان غوردن قد قُتل في السودان لما استولى المهدي على الخرطوم عام ١٨٨٥ .

عرض المبشر جسب لسياسة الحكومة الانكليزية في هذه المؤسسة فسماها « فضيحة كلية غوردن » ثم قال : ان الحكومة الانكليزية لما قررت فتح هذه الكلية جمعت لها مائة الف جنيه من انكلترة ، ولكنها اغلقتها في وجه التبشير المسيحي . ثم يستغرب جسب كيف ان هذه الكلية تعلم القرآن ولا تعلم التوراة والانجيل ، ثم تفتح أبوابها يوم الاحد وتعطل دروسها يوم الجمعة . بعدئذ يتابع جسب حملته الشعواء فيقول : وما دام غوردن مسيحياً فيجب ان تكون الكلية التي سميت باسمه تبشيرية مسيحية ، لا ان تكون حجاباً بين السودانيين وبين التوراة (٤) .

ان جسب يريد ان تكون المدرسة المسلمة بتلاميذها والمسلمة بالادارة في بلادها ، لأن

(1) cf. Jessup 313 ; Richter 222.
(2) cf. Bliss 170.
(3) Richter 74.
(4) Jessup 665 - 5.

الحكم في السودان كان انكليزياً مصرياً (١) مؤسسة تبشيرية مسيحية ، لأن الرجل الذي تحمل تلك الكلية اسمه كان مسيحياً .

٦ — المؤسسات الافرنسية :

تختلف المؤسسات الافرنسية عن المؤسسات الاميركية في انها تحمل اسمها على ثيابها ، سواء اكانت بروتستانتية ام كاثوليكية . وقد يجوز لنا ان نستثني المؤسسات العلمانية التي تهتم ببسط السياسة والثقافة الفرنسيتين اكثر من بسط المذهب الكاثوليكي او البروتستانتي .

واذا نحن اقتصرنا في الكلام على مؤسسة واحدة من هذه ، على المؤسسة اليسوعية ، فاننا لا نعدو الصواب لأن هذه المؤسسات كلها توجّه من مكان واحد ، من رومية ، ومن فرنسه احياناً : توجه توجيهاً دينياً من رومية وتوجيهاً دينياً سياسياً من فرنسة .

كانت سورية على الأخص ميداناً للسباق بين البروتستانت الاميركيين وبين اليسوعيين ذوي اللون الافرنسي . ويظهر ان اليسوعيين بدأوا يتسربون الى سورية منذ القرن الثامن عشر حينما انشأوا مدرسة عينطورة في مقاطعة كسروان في جبل لبنان في عام ١٧٣٤ ثم تخلوا عنها للرهبان اللعازريين . وبعد مائة عام ، بعد حملة ابراهيم باشا على سورية ، عاد اليسوعيون الى سورية بنشاط جديد ، وأخذوا ينافسون البروتستانت منافسة شديدة (٢) .

ولقد اهتم اليسوعيون في اول امرهم بالتعليم الديني لاعتقادهم انهم اذا سيطروا على رجال الدين المسيحيين ، باعدادهم في مدارسهم هم ، استطاعوا ان يسيطروا على القرى النصرانية كلها (٣) . وكان الاستعمار في التعليم اليسوعي ظاهراً غير مستتر ، كما كان عند منافسيهم. ولذلك بنوا برنامج مدارسهم منذ ١٨٦٤ على البرنامج الفرنسي رأساً مع اضافة دروس اللغة العربية (٤) . ولقد بسط هؤلاء غايتهم من ذلك فقالوا : ان اليسوعيين المبشرين يريدون ان يقدموا الى تلاميذهم النصارى العلم مع التعليم ، وفي الوقت نفسه يريدون ان يجعلوهم يعرفون فرنسة ويحبونها (٥) .

(١) ان التقارب الاخير (١٩٥٢) بين مصر والسودان يدل دلالة واضحة على ان المبشرين كانوا ، حتى في عام ١٩٠٣ ، يخطئون فهم الصلات بين مصر والسودان ، وبين السودان والتبشير ايضاً . وفي ١٩٥٦ ألغيت المدارس التبشيرية في مصر والسودان وطلب اليها ، اذا كانت تريد ان تستمر في هذين البلدين ، ان تتقيد بأنظمة الحكومتين ومنهاجهما .

(2) Bliss (R) 328-329 and footnote 3.
(3) Les Jesuites en Syrie 1 : 7 - 12.
(4) ibid. 1:9.
(5) ibid. 2 : 8.

ولقد كان اليسوعيون قد اختاروا بلدة غزير للتعليم ، لما كان منافسوهم قد اختاروا بلدة عبيه للغاية عينها . فلما انتقل الامريكيون الى بيروت لم تبق غزير في رأي اليسوعيين المركز الذي يمكّن الكاثوليك من الدفاع عن عقائدهم في ميدان العلم والتعليم ، ولذلك عزموا على نقل كليتهم من غزير الى بيروت ايضاً (١) . ونعم اليسوعيون في القرن الأخير بامتيازات لم تتوفر للاميركيين . اجل ، ان الانتداب قد رفع الرقابة عن اعمال الاميركيين وترك لهم الحرية في نشاطهم الديني ، ولكن الانتداب نفسه قد سخر جيوشه ورجاله لخدمة اليسوعيين . قال اليسوعيون :

« كان المبشرون اليسوعيون في اول امرهم (قبل الانتداب الافرنسي على سورية) ينشئون المدارس في جبل الدروز ثم يغلقونها اذا قصّرت مواردهم الاقتصادية عن ادارتها . ولكن التعليم (التبشيري) اليوم — اي بعد الانتداب — وخصوصاً في جبل الدروز يقوم على تعاون وثيق بين المبشرين وبين السلطات العامة (٢) .

ولا نحب هنا ان نسهب في الكلام على المؤسسات اليسوعية ولا المؤسسات الشبيهة بهـا ، فالغايات اليسوعية معروفة . ولكن الغريب ان اليسوعيين لا يزالون في لبنان وحده قوة تتحدى كل اصلاح في التعليم الرسمي . الا أن هذا الكتاب ليس موضعاً لبحث ذلك .

علينا ان نقتدي بأمم الغرب التي لم تستطع بلادها ان تسير في معارج الاستقلال والرقي الا بعد ان وضعت اليسوعيين خارج حدودها : يجب ان نتعلم من غيرنا مـا نفع به أنفسنا .

لقد تعثّر الشرق في حياته السياسية والقومية لأن المدارس الأجنبية المختلفة قد فرقت ابناء الوطن الواحد طرائق مختلفة فشتتت اهدافهم وباعدت بين الطرق الى تلك الأهداف . ان التعليم قوة توجيهية عظيمة ، فلا يجوز ان تكون في أيد اجنبية تلعب بها وتستغلها لمـآرب وأغراض اجنبية .

ان التعليم الوطني الموحد ، ولو كان ناقصاً بعض النقص ، افضل من التعليم الأجنبي المتنافر ، ولو كان كاملاً كل الكمال .

---

(1) ibid 5 : 8.
(2) ibid 10 : 65.

الفصل الخامس

السياسة طريق التبشير

(١) تعاون التبشير والسياسة

لقد خابت الجمعيات التبشيرية في جهودها الفردية بين المسلمين : لقد تبين لهذه الجمعيات ، لأسباب كثيرة ، ان انتقال المسلم من الاسلام الى النصرانية قد يتم في العام بعد العام . وهذا يعني ان الجهود التي يبذلونها لا تتناسب مع النتائج التي يجنونها ، فيجب البحث اذن عن طريق اشد تأثيراً واكثر عائدة .

أما الأسباب الحقيقية التي تصرف المسلم عن هذا الانتقال — كما ذكرها المبشرون انفسهم — فلن نتعرض لها ، ذلك لأنها تثير مشكلة عظيمة بين مواطنين في الشرق يعيشون على الأخوة والوداد ، وهذا ابعد شيء عن غايتنا في هذا الكتاب . ان لكتابنا هدفاً واحداً : نحن نريد ان نبرهن على ان رجال الدين الأجانب هم المسؤولون عن نكبات الشرق السياسية والخلقية ، وعن الفتن التي كانت تثور بين أهل الأديان والمذاهب ، وان أهل الوطن الواحد على اختلاف اديانهم ومذاهبهم كانوا دائماً ضحايا بريئة .

ولما رأى المبشرون ان الجهود الفردية في نشر المذاهب المسيحية الغربية في الشرق وبين المسلمين خـاصة ، قليل الجدوى تلفتوا ، منذ زمن قديم جداً ، الى سبل أحسن تمهيداً واشد تأثيراً فلجأوا الى حكومـاتهم . وبعد ان رضي المبشرون ان يجعلوا انفسهم والدين آلة طيعة في يد دولهم ، انتهزت تلك الدول هذه الفرصة وجعلت تساعد المبشرين ، إلاّ أنها في الحقيقة كانت تسعى الى أهدافها السياسية والاقتصادية الخاصة باستغلال المبشرين والدين .

وللمدارس الافرنسية ، مدارس الأخوان النصارى (الفرير) والمدارس اليسوعية وما يتصل بها كلها من مدارس الراهبات وسواها ، مشاكل خاصة ليست لمدارس

الاميركيين والانكليز في الشرق . ان المدارس الافرنسية تتبع سياسة واحدة دائمة وقيادة واحدة في الاكثر . هذه المدارس الافرنسية لا تسعى الى استغلال النشاط القومي في تعليم أهل البلاد ولا هي تسعى الى ابراز الخصائص الوطنية حيث تفتح أبوابها لابناء البلاد التي تكون فيها ، ولكنها تجهد في ان تجعل من ابناء البلاد الذين تعلمهم ، سواء أكانت تلك البلاد مراكش او مصر او ايران او الهندالصينية ، اشباهاً لأبناء فرنسة نفسها في المظهر واللغة واسلوب التفكير والتعلق بفرنسة المستعمرة .

وللمدارس الافرنسية المذكورة منهاج خاص موحد تسير عليه مصنوع في غير البلاد التي تقوم فيها . انه منهاج افرنسي استعماري في كل شيء . من المشهور ان طلاب المدارس الفرنسية يعرفون جغرافية فرنسة وتاريخها بتفصيل أوفى من التفصيل الذي يعرفون به بلادهم . انهم يعرفون هضاب فرنسة وروافد أنهارها ويعرفون مفردات الصادرات منها والواردات اليها معرفة دقيقة ، ثم هم يقرأون من تاريخ فرنسة ما لا يقرأون من تاريخ بلادهم . واذا نحن استعرضنا الكتب التي تدرس في تلك المدارس ألفيناها الكتب التي تدرس في فرنسة نفسها . تلك كانت الحال ايضاً في لبنان قبل زوال الانتداب الافرنسي . ومع ذلك فان هنالك جهوداً كثيرة مبذولة اليوم للحيلولة دون تبديل تلك السياسة . ان في لبنان اليوم معركة حامية الوطيس حول تبديل المناهج وتعديلها وحول رقابة الحكومة اللبنانية على ميزانيات تلك المدارس وعلى دخول المفتشين اللبنانيين اليها . ولولا ان في تلك المدارس نفراً من المدرسين الوطنيين الذين امتلأت صدورهم بالعزة الوطنية (لأن عدداً كبيراً من المدرسين في تلك المدارس من الرهبان الأجانب او من الأجانب غير الرهبان) لما أمكن أن ينشأ في لبنان تعاون بين أساتذة المدارس المختلفة في سبيل المعلم اللبناني وفي سبيل خير التعليم في لبنان .

الحروب الصليبية

من الأمور التي أصبحت معروفة في أسباب الحروب الصليبية ان تلك الأسباب كانت في ظاهرها دينية ، غايتها تخليص بيت المقدس من يد المسلمين ، بينما كانت في حقيقتها سبيلاً للسيطرة على الشرق الاسلامي بما فيه من خيرات اقتصادية ومراكز حربية .

وأوجز رشتر القضية فقال (١) : « جهد الصليبيون طوال قرنين لاستعادة الأرض

(1) Richter 14.

المقدسة من أيدي المسلمين المتعصبين ، فكان عهد الحروب الصليبية من أجل ذلك اروع العهود في العصور الوسطى كلها ... ولكن ذلك الجهد قد خاب ، وتراجعت الحملة الصليبية أمام سدود عنيدة من التعصب الاسلامي » .

ولكن غاردنر ولطفي ليفونيان قد كشفا عن حقيقة القضية ستاراً آخر ، فقد قال غاردنر (١) : « لقد خاب الصليبيون في انتزاع القدس من ايدي المسلمين ليقيموا دولة مسيحية في قلب العالم الاسلامي .. والحروب الصليبية لم تكن لانقاذ هذه المدينة بقدر ما كانت لتدمير الاسلام . » اما ليفونيان فيرى (٢) ، وهو على حق ، ان الحروب الصليبية كانت أعظم مأساة نزلت بالصلات بين المسلمين والنصارى في الشرق الأدنى . لقد أحب الصليبيون أن ينتزعوا القدس من ايدي المسلمين بالسيف ليقيموا للمسيح مملكة في هذا العالم. انهم لم يستطيعوا أن يقيموا تلك المملكة ، ولكنهم تركوا بعدهم العداوة والبغضاء .

خابت دول اوروبة في الحروب الصليبية الاولى من طريق السيف فأرادت ان تثير على المسلمين حرباً صليبية جديدة من طريق التبشير ، فاستخدمت لذلك الكنائس والمدارس والمستشفيات ، وفرقت المبشرين في العالم (٣) . وهكذا تبنت الدول حركة التبشير لمآربها السياسة ومطامعها الاقتصادية . ولقد استطاع رامون لل في عام ١٢٩٩ وعام ١٣٠٠ للميلاد أن يحصل على اذن من الملك يعقوب صاحب ارغونة ليبشر في مساجد برشلونة محتمياً بالسلطة المسيحية في اسبانية (٤) .

وجهدت الكنيسة زمناً طويلاً لتنصير المغول . فلما اعتنق المغول الاسلام من تلقاء أنفسهم زال أمل كبير من آمال الدول الغربية للسيطرة على الشرق من طريق الدين (٥) . من أجل ذلك كانت جميع الحروب الأوروبية التي شنت فيما بعد على الدولة العثمانية حروباً دينية صليبية في أساسها (٦) . ثم ان هذه العقلية الدينية استمرت الى العصور الحديثة على الرغم من جميع أوجه التقدم الانساني والتطور العقلي في البشر . لم يخجل اليسوعيون من معالجة هذه النقطة باسلوب زاه لماع . انهم قالوا (٧) : « ألم نكن نحن ورثة الصليبيين ، أو لم نرجع تحت راية الصليب لنستأنف التسرب التبشيري والتمدين المسيحي ولنعيد ، في ظل

(1) Gairdner 9, 221.
(2) Levonian 124,
(3) Richter 14.
(4) Addison 46
(5) Addison 59.
(6) Riehter 21.
(7) Le Jesuites en Syrie 10 : 8.

العلم الفرنسي وباسم الكنيسة ، مملكة المسيح ؟ » .

لم يكن لنا بد من ذكر هذه الفقرات تمهيداً للبحث المقبل ، ولقد اجتزأنا بهذه فقط تجنباً لكل أثارة مما تحفل به كتب المبشرين وكتب نفر من المستشرقين والمؤرخين من الغـــربيين .

التبشير والنفوذ الاجنبي

لقد كانت تركية على حق حينما بدأت ، منذ أمد ، ترتاب في حركات التبشير في امبرطوريتها ، ولا غرو فالمبشر يسبق الجيش الى كل مكان . ولذلك أخذت تركية تراقب المبشرين مراقبة دقيقة حتى تضيق عليهم (١) . وكان الأتراك يرتابون خاصة بالمبشرين البروتستانت ، لأن هؤلاء كانوا يتوارون وراء العلم البريطاني في الأكثر (٢) ، وبالمبشرين اليسوعيين لانهم يعملون للسياسة الفرنسية أيضاً . وكذلك لما تشعبت مطامع الدول في شبه جزيرة العرب جعلت تركية تحول بين المبشرين وبين بلاد العرب (٣) ، كما انها كانت تقاوم المبشرين في البلاد التركية نفسها (٤) . ثم وقفت من المبشرين كلهم موقفاً حازماً فألقت في سبيلهم العراقيل وعزمت على الا يصيبوا نجاحاً . وهكذا اصبح التبشير بين المسلمين في الامبراطورية العثمانية كلها مستحيلاً ، للرقابة الشديدة التي فرضتها الحكومة على المبشرين . وبعد أن فتحت الجمعية التبشيرية بضع مدارس (في لبنان) لأطفال الدروز نحو عام ١٨٧٥ اضطرت الى التخلي عنها أمام حزم الحكومة العثمانية وسهرها (٥) .

على أن الحكومة العثمانية لم تستطع أن تتخذ سياسة علنية تجاه المبشرين ، ذلك لأن هؤلاء كانوا يأتون في الظاهر كرعايا انكليز او اميركيين او دانمركيين او افرنسيين . فاذا استقروا في البلاد أخذوا يقومون بالتبشير سراً ما امكنهم . ولذلك كان هؤلاء كلما وجدوا مراقبة وسهراً من الدولة العثمانية لجأوا الى قناصلهم ، وكان القناصل يدافعون عنهم كرعايا أجانب في الظاهر ايضاً . ففي آب من عام ١٨٤١ حينما ارادت الدول الاجنبية ان تخرج ابراهيم باشا من سورية بالقوة وعزمت على ضرب بيروت من البحر ، ارسلت الولايات المتحدة سفينة حربية صغيرة اسمها سيان (٦) حملت على ظهرها المبشرين الى لارنقا في

(1) Jessup 625 et passim.
(2) cf. Bliss (R) 319.
(3) Jessup 642.
(4) Addison 107 ff.
(5) Richter 239 , 249 .
(6) Cyane .

جزيرة قبرس . وبعد ان انتهى ضرب بيروت وخرج ابراهيم باشا من سورية اعادت الولايات المتحدة مبشريها الى اماكنهم السابقة في تشرين الأول من السنة نفسها (٧) .

ولما أدركت الدول الأوروبية ان المبشرين آلة فعالة لتأييد النفوذ الاجنبي في الامبرطورية العثمانية أخذت تلك الدول تتبارى في استخدام المبشرين ، وكان الدور الأول في ذلك للسياسة الانكليزية (٢) . ويظهر ان انكلترة لم تكن ترهب نفوذ الولايات المتحدة في الشرق الاسلامي ، كما كانت ترهب النفوذين الافرنسي والايطالي فية (٣) .

ولما فقدت تركية امبرطوريتها لم تفقد سياستها الحكيمة تجاه المبشرين ، فقد ظلت تمنع الاطفال من دخول مدارس المبشرين قبل أن ينهوا التعليم الابتدائي في المدارس الرسمية . ثم هي كانت توجب أن يكون التعليم الديني في تلك المدارس قاصراً على المسيحيين وحدهم. أما الآن فمدارس التبشير قد زالت من تركية ومن سورية أيضاً ومن مصر والسودان .

ولما بدأت الامبراطورية العثمانية تضعف مع الأيام أخذت الدول الأجنبية تزيد في تظاهرها بدعم المبشرين . ولقد كان المبشرون يطلبون من دولهم أن تؤيدهم ، ولو كان هذا التأييد مخالفاً للعرف الدولي . إن للولايات المتحدة شرعة تسمى شرعة مونرو تنص على ان دول نصف الكرة الشرقي (آسية واوروبة وافريقية) لا يجوز لها ان تتدخل في شؤون نصف الكرة الغربي (اميركا الشمالية واميركة الجنوبية). وكذلك لا يجوز للولايات المتحدة أن تتدخل في شؤون الدول الواقعة في النصف الشرقي من الكرة الأرضية ما لم تتعرض المصالح الاميركية للضياع (٥) . ولكن المبشرين الامركيين كانوا يودون من الولايات المتحدة ان تخالف شرعة مونرو في سبيل التبشير (٦) .

السلك السياسي الاجنبي يحمي المبشرين

وليس من المستغرب ان تستجيب الدول الغربية لرغبة مبشريها ، أليس في ذلك تأييد للنفوذ السياسي ؟ من أجل ذلك كانت هذه الدول تضغط على الدولة العثمانية بين الحين

(1) Jessup 59, 60.
(2) Re - Thinking Missions 165
(3) Re - Thinking Missious 164 -5 : Jessup 22.
(4) Addison 108 f .
(5) Carlton J. H. Hayes, A Political History of Modern Europe, vol II, N. Y. 1924 pp. 225 - 6 etc .
(6) Bury 184, 186.

والحين من أجل مبشريها ، فتلين الدولة العثمانية أمام هؤلاء المبشرين (١) . اراد الاتراك مرة اغلاق بعض مدارس المبشرين ولكنهم تراجعوا أمام ضغط سياسي لا علاقة له بالتبشير (٢) .

ولا حاجة الى القول بأن وجود حاكم قوي أو ضعيف يؤثر كثيراً في موقف حكومته من التبشير والمبشرين ... لما تولى الخديوي سعيد باشا اريكة مصر ، وكان حاكماً مستضعفاً أحبه المبشرون لأنه لم يسمح لأحد أن يمسهم بسوء . ثم انه وهب المبشرين البروتستانت عام ١٨٦٢ قطعة أرض ثمينة في القاهرة اسوة بالارسالية الكاثوليكية التي كان قد وهبها مثل هذه الأرض من قبل . ولقد تقدمت أعمال التبشير في أثناء حكم سعيد باشا . ولكن لما جاء اسماعيل باشا عام ١٨٦٣ تبدلت الحال لأن اسماعيل باشا كان قوياً فضيق على المبشرين كثيراً . من أجل ذلك وصف المبشرون اسماعيل بأنه متكبر مستبد ، كل ذلك لأنه اراد ان يضع حداً للنفوذ الاوروبي في مصر (٣) لمّا اهتدى الى الاصابع الحقيقية التي كانت « تهرب» ذلك النفوذ الى مصر فقطعها .

وحرصت بريطانية على ان تحمي الارساليات البروتستانتية خاصة ، سواء اكانت هذه الارساليات انكليزية ام اميركية ، ام المانية ، وكان نفوذ انكلترة في ذلك الحين قد أصبح فعالاً في الامبراطورية العثمانة (٤) . فمن ذلك ان الحكومة العثمانية ارادت ان تمنع باعة الاناجيل الدوارين من التجول في المدن والقرى ، فما زال القناصل يتدخلون حتى حملوا الحكومة العثمانية على العودة الى السماح لهم بذلك (٥) . ومن الحوادث التي تدل على مبلغ اهتمام الدول الاجنبية بالمبشرين — أو بتثبيت نفوذها من طريق المبشرين ما يلي (٦) .

اراد الاتراك ان يحموا المسلمين من المبشرين فكان المبشرون يحتجون . ولقد اتفقت حادثة في هذا الباب نقل المبشر هنري جسب تفاصيلها الى دانيال بلس رئيس الكلية السورية الانجيلية ، وهو يومذاك في لندن ، ثم علق عليها بقوله : هل يتاح لنا ان نرى الزمن الذي يصبح فيه لصوت انكلترة المسيحية احترام في الشرق مرة ثانية ؟ فما كان من دانيال بلس إلا أن نقل هذا الكتاب الى المحترم جونس ، امين سر جمعية مساعدة التبشير في تركية ، وجونس هذا نقله بدوره الى الارل رسل وزير الخارجية البريطانية . ثم ان رسل أرسل

(1) Richter 351.
(2) cf. Richter 314.
(3) Richter 345 - 6.
(4) cf. Jessup 660 f.
(5) Jessup 590 : cf. Richter 187.
(6) Jessup 248 f.

نسخة منه الى السير هنري بلور وزير بريطانية المفوض في القسطنطينية . ولكن بلور وجد في هذا العمل المتسلسل على هذه الطريقة قلة لياقة فشكا جسب الى قنصل امريكة طالباً نفي جسب . ويتألم جسب لأن بريطانية لا تُعنى بأن تمثل امبرطوريتها تمثيلاً مسيحياً لدى الباب العـــالي .

ومع أن طلب جسب لم ينفذ فانه يدل على مبلغ اهتمام الدول الغربية بأمر قد يكون في مظهره تافهاً ولكنه عظيم الأهمية في مدلوله . لقد كانت الدول الغربية تناجــز الامبراطورية العثمانية من وراء الستار ، من وراء مبشريها المنتشرين في جميع البلاد .

على ان المبشرين كانوا احياناً ينجحون في مسعاهم ، فان الخديوي اسماعيل باشا اراد ان يغلق مدارس المبشرين البروتستانت لأن هؤلاء كانوا يتدخلون في السياسة ويثيرون الاضطراب في البلاد ويزيدون مشاكل الحكومة . ولكن القنصليتين الاميركيه والانكليزية ايدتا المبشرين وحملتا الحكومة المصرية على أن تتقيد بالخط الهمايوني (بالدستور العثماني) الذي ينص على احترام الحرية الدينية (١) . هذا صحيح ولكن الدستور ينص على ان كل صاحب دين أو مذهب حر في أن يتمشى على قواعد دينه أو مذهبه كما يشاء ، ولا ينص على ان لبعض الناس ان يحملوا الآخرين على تغيير دينهم بالقوة .

ولقد كان القناصل انفسهم يعملون احياناً للتبشير . حاول المستر سكين (٢) قنصل انكلترة في حلب ، أن يسعى (عام ١٨٦٠) الى تحضير البدو في بادية الشام ليتوصل من هذه السبيل الى اجتذاب ابنائهم الى النصرانية . وفي العام التالي تأسست في لندن جمعية للتبشير بين المسلمين ثم اتصلت بالمستر سكين في هذا الشأن ، ولكن لم يكتب لها النجاح (٣) .

وفي عام ١٨٨٨ اغلقت الدولة العثمانية مدارس المبشرين الاميركيين ، لأن هذه المدارس فتحت أبوابها بلا رخصة من الحكومة . ولكن المستر بسّنغر (٤) قنصل اميركة في بيروت والمستر اسكار ستراوس (٥) تدخلا في الأمر حتى سمح الوالي علي رضا باشا بأن تعود تلك المدارس الى فتح أبوابها ، على ألاّ تقبل إلاّ التلاميذ المسيحيين . ولكن الوزير والقنصل ما زالا يسعيان حتى حملا الوالي على إلغاء هذا الشرط (٦) . وهكذا كانت الدول الأجنبية

(1) Richter 347 .
(2) Skene,
(3) Richter 2 0 and note .
(4) Bissinger.
(5) Oscar Straus 533 .
(6) Jessup 533.

تستغل ضعف تركية السياسي لتحمي المبشرين في اعمال التنصير ، مع ان الولايات المتحدة مثلاً لا يمكن أن تسمح لمدرسة أن تستقبل الطلاب الاميركيين بلا رخصة ثم تلقنهم فوق ذلك ما يخالف المبادىء الاميركية .

ولما صعب على المبشرين البروتستانت الوصول الى المسلمين التفتوا الى الارثوذكس والأرمن . حينئذ لجأ بطريرك الأرمن الى الباب العالي ، فحرص الباب العالي على ان يحمي الأرمن من المبشرين البروتستانت . فتدخل السفير البريطاني السير سترافورد كاننج (١) ثم ما زال يسعى حتى استطاع عام ١٨٥٠ ان يحصل على فرمان يعترف بوجود طائفة بروتستانتية وطنية منحت من الحقوق ما يتمتع به الارثوذكس والأرمن في الامبرطورية العثمانية (٢) . ومعنى هذا ان المبشرين البروتستانت اصبحوا يعملون من وراء ستار الطائفة البروتستانتية الوطنية فلا تستطيع الدولة حينئذ أن تعد البروتستانت اجانب فتحاول أن تكسر نشاطهم ، أو أن تمنعهم من العمل جهاراً أيضاً .

ومن الأدلة القاطعة على ان حماية المبشرين كانت تحمل طابعاً سياسياً لا دينياً ان المستر اوسكار ستراوس ، وزير الولايات المتحدة المفوض في تركية ، كان يهودياً . ومع ذلك فانه كان يساعد المبشرين النصارى ويقول : « انا امريكي في الدرجة الأولى ثم أنا يهودي » . ولما سحبته الولايات المتحدة من استانبول اسف المبشرون لذلك (٤) .

الجنسية الوطنية

اما اذا اتفق ان اعتنق رجل النصرانية او انتقل الى المذهب البروتستانتي فكان القناصل والرجال السياسيون الاجانب يأخذونه تحت جناحهم علناً ويتدخلون في كل صغيرة وكبيرة من أجله حتى في الأمور الداخلية البحت (٥) . ولقد اشتهر ذلك عنهم :

لما انهزم يوسف كرم جاء فلاح من رجاله الى المبشر الاميركي هنري جسب وأفضى اليه بأنه يريد ان « يقلب انكليزياً » ، أي ان يصبح بروتستانتياً . ولما سأله جسب عن الدافع الحقيقي لرغبته هذه ، قال له : اني من رجال يوسف كرم وقد فررت بعد الهزيمة ، فاذا قبض الأتراك علي الآن اعدموني . فأنا أريد ان اصبح بروتستانتياً حتى انال حماية

(1) Sir Straford Canning
(2) Islam and Missions 160.
(3) Bliss (R) 314, 315 : cf. Islam and Missons 161 .
(4) Jessup 534.
(5) Jessup 267.

انكلترة (١) . وهكذا كان كثيرون يتظاهرون باعتناق البروتستانتية مثلاً لينالوا حماية او ينالوا مالاً (٢) .

على ان ميدان التدخل السياسي من طريق التبشير لم يبق ميداناً للاميركيين والانكليز وحدهم ، فإن الروسية القيصرية ايضاً أرادت ان تدلي دلوها . لقد تنبهت الروسية الى ان في الامبرطورية العثمانية طائفة ارثوذكسية فأرادت ان تسيطر اولاً على البطاركة والأساقفة الارثوذكس وتتخذهم وسيلة الى تحقيق اطماعها السياسية في الامبرطورية العثمانية . وهكذا اخذ الروس يشترون الأراضي في فلسطين خاصة ويقيمون عليها الابنية ويتدخلون ، ساعة يستطيعون ، في الأمور الدينية والسياسية .

على أن نزول الروسية الى الميدان لم يكن نقمة كبيرة على البلاد ، بل كان ينطوي على نعمة ، هي ان المساعي الروسية في حقل التبشير وقفت في وجه المساعي الاميركية والانكليزية والافرنسية والايطالية ايضاً . ولما أرادت الدولة العثمانية ان تخرج المبشرين الاميركيين من البلاد اعتقد بعضهم ان ذلك كان نتيجة لمسعى روسي (٣) .

اليسوعيون ايضاً

وكذلك كان لليسوعيين صولة في الامبرطورية العثمانية لأن الدول الغربية عموماً وفرنسة وايطالية والبابوية خصوصاً كانت تحميهم وتؤيدهم (٤) ، ولان المؤسسات الكاثوليكية في الشرق كانت كثيرة . ويستغرب جسب كيف ان فرنسة قد طردت اليسوعيين من بلادها (٥) ثم هي تنفق عليهم في الخارج ملايين الفرنكات ذهباً . ولا غرو فان فرنسة كانت ترسل اليسوعيين الى الخارج عمالاً سياسيين لها ودعامة اجتماعية لآرائها وخالقي مشاكل في سبيل مصالحها . ومع ان فرنسة كانت عدوة لليسوعيين في بلادها فانها كانت لليسوعيين في الخارج الصنم الذي يعبدونه ، وكان اليسوعيون يعدون كل تعرض لفرنسة تعرضاً للبابا نفسه (٦) .

(1) Jessup 291.
(2) Jessup 355.
(3) Jessup 619 f.
(4) Les Jesuites en Syrie 1 : 11 .
(5) cf. also Enc. Br. 15 : 347 .
(6) Jessup 659.

وظل اليسوعيون يعملون بصمت في ثيابهم السود حتى جاء الانتداب الافرنسي فكشفوا القناع عن وجوههم (١) ، وأخذوا يتشدقون بملء أفواههم ، قالوا في كتابهم المثوي (٢) : « أجل ، لقد كنا نعتمد على مساعدة فرنسة الظافرة ، والآن ها هي فرنسة هنا » . ان فرنسة المنتدبة كانت تأتي الى بلادنا بالموظفين الافرنسيين الذين يماشون اليسوعيين في سياستهم ، وتخلق من موظفي بلادنا من يفعل مثل ذلك .

اليسوعيون والمفوض السامي الفرنسي

وكان اليسوعيون لا يقيمون وزناً للتنصير الفردي ، بل كانوا يسعون الى التنصير الاجماعي ، ولذلك وجهوا اهتمامهم الى بلاد العلويين للجهل الذي كان يخيم على تلك الربوع في ذلك الحين . ففي اول ايلول عام ١٩٢٥ (ذكرى اعلان لبنان الكبير) دعا المفوض السامي الفرنسي عدداً من الراهبات ليذهبن الى صافيتا في بلاد العلويين . ويخون اليسوعيين كتمانُهم فيقولون : ان هذه المؤسسة (مدرسة الراهبات في صافيتا) ستدعى يوماً الى ان تلعب دوراً عظيماً في التبشير الذي بدأ قبل امد بين العلويين او النصيريين (٣) . ولم يكن اليسوعيون مازحين ، فقد مثلوا هم ، لا الرهبات ، وبحراب الفرنسيين لا بالدعوة الصالحة ، ما بيّتوه : لقد جمعوا عام ١٩٣٠ نفراً من العلويين في جنينة رسلان وحملوهم على ان يقروا بالمذهب الكاثوليكي (٤) . ويبدو ان تبشيراً كثيراً في العالم قام على الحديد والنار ، لا حباً بالنصرانية التي تكره الحديد والنار ، بل بالسياسة التي لا تعرف المثل العليا إلاّ وسيلة الى منافعها المادية .

ويهمنا ان نعود الآن الى المفوض السامي الفرنسي الذي بدأ هذه الحركة عام ١٩٢٥ . إنه كان الجنرال ساراي . والمشهور ان ساراي كان علمانياً لا دينياً ، ومع ذلك فقد كان يحمي اليسوعيين . ان الجنرال ساراي كان في الحقيقة ينفذ خطة سياسية ولم يكن يعطف على حركة دينية الا بمقدار ما تساعده هذه الحركة على إحكام خطته .

• • •

(1) cf. Dictionnaire Larousse, sous « Jesuite » : Personne Hypocrite .

(2) Les Jesuites en Syrie 11;25, 29.

(3) Les Jesuttes en Syeie 11;27 .

(4) cf. ibid. 10:23 ss .

RAPH MARC

• SUIVRE G-43-D

وانشغل ضباطه وخلفاؤه ، اول الامر ، باستكشاف جزيرة هايتي (اسبانيولا) واحتلالها ، وكانت ما تزال في داخلها اراض شاسعة مجهولة وقد تولى هذه المهمة كل من دييغو فيلاسكيز وبانفيلو دو نارفيز ، فابديا من ضروب الوحشية ما لم يسبق له مثيل ، مفتنين في تعذيب سكان الجزيرة بقطع اناملهم وفقء عيونهم ، وصب الزيت المغلي ، والرصاص المذاب في جراحهم ، او باحراقهم احياء على مرأى من الاسرى ... ليعترفوا بمخابىء الذهب ، او ليهتدوا الى الدين ! وقد حاول احد الرهبان اقناع الزعيم « هاتيهاي » باعتناق الدين ، وكان مربوطا الى المحرقة ، فقال له انه اذا تعمد يذهب الى الجنة ... فسأله الزعيم الهندي : « وهل في هذه الجنة اسبانيون ؟ » فاجابه الراهب : « طبعا ، ما داموا يعبدون الاله الحق ! » فما كان من الهندي الا ان قال : « اذن ، انا لا اريد ان اذهب الى مكان اصادف فيه ابناء هذه الامة المتوحشة ! »

غدا اكتشاف الاوقيانوس الهادىء

جريدة الحياة (بيروت) ، السنة ٩ ، العدد ٢٤٩٤ ، الاربعاء ٢٣ حزيران ١٩٥٤ ، ٢٣ شوّال ١٣٧٣ .

وهكذا نرى الى أي حد كان التبشير والسياسة يتعاونان : كانت السياسة تعمل مقنعة من وراء المبشرين الذي كانوا بدورهم يعملون مقنعين بقناع التعليم والتطبيب وبذل الاحسان . ثم ان رجال السياسة كانوا اذا دافعوا عن المبشرين لم يدافعوا عنهم كمبشرين بل كأميركيين او انكليز او فرنسيين او ، على الاقل ، كأجانب ليس لهم من دولهم ممثل يحميهم ويسهر على مصالحهم .

حتى رجال السياسة العلمانيون كالجنرال ساراي ، المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان يوم نشبت الثورة السورية عام ١٩٢٥ ، واليهود كأوسكار ستراوس ، كانوا يتفانون في خدمة رجال الدين الأجانب ثقة منهم بأن مساعي البروتستانت والكاثوليك على السواء إنما تعني ، في النهاية ، تصدير البضائع الى شعوب الشرق أو الحصول على مراكز حربية في البلاد الشرقية .

نص ما تحت الصورة

وانشغل ضباطه وخلفاوه ، اول الأمر ، باستكشاف جزيرة هايتي (اسبانيولا) واحتلالها ، وكانت ما تزال في داخلها أراض شاسعة مجهولة وقد تولى هذه المهمة كل من دييغو فيلاسكيز وبانفيلو دو نارفيز ، فأبديا من ضروب الوحشية مالم يسبق له مثيل ، مفتنين في تعذيب سكان الجزيرة بقطع أناملهم وفقء عيونهم ، وصب الزيت المغلي ، والرصاص المذاب في جراحهم ، او باحراقهم احياء على مرأى من الاسرى ... ليعترفوا بمخابيء الذهب ، او ليهتدوا الى الدين ! وقد حاول احد الرهبان اقناع الزعيم « هانيهاي » باعتناق الدين . وكان مربوطاً الى المحرقة ، فقال له انه اذا تعمد يذهب الى الجنة ... فسأله الزعيم الهندي : « وهل في هذه الجنة اسبانيون ؟ » فأجابه الراهب : « طبعاً ، ما داموا يعبدون الآله الحق ! » فما كان من الهندي إلا أن قال : « إذن ، أنا لا أريد ان اذهب الى مكان اصادف فيه ابناء هذه الأمة المتوحشة ! »

سياسة الجزويت

واليسوعيون يتدخلون في السياسة الداخلية ويحاولون ان يؤثروا على مجاري السياسة الخارجية . ثم هم يرتكبون في سبيل ذلك الفظائع والمجازر ويسلبون وينهبون ويقتلون . وهم يحاولون في كل بلد نزلوا فيه وبلغوا شيئاً من القوة ان يستولوا على الحكم او ان يملأوا مناصب البلاد بطلابهم ثم يحاولوا القضاء على خصومهم وعلى الجماعات التي لاتخضع لهم .

ثم هم يقاومون كل الحركات التي تنبه الشعوب او تجعل لها سبيلاً الى الحياة المستقلة . يجب أن يظل الناس عبيداً لهم او كالعبيد . ولذلك نجد كل شعب « وعى نفسه » وأراد ان يحيا حراً في أرضه سيداً في أعماله بدأ بطرد اليسوعيين من بلاده . وانك واجد مصداق ذلك كله في كتاب غايته تبيان ذلك ، هو كتاب « سياسة اليسوعيين » تأليف بيير دومينيك (١) .

ولقد أتاح الانتداب الفرنسي حرية واسعة المدى للتبشير في سورية ولبنان . وكانت الكنيسة الكاثوليكية تضع لنفسها حدود هذه الحرية بالتعاون من الموظفين الافرنسيين الذين كانوا كاثوليكاً . اما الدولة المنتدبة فلم تكن تناصر حرية التبشير علناً ، ولا هي ذهبت في ذلك الى حد يقر الكنيسة الكاثوليكية على تنصير المسلمين الا إذا حدث ذلك التنصير من غير ان يثير ضجة عامة . ومع ذلك فان المدارس والمستشفيات والهيئات الاجتماعية وأعمال التنصير المباشر التي كانت الكنائس والارساليات تقوم بها ، كانت كلها تمضي في عملها (التبشيري) من غير ان تلقى من الحكومة عرقلة تذكر . اما المدارس فقد ازدهرت اكثر من جميع المؤسسات الاخرى بما تدفق اليها من الموظفين الأجانب والمساعدات المالية الأجنبية (٢) .

ولما استحال على المبشرين الافرنسيين ان ينصّروا احداً من أهل الجزائر بالقوة او بالدعوة أرادوا ان يصلوا الى نفوسهم بسلوك الحيلة : أرادوا انشاء مركز للتبشير يشبه في مظهره مظاهر الحياة الإسلامية . لقد اقترح لافيجيري ان يجعل من مدينة بسكرة في الجزائر — في منتصف الطريق بين جبال الاوراس و (بحيرات) شط الغرسة المتصلة بشط الجريد في تونس — زاوية مسيحية . والزوايا الاسلامية ، في الحقيقة ، كانت ولا يزال اكثرها الى اليوم مراكز لرجال الطرق الصوفية المختلفة . ورجال الطرق هؤلاء كانوا ، ولا يزال بعضهم حتى اليوم ، مرابطين : عباداً في النهار فرساناً في الليل . ورئيس الزاوية يدعى المرابط ، ويكون مع المرابط مقدّم واحد او عدد من المقدمين يساعدونه في قيادة الاخوان ، اي الاتباع الذين يعيشون معه في الزاوية . واقترح لافيجيري ان تسمى الزاوية المسيحية بيت الله . ثم اقترح ايضاً ان يكون لباس « رواد الصحراء » المسلحين ، او الأخوة المسيحيين الذين يعيشون في الزاوية المسيحية مشابهاً للباس « الاخوان » المسلمين ما عدا لباس الرأس ، فان المسلمين يعتمّون فوق الشاشية (الكوفية ، غطاء الرأس) بينما

(1) Pierre Dominique, La Politique de Jesuites.
(2) Grubb 171 .

أراد لافيجيري ان يلبس الأخوة المسيحيون القبعة فوق الشاشية .

ولقد اعتقد لافيجيري ان أتباعه من المبشرين او رواد الصحراء المسلحين ، كما كان يسميهم ايضاً ، يستطيعون ان يتخللوا بين المسلمين تخللاً سلمياً . لقد أراد لافيجيري ان يكتسب البدو في صحراء الجزائر ثم يقدمهم عطية الى فرنسة ... ويأسف لافيجيري كثيراً لأن أمانيه لم تتحقق ... ثم كان لافيجيري يعلن خجله من الامة الفرنسية لأنه بقي (في منصب الاسقفية في الجزائر) نحو اربعين عاماً في العهود المختلفة ، وبين ظهراني شعب مسلم ، كان يخضع له ، من غير ان يحاول تنصيره . ليس هذا فحسب ، بل انه منع كل محاولة كان بامكان القسس الكاثوليك ان يقوموا بها في هذا السبيل تصلباً منه وعناداً (١) .

وكان الافرنسيون ـ رجال الدولة الفرنسية ـ يعدون التبشير بالمذهب الكاثوليكي ، او الدين الكاثوليكي (٢) ، عملاً وطنياً. يقول رينه بوتيه في كتابه «الكاردينال لافيجيري» (٣) :

ان العمل الوطني الذي قام به لافيجيري بدأ مع عمله التبشيري ، بدأ بنشره على السوريين تلك العطايا التي تمنحها الكنيسة الكاثوليكية ، إنه جعل فرنسة محبوبة (لدى السوريين) وأضاف الى الحقوق القديمة التي كنا نملكها (نحن الفرنسيين) على تلك المنطقة حقوقاً جديدة .. ولكن في الجزائر استطاع ان يهب كل ما في استطاعته لاظهار حبه لفرنسة . وهذا لا يبدو في المناصب السامية التي احتلها فقط ، بل في تركه وطنه (للسكنى في الجزائر) إذ ليس ثمت وسيلة احسن من الحرمان من نعمة الوطن حتى يستطيع الانسان ان يدرك ما لهذه الكلمة « فرنسة » في نفسها من الجمال والنبل والعظمة . وعلى ارض الجزائر ، مدينة الجزائر ، كانت القلوب تخفق لروية العلم المثلث الألوان خفقاناً شديداً كان يثيره ذلك العلم المتموّج فوق احد الابراج والمشرف على أرض اجنبية . تلك هي فرنسة ، التي لم يحب لافيجيري ان يراها عظيمة وجميلة فقط ، بل كان يود أن يراها ايضاً اشد قوة واكثر سكاناً ... أراد لافيجيري « ان يحبب فرنسا الى الناس باسم المسيح » . هذه الجملة يمكن ان توجز جميع سياسة لافيجيري الذي كان رئيس اساقفة ، ثم اصبح كاردينالاً ثم صاحب الولاية على جميع اساقفة افريقية . وفي الواقع انه لم يشأ ان يجعل من الوطنيين من أهل افريقية رعايا له ولا مواطنين . لقد أراد ان يجعل منهم اولاداً له . فبحبه للمسيح وبالحب الذي يكنه لفرنسة أراد ان يتبناهم .

(1) Pottier . Card . Lavigerie 194 - 198 .
(2) cf. « Larousse » , Sous catholicisme .
(3) Pottier 177-178 .

هذا التبشير الممزوج بالسياسة ، بل هذه السياسة المغلفة بالتبشير ، هو الاستعمار . على ان هذا الاستعمار لم يكن خاصاً بالفرنسيين ، ولكنه ظهر عند الفرنسيين في أبشع صوره .

ولقد اجمل الاب اليسوعي ميز (١) سياسة فرنسة الدينية في الشرق من جميع جوانبها حينما قال :

ان الحرب الصليبية الهادئة التي بدأها مبشرونا في القرن السابع عشر لا تزال مستمرة الى أيامنا . ان الرهبان الافرنسيين والراهبات الفرنسيات لا يزالون كثيرين في الشرق (ص ٢٣) .

ولقد احتفظت فرنسة طويلاً بروح الحروب الصليبية وبالحنين الى تلك الحروب حية في نفسها ، وكثيراً ما فكر ملوكها بحملة صليبية جديدة (على الشرق) ، ولكن اوروبة المنشقة (على نفسها) كانت دائماً تجعل من المستحيل (على فرنسة) ان تقوم بحملة بعيدة المدى ... (ص ١٤ ـ ١٥) .

وكان من غايات الامتيازات الاجنبية دائماً ان تحتفظ (فرنسة) بالدور الذي [illegible] رهبانها ، وان توسع ذلك الدور . وقد اعترف لقناصلنا وسفرائنا بالحماية للنصارى ، تلك المهمة الصعبة التي لم تخلع عليهم إلا شرف حضور القداديس في الكنائس . ولقد كانوا يبذلون جهداً كبيراً ليهدئوا من ارتجاف المسلمين المتعصبين وليحموا أعمال المبشرين في الامبرطورية العثمانية (ص ١٥ ـ ١٦) .

وكان ممثلو فرنسة يساندون اعمال مبشرينا (ص ٢٢) .

وكان لفرنسة في اكثر الاحيان قصاد رسوليين في اشخاص قناصلها ، وخصوصاً في القرن السابع عشر (ص ٥٠) . وكثيراً ما اختارت فرنسة قناصلها وسفراءها من رجـال الدين .

(1) Milliez, La Croisade du Levant .

الفصل السادس

السياسة طريق للتبشير

(٢) الفنُّ والحروب في الشرق

كان التعاون السلمي بين رجال السياسة وبين المبشرين قليل النتائج . وكانت هذه النتائج على قلتها بطيئة الظهور أيضاً . ولقد اعتدّ رجال السياسة هذا التعاون ديناً لهم على المبشرين، فلما قوي المبشرون بعض القوة فعلاً رجعت عليهم دولهم تقتضيهم هذا الدين .

وهكذا بعد ان عملت الدول الأجنبية زمناً طويلاً على تأييد ارسالياتها التبشيرية في الشرق قويت تلك الارساليات فعادت هي بدورها تعمل على تأييد دولها . ولكن المبشرين لم يستطيعوا ذلك الا من طريق اثارة الاضطرابات في بلادنا ، ولذلك عمدوا الى اثارة اضطرابات مختلفة وحرصوا على « اذكاء العداوة بين الذين كانوا يبشرون بينهم » (١) . وعلى ان يفسحوا المجال امام دولهم للتدخل في بلادنا .

اثارة الحروب

وكان اول ما خطر للمبشرين ان يخلقوا في الامبرطورية العثمانية اسباباً تقود الى الحرب لأن الحرب تضعف الدولة العثمانية فيضعف سلطانها على رعاياها ، فيجد المبشرون حينئذ من ضعف العثمانيين منفذاً الى التبشير بين المسلمين . ولقد كانت اكثر الحروب التي شنتها اوروبة من قبلُ على الدول الاسلامية دينية في اساسها كالحروب الصليبية والحروب في الاندلس . وكذلك في القرنين التاسع عشر والعشرين كانت حروب الدول الغربية المشنونة على الامبرطورية العثمانية متميزة بعامل ديني . قال لورنس براون (١) :

(1) Jessud 160 ff.
(2) Browne 8 .

« وكذلك شنت الدول الاوروبية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين حروباً عدوانية على الحكومات المسلمة ، ثم انتزعت منها أراضي ضمتها الى سلطانها هي . ولقد كانت النتائج في أحوال كثيرة غير سارة لبعض الشعوب التي استعبدت ، وخصوصاً من المسلمين ولكن هذه الشعوب لم تصل بعد الى درجة تشعر فيها انها اصبحت اقليات مضطهدة ، او انها تعيش في حابورات » (١) . اما غاية الدول الأجنبية من محاربة الدولة العثمانية فكانت، كما يراها المبشرون ايضاً ، « لعل الله الرحيم يضرب الاتراك بسيف قدرته الجبارة » .

في عام ١٩٢٠ اصدرت لجنة التبشير الامريكي ، التي تهتم بالاستفادة من مناسبات الحروب للتبشير ، كتاباً ذكرت في مطلع مقدمته ما يلي : من ابرز الأمور المتعلقة بدخول الولايات المتحدة في الحرب العالمية (الاولى) ان الآراء والمباديء التي كانت تهدف اليها الارساليات التبشيرية قد تبنتها الآن الامة (الاميركية) ، ثم اعلنت انها هي أهدافها الاخلاقية وغايتها من خوض تلك الحرب ... ان هذه المباديء التبشيرية قد سميت الآن اسماء سياسية فقط (٢) .

ولما ثار الامير عبدالكريم في ريف مراكش على اسبانية اقلقت ثورته جميع الدول الغربية ، فتراكضت هذه الدول الى مساعدة اسبانية على التغلب على عبدالكريم زعيم القوة العربية الثائرة ، كما وصفوا حركته يومذاك . ولقد علق المبشر وليم كاش في كتابه « العالم الاسلامي في ثورة » على هذه الحرب بالكلمات التالية :

لقد التقى الأسبان بالحماسة العربية القديمة واضطروا الى ان يخلوا ، من مناطق نفوذهم ، موقعاً بعد موقع ، حتى اصبحوا يحاربون وظهورهم الى البحر مباشرة وعلى وشك ان يخرجوا من شمالي افريقية مرة واحدة . وهكذا نجد للمرة الثانية منذ الحرب العظمى (١٩١٤ — ١٩١٨) ان دولة اوروبة يتغلب عليها جيش مسلم ، فلقد اتفق ايضاً لثلاث سنوات خلت ان مصطفى كمال طرد اليونان من آسية الصغرى وتحدى بذلك سلطان اوروبة القوي (٣) .

بعدئذ ينصح وليم كاش جماعته فيقول (٤) : « قبل هذه التطورات ، التي طرأت على العالم الاسلامي بعد الحرب العالمية الاولى ، كان المبشرون قد اتخذوا مراكز ستراتيجية في العالم الاسلامي ، واستطاعوا في اثناء الثورات والحروب والاضطرابات ان يتابعوا عملهم

(١) الحابورة كلمة عامية معناها حي اليهود ، ويقابلها في اللغات الأجنبية كلمة Ghetto ولعل اصل الكلمة في العبرية حبرة : الجماعة المجتمع .
(2) Missionary Outlook. p. xv. ff.
(3) Cash 5 .
(4) Cash 6 .

بهدوء وثبات . ولقد كتب هذا الكتاب الصغير ليدل على هذه التطورات التي حدثت وليبين للكنائس تلك الحاجة الملحة للتقدم بمشروعها في يوم الفرصة السانحة » .

اننا نعلم علم اليقين ان حرباً كالحرب العالمية الاولى (١٩١٤ – ١٩١٨) لا يمكن ان تثور في سبيل التبشير وحده ، بل يجب ان يرجع نشوبها الى عوامل اقتصادية وسياسية بحت. ولكن ثمت شيئين يثيران اهتمامنا نحن في كتابنا هذا ، اولهما ان الدول المتحاربة لا تتورع في سبيل ظفرها عن ان تستفيد من كل حزب وجماعة ، ولذلك استغل المبشرون أحوال الحرب فاستفادوا من الحرب بطريقة غير مباشرة . وثاني ذينك الشيئين ان الدول التي تبغي الاستعمار انما تبغيه في الشرق ، لما في الشرق من الثروات الاقتصادية والمراكز الحربية . ولقد اتفق ان يكون العنصر الاسلامي من اقوى العناصر التي تدافع في الشرق كل مستعمر بكل سبيل . ولذلك اتفقت غايات الحروب الاستعمارية وغايات التبشير وتوحدت في حروب تثار ظاهراً باسم الاقتصاد والسياسة وباطناً للاستعمار وللقضاء على العناصر التي تجعل استغلال الشرق مستحيلاً .

ولا تزال اوروبة الى اليوم تنظر الى جميع حروبها نظرة دينية . ان انكلترة المسيحية لا تحارب اليونان المسيحية لأن اليونان ألقت بقيادها الى انكلترة ، ولا يمكن للملك اليونان الانكليزي النسب ان يعارض السياسة الانكليزية في البلقان كله وفي اليونان خاصة (١) . واذا اتفق ان حاربت انكلترة المسيحية ايطالية او ألمانية فلأن ميدان النزاع يكون حينئذ اقتصادياً استعمارياً .

من أجل ذلك لم تكن « إثارة الحرب » بين الدول الكبرى دائماً وسيلة عملية للمبشرين لأنها قد تقود الى اضعاف دولة مسيحية . وهكذا انصرف المبشرون الى البحث عن امر آخر يكون اقرب تحقيقاً لاهدافهم فوقعوا على « اثارة الفتن والاضطرابات » . واذا نحن ادركنا ان الصلة كانت بين السياسيين وبين المبشرين وثيقة دائماً لم نستغرب ان تنتهز الدول المستعمرة مثل هذه الفرصة للتدخل في الشرق .

الحصار العسكري على المسلمين ابعادهم عن الشواطىء

ورأى الاوروبيون ان الحرب مع العالم الاسلامي – مفرقاً او مجتمعاً ، تؤدي الى خسائر

(١) بدأ تأليف هذا الكتاب في اواسط عام ١٩٤٤ وكانت الحالة في البلقان على ما أراد هذا المثل ، ولا تزال حال اليونان خاصة قريبة من ذلك

كثيرة جسيمة في بعض الاحيان . من أجل ذلك اقترح المبشرون على دولهم ان يشلوا حياة المسلمين بابعادهم عن الشواطىء ذات الأمطار الوافية وطرق المواصلات الكافية والمراكز الحربية المهمة ثم حصرهم في الداخل وفي الصحارى على الاكثر . ان اقتراحات مثل هذه قد ابديت فيما يتعلق باسكان اللاجئين بعد كارثة فلسطين عام ١٩٤٨ . إلا أن الفكرة نفسها قديمة ، ويدعى رجل مبشر ، او متصل بالتبشير ، انه هو الذي اقترحها :

كتب كاتب اسمه اشعيا بومان (١) في مجلة « العالم الاسلامي » مقالاً عنوانه « الجغرافية السياسية للعالم الاسلامي » (٢) ، ذكر فيه ان شيئاً من الخوف يجب ان يسيطر على العالم الغربي . لهذا الخوف اسباب منها ان الاسلام منذ ظهر في مكة لم يضعف عددياً ، بل هو دائماً في ازدياد واتساع ، ثم ان الاسلام ليس ديناً فحسب ، بل ان من اركانه الجهاد . ولم يتفق قط أن شعباً دخل في الاسلام ثم عاد نصرانياً .

وكذلك يرى هذا الكاتب ان الصحراء كانت للمسلمين حصناً منيعاً ، ذلك لأن « البدو » نسبة مئوية كبيرة في المسلمين ، وانه ما من دولة حاولت التغلب على المسلمين واتفق ان ظفرت الا خسرت اضعاف ما خسره المسلمون في ذلك الكفاح ...

من أجل ذلك يقترح هذا الكاتب ان تتفق بريطانيا وفرنسة ، ما دامتا اكثر الدول سيطرة على العالم الاسلامي (٣) ، على سياسة « السيطرة على الشواطىء » حيث يمكن وصول الدوارع والآت القتال الحديثة بسهولة .

فاذا نحن قرأنا هذا الكلام ثم ذكرنا ما فعلته ايطالية في طرابلس الغرب من اعطاء الشواطىء الى الايطاليين وطرد العرب الى الداخل ، ادركنا ان التبشير والاستعمار متفقان على ابعاد المسلمين عن الشواطىء . وكذلك لما اعطت هيأة الامم فلسطين لليهود نفذت جزءاً من هذه المؤامرة الخطيرة ، فاخلت الشواطىء من العرب المسلمين ثم قذفت بهم الى داخل البلاد والى ما وراء نهر الاردن . ولقد هال هيأة الامم ان ترى عدداً كبيراً من اللاجئين الفلسطينيين قد أموا لبنان – على الشاطىء – فهي لا تزال تحاول اقناعهم بالذهاب الى سورية او العراق او شرق الاردن لتبعدهم عن الشواطىء . وكذلك تحاول فرنسة ان تفعل في المغرب ، وخصوصاً في الجزائر ، مثل هذا الفعل .

(1) Isahiah Bowman, New York .
(2) Moslem World : the Poltical Geography of the Mohammedan World, Jan. 1930 . pp. 1 - 4 .

(٣) نشر هذا المقال عام ١٩٣٠ .

الامتيازات الاجنبية

على ان الدول الأجنبية لم تكن ميالة الى ان تعلن بين كل حين وآخر حرباً نظامية على الامبراطورية العثمانية حتى تستفيد من الشرق امتيازاً اقتصادياً أو مركزاً حربياً ، ان ذلك كان يكلفها خسائر جسيمة في الأموال والأرواح . ثم انه يخرج بالدول الأوروبية الى ما لم يكن في حسبانها من اختلاف فيما بينها هي أحياناً . من أجل ذلك تسلحت الدول الاوروبية « بالامتيازات الأجنبية » وأخذت تجابه الامبراطورية العثمانية بمطالب كثيرة .

الامتيازات الأجنبية ، كما يدل الاسم ، كانت تقوم على منح رعايا الدول الأجنبية النازلين في الامبراطورية العثمانية أو السائحين فيها أو المارين بها مروراً « امتيازات » لم تكن تمنح للعثمانيين أنفسهم . من أشهر هذه الامتيازات اعفاء هؤلاء الأجانب من الضرائب المباشرة ومن جزء كبير من رسوم الجمارك . ثم ان السلطات العثمانية لم تكن تستطيع ولوج بيت رجل اجنبي مهما كان السبب . حتى لو ان جريمة ارتكبت في ذلك البيت لما كان للسلطة العثمانية أن تدخل للتحقيق ، بل كان الذي يقوم بالتحقيق والمحاكمة والفصل قنصل الرجل الذي يسكن ذلك البيت . ان البيت الذي كان يسكنه رجل انكليزي او افرنسي او يوناني او اسوجي او برازيلي ، كان يعتبر جزوءاً من انكلترة او فرنسة او اليونان او اسوج او البرازيل .

وكذلك كان لكل اجنبي أن يتجول في البلاد العثمانية كما يشاء . فاذا اتفق ان ناله سوء — ولو قضاء وقدراً — فان حكومته تطالب بديته اضعافاً مضاعفة ، وقد تشدد احياناً حتى تنال امتيازات سياسية وتجارية جديده لم تكن لها من قبل . وكانت القوانين العثمانية لا تطبق على الأجانب النازلين في الامبرطورية العثمانية .

اما اصل هذه الامتيازات فغامض جداً . زعموا ان هرون الرشيد قد منح للفرنجة من اتباع شارلمان تسهيلات تجارية (١) ، وليس ذلك بصحيح . وكذلك يزعمون ان هذه الامتيازات قد نقلت ، بعد سقوط امبرطورية شارلمان ، الى بعض المدن الايطالية .

ولكن يظهر ان امير انطاكية الصليبي قد منح مدينة جنوة الايطالية ، امتيازات تجارية في امارته ، وذلك عام ١٠٩٨ م ، أي في العام الذي سقطت فيه انطاكية في ايدي الصليبيين . ثم ان ملك القدس قد منح مثل هذه الامتيازات للبندقية في ايطالية عام ١١٢٣ ،

(1) cf. Enc. Br., under Capilulations .

ولمرسيلية في فرنسة عام ١١٣٦ م .

وبما ان الامبراطورية البيزنطية (الرومية او الرومانية الشرقية) كانت يومذاك مستضعفة فقد اضطرت الى ان تمنح مثل هذه الامتيازات لدول اوروبة القوية .

ثم لما استولت الدولة العثمانية على الامبرطورية البيزنطية طمعت الدول الغربية في ان تظل لها امتيازاتها في البلاد التي انتقلت من ايدي الروم الى ايدي العثمانيين . ولم تصل الدول الغربية الى تحقيق بغيتها الا في القرن السادس عشر حينما قبل السلطان سليم القانوني عام ١٥٣٦ م ان يمنح فرنسوا الأول ملك فرنسة شيئاً من الامتيازات التجارية ومن الاعتراف لرعاياه ، اذا سكنوا في الامبرطورية العثمانية أو مروا فيها ، ببعض الامتيازات القانونية والتجارية ايضاً . والذي يلفت نظرنا هنا مما يتعلق ببحثنا ثلاثة أمور . :

١ — ان الرجل الذي عهد اليه بالحصول على هذه الامتيازات لفرنسة من الباب العالي كان يدعى دهلافورست (١) ، وهو راهب من فرسان القديس يوحنا الصليبيين .

٢ — ان هذه الامتيازات كانت للنصارى من الأجانب ، جاء في دائرة المعارف البريطانية نفسها ما يلي :

وكيلا يظن ان هذه الامتيازات هبة انتزعتها ملك مسيحي منتصر من تركي مستضعف ، يجب أن نذكر ان الدولة العثمانية كانت يومذاك في ذروة قوتها ، بينما كان فرنسوا الأول لايزال يشكو من آثار «معركة بافية (٢) بايطاليا التي انهزم فيها امام شارلكان» قبل عشر سنوات .

٣ — من أجل ذلك عين الراهب الصليبي ده لافورست سفيراً في الاستانة ، فكان أول سفير لفرنسة في الامبرطورية العثمانية .

ومع الأيام اخذت الامبرطورية العثمانية تضعف ، فكان ضعفها المتوالي المتزايد سبباً في ازدياد شره الدول الأجنبية ، لما في الشرق من خيرات وكنوز ، فبعد ان كانت الامتيازات الأجنبية قاصرة — فيما يتعلق بما فعله سليمان القانوني — على الافرنسيين ، امتدت نعمتها الى الانكليز ثم الى الهولنديين والايطاليين والاسبان ، ثم الى الامريكان ورعايا النمسة والروسية واليونان . ولقد كان رعايا كل دولة يتوسعون في هذه الامتيازات ليتمتعوا بحقوق وإعفاء لم تكن من قبل لهم . وأخيراً أصبحت الشعوب والجماعات غير المسلمة تتمتع في الامبرطور العثمانية باستقلال طائفي فيما يتعلق بالأحوال الشخصية (من زواج وارث وغيرهما) ،

(1) De la Forest .
(2) Pavia .

باعفاء من الخدمة العسكرية ومن كثير من الضرائب والملاحقات القانونية . حتى ان المجرم كان يرتكب جريمته فاذا لجأ الى قنصله او اختبأ في بيت رجل أجنبي لم يجسر القضاء العثماني على ان يصل اليه . ولكن هذه الامتيازات ألغيت عام ١٩١٤ بعد أن نشبت الحرب العالمية الأولى .

زادت هذه الامتيازات في نفوذ الدول الاجنبية فأخذت انكلترة وفرنسة تتنازعان على « حماية » الاجانب في الامبرطورية العثمانية من الذين ليس لدولهم تمثيل في استانبول (١). فالأرمن والبلغار وأهل الجبل الأسود وبعض اهالي اميركة الجنوبية كأهل الأرجنتين والتشيلي والمكسيك لم يكن لدولهم وزراء مفوضون او قناصل في الامبرطورية العثمانية ، فلم يكونوا يتمتعون بالامتيازات الاجنبية . وكان هؤلاء اذا استطاعوا ان ينالوا حماية فرنسة او انكلترة — وكان من السهل جداً ان ينالوها — استطاعوا ان يتمتعوا بجميع الامتيازات التي كان يتمتع بها الافرنسي والانكليزي في الامبرطورية العثمانية سواء بسواء .

واساء بعض الوزراء والقناصل من الانكليز والافرنسيين هذه السلطة في منح الحماية لرعايا الدول الذين لا تمثيل سياسياً لهم في الاستانة ، وجمعوا من وراء ذلك اموالا طائلة (٢).

ثم زاد ضعف الدولة العثمانية فزادت جرأة الانكليز والافرنسيين على منح مثل هذه الحماية ، فمنحوها لعدد من « الرعايا العثمانيين » انفسهم ممن استطاع أن يشتري هذه الحماية بمبلغ كبير ليستغلها في وجوه مختلفة ، او ممن كان يستطيع أن ينفع انكلترة او فرنسة في سبيل من السبل . وكان احد هؤلاء الاجانب او المحميين يتخطى القوانين ويخالف مبادىء الانسانية ، فاذا تعرض له متعرض شمخ بأنفه وقال : « انا أجنبي » ، او « انا حماية أجنبية » . روى عبدالله المشنوق شيئاً من هذا ، قال (٣) :

« من ذلك حادثة شهدتها بأم عيني — دهست سيارة يقودها رجل أجنبي طفلا في بيروت . فأمر الشرطي السائق بالوقوف فرفض قائلا بلغته الأجنبية : القنصلية. لا شأن لي معك . وتابع (السائق) طريقه تاركاً الطفل المسكين يعاني سكرات الموت » .

وأدرك المبشرون ما يمكن أن يستفيدوا من الاحتماء بالامتيازات الأجنبية فاستغلوها الى أبعد الحدود : لقد كانوا — بقطع النظر عن أشكال اثوابهم — يدورون في البلاد كأجانب ويعملون فيها كمبشرين .

(1) of . Enc. Br., under Capitulations.
(2) cf. Enc. Americana 5 : 567 .
(٣) الامتيازات الاجنبية (بيروت) ١٩٢٢ ص ٢٥ .

اثارة الاضطرابات ثم استغلالها

على ان الدول الأجنبية لم يكن باستطاعتها أن تتدخل في شؤون الامبراطورية العثمانية اذاكانت تلك الشؤون تسير في سبيلها سيراً طبيعياً هادئاً . فلم يكن بد اذن من ان تثير تلك الدول الفتن والاضطرابات فتنال المطلب تلو المطلب . ولو اننا احببنا ان نؤرخ المذابح التي أثيرت في الامبرطورية العثمانية بين ١٨٤٠ و ١٨٦٠ ، اي مدى عشرين عاماً فقط ، لاحتجنا الى كتاب كامل .

كانت انكلترة وفرنسة تهتمان بسورية اهتماماً شديداً وتتنافسان علناً في سبيل تثبيت نفوذهما فيها . ونحب ان نستبق الحوادث فنقول : لما تدخلت الدول في شؤون جبل لبنان بعد فتنة عام ١٨٦٠ — على ما سيأتي — اراد نابليون الثالث ان يمد اجل بقاء الجيش الفرنسي في سورية ، ولكن انكلترة رفضت ذلك . و لما اصر نابليون الثالث على رأيه اعدت انكلترة عشرة آلاف جندي في قبرس ومالطة وجبل طارق . ولو لم تسحب فرنسة جميع جنودها من سورية في الخامس من حزيران ١٨٦١ لأخرجتها انكلترة بقوة السلاح (١) .

من هنا يتبين لنا مقدار المنافسة في سبيل بلادنا ومدى استغلال الدول الأجنبية للحوادث. ونحن سنضرب صفحاً عن ذكر المذابح التي أحدثتها الأصابع الأجنبية في جميع انحاء الامبرطورية العثمانية : في بلغاريا واليونان ، وفي آسية الصغرى بين الأرمن ، تلك المذابح التي كانت تثيرها الدول الأجنبية بواسطة المبشرين (٢) . وسنكتفي بحادثتين فقط نذكرهما في محلهما من هذا الفصل .

لقد كانت تركية على حق في خوفها من المبشرين الذين لم يكونوا فقط يثيرون الفتن في امبرطوريتها ، بل كانوا ايضاً يتجسسون لدولهم سياسياً وعسكرياً (٣) . وكذلك كانوا يفرقون السكان معسكرات ، فقدكان الدروز مثلاً يعتمدون على حماية انكلترة ويفضلون المدارس الاميركية (٤) . اما الموارنة فكانوا يرون حليفهم الطبيعي في فرنسة ويفضلون المدارس الفرنسية . وكانوا يتلقون السلاح من فرنسة ايضاً ، فقد رسا عام ١٨٥٨ مركب حربي قرب طرابلس وأنزل اسلحة اشترى منها اهل طرابلس أنفسهم خمسمائة بندقية . ولما وصل الخبر الى بيروت أرسلت الحكومة عشرة مدافع لحماية المدينة من هجوم قد يقوم

(1) Jessup 209 f.
(2) cf. Jessup 221.
(3) cf. Jessup 536 f.
(4) Jessup 157 .

به أهل زغرتا (١) . وكان الدروز ايضاً يتلقون السلاح من انكلترة . وسنرى فيما بعد ان فتنة عام ١٨٦٠ المشؤومة كانت منسوجة بأصابع الدول الأجنبية .

وقل ان استطاع المبشرون التأثير في البيئة الاسلامية ، ولذلك وجهوا اهتمامهم الى البيئة المسيحية يثيرون الخلاف في طبقاتها وبين أهل مذاهبها . فما أن جاء المبشرون البروتستانت الى سورية حتى وقف رجال المذهب الماروني والمذهب الارثوذكسي موقف الدفاع الشديد ، فان البطريريك الماروني هدد كل ماروني يقترب من البروتستانت أو يعاملهم او يؤجرهم سكناً او يزورهم أو يلبي طلباً أو يساعدهم على البقاء في البلاد بالحرمان (٢) . وكذلك كان الاكليروس الارثوذكسي يضطهد كل من يميل من الارثوذكس الى المبشرين البروتستانت (٣) . ولم يكتف الاكليروس الماروني بحثّ اتباعه عن الابتعاد عن البروتستانت بل زعم جسب انه كان يحمل اتباعه على اضطهاد اهل المذاهب النصرانية الاخرى (٤) ، وخصوصاً بعد أن طمع البطريرك الماروني ببسط سلطة زمنية على جبل لبنان (٥) .

وهكذا نجد أن المنافسة بين المبشرين البروتستانت وبين المبشرين اليسوعيين ألقت في البلاد فتناً وإحناً ومنازعات مذهبية واجتماعية (٦) . على اننا لن نفصل هذه كلها ، فهي كثيرة (٧) . ولقد تبارى المبشرون البروتستانت واليسوعيون في خلق هذا الاضطراب . فقد اتفق مثلاً أن حدث خلاف في الكنيسة الارثوذكسية في دمشق فصبأ ثلاثمائة من الاثوذكس الى البروتستانتية (نكاية بابناء دينهم) . ثم زال الخلاف فعاد هؤلاء كلهم الى مذهبهم القديم (٨) .

ولما مرض موسى عطا مرض الموت ، وكان قد صبأ من مذهب الروم الكاثوليك الى المذهب البروتستانتي ، جاء القسس الروم الكاثوليك ودخلوا عليه ثم أغلقوا باب بيته ولم يدعوا احداً يدخل . ثم ادعوا انه عاد الى الكثلكة . ولكن البروتستانت لم يشاءوا ان ينهزموا فحدثت فتنة في زحلة لم تهدأ ثائرتها الا بعد ان تدخل رجال الشرطة . ومات موسى عطا بعد بضعة أيام من مرضه (٨ نيسان ١٨٧٢) ، ولكن زحلة بقيت في المناقشات الدينية

(1) Jessup 151.
(2) Richter 187 f.
(3) Richter 194 et passim .
(4) Jessup 158 .
(5) cf. Jessup 159 .
(6) Jessup 196 f. et passim .
(7) cf. Jessup 243 f., et passim .
(8) Jessup 587 .

والاضطرابات والفوضى ثلاث سنوات متوالية بعد ذلك (١) .

ولما مد البروتستانت أصابعهم الى حمص اتفق ان جاء شاب ارثوذكسي الى اسقف يسأله شيئاً يتعلق بالفرق بين المذاهب ، فخبطه الاسقف بعصاه فأفقده وعيه فثارت الثائرة في حمص . وكذلك جاءت ذات يوم فتاة ارثوذكسية تزور زوجة المبشر د.م. ويلسن ، فلما علم بها أهلها جاءوا فقبضوا شعرها وجروها في الشوارع (٢) .

أما اليسوعيون فكانت لهم السيادة التامة على زحلة حتى جاء البروتستانت فانتزعوا تلك السيادة منهم ، ولكن ظل بامكان اليسوعيين أن يثيروا دائماً شغباً دينياً في عروس البردوني كما فعلوا مراراً (٣) .

فتنة عام ١٨٦٠

في عام ١٨٦٠ نشبت بين الموارنة والدروز في جبل لبنان فتنة غسلت البلاد بالدماء وتركت في نفوس الناس أسوأ الأثر الى اليوم . إلا ان هذه الفتنة لم تنشب فجأة ولا اتفاقاً ، ولكنها كانت تهيأ خطوة خطوة . ولقد كان مهندسوها بارعين الى حد ان الذين ذهبوا وقودها لم يعلموا يومذاك أن الدول الاجنبية قد هيأتها على أيدي المبشرين .

غزا ابراهيم باشا سورية ١٨٣١ — ١٨٣٢ وظفر ظفراً عظيماً كاد يدخله الى استانبول عاصمة الامبرطورية العثمانية نفسها . عندئذ خافت الدول الأجنبية عواقب ذلك فأجبرت ابراهيم باشا على التراجع والانسحاب من بلاد الشام كلها . ولكن قبل أن ينسحب ابراهيم باشا ١٨٤٠ كان الأمير بشير الثاني قد استبد بحكم جبل لبنان وجعل يظلم الناس بطلب الأموال والجنود . ولقد اتفق النصارى والمسلمون من سكان الجبل على مقاومة التجنيد خاصة . حينئذ لجأ الأمير بشير الى بذر بذور الشقاق بين النصارى والمسلمين بنزع السلاح من بعضهم وبنفي بعضهم الآخر ، فعظمت النقمة على الأمير . وكانت حملة ابراهيم باشا واستبداد الأمير بشير قد تركا البلاد في فوضى شديدة . ثم انسحب ابراهيم باشا من سورية ونُفي الأمير بشير من لبنان في عام واحد ، ولكن الفوضى ظلت سائدة .

(1) Jessup 415 - 420 .
(2) Jessud 149 .
(3) Jessup 416 ; cf. Jesuites en Syrie 6 : 25 .

وجاء الأمير بشير الثالث ، اوبشير بن ملحم ، الا انه كان حاكماً ضعيفاً فزاد الاضطراب وعمت الفوضى في الجبل . ثم ان الدول الأجنبية لم تعجز عن قسمة أهل جبل لبنان قسمين : تعلق الموارنة منهم بفرنسة ، واستمال الانكليز الدروز (١) . ومن قبل فتنة عام ١٨٦٠ كان الافرنسيون فعلاً يساعدون الموارنة ، اما الأنكليز فكانوا يساعدون الدروز (٢) . ونشبت اضطرابات بدائية بين الدروز والنصارى ، ولكنها كانت اضطرابات اقطاعية (٣) في سبيل حكم جبل لبنان ، اذ جعلت فروع آل شهاب تتنازع الحكم عليه . وعز على آل نكد أن يخسروا امتيازاتهم فاشتركوا في هذا النزاع .

وحاولت حكومة استانبول ان تقرب وجهات النظر بين الاقطاعيين المتنازعين فلم تستطع ، فعزلت الأمير بشير الثالث لسوء سياسته وعينت مكانه عمر باشا النمساوي فاحتج اصحاب الاقطاعات — لأن الأمر خرج من يدهم بالكلية ومن يد خصومهم ايضاً — واحتجت الدول الأوروبية كذلك وطلبت اعادة الامارة الى آل شهاب ، لاحباً بآل شهاب ولكن انتهازاً للتدخل في شؤون البلاد العربية . ومع أن الدولة العثمانية لم تقبل باعادة آل شهاب الى الحكم فانها نزلت عند رغبة الدول الأوروبية وضغطها فسحبت عمر باشا من جبل لبنان .

تقسيم جبل لبنان في القرن الماضي
وتقسيم فلسطين اليوم

وبلغ اهتمام اوروبة بجبل لبنان ان الامير مترنخ ، مستشار النمسة وأعظم شخصية سياسية في القرن التاسع عشر ، ابدى اهتماماً كبيراً بشكل الحكم الذي يجب أن يطبق على جبل لبنان . غير أن تدخل مترنخ كان لمصلحة الدول الأجنبية ولم يكن لمصلحة الدولة العثمانية ولا لمصلحة جبل لبنان نفسه . لقد اقترح مترنخ أن يقسم جبل لبنان قائمقاميتين احداهما اسلامية والثانية مسيحية . فاضطرت الدولة العثمانية الى قبول هذا الاقتراح ، وقسمت لبنان قسمين جنوبياً وشمالياً تفصل بينهما الطريق الممتدة من بيروت الى دمشق .

(1) cf. Lammens, La Syria, Il 164s, 17 lss.
(2) Penrose 3.

اذا اراد القارىء ان يتفهم كثيراً من اسباب النزاع في هذا العهد فانه يحسن به الرجوع الى كتاب «الحركات في لبنان الى عهد المتصرفية» رواية حسين غضبان ابيشقرا وتأليف خطار ابيشقرا ، نشر عارف ابوشقرا (بيروت ١٩٥٢) .

ولقد جعلت القائمقامية الجنوبية الاسلامية تحت حكم الأمير أحمد أرسلان ومركزه بيت الدين . أما القائمقامية الشمالية المسيحية فوضعت تحت حكم الأمير حيدر اسماعيل أبي اللمع وجعل مركزه في بكفيا . وأما دير القمر ، مصدر القلاقل الصحيح ، فوضعت تحت ادارة متسلم تركي . ولا ريب في أن قسمة جبل لبنان على هذا الشكل لم يكن يراد بها خير لبنان ولاتسهيل ادارته ، بل كان الاستعمار يريد منها غاية ذكرها أنيس صايغ في كتابه « لبنان الطائفي » ، قال (١) :

« وقسم لبنان (بعد اعلان المتصرفية) الى مديريات وقائمقاميات ، تجتمع كلها في لبنان موحد .. إلا أن حدود لبنان تقلصت عما كانت عليه قبلاً . فقد سلخ عنه اقليم وادي التيم وبيروت وصيدا وطرابلس والبقاع وعكار — ومعظمها مناطق اسلامية . وانحصر لبنان الجديد في ثلاثة أخماس لبنان القديم . وقد أرادت الدول من ذلك المشروع جعل لبنان بلداً مسيحياً ، غير مهتمة للخسائر الاقتصادية التي تنجم عن سلخ هذه المناطق » .

والغريب أن الاستعمار عاد بعد نحو قرن كامل من الزمن الى هذه النغمة الشاذة واستأجر عمالاً وأذناباً يكتبون في هذه الدعوة تلميحاً ويبثون فيها الكلام سراً ولكن صريحاً . ومع العلم بأن مثل هذه الدعوة لا يمكن أن تنجح اليوم عملياً ولا نظرياً ، فأن الذين يستخدمهم المستعمرون في الترويج لها ليسوا قليلين . ومن المؤسف أن يكون بعض اللبنانيين قد طالب بتأسيس دولة صهيونية في فلسطين ودولة مسيحية في لبنان منذ عام ١٩٣٥ ، ثم في عام ١٩٤٥ على الأخص (٢) ، قبل أن تولد دولة اسرائيل مما يدل على أن هذه الدعوة جاءت من الخارج . ولم يكتف الاستعمار بهذه الدعوة في لبنان نفسه ، بل اراد أن يكسوها لباساً دولياً فاستكتب فرداً من أولئك الذي لا يحترمون رأياً الا اذا جاء من أجنبي وجاء معه مبلغ من المال — وهؤلاء قليلون جداً والحمد لله — كتاباً اسمه « لبنان وطن قومي للنصارى في الشرق الأدنى » . قيل ان هذا الكتاب طبع بلغات متعددة ووزع على رجال السلك السياسي في لبنان وفي خارج لبنان ، كما وزع أيضاً في البلاد التي يكثر فيها المهاجرون من

(١) ص ١٢٥ .
(٢) راجع لبنان الطائفي ١٦١ .
(3) S. O. S, The Lebanon, the « Christian National Home » of the Near East, 39 pages. No place of printing and no date.

لبنان — . وكان التوزيع لهذا الكتاب سراً ومجاناً بالطبع. غير انني لم أر من هذا الكتاب الا نسخة عربيةونسخة انكليزية (١). ويقال انه طبع باللغات الفرنسيةوالاسبانيةوالبرتغالية أيضاً .

هذه النغمة ، نغمة التقسيم ، لم تمت ولا يزال المستعمر يحاولها مرة بعد مرة . وما تقسيم فلسطين الا ذيلاً من ذيول تلك السياسة .

لقد قدرت اوروبة بعد قرن واحد أن تعود الى السياسة نفسها في شأن فلسطين : لقد قسمتها — ظلماً وعدواناً — فأعطت الشرق والشمال للعرب ، وأعطت الغرب والجنوب لليهود وأرادت تدويل القدس بوضعها تحت حكم حاكم أجنبي (٢) . وقضية القدس لم تنته بعد بل هي ثائرة الى اليوم . ولا ريب عندنا أبداً في أن مشكلة فلسطين لم تولد حباً باليهود ، ولا بالعرب طبعاً ، وانما هي مصالح الدول الكبرى تفعل فعلها دائماً في فلسطين وفي الصين ، وفي كل مكان تكون القوة فيه حكماً بين المتناظرين .

*

لقد عرفنا كيف أوقظ جبل لبنان في القرن التاسع عشر الى النُعرة الطائفية : ان السياسة الاستعمارية هي التي لعبت دورها يومذاك ووضعت في لبنان خطاً فاصلاً ظاهراً ورسمياً بين النصارى وبين المسلمين ، ثم حمّلت البلاد مشاكل كانت البلاد في غنى عنها .

ولقد انتقد جميع الحكام والمؤرخين ، فيما بعد ، قسمة جبل لبنان قسمين مسيحياً ومسلماً، ولم يكن الأمير مترنخ منظم مؤتمر فينة والقاضي على خطط نابليون وعلى نتائج الثورة الفرنسية وحافظ الملوك على عروشهم في أوروبة بالغافل عن وجه الصواب والخطأ ، ولكن السياسة الاستعمارية هي التي أوحت اليه بما اقترح .

وبعد ان كانت الاضطرابات اقطاعية أصبحت دينية وأصبح حلها غير ممكن . ان حل هذه المشاكل لم يبق معتمداً على تراضي سكان جبل لبنان وحدهم ، بل كان خاضعاً الى حد كبير لرضى الدول الأوروبية . اما رضى الدول الاجنبية فقد كان عسيراً ، لأنها لم تكن تريد حل المشكلة بل كانت تريد دوام الاضطراب في الامبرطورية العثمانية ليتسنى لها التدخل كلما شاءت .

ولقد صدق ظن المخلصين ، فان الاحقاد قد غذيت بهذا التقسيم وبعثت به في جبل لبنان الأضغان . ثم ما زالت الفوضى تعم والدسائس تنمو حتى انفجرت الصدور في عام ١٨٤٥ « في كسروان حيث تألب الأهلون واجتمعت الغوغاء حاملين السلاح برئاسة

---

(١) الحاشية ٣ على الصفحة السابقة .

(٢) التقسيم الذي اقترحته هيأة الامم .

زعيمهم طانيوس شاهين وتهددوا المشايخ (١) بسوء العاقبة . وكان بدء الاساءات في ذوق مكايل (قرب جونية) لكونها مركز الائتمار والشغب في الشعب فحدث ما ساء ولم يخل عن اراقة الدماء . ثم اندفعت العامة المتجمهرة على أموال المشايخ وأملاكهم نهباً وغصباً ، ففر الخازنيون (٢) لاجئين الى مدينة بيروت .. ثم امتدت الثورة من كسرو ان الى المتن (شمالي طريق بيروت دمشق مباشرة) والمحلات المختلفة . ولربما كان للاكليروس في أول الأمر ضلع مع الأهالي » (٣) .

على أن الفتن التي أخذت تطل برأسها أو تنفجر منذ عام ١٨٤٠ لم تكن كافية لتبرر التدخل الاجنبي ، لقد كانت فتناً اقطاعية في الأغلب ، ودينية بالعرض . ثم انها كانت قاصرة على اقسام خاصة من الجبل يثور فيها المسيحي على المسيحي اوالدرزي على الدرزي .

واخيراً أفلح الظالمون فأثاروا فتنة عام ١٨٦٠ وقسموا السكان قسمين واضحين : مسلمين ونصارى ، فبردت بذلك بعض الصدور وأسرعت الدول الغربية ترسل جيوشها وأساطيلها الى شواطيء بلادنا لحماية ... النصارى . ولو فرضنا ان فرنسة وحدها ارادت حماية النصارى لكان ذلك معقولاً ، اذ يقال ان السلاح استقر في ايدي الموارنة من ايد فرنسية. ولكن انكلترة التي قدمت فيما قيل أيضاً السلاح الى الدروز قد ادعت الآن حماية النصارى .

وبعد أن وقعت الواقعة وهدرت الدماء البريئة من الطرفين ولطخ تاريخ وطننا بالسوء ووصمنا كلنا بالتعصب وقف المبشرون يعبرون عن رأيهم في النار التي أججوها وألقونا فيها وقوداً .

يزيّن جان بيانكي الأفرنسي ، وهو قسيس بروتستانتي ورئيس شرف لجمعية المبشرين البروتستانت في باريس واستاذ اللغة الفرنسية في الجامعة الاميركية في بيروت ، القول فيعرف هذه الفتنة بأنها «مذبحة» قام بها الدروز لقتل النصارى الارثوذكس والموارنة (٤) .

ولقد غاب عن بال جان بيانكي الفرنسي ان « مذبحة حقيقية » قد هيئت من قبل في وطنه فرنسة ، وانها كانت ايضاً في ظاهرها دينية وفي باطنها سياسية الى ابعد مرامي

---

(١) المشايخ هنا رؤساء الأقطاع ؛ وقد كان من المشايخ دروز ونصارى على السواء .

(٢) آل الخازن نصارى .

(٣) راجع لبنان ، تأليف لجنة من الأدباء ، بيروت ، المطبعة الأدبية سنة ١٣٣٤ هـ . الصفحات ٢٩٨ — ٣٠١ . ثم ثورة وفتنة في لبنان ، تأليف انطون العقيقي ، نشره يوسف يزبك (بيروت ١٩٣٦) ، ثم الحركات في لبنان لعارف ابي شقرا .

(4) Bianquis 6, 27.

السياسة . تلك هي مذبحة القديس بارثليميو التي نفذت ليلة عيد هذا القديس (في ٢٣ آب ١٥٧٢) وذهب في نارها ألفان من الهوغونت (١) البروتستانت في باريس وحدها ونحو عشرة آلاف آخرون في فرنسة خارج باريس (٢) .

ويرى المبشر الأمريكي هنري هاريس جسب هذه الفتنة اعلاناً ناجحاً ، فلقد « اضطربت لها اوروبة وامريكة ، واصبح لبنان بها معروفاً في العالم الغربي فأمكن ان تجمع الاعانات باسمه والتبشير فيه (٣) » .

اما يوليوس رشتر الالماني فقد أجرى في أول الأمر الدموع على خديه وقال : « ان هذه المذبحة الجديدة قد أثارت رحمة قوية في العالم المسيحي » . ولكنه يعود فيمسح هذه الدموع من وجهه وعينيه ليتبدل بها ابتسامة اطمئنان ويقول : « **وعن هذه الطريق بدأ في عام ١٨٦٠ فصل جديد في تاريخ الجهود البروتستانتية في الشرق الادنى (٤) »** .

ولم يحدث قبل مذابح الأرمن عام ١٨٩٥ و١٨٩٦ حادث حفز الارساليات البروتستانتية المختلفة الى التكاتف في سبيل تنصير هذا القسم من العالم كحادث سنة ١٨٦٠ . **لقد كان هذا الحادث فريداً الى درجة ان المبشرين والرهبان لم يكتفوا بان اثاروه ثم وقفوا يتفرجون به ، بل ان منهم من اشترك فيه ، فان الراهب اليسوعي فرديناندو بوناشيتا قتل عام ١٨٦٠ في اضطرابات مدينة زحلة بعد ان قتل سبعة من الدروز (٥)** .

ويختلف المبشرون في نسبة التبعة الى المتقاتلين . إن رشتر مثلاً يرى ان الذنب كان على الموارنة : « لقد كان الموارنة مرة ثانية مخطئين ، فعلى الرغم من الهزائم التي مُنوا بها في عام ١٨٤٢ و ١٨٤٥ ، فانهم ظلوا تواقين الى اذلال جيرانهم . ومن غير سبب سقط الموارنة عام ١٨٦٠ على بضع قرى درزية . ولكن الدروز نهضوا اليهم نهضة رجل واحد (٦) .

اما دانيال بلس فيرى ان التبعة تقع على اكتاف المسلمين ، قال(٧) : ولقد بقينا حيناً (بعد الفتنة) نخشى هجوماً على مدينة بيروت ، إذ قيل ان اتفاقاً عقد بين دروز الجبل وبين قسم من النوع السافل في المسلمين لمهاجمة المدينة في ليلة ما ... ثم ان جميع السكان

(1) Huguenots.
(2) A General Hist. of Europe, by Robinson, Breasted and Smith, Boston Etc. 1921. p. 336.
(3) Jessup 215.
(4) Richter 201 ff.
(5) Les Jesuites en Syrie 12 : 17, 18.
(6) Richter 198.
(7) Bliss 153, 154.

المسلمين من ذلك النوع السافل كانوا في كل مكان يلوحون بعصيهم ونبابيتهم (١) ...

اما اليسوعيون فيزعمون انهم لم يكونوا يريدون هذه المذبحة لانها هددت اعمال التبشير (٢) مع العلم بان بعضهم خاضها وابلى فيها البلاء الحسن (كالراهب بوناشيتا مثلاً) .

هذه نماذج من آراء المبشرين في فتنة سنة الستين ومن نياتهم المبيتة واعمالهم ايضاً . اما الأحسان الذي اسدوه الى المنكوبين فهو في فصل الأحسان من هذا الكتاب .

*

ولكن ماذا يهمنا الآن من حمل التبعة على الموارنة او على الدروز ؟ ان هذه « الفتنة الدينية » كانت نقمة على لبنان ، ولكنها حققت للدول الاجنبية هدفاً عظيماً . أجل ، قد لا يكون لهذه الفتنة صلة بالدين ، ولكن كان لها بلا ريب صلة بالسياسة : لقد « انعقد في بيروت مؤتمر دولي حضره المفوض السلطاني مع خمسة من وكلاء الدول ومفوضيهم ، اعني دولة انكلترة وفرنسة والروسية والنمسة وبروسية ... وقرروا ان تكون ادارة الجبل بواسطة متصرف مسيحي من طرف الدولة العليّة برضا الدول » (٣) . هذا المتصرف (الحاكم) يجب أن يكون نصرانياً اوروبياً ومن اتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، لا وطنياً سورياً مسلماً او مسيحياً (٤) .

(1) Bliss 152, 154.
(2) Les Jesultes en Syrie 11: 13.
(٣) لبنان « تأليف لجنة من الادباء » ٣٩١ – ٣٠٢ .
(4) Jessup 210.

الفصل السابع

السياسة طريق التبشير

(٣) الادارة الاجنبية في خدمة التبشير

•

لقد أثمر التعاون بين السياسة والتبشير ثمرته الاولى واخذت الاقطار الشرقية — التي لم تكن قد استعمرت من قبل — تسقط تحت النير الأجنبي وتخضع لادارة أجنبية مباشرة. ان هذه الادارة الأجنبية لم تقص الآن المبشرين لأنها نالت حاجتها من جهودهم، بل زادت في تقريبهم (١). ان الحاجة الى المبشرين لم تنته ولكنها أصبحت الآن اعظم ضرورة من ذي قبل: ان ادارة البلاد المغلوبة على أمرها تنفر من الخضوع بسرعة، ولذلك لم يكن بد من اخضاعها بطريقة مستترة بعيدة عن المظاهر العسكرية او الرسمية على الأقل. ولم يكن لدى الدول الأجنبية أفضل من المبشرين الذين أصبحوا يفهمون البلاد وأهلها ويعرفون مداخل الأمور فيها وأهواء المتنفذين من رجالها. ولكن المبشرين لم يرضوا أن يفعلوا ذلك فقط، بل أرادوا ان يحققوا هم رغباتهم الظاهرة على الأقل حتى يتيحوا للدول أن تحقق جميع رغباتها الحقيقية. كل هذا ونظر الدول الأجنبية متجه الى نقطتين في الأمبرطورية العثمانية أضعفتهما القلاقل: مصر وجبل لبنان.

في صميم التدخل السياسي

وقف المبشرون ورجال السياسة الآن وجهاً لوجه: أي الفريقين يجب أن يتقدم الآخر. ان المعروف في التاريخ ان المبشر كان يدخل البلاد ثم يأتي الجيش على أثره. ولكن المبشرين منذ القرن التاسع عشر أحبوا ان يتقدم الجيش أولاً، لأن ذلك يسهل مهمتهم. ولذلك كان

(١) بدأ تأليف هذا الكتاب قبل ان ينتهي الانتداب على بلادنا، وهذا المقطع اشارة الى ذلك.

الحكام الوطنيون في كل بقعة على حق حينما كانوا «يعتقدون ان مجيء المبشرين ينتهي دائماً بتدخل الدول النصرانية في بلادهم، وبخسارتهم جزءاً من استقلالهم (١).

ولكن هذه الطريق طويلة، ولذلك كان المبشرون يرغبون في أن تتدخل الدولة بقوتها اولاً ثم يأتون هم فيجدون الطريق ممهدة للتنصير: ان المبشر وطسون اقترح أن تتعاون الحكومات الغربية في سبيل منع انتشار الأسلام بين القبائل الوثنية في افريقية (٢) حتى تكون مهمة المبشر أهون لفقدان المنافسة. إن المبشرين يخشون تلك المنافسة خشية شديدة.

يقول غاردنر ان نزول الارساليات المسيحية على ساحل غانة، من نهر غامبيه الى نهر النيجر (على ساحل افريقية الشمالي الغربي)، للتبشير بين الوثنيين من أهل افريقية ثم احتلال الدول الأوروبية لهذه المناطق ولما وراءها هما اللذان اقاما الأسلام والنصرانية وجهاً لوجه في تلك الأصقاع (٣)، كل دين يحاول أن يجتذب اليه أولئك الوثنيين. ولم يكن في الأمر منافسة لو لم تقف الدول الأوروبية بجانب مبشريها.

وأخيراً أخذ الضعف يدب فعلاً في الامبرطورية العثمانية فاخترقت الدول الأجنبية ذلك السور الذي كان مضروباً عليها، ثم تغلغلت من طريق الفتح ومن طريق التسلسل السياسي في شبه جزيرة العرب وفي مصر وسورية وقبرس وغيرها. وهكذا لم يبق من حاجة الى المبشرين لشق الطريق امام الجيش الزاحف، ولكن ظلت الحاجة اليهم ماسة ليساعدوا في تثبيت الأقدام حيث نزل الجيش. ولكن المبشرين رأوا ان الجيش وحده كان يقوم بمهمة الفتح ومهمة تثبيت الأقدام فأرادوا ان يستفيدوا هم فقط من هذه السيطرة العسكرية السياسية. قال جسب: ان القسم الأكبر من المسلمين قد أصبح في حكم الدول النصرانية فيجب الاستفادة من هذه الحالة الراهنة (٤). وصرح رشتر فقال: ان مائة وستين مليوناً من مجموع مائتين وخمسين مليوناً من المسلمين في حكم الدول النصرانية، فواجب هذه الدول اذن ان تمهد السبيل لتبديل دين هؤلاء الرعايا (٥).

ولكن رغبة المبشرين لم تكن في حقيقة الأمر منافية لغاية الدول الأوروبية الطامحة الى الاستعمار. ان الدول الأوروبية بدأت تنزل مستعمرة في الشرق الأدنى خاصة منذ الثلث الثاني من القرن التاسع عشر. ويمن المبشر صموئيل زويمر على المسلمين فيقول في المؤتمر

(1) Islam and Missions 172 f.
(2) ibid. 192.
(3) Gairdner 280.
(4) Jessup 767 f.
(5) cf. Richter 77.

التبشيري الذي عقد عام ١٩١١ في لكناو بالهند : ان خمسة وتسعين مليوناً على أقل تقدير من اتباع نبي مكة يتمتعون اليوم بنعمة الحكم البريطاني (١) ، وهو يقصد من ذلك ان طريق التبشير الى هذه الملايين الكثيرة من المسلمين قد أصبحت معبدة . ويكشف المبشرون اخيراً القناع عن غايتهم الحقيقية فيقول بعضهم : ان احتلال الانكليز لمصر وقبرس قد ساعد على تسهيل التعليم باللغة الانكليزية وبالتالي على التبشير (٢) . ويقول بعضهم الآخر ان رسوخ حكم الانكليز في السودان قد سهل مهمة المبشرين (٣) في ذلك الصقع المتسع . ثم يتبنى المبشر زويمر رأياً صريحاً للمبشر جسب فيقول : ان الأبواب المفتوحة التي تؤدي فعلاً الى الاسلام إنما هي المستعمرات التي يعيش فيها المسلمون تحت حكم مسيحي اوحكم وثني ايضاً (في افريقية والهند مثلاً) (٤) . الا ان المبشر واطسن يلاحظ ان استبدال الحكومات الوثنية (في افريقية) بحكومة غربية (مسيحية) كان على العموم في مصلحة المشاريع التبشيرية . ولكن ازالة دولة وثنية كان يزيل عنصراً قوياً من عناصر مقاومة المسلمين ، فان الاسلام ينتشر بين الوثنيين في ظل الحكم الأوروبي اكثر مما ينتشر في ظل حكم وطني وثني خالص (٥) .

*

ويرى المبشرون بوضوح ان السيادة الغربية في قطر اسلامي ما معناها تسهيل انتقال المسلمين الى النصرانية . أما فقدان هذه السيادة فينتج حركة عكسية تماماً .

نشر المبشر كنيث لاتورت (٦) مقالاً في « المجلة الدولية للارساليات » عنوانه : « الجماعات النصرانية القديمة فيآسية ومقامهم فيخططما بعد الحرب (٤) (العالمية الثانية) .

يقول الكاتب :

كيفما اتفق لنا أن ننكر في الشرق الأدنى وفي غربيّ آسية ، فان الكثرة من الصابئين قبل الحرب العالمية الثانية على يدي الارساليات البروتستانتية او الكاثوليكية كانت من أبناء الكنائس الشرقية . ومعنى هذا — ما لم تكن الولادات قد زادت على الوفيات — ان عدد

1) Islam and Missions 14.
2) Jessup 595 f.
3) Milligan 29.
4) Islam and Missiens 22,
5) ibid. 189.
6) Kenncth S. Latourette.
7) The International Review of Missions ; Pre - War Christian Croups in Asia in Post - war Planning, Apr. 44, pp 138 - 146.

النصارى في العالم لم يزدد . اما الانتقال من النصرانية الى الأسلام فقد كان — كما يظهر — اكثر من الانتقال من الأسلام الى النصرانية .. على ان ثمت تأثيراً مسيحياً كبيراً في حياة المسلمين وسلوكهم قد جاء على يدي هذه الارساليات نفسها ...

ولكن يجب ان نذكر على كل حال انه لم يحدث انتقال واسع من الأسلام الى النصرانية في قطر ما الا بعد أن تبدل ذلك القطر بحكومته الأسلامية حكومة غربية مسيحية ، وذلك فقط اذا كانت هذه الحكومات الغربية المسيحية تنهج سياسة فعالة في مساعدة الارساليات .

ويأسف كنيث لاتورت لأن انتصار مبادىء الأمم المتحدة في العالم سيزيد في جاه دول الشرق الأوسط وسيخرج بالتالي بلدان هذه البقعة المهمة من العالم من نطاق النفوذ التبشيري . وهو يُروّع بما حدث في تركية بعد الحرب العالمية الأولى ، فأنها قد ضربت حولها نطاقاً دون التبشير . ثم يقول : ونحن واثقون من أن جهود المبشرين ستنقل افراداً معدودين الى النصرانية ، ولكن التنصير الجماعي لا يمكن أن ينتظر ...

ولا ريب في ان انسحاب بريطانية من الهند (١) سيقود — في رأي الكاتب المذكور — الى تبدل أساسي في مشروع التبشير في الهند نفسها . لقد كان الموظفون ، في أثناء الحكم البريطاني ، يؤخذون من النصارى بنسبة لا تتفق مع عددهم بالاضافة الى المسلمين أو الهندوس . ان النصارى سيفقدون بعد الآن هذا الامتياز ، وربما دفعهم فقرهم حينئذ وقلة عددهم الى أن يفقدوا أثرهم في المجتمع الهندي (٢) .

*

ومنذ أيام محمدعلي باشا ، في مطلع القرن التاسع عشر ، طمع المبشرون بمصر لأنّ محمدعلي اراد أن يُدخل المدنية الأوروبية الى مصر ، فطمح هؤلاء الى ان يتسللوا مع المدينة الغربية الى عقائد المسلمين . ويبدو ان المبشرين تمتعوا ببعض الحرية حتى جاء عباس الأول عام ١٨٤٨ وهو الذي نعته المبشرون بالقاسي لأنه قاوم التبشير . أما سعيد باشا (١٨٥٤ — ١٨٦٣) فقد نعته المبشرون بالعبقري لأنه سمح للنفوذ الأوروبي أن يعود سائداً في وادي النيل (٣) ، مع أن عهد سعيد باشا كان عهد نقمة على مصر وعلى المصريين .

وجاء بعد سعيد باشا الخديوي اسماعيل فأمدته أوروبة بالأموال حتى اغرقته في

(١) خرجت الهند من الحكم البريطاني في آب ، عام ١٩٤٧ .
(2) Tlrm. Apr. 44, pp. 183 f.i 141.
(3) Addison 139 f.

الديون . ثم إنها اقتضته تلك الديون مرة واحدة فاستطاعت من هذه الطريق ان تشتري في سنة ١٨٧٥ اسهم الحكومة المصرية في قناة السويس وان تتدخل في ادارة القناة عملياً . واخيراً انتهزت انكلترة فرصة الثورة التي قادها عرابي باشا فضربت الاسكندرية وانزلت جيوشها الى البر المصري عام ١٨٨٢ . ومنذ ذلك الحين اصبحت مصر تحت الحماية الانكليزية فعلاً ، وان كانت قد ظلت اسماً تابعة للسلطنة العثمانية (١) .

وبعد اسماعيل جاء توفيق ، واخذت مصر تنطوي رويداً رويداً تحت رقابة دولية ، او تحت حكم اوروبي على الاصح . وتنازعت انكلترة وفرنسة النفوذ على مصر زمناً ، ثم استطاعت انكلترة ان تنفرد بالسيطرة وحدها .

ومنذ احتلال انكلترة لمصر اصبحت مصر تحت سلطة انكلترة المسيحية (٢) . ولكن انكلترة كانت تحسب حساباً للشعور الاسلامي فلا تود ان تجرحه بالتظاهر بالتبشير حرصاً على مصالحها العسكرية والسياسية . اما المبشرون فكانوا يريدون من انكلترة ان تعلن سياسة دينية عنيفة في مصر (٣) ، بعد أن وجهوا هم جهودهم للتبشير بين المسلمين (٤) . ولقد اتهم بعض المبشرين اللورد كرومر ، المعتمد البريطاني في مصر ، بأنه كان حليماً يحابي المسلمين (٥) ، مع انه كان يشجع التبشير بين المسلمين ويحمي القسس الأجانب والمبشرين . قال شوقي يخاطب اللورد كرومر يوم رحيله عن مصر (٦) :

لو كنت من حمر (٧)الثياب عبدتكم — من دون عيسى محسناً ومُنيلا ،
او كنت قسيساً يهيم مبشراً — رتلت آية مدحكم ترتيلا .
من سب دين محمد فمحمد — متمكن عند الآله رسولا !

اراد المبشرون ان يكون كرومر صريحاً عنيفاً بطاشاً ، وكان هو ذا كيد خفي يتدخل شخصياً في التنصير . من ذلك أن طالباً من القدس كان يدرس في الأزهر ثم صبأ من الاسلام الى النصرانية ، فطلبه أبوه ثم حضر بنفسه الى مصر ، فالتجأ الابن الى اللورد كرومر . فاستكتبه اللورد كرومر وثيقة فيها انه لا يريد أن يرجع مع أبيه ، ففعل (٨) . وهكذا

(1) Hayes , op. cit 600 f.
(2) Richter 78 .
(3) cf Riehter 78, 351 .
(4) Richter 3(0 .
(5) Richter 78 .

(٦) راجع ديوان شوقي ١ : ٢١٢ .
(٧) اي من الانكليز .

(8) Gairdner 269 - 274 ; Ric..ter 362 .

كثر التبشير في مصر بعد سقوط اسماعيل ثم استطال واسبطرّ في عهد اللورد كرومر (١) .

كيف دخل الانكليز الى السودان

على ان جهود السياسية في السودان كانت أكثر تضافراً على التبشير . جاء الجنرال غوردون حاكماً على السودان في أواخر ايام الخديوي اسماعيل باشا ، الذي خلع عن عرش مصر عام ١٨٧٩ . ومنذ ذلك الحين حثت الجمعيات التبشيرية رجالها على البدء بالتبشير الفعلي في السودان المصري (٢) .

ولكن بعد ثورة السودانيين على الانكليز وانهزام الانكليز ومقتل غوردن نفسه عام ١٨٨٥ خمدت حركة التبشير . ثم لما خفق العلم الانكليزي من جديد على السودان ، عام ١٨٩٨ ، عادت حميّة المبشرين الى البروز واستعدت الجمعيات التبشيرية لتجعل من التبشير عملاً منظماً علنياً . الا ان اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر ظل الى عام ١٩٠٥ يحث المبشرين على التريث في اعلان حميتهم ، لأن ظهور المبشرين مسفرين عن وجوههم قد يضر بالسياسة البريطانية ضرراً بالغاً ، مع العلم بأن كرومر نفسه كان يشجع التبشير (٣).

وبلغ من تدخل المبشرين في شؤون السودان ومن دالّتهم على المعتمدين البريطانيين في مصر انهم كانوا يبدون آراءهم في تعيين الموظفين في السودان . ولكنهم لم ينجحوا دائماً. لما نزلت انكلترة في السودان وارادت أن تديره أتت بموظفين مسلمين من الهند ومصر لهذه الغاية . ولكن المبشرين احتجوا على ذلك واقترحوا أن يكون هؤلاء الموظفين نصارى قد صبأوا من الاسلام على الأقل . الا ان انكلترة كانت تنظر بالفعل الى مصالحها هي قبل كل شيء فلم تُصغ دائماً الى نصائح أولئك المبشرين (٤) .

على ان الجمعيات التبشيرية كانت قد اعدت عدتها منذ عام ١٩٠٠ وأرسلت مبشريها الى السودان ليقوموا بالتبشير العلني فعلاً . وكانت انكلترة تشجع المبشرين البروتستانت والكاثوليك على السواء في السودان (٥) ، وما دام المبشر يخدم الاستعمار ،وما دامت الدول

(1) Gairdner 256 .
(2) Richter 367 . cf . 366 .
(3) cf . Richier 367 - 8 ; Milligan 26
(4) Gairdner 284 .
(5) cf . Milllgan 29 .

المستعمرة لا تهمها الناحية الدينية كعقيدة ولكن كوسيلة الى غايتها . ولقد كان التبشير في السودان المصري مهمة صعبة ، وكانت النتائج مستحيلة . ولذلك وجه المبشرون جهودهم نحو جنوبي السودان حيث يكثر الوثنيون . حتى الوثنيون لم يكونوا يقبلون على المسيحية ، فكان عمل المبشرين من أجل ذلك قاصراً على منع انتشار الأسلام في تلك البقعة الفسيحة من افريقية (١) .

ولما لم تستطع الجمعيات التبشيرية أن تخطو في التبشير خطى منتجة ، استعانت بالدول المستعمرة ، فأعانتها تلك الدول المستعمرة في أماكن متعددة كالبحرين (٢) واليمن . وبعد ان استولى الانكليز على عدن اتخذ المبشرون عدن مركزاً يرسلون منه نشراتهم التبشيرية الى قلب بلاد العرب او يخالطون القوافل ليبشروا في أهلها (٣) . وكذلك فعل المبشرون في جزر الهند الشرقية ، في جاوة وسومطرة وسواهما (٤) .

اما الروسية القيصرية فكانت ذات اسلوب خاص بها مستمد من استبدادها . كانت الروسية في القرن التاسع عشر ، وفي إبان استبدادها ، تحمل المسلمين من رعاياها على التنصر بقوة السيف . فلما أعلنت الحرية الدينية في الروسية في السابع عشر من نيسان عام ١٩٠٢ عاد خمسون ألفاً الى الأسلام وحملوا معهم عدداً آخر ممن لم يكونوا مسلمين قط (٥).

واستطار المبشرون فرحاً لما أصبح لبنان متصرفية بعد فتنة عام ١٨٦٠ وأصبح حكامه من النصارى الأوروبيين . قال رشتر : ان مقاطعة لبنان لتغتبط منذ عام ١٨٦٢ بحاكم مسيحي وبحرية نسبية (للمبشرين) . ثم لا يكتفي رشتر بهذا الفرح وهذا الاغتباط ، بل يود ان توالي الدول الأجنبية تدخلها بالقوة كلما لزم الأمر توسيعاً لحركة التبشير بين المسلمين خاصة (٦) .

ولم تكن نظرة رشتر خاطئة ، فان المتصرفين (حكام لبنان بعد فتنه عام ١٨٦٠) كانوا يشجعون التبشير . زار وفد من المبشرين ، فيهم دانيال بلس « رئيس الكلية السورية الانجيلية في بيروت (الجامعة الاميركية اليوم) » ، والدكتور ادي ، ودنيس ، وجسب وغيرهم ، متصرف جبل لبنان واصا باشا في الثامن والعشرين من شهر شباط عام ١٨٨٨ ،

(1) cf . Milligan 29 .
(2) Richter 276 .
(3) Richter . 273 f .
(4) Islam and Missions 198 .
(5) ibid . 196 .
(6) Richter 79 .

فقال لهم واصا باشا : « طمئنوا اصدقاءكم وحكومتكم (الاميركية) بأني سأعمل ما في وسعي لحمايتكم وحماية عملكم » . وكذلك كانت سياسة رستم باشا من قبل (١) .

فرنسا خاصة

أما فرنسة خاصة فكانت تعتقد ان النفوذين الديني والسياسي في جبل لبنان احتكار لها دون سائر الدول . من أجل ذلك ساءها أن ترى المبشرين البروتستانت يتمتعون بحماية رسمية . وشاء المتصرف داود باشا — وكان أرمنياً — ان يرضي فرنسة فمتّع القسس الموارنة بالحرية لاستئصال شأفة البروتستانتية (٢) .

وعلى هذا المنوال سارت الحال في جبل لبنان حتى نشبت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ، فرأت الدولة العثمانية في نظام المتصرفية خطراً على امبرطوريتها فألغته . وهكذا سكنت حركة التبشير لتنبعث بعد أربعة أعوام من جديد بقوة واتساع ، حينما احتل الانكليز والافرنسيون سورية وقلصوا ظل الدولة العثمانية عن شرقي البحر الأبيض المتوسط كله .

على أن هذا الاحتلال الثنائي لم يطل كثيراً ، بل انسحب الانكليز الى جنوبي سورية (فلسطين وشرق الأردن) وظل الافرنسيون في الشمال (سورية ولبنان) . وهكذا صال المبشرون اليسوعيون في منطقة الانتداب الفرنسي صولة شديدة ثم جعلوا — بعد أن كانوا يلمحون — يصرحون ويلوحون . فمن أقوالهم :

لما فتحت الهدنة عام ١٩١٨ للمبشرين طريق سورية من جديد ، وطد أولئك المبشرون أقدامهم في حوران ، وفوضهم الأساقفة الكاثوليكيون بما كانوا قد اجبروا على تركه عام ١٩١٤ (٣) .

وأشد من ذلك تلويحاً قولهم :

« ايها المبشرون ، هذه فرص لم تسنح لكم من قبل (٤) » .

ولم تكن الدولة الافرنسية المنتدبة وحدها عوناً لليسوعيين على تنصير غير النصارى ، بل ان الحكومة المحلية — التي لم تكن الا وجهاً آخر لدولة الا نتداب — كانت تساعد في ذلك : يقول اليسوعيون أنفسهم (٥) :

(1) Jessup , 532 .
(2) Jessup . 250 .
(3) Lss Jesuites en Syrie 10 : 64 .
(4) ibid 11 : 26 .
(5) ibid 10 : 66 .

« من الأمور المستجدة منذ الانتداب انتشار الأمن المطلق تقريباً في البلاد اللبنانية . ان المبشرين القدماء كانوا يعملون دائماً إما في وجه حادثة مثيرة او على خوف من كمين بدوي او طلق ناري من مصدر مجهول ، او معرضين لقطاع الطريق . أما اليوم فلم يبق أثر للبنادق — فقد صادرها الفرنسيون — ولقد دفع الذين حاولوا الاعتداء على المبشرين ثمناً غالياً » .

*

كان اليسوعيون يتبجّحون بهذه الأقوال عام ١٩٣٠ ، حينما كان ظلم الافرنسيين المخيّم على بلادنا في أوجه ، وحينما كانت فرنسة تظن أن دولتها لن تدول . وهكذا كشفت فرنسة القناع عن وجهها في السياسة الاستعمارية : لقد أرادت الادارة الفرنسية أن تقوم بحركة تنصير واسعة في البلاد مستعينة باليسوعيين ، فاختارت بلاد العلويين حول اللاذقية .

يشهد اليسوعيون (١) ان فرنسة ارادت ، بعد عهد من الاستعباد والجهل غطى بلاد العلويين ، ان توجد للعلويين دستوراً محرراً (لانتزاع العلويين من الأسلام وادخالهم في النصرانية) ، على شرط أن يساعد هذا الدستور على تحقيق ذلك بلا ضجة . لذلك أصدر المسيو شوفلر ، جلاد بلاد العلويين ، مرسوماً بتاريخ (٢ أيار ١٩٣١ وتحت رقم ٢٩٠٨) يجعل الانتقال الى المذهب الكاثوليكي يجري في المحكمة العادية من غير حاجة الى الاجراءات المعقدة !

ويجمل أنيس صايغ في كتابه « لبنان الطائفي » تدخل فرنسة في لبنان خاصة واستغلال السياسة والتجارة والعلم والطائفية في سبيل مصالحها هي ، مع الإشارة إلى المنافسة الشديدة في هذا الشأن بينها وبين انكلترة خاصة ، قال (٢) :

« إلا أن التدخل الأجنبي في شؤون لبنان ، بالمفهوم الاستعماري الحديث ، لم يبدأ إلا في القرن الماضي . وليست هذه الحوادث التي ذكرناها إلا مقدمات للاستعمار الحقيقي الذي عرفه لبنان في القرنين الأخيرين ، إذ أصبحت سورية الطبيعية ، ضمن ممتلكات الامبرطورية العثمانية ، مطمع دول أوروبة المتنازعة فيما بينها ، والساعية إلى توسيع ممتلكاتها ومناطق نفوذها على حساب بعضها بعضاً ...

(1) Les Jesuites en Syrie 10 : 37 .

(٢) ص ٩٣ — ٩٤ ، ١٠٦ ، ١٧٠ ، ١٠٨ ، ١٠٩ .

« وجد هؤلاء الاستعماريون أن الخطوة الأولى في سبيل السيطرة على لبنان تستوجب استثمار الطائفية فيه — في إثارة طائفة على أخرى ، وفي رعاية طائفة ضد أخرى . لذلك غذى هؤلاء الطائفية ونموها وتعهدوها بأموالهم ودهائهم ، بحيث أخذت الطائفية مفهوماً جديداً ، وأصبحت ، لدى الكثيرين ، مجرد وليدة لهذه التغذية الاستعمارية الآثمة . وأخذ رجال الحكومات الأجنبية ، من وزراء وقناصل وعمال مأجورين ، الدور الذي كان لرجال الإقطاع في العصور الوسطى .... دور التستر وراء قناع الطائفية ، لتحقيق الأطماع الجزئيـــة .

« بدأت هذه المرحلة في القرن التاسع عشر . وقد بزغ هذا القرن أثناء ولاية الأمير بشير الثاني ، الملقب بالكبير . وقد اعتمد الأمير المذكور على الطائفية ، كوسيلة للمحافظة على نفوذه في الشعب ، أكثر من أي لبناني آخر . وحفل عصره بالمؤامرت الطائفية ، العلنية والخفية ، التي كان هو يحيكها ، لوحده ، أو بتعاونه مع الدول الأجنبية ، ليلهي الشعب عن الثورة عليه ، ويؤمن لسيادته الامتداد الذي يريده .

« وكانت فرنسة تعتبر نفسها حامية المسيحيين في الشرق ، وخاصة الموارنة في لبنان ، بمقدار ما كان الموارنة يعتبرونها صديقتهم الكبيرة الأولى . فقد جرت التقاليد في البلدين على اعتبار الصداقة المارونية والإفرنسية في غاية العراقة ، تدعمها القرون الطويلة ، وتجعل فرنسة لا تقبل منافسة دولة أخرى في هذه الصداقة ، وتجعل الموارنة لا يقبلون منافسة طائفة أخرى في الولاء لفرنسة .

« ودعمت فرنسة هذه العلاقة السياسية المتسترة بثوب ديني بتعهد العلاقات التجارية والإرساليات التبشيرية بين لبنان وفرنسة . فقد ضاعفت فرنسا عنايتها بأمور التجارة ، وأرسلت القناصل وأسست المكاتب والمراكز الثابتة لتسهيل أمورها . وكانت فرنسا منذ ١٥٢٠ قد حاولت ضم لبنان إليها بالقوة ، للحصول على ثروته وكنوزه ، حينما أرسلت أسطولاً يتألف من خمس عشرة سفينة إلى سواحل لبنان . إلا أن مسلمي ودروز السواحل هاجموا الجنود الفرنسيين وطردوهم ....

« أما التبشير فكان الميدان الأوسع لإنماء العلاقات الطائفية .... وبدأت الإرساليات تفد إلى لبنان منذ القرن الثالث عشر .... ورعى ملك فرنسة بنفسه شؤون التبشير ، في ذلك القرن ، واهتم ببناء الكنائس . وبدأت فرنسا تستقبل رجال الدين اللبنانيين وتعلمهم في

مدارسها الدينية على حسابها . وواصلت فرنسا رعايتها للإرساليات في الشرق بالرغم من اضطهادها لها في فرنسة نفسها .

« وكان اهتمام فرنسا وتدخلها يزداد كلما لمست ازدياداً في اهتمام بريطانيا في الشرق . فقد كان لبريطانيا ، هي الأخرى ، مطامعها ومصالحها في هذا الجزء من العالم . ولما لم يكن لبريطانيا (في ذلك الحين) طائفة تشترك معاً في المذهب ، اضطرت بادىء الأمر ، إلى الاعتماد على التجارة والتدخلات الرسمية والخفية في بلاط الخليفة العثماني ... ثم ازداد الاهتمام الإنكليزي بسورية في القرن الثامن عشر ، عندما أصبحت الهند وشرقي آسيا محورين رئيسيين للثروة البريطانية الاستعمارية . وأرسلت بريطانية عشرات الرحالة والمؤلفين والموظفين لدراسة أحول سورية كطريق رئيسية إلى الهند .... وكانت بريطانيا قد سبقت هذه الدول في إرسال دعاتها الى لبنان لتحريض الشعب ضد إبراهيم باشا والأمير بشير .

« فقدم إلى غزير ، في كسروان ، منذ ١٨٣٩ ، كاهن إيرلندي الأصل ، اسمه وود ، وادعى أنه جاء ليتعلم العربية هناك . لكنه كان ، إذ يتعلم العربية ، يلقي بذور الشقاق بين الأهالي . ووعد وود البطريرك حبيش بمساعدة بريطانيا لإعلان لبنان إمارة مارونية مقابل مساعدة الموارنة لها . وفي الوقت نفسه أكد وود للدروز صداقة بريطانيا لهم وعطفها عليهم . ومثل وود سعى كل من تشرشل واونفرا واللادي استنهوب وغيرهم من البريطانيين الذين أقاموا في لبنان ، تحت ستار توزيع الهدايا ومصادقة الشعب ، إلى إثارة العصبية الطائفية لفتح المجال أمام بريطانيا لكي تتدخل .... و (كذلك) انتشر عمال فرنسا في البلاد وتجولوا بين القرى المارونية ، طالبين إلى السكان رفع الأعلام الإفرنسية لنيل حظوة الجيوش الخليفة » (التي جاءت لحرب ابراهيم باشا) .

تهكم واستهزاء

ودعاة الاستعمار الخالص كدعاة الاستعمار المتستر بالتبشير لا يرعون للناس عهداً ولا يحفظون لهم كرامة ، حتى لأولئك الذين يستميلونهم أو يدعون أنهم استمالوهم . ان دعاة الاستعمار هؤلاء اذا كتبوا عن الشرق ملأوا كتاباتهم بالتهكم والاستهزاء وبشيء كثير من الازدراء أحياناً . صدر مؤخراً كتاب باللغة الفرنسية اسمه « آسية المرعبة » (١) يصف رحلة شبه صحفية في بلاد الشرق الآسيوي . ولقد تهكم مؤلفاه بيار ورينيه غوسيه (٢) على البلاد

(1) Terrifiante Asie.

(2) Pierre et Renée Gosset.

الشرقية ما شاء لهما التهكم . ونال لبنان من هذا التهكم أمره ، مع العلم بأن مؤلفي الكتاب كليهما نالا من الاكرام في لبنان — بشهادتهما نفسهما — ما أدهشهما . قال المؤلفان (١) :

وعرفنا مرة ، على مائدة الصباح ، فتاة رائعة من البيئة اللبنانية (من تلك الأسر الغنية المثقفة التي تربت في مدارسنا والتي تتزود بأزيائها من باريس وتصطاف في فرنسة) ... وجهدت (هذه الفتاة) لتدخل السرور على قلوبنا ، ابتغاء سرورنا وحده ، ثم خصتنا يومين كاملين بسيارة ظلت تحت تصرفنا حتى بلغنا الحدود السورية .

(وقلنا في مجمع : لعلها وجدتنا) لطيفين . فأجابنا ريمون د (٢) ، وهو صحافي لبناني : بكل تأكيد ، ولكنكما أيضاً فرنسيان .

ولما تجولا في شوارع بيروت قالا (٣) :

ان لجادة الافرنسيين معناها في بيروت . ولن نخشى أن يصيبها ما أصاب شوارعنا في سايغون (٤) . ان فرنسة لم تكن في يوم من الأيام محبوبة في لبنان كما أصبحت بعد أن غادرناها نحن ... وبانتهاء الانتداب تسلم لبنان استقلاله وكأنه هدية عجيبة . لقد نسي الدقائق الحرجة كيلا ينسى التراث الذي خلفناه له . وما كان ذلك يسيراً .

واجتمعنا حول مائدة جورج نقاش مدير جريدة الأوريان (٥) بأحد أصدقائنا اللبنانيين القدماء ، من الذين التقينا بهم في أقطار العالم الأربعة خلال الأعوام الأخيرة ، وهو جوزيف ح مدير الشؤون الخارجية في بلاده في الوقت الحاضر (٦) . وفي هذا الجو الهادىء لم نستطع الا أن نستعيد ذكرى (ثقة) متبادلة نبتت منذ سنين خلت حينما كان وزيراً مفوضاً في بروكسل . لقد حدثنا (في لقائنا هذا) عن النزاع الوجداني الفاجع الذي ينتاب أهل جيله . انه لما حيل بينهم وبين فرنسة بعنف حينما كانوا يكافحون في سبيل استقلال بلادهم ، وجدوا أنفسهم (فجأة) بلا ثقة أخرى ، ولا لغة أخرى ، ولا أسلوب من أساليب التفكير سوى تلك التي كانوا تعلموها في كلياتنا ومدارسنا .

(١) ص ٧٣

(٢) « الدال » الفرنجية يمكن ان تقابل في العربية الدال أو الضاد .

(٣) ص ٧٤

(٤) سايغون مدينة في الهند الصينية التي طرد منها الفرنسيون فتبدلت شوارعها اسماء جديدة وأوجهاً جديدة .

(5) L'Orient (Beyrouth).

(٦) يوم كان المؤلفان في سياحتهما .

وقطع المؤلفان السائحان الحدود بين لبنان وسورية فسجلا التعليق التالي (١) :

ثم هذا شاهد صغير من الطرف الآخر من السلم الاجتماعي (٢) . بعد بضعة أيام وفّر علينا مأمور الجمارك اللبنانية على الحدود السورية ، بابتسامة مملوءة برحابة الصدر ، جميع الشكليات بعد نظرة يسيرة ألقاها على جواز سفرنا . وفي فرط تأثره (قال لنا وهو يبدو مضحكاً قليلاً ومنتفخاً كثيراً : مُرّاً ، ان لبنان هو الابن البكر لفرنسة . وهكذا رجعت بنا الذكرى الى مراكش ، مراكش التي نعرفها والتي نحبها كثيراً ، والى كل ما نحن على وشك أن نضيعه فيها بسبب قلبنا الشائخ الذي قسا كثيراً لقلة سخائنا وضعف خيالنا .

ولم يشأ هذان السائحان أن يغادرا لبنان قبل أن يخصا أرزه والبطريرك الماروني بملاحظة نابية . قالا (٣) :

يجب الا يقال اننا تركنا لبنان من غير أن نرى أرزه . ان الأرزة شعار البلاد . انها في كل مكان : على كل طراز ، على جميع الاعلانات ، على الأبنية العامة ، على قبعات الشرطة وعلى العلم . انها في كل مكان الا في الاحراج . يا خيبة الأمل ، ان الأرزات التي يفتخرون بها كثيراً تبلغ أربعين وتتجمع في أعالي جبل مرشوش بالثلج . ان ارزنا المراكشي في أزرو أقل قداسة ولكنه أكثر تأثيراً في الرائين .

في اثناء الانتداب أرادت فرنسة أن تمنع القرويين من أن يسيموا عنزهم في تينك الغيضتين الأخيرتين من شجرات الأرز الباقية على قيد الحياة . ولقد لجأت فرنسة الى رؤساء الدين المحليين لمساعدتها على ذلك . وبعد ستة أشهر جاء موظف فرنسي الى البطريرك الماروني يسأله عن مدى التقيد بالقوانين (التي فرضت لحماية الأرز) . فأجابه البطريرك قائلاً : انه تقيد تام ، يا كابتين ، سوى ان المعزى الأرثوذكس لا تريد أن تسمع ولذلك هي تصر على قضم الأغصان (انتهى قول بيار ورينيه غوسيه) .

استفزاز وقلة ذوق

ولقد قام الافرنسيون خاصة في مناطق نفوذهم بأعمال تبشيرية استعمارية كلها استفزاز وقلة ذوق . وكان التعاون بين فرنسة وبين اليسوعيين والبابا تعاوناً وثيقاً جداً .

(١) ص ٧٤ — ٧٥ .
(٢) في البيئة الشعبية ، غير الغنية وغير المثقفة تثقيفاً رفيعاً .
(3) P. 97.

من هذه الأعمال حادث جنينة رسلان وقد مرت الاشارة اليه (١) وكيف أن اليسوعيين احتموا بحراب الافرنسيين وذهبوا الى بلاد العلويين — وهي بقعة من الجمهورية السورية — وحملوا نفراً من أهل البلاد على إعلان انتسابهم الى المذهب الكاثوليكي بالقوة (٢) .

على أن الضغط الافرنسي زال عن العلويين بعد زوال انتدابهم على سورية ولبنان عام ١٩٤٣ ، وتنفسنا نحن الصعداء .

ولما فقدت فرنسة نفوذها في الجمهورية السورية ، بعد أن عادت بلا د العلويين الى الوطن الأم ، ثم جلت جنود الاحتلال عن البلاد كلها ، لم تنس فرنسة سياسة خلق المشاكل في البلاد فأثارت سليمان المرشد .

سليمان المرشد رجل إقطاعي شجعه الافرنسيون على أن يدعي الألوهية ، ولذلك تسمى بالرب وأخذ يعامل قومه العلويين على هذا الأساس . ثم تطوح فجعل ينهب ويسلب ويقتل حتى ألقت الحكومة السورية القبض عليه وأدانته (بما ارتكبه من حوادث سلب وقتل) وشنقته : لقد أراد اليسوعيون أن يصنعوا إلهاً يوهن قوى الدولة السورية الناشئة ولكنهم جنَوْا على رجل ثم قادوه الى المشنقة . وهكذا ماتت بموت سليمان المرشد آمال اليسوعيين والافرنسيين في بلاد العلويين الى الأبد .

ولقد استغل الافرنسيون الدين في جميع أشكاله ، وساعدهم اليسوعيون خاصة على ذلك . في عام ١٩٣٠ أراد البابا أن يقيم عيداً لمناسبة مرور ألف وستمائة سنة على موت القديس أغسطينوس . ولكنه أراد أن يكون لهذا العيد طابع خاص ، فاختار أن يدعو الى مؤتمر افخارستي (١) في مدينة قرطاجة (قرب تونس) ، لأن القديس اغسطينوس كان من البربر ، ومن تلك الناحية .

ومع أن إقامة هذا العيد من حق الكنيسة تقيمه متى شاءت ، فان اقترانه بانعقاد مؤتمر أفخارستي (مسيحي) في بلد كل أهله مسلمون يدل على كثير من قلة اللياقة . على أن تونس المستعبدة يومذاك قد أجبرت على قبول ذلك وعلى أن تدفع ايضاً من خزينتها الخالية مليونين من الفرنكات ، يوم كان الفرنك لا يزال يساوي قرشاً من الذهب ، وعلى أن تقبل بوضع الأسرّة في المساجد ليرقد عليها الرهبان الذين جاءوا من أطراف الأرض ليعلنوا حرباً

(١) راجع صفحة ٥٣ وما بعدها .
(2) cf. Les Jesuites en Syrie 10 : 35 , 11 : 27 .
(٣) المقصود بالمؤتمر الافخارستي : اجتماع كاثوليكي عام يجتمع فيه الكهان والعوام وينصبون مذبحاً بالعراء (خارج الكنائس) للقيام بالعبادة .

صليبية جديدة في بلد مسلم . ولما أراد بعض الشباب التونسيين أن يحتجوا على هذه الأعمال المنافية لكل ذوق ، فوق ما فيها من تحدّ للشعور الديني والقومي والانساني ، لم تتورع فرنسة عن أن تقبض على هؤلاء وتزجهم في السجون لتتيح للمؤتمر الافخارستي أن ينعقد بكل صخب استعماري في جو من الهدوء (١) .

هذا المقطع الناري ليس لنا نحن المؤلفَين المسلمين العربيين بل هو لرجل فرنسي مسيحي كما ترى في الحاشية .

وما دمنا نتكلم على تونس في شمالي افريقية فلننقل كلمة على الظهير البربري (٢) .

في الوقت الذي كان المؤتمر الافخارستي ينعقد في تونس ، كانت فرنسة تقوم في مراكش بعمل مماثل من حيث النتائج الدينية الاستعمارية :

في ١٥ أيار عام ١٩٣٠ أجبرت فرنسة سلطان مراكش الشاب على أن يصدر ظهيراً (مرسوماً) ينص على أن يكون للقبائل المراكشية التي هي من أصل بربري نظام قضائي خاص ، أو على الأصح نظام شرعي خاص ، فلا تسري عليهم قوانين الشرع الاسلامي بل قواعد العرف العشائري البربري .

وكان من الطبيعي أن يثور المراكشيون كلهم على ذلك ، فمشى العرب والبربر وسكان المدن وسكان القرى والبوادي على السواء مشية الرجل الواحد احتجاجاً على هذا الافتراء وعلى هذا التفريق في الشرع بين المسلمينَ أنفسهم .

ان المظالم التي ترتكبها فرنسة في المغرب باسم الحرية(٣)لهي أكثر من أن تذكر. ثم هي تستوحي الفاتيكان (مقر بابا رومية) سياستها الدينية لتثبت بها أقدامها في مستعمراتها .وهذا يقضي عليها بأن تعاضد الرهبان والمبشرين في حملتهم على كل بلد مستقل وعلى المسلمين خصوصاً

وهكذا نرى بكل وضوح ان الإرساليات الدينية كانت دائماً ستاراً لتغلغل الاستعمار في الشرق . يخبرنا المبشر هنري جسب (٤) ان المبشرين استغلوا جهودهم لخدمة دولهم وأذكوا نارة العداوة في الذين كانوا يبشرون بينهم ، فقد كان القائمقام الماروني في لبنان الأمير حيدر أبياللمع يضم جهوده الى جهود البطريرك الماروني والقنصل الفرنسي العام لوضع لبنان تحت نفوذ الأكليروس (رجال الدين المسيحي) للوصول الى جعل جميع الكاثوليك في سورية تحت نفوذ فرنسة . وكان عمل الأمير حيدر يصدر على ما يظهر عن

(1) Jung 39 ss .
(2) cf Jung 46 ss .
(٣) الكلام يتناول العهد الذي سبق استقلال تونس والمغرب والجزائر .
(4) Jessup 160 - 164 .

اقتناع ، حتى انه أعلن ان فرنسا ستحتل يوماً ما لبنان بجيشها (١) .

ولقد كتب المبشر هنري جسب هذه الجملة في كتابه المطبوع عام ١٩١٠ قبل أن تحتل فرنسة لبنان بثماني سنوات .

والفتن التي أثارها الاستعمار باسم الدين في بلاد العرب خاصة كثيرة جداً ، منها فوق ما تقدم ، ثورة التياريين في العراق ، أو ثورة الأشوريين .

الأثوريون أو الأشوريون طائفة مسيحية تعيش في شمالي العراق . ولكن المؤرخ المدقق السيد عبدالرزاق الحسني يرى أن هؤلاء على الرغم من انهم يعرفون باسم « الأشوريين » فانهم لا صلة لهم بالأشوريين الذين سكنوا العراق قبل الميلاد ، بل هم طائفة غريبة دخيلة حاك لها المستعمر هذه الأسطورة (٢) وخلع عليها هذه التسمية .

ولقد تمرد الأشوريون على الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى باثارة الروسية لهم فأدبتهم الدولة العثمانية وأخرجتهم من بلادها . ولكن ما كادت الحرب العالمية الأولى تنشب حتى تطوع عشرون ألفاً منهم في الجيش الانكليزي .

« ولما اندلع لهيب الثورة العراقية الكبرى في صيف ١٩٢٠ وقام العراقيون ينادون باستقلال بلادهم ، كان التياريون (الأشوريون) يقاتلون أبناء البلاد في صفوف الانكليز قتالاً مستميتاً وينتقمون من المسلمين انتقاماً صارماً لا مبرر له ولا سبب » (٣) ، وكانوا يتجسسون للعدو على وطنهم (٤) . والسيد عبدالرزاق الحسني على حق حينما ذكر أن الانكليز أرادوا من اسكان التياريين (الأشوريين) في العراق وضع أقلية مسيحية يستغلونها في مقاومة تركية المسلمة ويهددون بها استقلال القطر العراقي الناشيء (٥) . ولقد وافقه على ذلك س . م موريسون ، فجعل تبعة ثورة الأشوريين على عاتق عصبة الأمم أو على عاتق الحكومة البريطانية (٦) . ولقد استطاع العراق أن يقضي على كل أمل لهؤلاء التياريين بانشاء دولة في شمالي العراق او « وطن قومي » . ولم تكن انكلترة تريد من اسكان الاشوريين في العراق الا ما ارادت من اسكان اليهود في فلسطين . ولما لم تستطع

(1) ibid .

(٢) تاريخ الوزارات العراقية ٣ : ١٤٤
(٣) تاريخ الوزارات العراقية ٣ : ١٤٥
(٤) تاريخ العراق السياسي الحديث ٣ : ٢٩٤
(٥) راجع تاريخ الوزارات العراقية ٣ : ١٤٥ وما بعد

(6) Mw, Apr. '35, 128 .

انكلترة أن تخلق بالأشوريين قلاقل ذات أهمية في العراق اعارتهم للافرنسيين الذين نقلوهم الى سورية ولبنان ليكونوا مصدر قلق لسوريا كما كانوا للعراق (١) .

ما أشد ضرر هذه الأقليات الطائفية التي تعير نفسها للمستعمر ليستعين بها على خلق القلاقل في الوطن الأم ، فاين الدعاوي العراض بالوطنية والقومية !

التوظيف والطائفية

ان المستعمر اذا نزل بلداً اتخذ أعوانه من الأقليات المتوطنة او الطارئة . ولقد أشار علامتنا ابن خلدون الى هذه الناحية فعقد لها فصلين قصيرين في مقدمته المشهورة ، فذكر ان صاحب الدولة اذا خشي من أهل الدولة الانتقاض عليه مال «الى أولياء آخرين من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم ... ويخصهم (أي هؤلاء الأولياء المستجدين) بمزيد التكرمة والايثار ... ويقلدهم جليل الاعمال والولايات والوزارات والقيادة والجباية » (٢) .

وكذلك فعل المستعمرون عند نزولهم ببلاد الشرق الاسلامي هذا الفعل فاستخلصوا الأرمن والأشوريين والمهاجرين من اليهود والروس واليونان والافرنج ليقاوموا بهم العرب . وما كنا نحن لنعقد هذا الفصل القصير هنا اولا ان المجلة التبشيرية « العالم الاسلامي » قد ذكرته مع قلب للحقائق فاضح .

قال س . م موريسون في مقال نشره في مجلة العالم الاسلامي عنوانه « الحرية الدينية في العراق » (٣) :

« فاذا تجاوزنا الاشوريين ، وهم في كثير من أحوالهم ذوو صبغة خاصة في العراق ، لم نلحظ اشارة ما الى أن الحكومة العراقية تدفع الاقليات الدينية عن حقوقهم ... هذا على الأقل هو الموقف الرسمي للحكومة . أما في الواقع فانه اذا عرض للحكومة أن تختار بين المتقدمين الى المنافع ، فان المسلم يكون حينئذ أعظم حظاً من غير المسلم . فالمسلم مثلاً هو المفضل على النصراني واليهودي عند ارسال البعثات العلمية الى الخارج أو عند التعيين في مناصب الدولة . وبما أن العراق دولة اسلامية فلعل هذا هو الأمر الطبيعي » .

لقد أخطأ موريسون من ناحية ، ثم فسح لنا مجال القول من ناحية أخرى . اننا في

«١» تاريخ الوزارات العراقية ٣ : ١٨٠

«٢» مقدمة ابن خلدون ، بيروت الطبعة الثالثة ١٨٣ — ١٨٥

(3) Mw. Apr. 35. p. 123 .

الدرجة الأولى اذا استعرضنا الموظفين في العراق رأينا أن غير المسلمين يتمتعون بعدد من المناصب لا يتفق مع نسبتهم في الاحصاء . أما مجال القول فهو ان الانكليز والافرنسيين قد ملأوا مراكز البلاد الاسلامية التي يستعمرونها — عملياً أو نظرياً — بغير المسلمين . أما الشركات الأجنبية في البلاد الاسلامية ، فقل أن تأخذ مسلماً ، واذا أخذته فللمناصب الثانوية فقط . حتى لبنان — ذلك القطر العربي المستقل — فان أعظم مفاتيح مناصبه في أيدي غير المسلمين — تساهلاً من المسلمين في سبيل حفظ الوحدة الوطنية ، ولأن لبنان كما يرى الكثيرون ذو وضع خاص — وجميع منافعه الاقتصادية موجهة الى غير المسلمين . وليس هنا مجال التوسع في هذه الناحية لأن كتابنا هذا ليس خاصاً بلبنان .

والمستعمر لا يختار موظفي الدولة من المسلمين . ان المسلمين لا يكونوا الا أقلية في جهاز البلد الخاضع للاستعمار أو لما يشبه الاستعمار ، كالانتداب مثلاً . ثم ان المسلمين القليلين في جهاز تلك الدولة لا تلقى اليهم مقاليد المناصب الرئيسية أبداً . قد لا يصدق أحد اذا قلنا له ان في الدوائر العقارية في حكومة الجزائر ألفين من الموظفين منهم ثمانية فقط من المسلمين (١) ، ولعل هؤلاء الثمانية من الحجاب. ولما استقلت مراكش وانتقلت الادارة من الافرنسيين الى الوطنيين كان في وزارة الشؤون الاجتماعية مائتان وخمسون موظفاً منهم أربعة من المسلمين ، وكان هؤلاء الأربعة كلهم حجاباً. ولقد رأينا قبل صفحات معدودة ان الموظفين النصارى كانوا في جهاز الادارة في الهند كثيرين كثرة لا تتفق مع عددهم بالنسبة الى الهنود او المسلمين. وليس هذا شأن الدول المستعمرة وحدها ، بل ان الشركات الأجنبية تسير على هذه السياسة نفسها . ويكفي أن يستعرض أحدنا الموظفين في هذه الشركات في لبنان وسورية والعراق ومصر وتونس حتى يدرك كره المستعمرين والشركات الأجنبية للموظفين المسلمين .

ومن المؤكد ان المستعمر لا يريد أن يتفق أبناء الأقليات مع الأكثرية المسلمة في الشرق. ان لويس ماسينيون المستشرق الفرنسي والموظف المعروف في وزارة الخارجية الفرنسية بقسم الشؤون الشرقية يقول : « والقبط النصارى (في مصر) — وقد فهموا واجبهم الأول كنصارى قوميين عرب ، وعزموا على ألا يلعبوا لعبة مزدوجة وعلى ألا يتوسلوا الى حماية الدول الأجنبية (بميل ديني ظاهر) — أخذوا يفاوضون في هذه الفترة (الانتخابية) حتى الاخوان المسلمين ... » (٢) .

ومع أن ظاهر هذه الجملة لا ينكشف صراحة عن نية مستعمرة ، فان التهكم والتألم ملموحان فيها بوضوح . وكذلك يستغرب المسيو ماسينيون نفسه اتجاه بلاد الشرق الأدنى نحو توحيد

(1) Jean son 167 . (قبل الاستقلال طبعاً)

(2) L'Islam et l'occident 16 .

برامج التعليم ، وخصوصاً في تعليم التاريخ الأسلامي الذي يربط هذه البلاد برباط واحد (١) .

ان هذا التقارب المعقول بين الأكثرية المسلمة في الشرق وبين الأقليات غير المسلمة لم يخفْه المبشرون الكاثوليك فقط ، بل خاف منه البروتستانت ايضاً . ان الحواجز المذهبية العملية قد زالت بين المسلمين والأقباط في مصر فأصبحوا جميعاً اخواناً في الوطنية وقطعوا على المستعمر سبيلاً من أوسع السبل الى تغلغل الاستعمار . على أن المبشرين البروتستانت ، لما يئسوا من استغلال الأقباط سياسياً ودينياً ، اكتفوا بأن يحاولوا استغلال جهود هؤلاء الأقباط ، بعد ان اطمئن المسلمون الى اخلاصهم القومي ، في التبشير بين اخوانهم المسلمين ؛ ولكننا لا نعلم الى أي حد نجحوا .

والى زمن قريب كانت كل دولة تكتفي بجهود مبشريها هي فقط في سبيل بلوغ أغراضها السياسية . الا أن هذه الدول جعلت أخيراً تتعاون تعاوناً وثيقاً فيما بينها في هذا السبيل ، ما دام الشكل الديني ليس الا واسطة لبسط النفوذ السياسي .

في الرابع من نيسان عام ١٩٢٤ وقعت الولايات المتحدة وفرنسة اتفاقاً (٣) تأخر اعلانه الى ١٣ آب من العام نفسه . وقد جاء في هذا الاتفاق ما يلي (٤) :

المادة العاشرة — ان اشراف الدولة المنتدبة (فرنسة) على الارساليات الدينية في سورية ولبنان يجب أن يقتصر على حفظ الأمن والأدارة الحسنة (٥) . ان أوجه نشاط هذه الارساليات الدينية يجب ألا تخضع لتدبير يضيق مجال عملها ، ولا أن يخضع أعضاء هذه الارساليات لتدبير يضيق مجال عملهم بسبب اختلاف جنسيتهم ، على شرط أن تنحصر أوجه هذا النشاط في حقل الدين .

هذه المادة تنص بوضوح على تعاون فرنسة والولايات المتحدة — وغيرها من الدول الأوروبية — على التبشير في سورية ولبنان . فالدول الغربية كلها ، اذن ، ترى التبشير ذو فائدة لها حتى تعقد في سبيله المعاهدات .

هذه المعاهدة الغربية في تاريخ الدول المتمدنة ظلت نافذة حتى ١٩٤٣ في الجمهوريتين السورية واللبنانية معاً — لخضوع تينك الجمهوريتين يومذاك لانتداب فرنسي واحد — .

---

(1) idid 16 s.
(2) Milligan 63 ff.
(٣) سلسلة المعاهدات رقم ٦٩٥
(4) Penrose 313.
(٥) في الاصل : good government

ولكن لما استقلت الجمهورية السورية لم تجد من الكرامة أن تبقي هذه المعاهد ذات واقع قانوني فألغتها . ولما احتجت الدولة التي يعنيها الأمر عناية شديدة وقالت ان « الحرية والديمقراطية » يجب أن تكونا مكفولتين ، وان للانسان ملء الحق بنشر الدين الذي يريده واعتناق المذهب الذي يرضاه ، كان الجواب العاقل يومذاك ما يلي :

ان الجمهورية السورية لا تقيد حرية أحد في الدعوة الى مذهب ديني ، ولكنها ترى ان هذه الحرية يجب أن تتساوى بين الداعي والمدعوّ ، فلمبشر بروتستانتي مثلاً أن يناظر فقيها مسلماً . ولرجل كاثوليكي أن يخاطب رجلاً مسلماً . أما أن يترك الأطفال الأبرياء في صفوف المدارس الابتدائية تحت رحمة المبشرين فهذا يتنافى مع أبسط قواعد الحرية . وهكذا أغلقت الجمهورية السورية عقول الذين لا يزالون قاصرين دون مكائد المبشرين لما وضعت للمعارف قوانين تحفظ كرامة البلد المستقل . ان المدارس الأجنبية — والافرنسية منها خاصة — كانت في أيام الانتداب تتمشى على نظام منافٍ كل المنافاة لروح الأستقلال .

كل هذا كان واضحاً في الجمهورية السورية فسنت الحكومة قوانين سيطرت فيها على التعليم الخاص أيضاً وحالت بين مقاعد الدراسة وبين النفوذ السياسي (١) .

فلما فقدت مدارس المبشرين خاصة نفوذها على الطالب الابتدائي ثارت ثائرتها وراحت تقذف الحكومة السورية بوابل من شتائمها . وبما اننا لا نحذق هذا النوع من الشتائم لا ابتداءً وتفصيلاً ولا تقليداً وتلخيصاً ، فاننا سنترك اليسوعيين أنفسهم يتكلمون بلغتهم .

في بيروت مجلة تصدر عند الحاجة الى التفرقة الدينية ، هي مجلة « الشراع » ، وهي ، كما يقول أصحابها على الصفحة الثانية من غلافها : جريدة يومية سياسية دينية جامعة تصدر موقتاً اسبوعياً . ثم هي لسان حال الكثلكة وروسائها في الشرق ، صاحبها ومديرها العام الخوري انطون قرطباوي ، ويشرف على سياستها الرئيس الفرد نقاش أحد روساء الجمهورية اللبنانية السابقين ، ورئيس التحرير فيها أنطوان نعيمة .

هذه المجلة يصدرها اليسوعيون ، وهي تتكلم بلسانهم وتحت اشرافهم على الأقل ، وقد قالت لمناسبة حيلولة الحكومة السورية بين اليسوعيين وبين الطلاب الابتدائيين ، ثم بينهم وبين عامة الشعب في بلاد العلويين ما يلي (٢) « والرجاء التنبه الى النقط والفواصل » .

---

(١) راجع تقارير عن أحوال المعارف في سورية خلال سنة ١٩٤٥ ، وضعها ساطع الحصري (دمشق ١٩٤٦) ص ٦٩ وما بعدها .
(٢) الشراع (بيروت) السنة الأولى ، العدد ٣٦ ، الأحد ٢٨ تشرين الثاني ١٩٤٨ ، ص ٢١

« أما في بلاد العلويين فاننا ، حتى الساعة ، لم ندرك الأسباب التي تخول أولياء الأمر في سورية ، الشقيقة العزيزة ، على أن ينظروا الى الرسالة الكاثوليكية نظرهم الى مؤسسة غير مرغوب فيها ، وعلى أن يعاملوا القائمين والقائمات بها معاملة أعداء الوطن السوري .

ماذا طلبت الحكومة السورية من أرباب هذه الرسالة في الحقل الوطني يرتاح اليه الضمير المسيحي ولم يتموه ؟ (لاحظ الشرط : يرتاح اليه .. الخ) فلماذا اذن هذه المعاملة الخشنة بل الهمجية (كذا) تعامل بها بنات عذارى (أي الراهبات) لا همّ لهن الا أن يعلمن ويثقفن ويرقين صغار العلويين ؟ ما الذي خول الجنود السوريين أن يدخلوا بيت الراهبات وهم شاكون السلاح ويتهددوهن بكلام فظ ويجرّوهنّ الى السجون ؟ أية جريمة ضد الوطن ارتكبتها هؤلاء العذارى الحييات حتى يُروعن بمثل ما روّعن في المدة الأخيرة ؟ أهكذا كان الجدود العرب يعاملون النساء المحصنات ،ألا نظرة الى تاريخكم ، ايها الاخوان السوريون ! أين الشهامة العربية وأين النبالة التي تتغنّون بها ؟ كنا ظننا في بادىء الأمر أن ليس لهذه المعاملة صفة رسمية بل هي من عند أشخاص الحكومة المحلية من ادارية وعسكرية راموا من ورائها أن يظهروا بمظهر الغيرة على وطنهم واهمين انهم بذلك يرضون رؤساءهم ؟ فخاب الآن ظننا بعد أن رشح الينا من مصدر يوثق بصدقه أن هؤلاء يتلقون أوامر صريحة من علُ : من وزارة الداخلية السورية ، فهالنا الأمر وجئنا نسأل الداخلية السورية باسم الدستور السوري الذي يضمن حرية الفكر والقول والعقيدة لمَ المخالفة للدستور ؟

لقد نادى رجال الحكم فيسورية بأن ليس في سورية أكثرية وأقلية ، بل أن سورية هي للسوريين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ! فلمَ تُكذّب الأقوال بالأعمال ولمَ يستخف بنصوص الدستور بدون حياء ؟

أهذا هو الوقت الموافق لمثل هذه الأفعال الجائرة تنزل بقوم عزّل وبعذارى وديعات ؟ بمثل هذا التصرف تجمع القلوب وينشد الاخاء ؟ اننا عالمون بالنيات المبيتة .والوقائع شاهدة .

فهناك ضغط وتهديد واغراء لحمل بعض العلويين على أن يغيروا معتقدهم ...

وسنعني في أجزائنا الآتية بتفصيل ذلك لنطلع القراء على الطريقة التي يستخدمها أرباب الحكم السوريون في تطبيق دستورهم وننبه الرأي العام الى الكذب السياسي الذي يموهون به عليـه .

لقد روجعت الحكومة المحلية في بلاد العلويين وروجعت وزارة الداخلية بأمر هذه الإعتداءات فكان في الأجوبة إبهام ، وكان فيها مراوغة وكان فيها تنصل من التبعات فجئنا

اليوم نستصرخ عدالة فخامة السوري الأول شكري بك القوتلي الذي نكنّ له كل احترام وتقدير وإجلال . فمن فخامته ننتظر أن يضع حداً لكل هذه الأمور المستهجنة المنافية للدستور ولروح فخامته الديمقراطية والمناقضة لما عرف به وعنه من تعشق للحرية وحب لرعاياه ، لجميع رعاياه . ففي كلمة فخامته الفصل بيننا وبين الحكومة السورية قبل أن نقدم على ما عزمنا عليه من تبيان وشرح لكل ما لدينا من وقائع ومستندات تثبت الظلم والجور اللذين عوملت بهما رسالتنا الكاثوليكية في بلاد العلويين »(١) .

•

على أن المعاهدة التي ألغيت في الجمهورية السورية ونسخت قولاً وعملاً لا تزال مع الأسف نافذة في لبنان . وقد سألنا شخصياً عن ذلك ، فاذا وزارة الخارجية اللبنانية تقول بأن المعاهدة موجودة من زمن وانها صحيحة . فلما أجبنا أن نعرف اذاكانت هذه المعاهدة التبشيرية قد ألغيت في لبنان كما ألغيت في الجمهورية السورية كان الجواب : « لا نعلم » ، مع اننا كنا ، يوم سألنا هذا السؤال ، على خطوات من المستندات المحفوظه .

«١» ان هذا العدد من مجلة الشراع قد وزع ، مع اعداد اخرى من هذه المجلة ، على اعضاء الوفود المختلفة الى المؤتمر الثالث لمنظمة الاونسكو الذي انعقد في بيروت ١٩٤٨ . ولقد وزعه مكتب المطبوعات المذكور مع الوثائق الرسمية والدعوات التي كانت توزع يومياً على الأعضاء .

الفصل السابع

السياسة طريق التبشير

(٤) الحياة القومية والاقتصادية
الدعوات الأقليمية والصهيونية

•

لم يكتف الأجانب بالنزول في الشرق واستغلال خيراته واحتلال مواقعه الحربية وبالتصرف في مناصبه ووظائفه كما تملي عليهم مصالحهم هم وكما يريد هواهم ، بل انهم أرادوا ان يضمنوا مستقبلهم فيه وأن يحولوا دون كل تنبّه ويقظة في المستقبل . ولذلك عزموا على أن يفسدوا حياة الشرق القومية والاقتصادية ويفككوا عرى وحدته الوطنية ويخمدوا جذوته الروحية حتى يصبح الشرق بين أرجلهم أشلاءً لا تستطيع حراكا .

ولقد استعانت الدول الأجنبية على ذلك في الشرق بالرهبان السود (اليسوعيين) وخلق الحركات الشعوبية كالفرعونية والأشورية ، ثم باليهود والصهيونية .

حذار اليسوعيين

ان البلاد الشرقية يجب أن تتبصر وتحذر الآباء اليسوعيين خاصة ، فانهم لا يألون جهداً في التدخل في السياسة المحلية وحبك المؤامرات (١) حتى أن البابا نفسه قد غضب عليهم عليهم مرات كثيرة من جراء ما جروه من الفساد وأحدثوه من القلاقل السياسية (٢) .

ولقد فطنت الدول الغربية كلها الى دسائس اليسوعيين ومضارهم فأخرجتهم حكومة البرتغال من بلادها ومن مستعمراتها عام ١٧٥٧ . ثم انهم طردوا من فرنسة عام ١٧٦٥ وعام ١٧٦٧ ، ومن اسبانية عام ١٧٦٧ أيضاً . وكان قد بقي في فرنسة نفر من اليسوعيين

(1) Enc. Br. xv, 345 c, d.
(2) ibid. 445. f.

باسم رهبان القلب الأقدس ، ولكن نابليون أخرجهم منها عام ١٨٠٤ . ولما تكاثر اليسوعيون في أوروبة عادت فرنسة فطردتهم عام ١٨٨٠ وعام ١٩٠١ . وكذلك عادت اسبانية أيضاً فطردتهم عام ١٨٢٠ . ثم أخرجتهم نهائياً عام ١٨٣٥ . وكذلك عادت البرتغال الى طردهم عام ١٨٣٤ . ولقد قضت الروسية سبع سنوات ، من عام ١٨١٣ الى عام ١٨٢٠ ، حتى استطاعت إخراجهم من جميع أنحاء بلادها .

وكذلك فعلت هولندة وسويسرة وألمانية في الأعوام ١٨١٦ و ١٨٤٨ و ١٨٧٢ على التوالي (١) .

ولم يكتف اليسوعيون بافساد السياسة ، بل عملوا على اضعاف الحياة الاقتصادية العامة جراً لمنفعتهم هم ، فان تاجراً يسوعياً يدعى لافالت (٢) كان في المارتنيك ، من جزائر الهند الغربية ، فأفلس على مليونين ونصف مليون من الفرنكات الذهب . وهكذا جر الخراب على بيوت تجارية شهيرة (٣) .

فعسى أن يستفيد العرب والمسلمون من هذا الاختبار المر الذي لقيه العالم المسيحي نفسه على أيدي اليسوعيين .

الحروب والتبشير

والحروب تؤثر في كل شيء تقريباً ، وتؤثر في الأديان أيضاً . ولقد زعم نفر من المبشرين أن الحرب العالمية دلت انه ما من ديانة تستطيع أن تنقذ العالم إلا النصرانية . إن هذا يوجب على المبشرين النصارى أن يضطلعوا بتبعات عظيمة (٤) . لقد قالوا ذلك فتاً في عضُد أهل الشرق وإيحاءً لهم بعنصر النقص ، وتزييناً للمدنية الغربية التي أرادوا أن يخضعوا الشرق بها توصلاً الى استعماره .

على أن هؤلاء مخطئون ، فان الحرب العالمية الأولى قد أعلنت فيما أعلنته اندحار ألمانية والنمسة وهما دولتان مسيحيتان ، وأعلنت نصر اليابان وهي دولة غير مسيحية . ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فأعلنت انهزام ألمانية وهي مسيحية وانتصار الروسية وهي دولة لا دينية . أضف الى هذا كله أن الدول المسيحية التي اتفق لها أن انتصرت في الحربين لم تنتصر

(1) ibid 345 ff.
(2) Lavalette.
(3) Enc. Br. xv 345.
(4) Missionary Outlook 51.

بالمبادىء المسيحية التي بشر بها المسيح ليصح لها أن تدعي أن المسيحية عامل من عوامل النصر في الحروب .

ومع ان هؤلاء المبشروين يرون أن الاسلام قد تجلى منذ مطلع القرن العشرين قوياً في مظاهر مختلفة ، منها انتشاره الواسع في افريقية وفي حركة الوحدة الاسلامية قبل الحرب العالمية الأولى ، ثم قيام المملكة الحجازية ، فانه قد تبدى لهم ضعيفاً في خيبة الجهاد الذي أعلنه ملوك المسلمين في الحرب العالمية الأولى وفي إلغاء الخلافة في تركية (١) .

وهكذا نجد أن ثمت اتجاهاً واسعاً في الغرب لتفسير كل شيء على أساس ديني ، وعلى أساس ديني معاد للاسلام ، بعيد عن العلم كل البعد ، حتى في وضع المبادىء العلمية ، أو التي يدّعون انها علمية .

التعاون بين التبشير والسياسة

كانت السياسة الأستعمارية تلجأ الى كل وسيلة لخدمة مآربها . ولقد استغلت ، فيما استغلته ، رجال الدين الوطنيين في بلاد الشرق والأجانب الطارئين على الشرق . وقد يكون ثمت دولة علمانية كفرنسة تقاوم الدين والجماعات الدينية في بلادها ثم تشجع هذه الجماعات وتساعدها في الخارج .

بعد انتشار الاسلام في الشرق أصبحت الكنائس النصرانية قليلة منثورة كأنها جزر صغار في بحر متسع الأكناف . وكانت هذه الكنائس على قلتها أيضاً متعادية متخاصمة (٢) لا سبيل الى تعاونها في حقل من الحقول . حتى انها كانت تستعمل في صلواتها وفي تخاطبها لغات مختلفة كالعربية والسريانية واليونانية . ومع الأيام بدأ هذا السوء يزداد ثم تبعه انحطاط أخلاقي واقتصادي وعلمي في الكنائس والأديرة على السواء ، حتى بعد أن تصرّم الربع الأول من القرن التاسع عشر . ففي عام ١٨٢١ كان مائة وثمانون قسيساً أرثوذكسياً في القدس ليس فيهم سوى عشرة فقط على شيء ما من التثقيف اللاهوتي (الديني) (٣) . وكان أولَ ما فكر فيه المبشرون إصلاحُ هذه الكنائس المختلفة من الداخل ليستطيعوا

(1) ibid 65 - 6.
(2) Gairdner 276 .
(3) Richter 63 . f.

أن يستعينوا بها في آخر الأمر على التبشير بين المسلمين أنفسهم (١) . من أجل ذلك شعر البروتستانت مثلاً بأن جهودهم يجب أن تنصرف أولاً الى التبشير بين أتباع الكنائس الشرقية (الأرثوذكسية) (٢) . وعلى هذا نرى ان البروتستانت لما نزلوا في سورية ولبنان استمالوا، أول ما استمالوا ، نفراً من الأرثوذكس وخصوصاً من أبناء ضهور الشوير وأبناء الكورة وبعض أبناء فلسطين .

إلا ان تعرّض البروتستانت للتبشير بين الأرثوذكس خاصة وبين الكاثوليك قليلاً لم يمر بسلام. إن العداوة سرعان ما نشبت بين المبشرين البروتستانت وبين الكنيسة الكاثوليكية التي كانت هي أيضاً تود أن ترد الخراف الضالة الى حظيرتها (٣) . أضف الى ذلك أن الكنيسة الارثوذكسية وقفت من البروتستانت موقف الدفاع عن النفس حينما رأت اتباعها يتهالكون على المنافع الدنيوية التي كان البروتستانت الأميركيون على الأخص يلوحون بها أمام العيون . وهكذا استحكم الخلاف بين البروتستانت وبين الأرثوذكس والكاثوليك أيضاً (٣) .

ولكن سرعان ما تذكرت الدول الأجنبية انها لم تأت للتبشير حتى تختلف على نتائجه . انها جاءت للسيطرة السياسية ، وما التبشير سوى وسيلة الى هذه الغاية . فليس من الحكمة اذن أن تنسى غايتها وتتنازع على الوسيلة . وهكذا قال جسب : يجب ألا يكون ثمة نعوت مثل هذه : اميركي ، انكليزي ، اسكوتلندي او الماني ، تنعت اعمالنا التي نقوم بها في سبيل (المسيح) . ان الخصم المشترك متحد في مقاومتنا .. فليكن اسمنا « نصارى » (٥) . وعلى هذا الأساس من التفاهم بدأت الدول الأجنبية تقتسم مناطق النفوذ في الشرق ثم تقذف فيها بمبشريها ليشقوا لها الطرق الى الاستعمار .

لما عقد المبشرون مؤتمر لنكاو (الهند) عام ١٩١١ ، أخذوا يدرسون الأحوال السياسية في العالم الاسلامي . فلما وجدوا ان هذه الأحوال على شيء من الاضطراب قال أحدهم زويمر : ان الانقسام السياسي الحاضر في العالم الاسلامي دليل بالغ على عمل يد الله في التاريخ واستثارة للديانة المسيحية (لكي تقوم بعمل) ، إذ أن ذلك يشير الى كثرة الأبواب التي أصبحت مفتحة في العالم الاسلامي على مصاريعها . ان ثلاثة أرباع العالم الاسلامي يجب أن

(1) Gairdner 277 .
(2) Richter 66 .
(٣) تعيد الذين تركوا الكاثوليكية الى الكاثوليكية ثانية .
(4) cf. Richter 67 - 80 .
(5) Jessup 229 .

تعتبر الآن سهلة الاقتحام على الارساليات التبشيرية . إن في الأمبراطورية العثمانية اليوم وفي غربي شبه جزيرة العرب وفي ايران والتركستان والأفغان وطرابلس الغرب ومراكش سدوداً في وجه التبشير ، ولكن هنالك مائة وأربعين مليوناً من المسلمين في الهند وجاوة والصين ومصر وتونس والجزائر يمكن أن يصل اليهم التبشير المسيحي بشيء من السهولة (١) .

ولا يخفي المبشرون نياتهم الحقيقية ، فقد قال جسب (٢) : من العناية الالهية العظيمة ان المطبعة الاميركية والمدارس الاميركية في سورية كانت وسيلة لاعداد رجال ونساء كثار ليكونوا مواطنين اميركيين . اما انكلترة التي كانت دائماً تريد الاحتفاظ بقناة السويس لأنها طريق الامبراطورية البريطانية الى الهند واسترالية والصين (٣) ، فقد توسلت الى تثبيت نفوذها برجال الدين من قومها . من ذلك انها عهدت الى القسيس روبسون ، وهو من الارسالية المشيخية الايرلندية (٤) ، بأن يثقف ابني سعيد بك جنبلاط (احد رجال الاقطاع الكبار من الدروز في لبنان) على نفقتها ، وعدت ذلك ضماناً لجعل الدروز في المستقبل اكثر هدوءاً نحوها (٥) .

وكانت ايطالية ترمي الى بلوغ أغراض سياسية في الشرق فزرعت البلاد بمدارس دينية مع انها كانت قد صادرت أموال الأديرة في ايطالية نفسها (٦) . وكذلك فعلت الروسية حتى استطاعت هي أيضاً أن تنفذ الى الامبراطورية العثمانية المتداعية الأركان (٧) .

على أن أكثر الدول الأوروبية نشاطاً تبشيرياً سياسياً في سورية ولبنان خاصة كانت فرنسة ، فرنسة التي كانت تطرد الرهبان من أرضها ثم تحتضنهم في الخارج ليحققوا لها شهواتها الاستعمارية (٨) .

واعتقدت فرنسة أن اللغة هي التي توجه الثقافة ، ولذلك أنفقت على مدارسها وعلى المدارس التي تعلم اللغة الافرنسية بسخاء (٩) . ولم يضع اليسوعيون خاصة هذه الفرصة فوضعوا مدارسهم رهن الدعاية لفرنسة . لقد أخذوا على عاتقهم أن يحببوا الانتداب الى

---

(1) cf Islam and Missions 22 .
(2) Jessup 756 .
(3) ibid 748 .
(4) Irish Presbyterian Mission .
(5) Jessup 267 .
(6) Richter 226 ; Jessnp 680 etc.
(7) Richter 226 . f.
(8) ibid 226.
(9) ibid 25 .

النفوس وأن يجمعوا السكان المتنابذين على فرنسة بواسطة الدين الكاثوليكي (١) . واليسوعيون يفاخرون بهذا ، فقد قالوا ان قسماً كبيراً من نشر الآراء المدنة المستمدة من العالم المسيحي والفرنسي يعود الفضل فيه الى ارساليتهم . وان فرنسة مدينة لهم بالمكانة التي تمثلها اليوم (أي عام ١٩٣١) في سورية (٢) (ولبنان) .

لقد اتصل نفوذ فرنسة في سورية بأسوأ أنواع المكائد اليسوعية (٣) . حتى العلم ، لقد سخره اليسوعيون في سبيل فرنسة بالباطل وبالحق الذي يراد به الباطل . ويقول اليسوعيون ان مدرسة الهندسة في بيروت الفرنسية قد استمرت في اداء ما أخذته على عاتقها ، فانها استطاعت أن تساهم في رسالة فرنسة الممدنة (٤) . وما يقال عن مدرسة الهندسة يقال عن مدرسة الطب . يقول اليسوعيون ان دارس الطب بالفرنسية يحتاج الى اتقان اللغة الفرنسية ، ثم هو يصف الأدوية الفرنسية ويقرأ الكتب والمجلات الفرنسية ثم يذهب للتخصص في فرنسة (٥) . وكلية الطب والصيدلية الفرنسية مؤسسة يسوعية ، ولكنها ليست مؤسسة حرة بمعنى انها تعتمد في ميزانيتها على دخلها الخاص ، بل ان رئيسها وأساتذتها يتناولون راتباً من حساب وزارة الخارجية الفرنسية (٦) .

وبعد هذا كله يستغرب رشتر (٧) لماذا كان الأتراك يسيئون معاملة النصارى اذا لجأوا الى الاستعانة بدولة غربية .

ان الاتراك لم يسيئوا معاملة النصارى . ولكن عاقبوا المتصلين بالدول الأجنبية — كما تفعل كل دولة أخرى — سواء كان هؤلاء من النصارى أو من المسلمين — وليس أدل على ذلك من أن الأتراك قد شنقوا عام ١٩١٦ شباباً من العرب النصارى والمسلمين على السواء

*

وفي تموز من عام ١٩٠٨ أعلنت الحرية العثمانية ، وكان اعلان الحرية في تاريخ الامبراطورية العثمانية يوازي الثورة الفرنسية في تاريخ فرنسة . ومع ذلك فان المبشرين لم يهتموا بهذا الحادث العظيم الا بمقدار ما سيخدم غاياتهم التبشيرية ويسهل عليهم النفوذ الى

---

(1) Les Jesuites en Syrie 10 : 36 .
(2) ibid . 6 : 70 .
(3) cf. Jessup 656 .
(4) Les Jesuites en Syrie 4 : 32 .
(5) ibid . 2 : 41 .
(6) ibid , 2 ; 31 .
(7) Richter 62 .

أرجاء الامبراطورية . لقد فرحوا على الأخص لأن سورية ولبنان سيُفتحان في وجه المبشرين البروتستانت (١) .

الحركة القومية في الامبراطورية العثمانية

وبعد اعلان الحرية عام ١٩٠٨ اتسعت الحركة القومية في الامبراطورية العثمانية . وبما ان الديانة المسيحية كديانة تبشيرية مناقضة للقومية ، فان التبشير لم يرض أن يوقظ الروح القومية ولا أن يخمدها اذا رآها يتيقظ ، ولكنه أراد أن يحولها الى خدمة أهدافه . كذلك لم يجبن المبشرون أمام الأممية أيضاً ، بل أحبوا أن يستغلوها قائلين : ان ابوة الله تشمل جميع الشعوب . وان الاخوّة تضم جميع البشر . واذا لم تكن الأممية نصرانية فيجب أن ننصرها . كل ذلك حتى يستطيع المبشرون أن ينصّروا جميع الشعوب على السواء (٢) .

وكذلك لما انتهت الحرب العالمية الأولى وأنشئت عصبة الأمم زعم المبشرون ان التبشير يساعد عصبة الأمم ويحقق أهدافها (٣) . ولكن عصبة الأمم ماتت ثم خابت أهدافها .

كل هذا يدلنا بوضوح على أن التبشير كان يرمي الى استعمار الشرق ، حتى قال رشتر ان اساس الاستعمار مسيحي. ثم إنه فتح فاه قائلاً : لقد مر زمن كان الملوك المغــول (المسلمون) في عاصمتهم دلهي يحكمون الهند ما بين جبال حملايا الى رأس كورمورين .. ولكن منذ زمن بعيد حنى آخر مهراجا (سلطان) عنقه المتكبرة امام بريطانية المسيحية (٤) .

والمبشرون لم يتخذوا موقفاً صريحاً من القومية ، شأنهم في كل أمر . ولكنهم كانوا يودون أن تبقى الأمور غامضة وعلى شيء من الفوضى حتى يتمكنوا من القيام بالتبشير ثم يربطوا الصابئين الى مذهبهم الى عجلة الأمة التي يخدمون أهدافها .

فالروم الأرثوذكس مثلاً كانوا يعتقدون ان انتشار البروتستانتية بينهم يضعف وحدتهم ويفقدهم كثيراً من الشعور القومي الذي يربطهم بأبناء الكنائس الشرقية . ولكن رشتر يذكر ثلاثة اعتراضات على هذا الخوف ، كلها – اذا نظرنا اليها نظرة فاحصة – خاطئة ، ولكنها في الحقيقة موافقة لهوى المبشرين . يقول رشتر (٥) : إن القومية خطر على الحياة

(1) cf. Richter 78 f , 229 : Islam aud Missisns 127- 162 .
(2) cf. Missionary Outlook 3,5, 7,39 ff. 43 ff .
(3) ibid 71 ff. .
(4) Richter 22.
(5) ibid 76-60 .

الكنسية . ثم يعود فيقول ان البروتستانتية لا تعارض القومية . ثم يذكر أيضاً ان الدولة العثمانية تخاف انتشار الروح القومي بين رعاياها . أما ما يريده رشتر فهو أن يتحلّل الرومَ الأرثوذكس – في هذا المقام – من تضامنهم مع أبناء الكنائس الشرقية الأخرى حتى يجتذبهم هو الى البروتستانتية .

والمبشرون عند البحث في القومية أبعد الناس عن التصريح بما يعرفون من حقائق القومية وصلتها بالدين . لاشك أبداً في أن الدين عنصر من العناصر التي تتضافر مجتمعة حتى تخلق القومية . ان البروتستانتية جزء لا يتجزأ من القومية الهولندية والانكليزية ، بينما الأرثوذكسية جزء أصيل في القومية اليونانية والبلغارية . ومن ذا الذي يستطيع أن ينكر ان الاسلام كان ولا يزال جزءاً أساسياً في القومية التركية والايرانية والأفغانية والمصرية والعراقية ، بل من ذا الذي يستطيع أن ينكر أن النزاع الداخلي في عدد من بلدان الشرق ، وإن كان قومياً في ظاهره ، هو في الحقيقة نزاع بين المثل الدينية العليا . هنالك في لبنان مثلاً تياران عظيمان : تيار يرى أهله أن يقيموا حول لبنان سداً يحول بينهم وبين العالم العربي ، على شرط أن يظل تحت هذا السور دهليز يصل بين لبنان وبين الدول الكاثوليكية عامة وفرنسة خاصة . ثم هنالك تيار يرى أصحابه أن هذا السور حول لبنان ليس ضرورياً اذ لا حاجة بهم اليه ، وانما هم محتاجون الى أن يتوسلوا بكل سبيل لمنع عودة الأستعمار الأجنبي بكل أنواعه الى لبنان . ان لهذين الشعورين جذوراً كثيرة ، بعضها بلا ريب مغروس في العاطفة الدينية الموروثة ، بقطع النظر عن اختلاف نظر الأديان الى القومية وحقيقتها .

من أجل ذلك نرى أن تركية كانت على حق في التضييق على المبشرين ، ذلك لأن تعدد المذاهب الدينية المتخاصمة في البلد الواحد يضعف ذلك البلد قومياً (١) ، لأنه يشعّب فيه المسالك السياسية والقومية . ان النفوذ الإفرنسي يسير دائماً في ركاب التبشير الكاثوليكي ، وان النفوذ الأنكلو اميركي يتبع خطى التبشير البروتستانتي . أما النفوذ الروسي فكان يحتمي برجال الدين الأرثوذكس . فعلى الأمم والشعوب التي ترغب في صيانة حقيقتها القومية أو الوطنية أن تحول بين أبنائها وبين المبشرين ، سواء أكان هؤلاء المبشرون رجال دين فحسب أم كانوا في الحقيقة ستاراً يتسلل خلفه الاستعمار .

والمبشرون يقاومون القومية لسبب آخر . ان القومية في ظاهرها على الأقل حركة غير دينية (٢) ، فالرجل القومي قليل الاحتفال بالمؤثرات الدينية قليل الانجذاب نحو الأحوال

(1) cf. Addison 107 .
(2) Miligan 64 f .

المذهبية . فإيمان الشعوب بالحقيقة القومية اذن يصرفها عن إلقاء السمع الى المبشرين .

التبشير والوطنية

ولقد خشي المبشرون النهضة الوطنية في مصر لأن القومية المصرية اسلامية في حقيقتها . ويغمط هؤلاء المبشرون مصرَ والمصريين حقوقهم ويخالفون الواقع بقولهم ان الوطنية المصرية قد نشأت لأن الانكليز كانوا يحابون المسلمين في معاملتهم فأشعل ذلك حب الاستقلال في صدورهم (١) .

وان أيسر نظرة في التاريخ تدل على أن الانكليز لم يعاملوا المسلمين في مصر معاملة تتفق مع كرامة الشعوب ، حتى قال حافظ ابراهيم عن ذلك في مصر :

اذا شئت ان تلقى السعادة بينهم   فلا تك مصرياً ولا تك مسلماً .

فاليوناني والأرمني واليهودي الغرباء كانوا يتمتعون في مصر بأعظم مما يتمتع به المصري المسلم . وأما أن الوطنية المصرية نتاج محاسنة الانكليز للمصريين فخلاف ايضاً للواقع .

ولقد أجفل المبشرون لما سمعوا النداء الوطني « مصر للمصريين » ، فقالوا ان هذا يعني « مصر للمسلمين » . ولذلك رجا المبشر صموئيل زويمر في ذلك الحين من بريطانية أن تبدل سياستها تبديلاً أساسياً في وقت قريب وأن تعلن حياداً تاماً يُشعر مصر بقوة بريطانية وبنعمها (٢) . ومعنى ذلك عند زويمر بلا ريب « فتح مصر للتبشير بالقوة » .

ولما خاب المبشرون في وقف تيار القومية الصحيحة عمدوا في كل بلد الى أقلية غير مسلمة في الأكثر وحاولوا أن يضموا اليها أحياناً نفراً بارزاً من المسلمين ، كما اتفق لهم في مصر فقط ، ليلفقوا لأهل كل قطر مسلم قومية وهمية جديدة . لقد أرادوا أن يبعثوا « الفرعونية » من خلال حجارة الأهرام في مصر ، و « الفينيقية » من خرائب الساحل الممتد من يافا الى اللاذقية على الشاطيء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط . ثم انهم لفقوا في العراق دعوة أشورية لم يكتب لها أن تولد حية (٣) .

ان كل ما أراده المبشر جسب هو أن تولد « فينيقية » جديدة تكون فيها النصرانية أوسع انتشاراً . ولقد أكد جسب أن المدارس التبشيرية والصحافة شبة التبشيرية والكنيسة ستتضافر

(1) Islam and Missions 25.
(2) ibid 25 f.
(٣) راجع ص ١٩٣ وما بعدها .

كلها على تحقيق هذا الهدف (١) . ولكن الفينيقية لم تستطع أن ترى النور في سورية . واذا كانت قد غذيت في لبنان طول عهد الانتداب ، فانها ماتت على عتبة الاستقلال اللبناني . هذا مع العلم بأن جماعة من اللبنانيين ما يزالون يتغنون بها .

ولا أحب أن أتوسع في تاريخ « الحركة الفرعونية » في مصر لأنها تختلف في أساسها عن الحركة الفينيقية في لبنان في عهد الانتداب . أما « الحركة الأشورية » في العراق فقد كانت أقل المحاولات القومية المفرقة حظاً من النجاح . ولقد قضي عليها وعلى أتباعها في معركة واحدة كما مر معنا من قبل في هذا الفصل من هذا الكتاب . وأما الحركة البربرية في المغرب فلم يستجب لها أحد من أهل البلاد ، بل بقيت غصة في حلوق المبشرين والمستعمرين إذ قاومها أهل تونس وأهل الجزائر وأهل مراكش بلا استثناء .

ولما لم تنتصر هذه الدعوات الاقليمية الضيقة وقع الاستعمار على فكرة العروبة وألبسها ثوباً جديداً . لقد أريد من « العروبة » أن تكون رابطة قومية مناقضة « للاسلام » : سياسة العروبة لا صلة لها بالاسلام ، والمسلمون من غير العرب لا صلة لهم بالعروبة . ومما يؤسف له أن نفراً من الشبان العرب قد اعتنقوا فكرة العروبة المجردة من الاسلام ، ثم أخذوا وهم يدعون للعروبة يقاومون الحركات الاسلامية .

(1) Jessup 597 .

الفصل الثامن

•

التبشير والحركـات القومية

جميع الحركات القومية التي قامت في البلاد العربية اتسمت في أول أمرها بميل بارز الى التسامح الديني . ثم ان هذا التسامح بدأ يتطور حتى انتهى في ايامنا هذه ميلاً ظاهراً عن الدين ، ثم ظهر بوضوح ان هذه الحركات القومية ترمي الى اضعاف الشعور الاسلامي خاصة بين البلاد الاسلامية ، والى قصر الصلات بين بلادنا على العنصر القومي وحده . فالصلة بين سورية ولبنان ومصر والجزائر ومراكش تقوم ، في رأي الأحزاب العربية القومية ، على « العروبة » ، أو على اللغة العربية وعلى شيء من التاريخ العربي مجرّداً من كل صلة له بالاسلام . اما تركية وايران وباكستان وأندونيسية فهي عندهم كالأرجنتين والمكسيك وهنغارية والدنمرك وانكلترة وفرنسة سواء بسواء . وبعض الأحزاب القومية أو الوطنية كالحزب القومي السوري وحزب الكتائب اللبنانية تنظر الى اليمن ومصر وتونس كما تنظر الى اسوج ونروج وفنلندة . أما البرازيل والولايات المتحدة وفرنسة نفسها فهي أقرب الى هذين الحزبين من اليمن وطرابلس الغرب لكثرة المهاجرين واتساع المصالح الاقتصادية بين سورية ولبنان وبين البرازيل والولايات المتحدة وفرنسة والمناطق التي تستعمرها فرنسة ، بينما هذه الصلات مع اليمن وطرابلس الغرب قليلة وضعيفة جداً .

ولقد كان نفر من أركان الأحزاب القومية ، ومن أتباع تلك الأحزاب ، يعلنون انهم لا يقفون من الاسلام موقفاً غير ودّي حتى كان مهرجان الجزائر في بيروت في مساء السابع من أيار عام ١٩٥٦ ، في باحة كلية المقاصد الاسلامية في الحرج ، فاذا سلوك النظارة من اتباع الأحزاب القومية لم يكن ودياً تجاه الاسلام قط . بدأ المهرجان بكلمة للدكتور جورج طعمة ، من أساتذة الجامعة الاميركية في بيروت ، فكانت كلمة طيبة في جهاد « الجزائر

العربية » وفي فظائع الافرنسيين في الجزائر . ولقد كان من المعقول ، ومن المنتظر أيضاً ، أن يؤكد الدكتور جورج طعمة جانب العروبة من الجزائر لأن الجزائر قطر عربي ولأنـــه هو مستشار للنادي العربي في بيروت . ومع ذلك فان جماعة من المنتمين الى حزب البعث العربي الاشتراكي قد أفسدوا عليه كلامه بهتافهم المتواصل : « الجزائر عربية » ، « جهاد الجزائر جهاد العرب » ، مما لفت انتباه السامعين الى هؤلاء الهاتفين — وقد جاءوا الى المهرجان وهم عارفون بالتيارات المختلفة في هذا البلد ومعدّون للأمر عدته — يريدون أن يوجهوا الأنظار الى الجانب العربي من قضية الجزائر وأن يلفتوا الأفكار عن الجانب الديني الاسلامي . ولقد ظن هؤلاء أن هتافهم هذا يتفق مع الخطاب الذي كان يلقى . وازداد هتافهم حتى كاد يحدث بلبلة ، أو هو أحدث البلبلة فعلاً ، حتى أن عدداً من القوميين العرب — وهم غير البعثيين ومن الذين يخالفون البعثيين في بعض آرائهم — قد طلبوا من هؤلاء الهاتفين أن يهدأوا ، فقد كان القوميون العرب هم المشرفين على المهرجان عملياً . وبلغت الحدة في أحد القوميين العرب مبلغاً حمله على أن يصعد الى المنبر وأن يخاطب الهاتفين بلهجة جافية ويخيّرهم بين أن يسكتوا وبين أن يغادروا المكان . وكذلك توقف الدكتور جورج طعمة مرات ليرجوّ الهاتفين ، تلميحاً وتصريحاً ، ويطلب اليهم أن يسكتوا قليلاً حتى يتمكن من متابعة كلامه فلم يوفق .

وتكلم بعد الدكتور جورج طعمة الأستاذ عمر الحكيم ، أحد أساتذة الجغرافية في كلية الآداب من الجامعة السورية بدمشق . والأستاذ عمر الحكيم يعرف الجزائر ، وقد كان فيها في الثامن من أيار عام ١٩٤٥ وشاهد بأم عينه جانباً من المذابح البربرية التي قام بها الافرنسيون في ذلك اليوم . ومن أجل تلك المذابح في ذلك اليوم جعل « الثامن من أيار » من كل عام يوماً للجزائر تقام فيه الاجتماعات للكلام على فظائع الافرنسيين في تلك البقعة من وطننا وعلى تطور اليقظة فيها وعلى جهادها وبطولتها . ثم ان الاستاذ عمر الحكيم يدرّس جغرافية المغرب (شمالي افريقية) في الجامعة السورية .

ولقد كان من المنتظر ، ومن المعقول أيضاً ، أن يتكلم عمر الحكيم عن الجزائر العربية المسلمة ، فالجزائر بلاد عربية واسلامية في وقت واحد . ثم انه هو شاب مسلم . وتكلم عمر الحكيم فملك الموقف بروحه الوثابة وبعلمه الغزير وباحاطته بالموضوع الذي يعالجه . ولكن الحمية القومية عادت الى الهاتفين فاستأنفوا هتافهم للجزائر العربية يتتبّعون به كلامه عن الجزائر العربية المسلمة . وأدرك عمر الحكيم ، كما أدركنا نحن ، ما يقصد أولئك الهاتفون ، فكان ، كلما هتفوا هتافهم ذلك عاد هو في كلامه فأكّد الجانب الاسلامي من

جهاد الجزائر حتى انتهى مما يريد قوله .

هذه المتافات كشفت لنا في تلك الليلة عن ناحية خطيرة من الحياة الحزبية في بلادنا . ان الذين يذهبون مذهب القومية في الحياة السياسية من العرب يسقطون الدين من حسابهم كثيراً أو قليلاً . ان بعض القوميين لا يرون في الدين مقوّماً من مقومات الحياة السياسية ، بينما بعضهم الآخر يخاصمون الدين مخاصمة شديدة . والمقصود بالدين هنا الاسلام . وحجة هؤلاء القوميين ان البلاد العربية تضم مذاهب وأدياناً مختلفة ، ففيها مسلمون ونصارى ويهود .

من أجل ذلك يقتضي للتعايش السياسي في البلاد العربية ألا يكون العنصر الديني في الحياة العامة بارزاً . على أن هذا شيء ونصب العداء للاسلام شيء آخر . وكذلك الدعوة القومية شيء ، بينما الانكار على غير القوميين أن يكون لهم رأي في الأمور العامة شيء آخر أيضاً .

هذا من الناحية النظرية . أما من الناحية العملية فان العنصر الديني في جهاد الجزائر الحالي بارز جداً . ولقد أعلن غي موليه ، رئيس الوزارة الفرنسية ، بأن الحركة الاسلامية التي تتسع في افريقيا هي التي تهدد الامبرطورية الفرنسية في المغرب . وكذلك أعلن جورج بيدو ، الذي سبق له أن تولى وزارة الخارجية الفرنسية ، انه لن يترك الهلال يتغلب على الصليب (١) . ويقول الكاتبان كوليت وفرانسيس جانسون ان الحرب الحاضرة في الجزائر ليست حرباً دينية أو جنسية أو حضارية، ولكنها حرب مجموع مظلوم يريد أن يتحرر من ربقة مجموع ظالم . الا أن الاسلام عنصر فعال في دفع الجزائريين الى طلب هذا التحرر ... لقد أيقن الجزائريون منذ الأيام الأولى للاحتلال أن هدف الفرنسيين كان القضاء على الاسلام . من أجل ذلك أدركوا جميعاً أن عليهم أن يعتصموا بالاسلام حتى يقدروا على التحرر . والواقع ان الاحتلال (الفرنسي للجزائر) كان منذ البدء يحمل هذا المعنى من « الحرب الصليبية » (٢) .

لا نرى بعد هذا أن نمضي في الاستشهاد او الاستنتاج للدلالة على أن الافرنسيين يحاربون الجزائريين كمسلمين في الدرجة الأولى . ولكن هذا لا يمنع احداً من قبول الجهود التي يبذلها القوميون في نصرة الجزائر ومن شكرهم عليها .

---

(1) L'Algérie hors de loi 267 268 .
(2) ibid, 269 .

التبشير يتعاون مع الصهيونية

واستغل المبشرون الصهيونية لأنهم كانوا يتفقون معها في عدائهم للعرب والمسلمين . ولم يصرّ المبشرون على انشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين الا لأن انشاءه يضعف العرب أضعافاً شديداً ويفتح أبواب فلسطين العربية أمام التبشير ، والا لأن فلسطين احدى نقاط الهجوم على العالم العربي الاسلامي .

*

والقوة اليهودية قوة هدامة عظيمة خافتها الامبراطوريات القديمة فأرادت القضاء عليها. وليس من ضرورة هنا لبسط موقف تلك الامبراطوريات القديمة من اليهود . ان كل قارىء عام يعرف ماكان شأن المصريين والأشوريين والكلدانيين واليونان والرومان وشأن اليهود . أما اليوم فان الاتحاد السوفياتي قد أخذ يحاول القضاء على الحركة اليهودية في مناطق نفوذه لارتكابهم أعمالاً هدامة ولقيامهم بالخيانات والتجسّس (١) وانها بؤرة للفساد (٢) .

بعد أن تشرد اليهود على أيدي الرومان تفرقوا في الأرض فنزل قسم منهم في بلاد العرب ، في اليمن وفي الحجاز حول يثرب . وعند يثرب أنشأوا لهم قرية زراعية اسمها خيبر . فلما جاء الاسلام كان هؤلاء مصدر إقلاق كبير للاسلام والمسلمين : كان منهم المنافقون الذين يدّعون انهم مسلمون ثم يكونون عيوناً وجواسيس للمشركين . وكان منهم المتجسسون الذين كانوا يعقدون الحلف تلو الحلف مع رسول الله ثم يحملون أخباره الى أعدائه وينتهزون الفرص للوثوب على الاسلام والمسلمين. وكذلك كان منهم المتآمرون الذين يجمعون أعداء الاسلام ويحثونهم على مقاتلة المسلمين ثم يمولونهم بالأموال والسلاح . وهكذا ضاق محمد صلى الله عليه وسلم باليهود ذرعاً ونظم غزوات على الأماكن التي يسكنونها فاستطاع أن يخضعهم ويضعف مقاومتهم . ونظر كثير من المستشرقين بشهواتهم وعصبياتهم وجهلهم أحياناً الى تلك الغزوات ، فكانوا يقولون بأن محمداً عامل اليهود معاملة خشنة قاسية (٣) . على أن هذه المعاملة لم تكن ظالمة ولا كانت ، مع عدالتها ، شديدة كمعاملة المصريين والأشوريين والرومان مثلاً ، ولا كمعاملة اليهود أنفسهم لسائر الشعوب اذا وجدوا اليها سبيلاً . وما أمر فلسطين منا ببعيد !

---

(١) راجع ما نشر في الصحف منذ اواخر عام ١٩٥٢ وما بعده .
(٢) » » » » » ٢٥ - ١ - ٦٤ وما بعد .
(3) Wismar 60 cf . 51 - 61 .

ولا ريب في أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يقاتل اليهود لأنهم يهود . إن هذا بيّن من القرآن الكريم ، فان القرآن الكريم عدّ اليهود والنصارى أهل كتاب سماوي فلم يحملهم على اعتناق الاسلام (١) ولم يَنْقُصْهم حظهم من الايمان ولا من نعم الله . قال القرآن الكريم : « يا بني اسرائيلَ ، اذكروا نِعمتيَ التي أنعمتُ عليكم وأني فضلتكم على العالمين » . وكذلك ذكر القرآن الكريم الأمم التي هي أهل كتاب سماوي بالرحمة والفوز في الآخرة ، فقال : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، مَن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢) » .

وإنما قاتل محمدٌ صلى الله عليه وسلم اليهودَ لأنهم كانوا يخونونه كلما عاهدوه ، وهذا أيضاً بيّن من القرآن الكريم :

— أو كلما عاهدوا عهداً نقضه فريق منهم ؟ (٢ : ١٠٠) .

— الذين عاهدوا منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة (٨ : ٥٦) .

— وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم . وآخرين من دونهم (أي المنافقين واليهود) لا تعلمونهم نحن نعلمهم (٨ : ٦٠) .

وتوفي الرسول (سنة ١١ هـ = عام ٦٣٢ م) واليهود كلهم لا يزالون في الحجاز مطمئنين الى أموالهم وأرضهم وعقيدتهم . فلما جاء عمر بن الخطاب (سنة ١٣هـ = عام ٦٣٤ م) أدرك أن الدولة الاسلامية لا يمكن أن ترسخ في شبه جزيرة العرب ما دام اليهود فيها يثيرون أهلها على الدولة ويفقرونها بالربا الفاحش فأمر باخراجهم . ولكن عمر لم ينتزع أموال اليهود بل ثمّنها ثم دفع لهم نصف أثمانها ، فهاجروا الى سوربة (٣) .

أما في سورية فكان اليهود يَلْقَوْنَ من الدولة البيزنطية اضطهاداً بالغاً . فلما أخذ العرب بفتح الشام (سورية) جعل اليهود يرحبون بهم استبشاراً بالنجاة من نير بيزنطية (١) .

ان العرب والمسلمين لم يضطهدوا اليهود لأنهم يهود ، بل لم يضطهدوهم في أول الأمر على الاطلاق . ولكن لما كثر اعتداء اليهود على العرب والمسلمين سراً وعلانية لم يبق بد من دفع هذا الاعتداء ، ولقد دفعه العرب بالحسنى أيضاً وبالحق . أما الذين يعرفون تاريخ

(١) السورة الثانية (البقرة) ، الآية ٤٧ و ١٢٢ راجع ٤٠ .
(٢) السورة الثانية (البقرة) ، الآية ٦٢ .
(3) cf . Wismar 98 .
(1) idid 82 .

اليهود السري في أوروبة وأميركة ، ثم شهدوا اليهود في فلسطين فانهم يعلمون ما يكنّ اليهود للعالم من الحقد وما يضمرونه له من إثارة القلاقل والافقار واضاعة الأخلاق .

*

ومنذ قرن ونصف قرن فكر المبشرون باستغلال اليهود لنشر النصرانية بينهم ولمقاومة العرب والمسلمين بهم . ففي عام ١٨٠٩ أسس الانكليز الجمعية اللندنية لنشر النصرانية بين اليهود ، ولقد كانت آمالهم عند تأسيسها عظيمة جداً ، كانوا يرون أن العمل يجب أن يبدأ بأن يساق اليهود المتفرقون في الأرض الى فلسطين . وهكذا بدأوا يشجعون اليهود على الهجرة ، وعزموا على أن يبدأ التبشير بينهم بعد ذلك مباشرة . وظن المبشرون أن الفرصة سانحة لتحقيق هذا الهدف حينما أرسل الخديوي المصريّ الثائر (١) محمدُعلي ابنَه الى الشام (سورية) واستولى على فلسطين ، ذلك لأن موقف محمدعلي من الارساليات التبشيرية كان موقف صداقة وتسامح . وهكذا انتهز المبشرون هذه الفرصة السانحة ووضعوا أساس ما دعوه «كنيسة صهيون» ، أول كنيسة بروتستانتية في الامبرطورية العثمانية . ولكن فألَ المبشرين قد خاب ، فان محمدعلي انسحب عام ١٨٤٠ من الشام ، فعاد الأتراك الى موقفهم الشديد الأول من الارساليات التبشيرية (٢) .

على ان المبشرين حاولوا مرة ثانية أن يستغلوا القضية اليهودية في سبيل أهدافهم الدينية : فقد أسس الملك فريدرك ولهلم الرابع ملك بروسية (١٨٤٠ — ١٨٦١) الأسقفية الانكليز البروسية في القدس لتكون مركزاً بروتستانتياً لأصلاح الكنائس الشرقية عامة ولتنصير اليهود خاصة(٣) . ان المبشرين كانوا جد متتنعين بأن جمع اليهود في فلسطين يسهل لهم مهمتهم في الوصول الى المسلمين . من أجل ذلك أرادوا أن يفتحوا أبواب فلسطين على مصاريعها لهجرة اليهود (٤) . فليس من المستغرب اذن أن تجد سبعاً وعشرين جمعية تبشيرية مختلفة الجنسيات كانت تعمل بلا ملل في فلسطين (٥) .

وهكذا نجد عوامل دينية مختلفة كانت ترمي الى استعمار فلسطين توصلاً الى أهداف

(١) التعبير لصاحب النص الذي نستشهد به .
(2) Richter 263 .
(3) ibid 237 .
(4) Christian Mission 188 .
(5) Richter 238 .

خاصة : كانت البابوية والبروتستانتية والصهيونية تتنافس فيما بينها في فلسطين ، وكان روتشيلد المتمول اليهودي يساعدهم جميعاً (١) .

ومع أن هذه الحركات كانت دينية في ظاهرها فانها كانت سياسية في حقيقتها : كانت الدول الأجنبية تريد تحطيم الامبراطورية العثمانية حتى تستطيع بسط نفوذها على بلاد الشرق. ولقد لجأت الدول الأوروبية الى استغلال الأقليات الطائفية في الامبراطورية العثمانية كالأقلية اليهودية على الأخص . ثم دفعت الأقلية الأرمنية للثورة على العثمانيين مراراً ، لاضعاف الادارة العثمانية في البلاد العربية (٢) . من هذه السبيل كان الأوروبيون يأملون أن ينفذوا بمشاريعهم الاستعمارية الى العرب والمسلمين .

ويبدو بوضوح من مراجع مختلفة ان الأوروبيين لم يكونوا يريدون انشاء دولة يهودية على النحو الذي حدث الآن ، ذلك لأنهم لم يكونوا يريدون ان يهوّدوا فلسطين ، بل كانت غايتهم الأولى أن يتخذوا اليهود فزّاعة (للعرب) . وأما موافقة الدول الأوروبية على جمع اليهود في فلسطين فلا يجب أن يُفهم إلا على أن هذه الدول الأوروبية قد أرادت التخلص من يهود أوروبة (٣) . هذا الرأي الذي مر عليه الى الآن نحو خمسين عاماً أو تزيد (٤) . لا يزال وجيهاً عند الدول الأوروبية بوجهيه : للتخلص من اليهود في أوروبة خاصة ثم لتحطيم وحدة الشرق بوضع عدو للعرب والمسلمين في أقدس بقعة لهم على الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط . هذا مع العلم بأن اليهود سيثيرون للعرب وللمسلمين من مركزهم القوي الجديد قلاقل سياسية واجتماعية وأخلاقية واقتصادية يتمكن بها الأوروبيون من التدخل في كل حين بين الخصمين للسيطرة عليهما جميعاً . وهكذا رأينا بأم أعيننا أن الدول الغربية كانت ترى من مصلحتها الاستعمارية أن تتساهل مع اليهود في فلسطين الى الحد الذي وصلت اليه معهم في عام ١٩٤٨ . وعلى مثل هذا سار المبشرون أيضاً منذ احتلال الانكليز لفلسطين.

ذكر ويلسن كاش (٥) ان في القدس مدرستين عاليتين تديرهما ثلاث ارساليات مختلفة ادارة مشتركة : مدرسة البنات العالية ثم الكلية الانكليزية . ان اليهود والعرب (٦) والنصارى يلعبون في ملاعب هذه المدارس لعبة كرة القدم ويُبدون في اللعب من ضروب التعاون ما

(1) Jessup 657 .
(2) Bury 118 - 120.
(3) Richter 231 .
(٤) طبع رشتر كتابه الذي استشهدنا به آنفاً عام ١٩١٠
(5) Cash 149 .
(٦) يقصد المؤلف : المسلمين .

يساعد على أن يخلق لهم نظرة جديدة الى مشاكلهم القومية الحاضرة . ان القارىء ليجد في هذا القول قرينة ظاهرة تدل على أن مدارس التبشير كانت تعمل على أن تهيء الطلاب العرب من المسلمين والنصارى في فلسطين ليقبلوا بنزول اليهود في الأراضي المقدسة . ولعلهم لم يفعلوا ذلك حباً باليهود، بل اضعافاً لنفوذ المسلمين في هذه البقعة المقدسة من الأرض ، وتوصلا الى زيادة نفوذهم في الشرق من هذا السبيل .

ويظهر أن الألعاب الرياضية كانت تخدم قضية المبشرين وتخدم الصهيونية في فلسطين خدمة عظيمة ، حتى اندفعت مدارس التبشير تُوَلِّهُ الروح الرياضية وتشجع التسامح في ميادينها الى أبعد الحدود ، تسامحاً كان يراد منه قتل الشعور القومي الثمين من طريق التسلية. قال ولبرت سميث (١) : ان الالعاب تبرهن على انها من أحسن الوسائل لتقريب وجهات النظر بين المختلفين ، بل بين المتعادين . لما أعلن العرب اضرابهم العام في القدس عام ١٩٢٩ (احتجاجاً على ممالئة الانكليز لليهود) قامت جمعية الشبان المسيحية بحفلة تخدم بها التعاون الودي بين العرب واليهود فأقامت مباراة في لعبة التنس كان اللاعبون فيها مسلمين ويهوداً . وكان الحضور لفيفاً من جماعات مختلفة فيهم الفلسطينيون والانكليز والاميركيون والالمان . وسادت الروح الرياضية ، فكان اليهود يحيون كل نجاح يصيبه اللاعبون العرب ، وكان العرب يردون التحية للاعبين اليهود اذا أصابوا نجاحاً . وتبع المباراة حفلة شاي حضرها نحو خمسين من الفلسطينيين والانكليز والصهيونيين نعموا ساعة بكرم مضيفيهم النصارى .

وهكذا نجد دائماً بوضوح ان المبشرين وأشياعهم ليسوا خطراً على الاطمئنان الديني في الاسلام ، بل هم خطر على الحياة القومية في الشرق العربي أيضاً .

•

ولم تكن الارساليات التبشيرية وحدها صديقة لليهود في سبيل تحقيق أهدافها الدينية ، بل ان بريطانية ، الدولة المنتدبة على فلسطين ، كانت صديقة لليهود (٢) في سبيل تحقيق أغراضها الاستعمارية . ومما يدلنا على ذلك، بعد الأدلة التي لمسناها في خمسة واربعين عاماً منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى ، ان انكلترة أعلنت الوطن القومي لليهود في فلسطين قبل استيلائها على فلسطين ، وان المندوب السامي البريطاني الأول في فلسطين ، السير

(1) MW. Apr. 1933, p. 153 .
(2) MW. Oct. 1935,354, f.

هربرت صموئيل ، كان يهودياً .

وكان تأسيس الدولة اليهودية أمراً مقرراً عند المبشرين ، فقد كتب المبشر جون فان أس (١) يذكر في عام ١٩٤٣ « اسرائيلية » ويعلن حدودها فيقول بأنها الدولة التي ستؤلف من معظم أراضي اليهودية (الجليل) جنوباً الى خليج العقبة ، ثم « أردنية » ويجعلها القسم العربي من فلسطين مع شرق الأردن الحالية . هذا يدلنا دلالة واضحة على ان أخبار هذه التقسيمات السياسية كانت في متناول المبشرين ، او ان المبشرين كانوا يحضّون عليها في سبيل تسهيل مشاريعهم الدينية .

ويتساءل أحدنا : لماذا يفضل المبشرون أن تقوم دولة يهودية في فلسطين ، ولماذا هم يخافون العرب ولا يخافون اليهود ؟

يرى لورنس براون (٢) — وأكثر المبشرين على رأيه — ان القضية الاسلامية تختلف من القضية اليهودية : ان المسلمين يختلفون من اليهود في دينهم أن دين دعوة . ان الاسلام ينتشر بين النصارى أنفسهم وبين غير النصارى . ثم ان المسلمين كان لهم كفاح طويل في أوروبة فأخضعوها في مناسبات كثيرة . على أن الفرق الأساسي بين المسلمين واليهود ، كما يراه المبشرون ، هو أن المسلمين لم يكونوا يوماً ما أقلية موطوءة بالأقدام . ثم تقولون : اننا اذا نظرنا الى العالم لم تر مكاناً يمكن أن يصبح المسلمون فيه أقلية مثل هذه الا فلسطين والهند. من أجل ذلك نرى المبشرين ينصرون اليهود على المسلمين في فلسطين .

ثم يعلن لورنس براون رأيه الخاص فيقول : لقد كنا نخوّف بشعوب مختلفة ، ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لمثل هذا الخوف . لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودي والخطر الأصفر (باليابان وتزعمها على الصين) وبالخطر البلشفي . الا أن هذا التخويف كله لم يتفق (لم نجده ، لم يتحقق) كما تخيلناه . اننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا ، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد . ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا (٣) . أما الشعوب الصفر فان هنالك دولاً ديمقراطية كبيرة تتكفّل بمقاومتها ..... ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الاسلام وفي قدرته على التوسع والاخضاع ، وفي حيويته : انه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي (٤) .

(1) John Van Ess , 192 .
(2) Browne 7 ff.
(٣) اصدر المؤلف كتابه عام ١٩٤٤
(4) Browne 9, 10 .

وما دمنا هنا ، فان فلسطين تستحق صفحتين أو ثلاث صفحات أخر . نشر الدكتور بيارد ضودج ، رئيس الجامعة الاميركية في بيروت من عام ١٩٢٢ الى عام ١٩٤٨ مقالاً عنوانه : « أمن الضروري أن تنشّب حرب في الشرق الأوسط ؟ (١) يبسط فيه رأيه في حل قضية فلسطين ، قال : (٢)

« ان قيام حكومة اتحادية في فلسطين تحت اشراف هيئة الأمم يسلب العرب سيطرتهم المطلقة على فلسطين ، كما يضع حداً لأدعاء اليهود بهجرة غير مقيدة ، الا ان الفريقين يربحان بذلك ربحاً ثابتاً : ان اليهود يحتفظون بوطن قومي واسع جداً يستطيعون به ، لتفوقهم الفني الحديث ، أن يتولوا — بالخطى الاقتصادية السلمية — زعامة الشرق الأوسط كله . اما العرب فانهم سيجنون ربحاً من ذلك التقدم التجاري والصناعي الذي يأتي من هذا السبيل » .

وما دمنا في حديث فلسطين فلنتوسع قليلاً في مساعي الغربيين لانشاء إسرائيل توسعاً يفصح عن بعض غاياتهم .

منذ عهد بعيد ، منذ القرن التاسع عشر ، كانت بريطانية تود استعمار فلسطين وإقامة الحامية فيها لحراسة طريق الهند . ولم يكن بامكانها أن تفعل ذلك إلا من طريق التبشير . جاء في كتاب « التوراة والسيف » (٣) في صدد نقل فلسطين الى المذهب الانكليكاني (مذهب الدولة في انكلترة) فصل كامل على اللورد شافتسبري (٤) الذي كان يمثل فكرة تنصير فلسطين ورد اليهود منصرين اليها ، أو تنصيرهم بعد ردهم اليها ، واعلان الحماية (البريطانية) عليها . ولقد روّج اللورد بالمرستون (٥) ، وزير الخارجية البريطانية ، لهذه الدعوة برسالة وجهها الى جريدة التايمز اللندنية فنشرتها الجريدة المذكورة في السابع عشر من آب عام ١٨٤٠. ومن الشخصيات الانكليزية التي عملت بما فكر به شافتسبري وسعى اليه بالمرستون ، وممن اشتهروا ودارت أسماؤهم في السياسة الشرقية والعربية ، رئيس الوزارة البريطانية غلادستون ، والقائد البريطاني الجنرال غوردون ، والمستكشف البريطاني ليفنغستون ، والممرضة الشهيرة فلورانس نايتنغايل . كل هؤلاء ، على اختلاف نزعاتهم وعلى اختلاف البراقع التي وضعوها على وجوههم ، كانوا ذوي اتجاه تبشيري استعماري ، وكلهم كانوا يريدون اختراع الوسائل للدفاع عن « الامبرطورية » ولتوسيع رقعتها .

(1) Must There Be war In The Middle East ?
(2) Reader's Digest , April 1948, pp. 44 - 5 .
(٣) راجع ص ١١٣ وما بعدها .
(٤) أنطوني أشلي كوبر شافتسبري (١٨٠١ — ١٨٨٥) من الذين اهتموا بالتبشير .
(٥) اللورد بالمرستون (١٧٨٤ — ١٨٦٥) .

ويرى الانكليز ان فلسطين لم تكن مهمة لهم في ذاتها فقط ، بل كانت عندهم وسيلة ضرورية للدفاع عن الامبراطورية . « لقد كانت أيضاً الصلة الجغرافية بين الشرق والغرب ورأس الجسر بين ثلاث قارات ، وعقدة الدفاع العسكري عن الامبراطورية ، والمنطقة الضرورية للدفاع عن طريق السويس وعن الطريق الى الهند وعن آبار النفط في الموصل » (١) . وتعددت العوامل في السياسة الانكليزية في شأن فلسطين ، ولكن كان بعضها ستاراً ، فقد آلّفت بربارة توخمان (٢) — وهي يهودية من الولايات المتحدة — كتاباً سمته « التوراة والسيف ، او انكلترة وفلسطين منذ العصر البرونزي الى بلفور » (٣) ، ذكرت في مقدمته غايتها من تأليفه فقالت (٤) :

« هذا الكتاب محاولة لتتبع الأهداف المزدوجة في تطورها منذ البداية : الهدف الثقافي مع الهدف الاستعماري ، والهدف الأخلاقي مع الهدف المادي . وبكلمة واحدة : أريد أن أتتبع فيه خطوات التوراة والسيف الى أن تنتهي بفلسطين الى الانتداب » .

ولم يكن في محاولة الاستيلاء على فلسطين تلك العوامل التي ذكرت فحسب ، بل كان ثمت العامل الصليبي الديني في أجلى مظاهره ، تقول بربارة توخمان (٥) :

« وهكذا دخل الجنرال أللنبي الى القدس عام ١٩١٨ ، فنجح حيث كان ريتشرد (ريكاردوس قلب الأسد) قد أخفق . ولولا ذلك الانتصار (انتصار أللنبي) لما كانت إعادة اسرائيل ، الى الآن ، قد أصبحت حقيقة واقعة . وكذلك لم يكن بامكان أللنبي أن ينجح لولا محاولة ريتشرد : أي لو لم تكن النصرانية قد أقامت ، في الأصل ، الأساس الذي يحمل النصارى على التعلق بالإرض المقدسة . وإنّ من غريب التهكم أن يكون اليهود قد استعادوا موطنهم ، والى حد ما ، بفعل الدين الذي أعطوه للأميين » (٦) .

وعد بلفور أيضاً لم يكن العامل الأساسي في انشاء دولة اسرائيل . ان السياسات التي استترت وراء هذا الوعد هي التي أرادت خلق اسرائيل ، سواء أتقدم هذا الوعد في التاريخ أم تأخر وسواء أكان أم لم يكن . قالت بربارة توخمان (٧) :

---

(1) Bible and Sword XIII .
(2) Barbara W. Tuchman . يمكن لفظ هذا الاسم «توشمان أو تتشمان»
(3) Bible and Sword, England and Palestine from the Bronze Age to Balfour .
(4) Bible and Sword XIV .
(5) idem .
(٦) الأميون هم غير اليهود . قسم اليهود الناس الناس في ايامهم قسمين : يهوداً واميين .
(7) Bible and Sword, 217 .

« أن الانتداب ، لا وعد بلفور ، هو الذي فسح في القانون العام مجالاً لاعادة اسرائيل في فلسطين . ان وعد بلفور كان اعلاناً لسياسة فقط ، وكان بامكان كل وزارة (بريطانية) تالية أن تتجاهله ، أو أن تدع الزمن يمر عليه ، أو أن ترفضه ، ولكن الانتداب (أي ادخال وعد بلفور في صك الانتداب) كان التعهد الدولي الذي وقعته دول الحلفاء الكبرى التي كانت تعمل باسم عصبة الأمم ثم أكدته فرفعته بذلك ، بعد أن وضعته في صلب صك الانتداب ، الى مستوى المعاهدات » .

والوطن القومي اليهودي لم يكن يعني ملجأ لليهود المضطهدين في أوروبة ، كما كان يزعم الصهيونيون والسائرون في ركب الصهيونية ، بل كان يعني اقامة دولة على غرار دول العصر الحديث . « فلما استفهم الوزير لانسنغ (١) من ويزمان أمام المجلس الأعلى لمؤتمر باريس عما يعني تماماً بالوطن القومي أجابه بجوابه المشهور : أن تتاح لنا الفرصة لنبني بالتدريج قومية في فلسطين هي لليهود بمقام الأمة الفرنسية للفرنسيين والأمة الأنكليزية للانكليز (٢) » .

ومع كل ما يمكن ان يقال في تقصير العرب ، في فلسطين وفي خارج فلسطين ، فان سياسة بريطانية في عهد الانتداب كانت العامل الأول في اضعاف القوى العربية . ان التحسس القومي من ناحية والتحسس الديني من ناحية اخرى كانا قويين بين الشبان العرب في كل مكان ، وفي فلسطين ايضاً . غير ان الانتداب — الذي كان شكلاً آخر من اشكال الاستعمار أو اسماً آخر للاستعمار على الأصح — حاول ان يخدّر هذا التحسس ، وفي فلسطين خصوصاً . لقد ألهت حكومة الانتداب نفراً من عرب فلسطين لا يزيدون في العدد على خمسة عشر بالمائة من مجموع السكان بمناصب ذات رقابة اسمية في الحكومة المحلية (٣) .

ولما تطور النزاع بين العرب واليهود ولم يبق مندوحة عن الاصطدام في الحقل الداخلي وعلى الصعيد الدولي ، كانت بريطانية خاصة تلعب دورها الصهيوني من وراء ستار .

تجمع المصادر الأجنبية التي تناولت نزاع العرب واليهود في فلسطين ، وخصوصاً في السنتين اللتين سبقتا التقسيم ، على أن العرب كانوا ضعافاً مادياً وعسكرياً ، وعلى أن العرب

---

(١) روبرت لانسنغ (١٨٦٤—١٩٢٨) سياسي اميركي، تولى وزارة الخارجية في الولايات المتحدة (١٩١٥) وكان عضواً في الوفد الأميركي الى مؤتمر الصلح في باريس (١٩١٨ — ١٩١٩) .
(2) Bible and Swotd, 219 .
(3) Cf. Mott , 65 , 185 .

لم يكونوا حازمين أمرهم على خطة معينة أو هدف معين . وكذلك كان زعماء العرب وحكامهم تتنازعهم الأهواء والمصالح الشخصية والاقليمية . على أن هذه المصادر لا تخفي ، أو لا يخفى فيها ، تواطؤ الدول الأجنبية كلها — وخصوصاً الدول الكبرى : الولايات المتحدة وبريطانية وفرنسة والاتحاد السوفياتي — على العرب .

نشرت مجلة كومنتري التي تصدرها اللجنة الأميركية اليهودية في نيويورك في عددها الصادر في نيسان من عام ١٩٤٧ تقريراً سنوجزه في ما يلي (١) :

ان فلسطين لم تكن تستغرق اهتمام ترومان ، رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، مع كل ما كان فيها من الاضطراب ، ذلك لأن فلسطين لم تكن بقعة دفاعية في الجبهة الانكليزية الأميركية ، كتركية واليونان مثلاً ، ولكنها كانت خطاً من خطوط المواصلات الداخلية .. غير أن مشكلة فلسطين كانت أكثر تعقداً مما يبدو عليها . ويبدو أن بريطانية كانت تريد أن تغمس الولايات المتحدة في مشكلة فلسطين ، فلم تجد — وهي المنتدبة على فلسطين والمسؤولة وحدها عنها — خيراً من أن تحيل تلك المشكلة إلى هيئة الأمم . ومع أن الوزارة البريطانية كانت قد اتخذت قراراً باحالة قضية فلسطين الى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فانها لم تتخذ في ذلك خطوة إيجابية سريعة . ففي السادس والعشرين من آذار أعلن تريغفه لي ، الأمين العام للأمم المتحدة ، انه لم يتلق من أحد بلاغاً عن هذه القضية . ولقد ذكر في ذلك الحين أن تريغفه لي كان يفضل تأليف لجنة لدرس الموقف . غير أن الولايات المتحدة لم تكن واثقة من أن القانون يجيز تأليف مثل هذه اللجنة . ولكن تبين في الوقت نفسه ان لجنة فرعية كانت قد تألفت في الامم المتحدة لجمع المعلومات للّجنة المزمع انشاؤها لدرس الموقف في فلسطين . في تلك الاثناء كان عبدالرحمن عزّام ، الامين العام لجامعة الدول العربية ، قد صرح في القاهرة بأن اللجنة السياسية في الجامعة العربية قد رفضت الاقتراح القائل بتأليف لجنة لدرس الموقف .

ويذكر التقرير الذي نوجزه في هذا المكان (وهو يعبر عن رأي اليهود) ان المفتاح لكل حل يمكن ان يكون مرضياً عنه انما هو في يد الولايات المتحدة . فالولايات المتحدة وحدها تملك الامكانيات التي تجعل تساهل الزعماء العرب في (قضية) فلسطين مجدياً (لهم) . ثم ان لها من الدالة ما يجعلها قادرة على عقد هذه الصفقة .

(1) Commentary, New York, vol. 3, No. 4, April 1947, pp. 257 - 62.

ولما قامت دولة اسرائيل وتعقدت الأمور في الشرق العربي من أجل ذلك بدأت الاقتراحات للتهدئة ترد من كل مكان ، وكلها تستند الى أسس من السياسة والدين ، من الاستعمار والتبشير . من تلك الاقتراحات رغبة فرنسة في العودة الى الشرق لضبط الأمور وتصريفها بين العرب واليهود .

يزعم القائد الفرنسي الجنرال بورر مزاعم غريبة ، هو يقول (١) :

لو لم تكن الأحقاد الجنسية والدينية قوية جداً لكان من الممكن أن يحل التفاهم بين الأردن واسرائيل تلك المشكلة . ولكن يبدو انه من غير الممكن أن يقوم بينهما تفاهم دائم. وسيأتي يوم تزول فيه احدى هاتين الدولتين . أما المملكة الأردنية الهاشمية فيمكن أن تنطوي في الجمهورية السورية . وأما فيما يتعلق باسرائيل ولبنان فقد يمكن أن يقترحا اتحاداً في شرقي البحر الأبيض المتوسط » .

هذا الزعم ليس من السياسة ولا من التاريخ في شيء . ولكن الجنرال بورر استعماري ، وقد حلل الموقف في هذا الجزء من العالم بالرغبة الاستعمارية التي في صدره. وسنجده يقول بعد خمس وعشرين صفحة من كتابه أن نظرية الحكم الالهي في البلاد الاسلامية ، وخصوصاً عند العرب ، تتمسك بالشكل الملكي على الأخص . وعلى الرغم من الجهود التي بذلت لاقرار المبدأ العلماني في الدولة ، فان هذه الملكيات لم تستطع أن تتخلى بعد عن المبادىء الأساسية من الدين الاسلامي ، ولا عن المبادىء الأساسية من النفسية الاسلامية العربية : لا خلاص بغير الاسلام (٢) ... ثم ان اسرائيل نفسها قامت على أساس الدين اليهودي . وهكذا يتضح في الوقت الحاضر أن الشرق لم يفقد بعد فكرة الأمم الدينية التي كان يأخذ بها من قبل ... لذلك يبدو من كل ما تقدم ... أن فرنسة هي التي احتفظت ، بما لها من النفوذ الثقافي والأدبي ، بمهمة الدلالة والمشورة والمساعدة لهذه الدول الفتية من ورثة الأمم القديمة حتى تستطيع هذه الدول أن تحتل مكاناً في هذا العالم المتبدل . لقد كانت فرنسة من قبل حامية لنصارى الشرق ، فيجب عليها أن تمد حمايتها النيرة البريئة من الأغراض الى جميع الذين يسكنون هذا الشرق ، سواء أكانوا يهوداً أو نصارى أو مسلمين ... وان رسالة فرنسة بصفتها حامية للنصارى قد أضفى عليها دائماً ، في تلك

(1) Ce que devient l'Islam p 70, 95 -96.

(٢) يقصد ان التفكير السياسي القديم كان يجعل من أهل كل دين أمة قائمة بنفسها .

البلاد الاسلامية — في الشرق — بهاء لا نظير له » .

ولم يكتف التبشير بالدعوة السافرة الى الاستعمار ، بل كان يسلك سبيل التجسس أيضاً خدمةً لاسرائيل وحقداً على العرب . نشرت مجلة الشرطة والأمن العام (١) مقالاً عن داعية اميركي لاسرائيل يدّعي انه يدير جمعية للتقارب المسيحي ، مع ان اسم جمعيته الحقيقي : جمعية التقارب المسيحي اليهودي . ولم يكن عمل هذا الداعية ، واسمه رالف باني ، سوى مساعدة اليهود والدس على العرب بتشويه سمعتهم والتجسس عليهم . ومع أن هذا الداعية كان يرتدي ثياب المبشرين فانه كان يقوم بأعمال تنافي الدين ، وبنشاط يضر بالعرب . وقد أخرج من الأردن بهذه التهم كلها . والمبشرون الذين يقومون بمثل نشاط رالف باني كثيرون ولكن اقامة البينة عليهم عسيرة أحياناً لاتقانهم فن العمل الصامت ولدفاع حكوماتهم عنهم اذ انهم يخدمون الغايات الاستعمارية التي ترمي اليها دولهم .

(١) دمشق ، السنة الاولى ، العدد ١٢ (٩ ربيع الآخر ١٣٧٣ و ١٥ كانون الأول ١٩٥٣) ، الصفحات ٧٤ — ٧٥ ، ٣٩ .

الفصل التاسع

الأعمال الاجتماعية طريق التبشير

•

الأعمال الاجتماعية هي المناسبات التي تربط بعض البشر ببعضهم عَرَضاً ، أو تتيح لبعض الناس أن يعرفوا بعضهم الآخر . إن البشر عادة مقسّمون حسب اعمالهم ، فقلما يتاح للطبيب المنصرف الى علمه وعمله أن يجتمع بالتاجر أو بالصانع أو بالفنان. وكذلك يعتذر على رجل من المدينة ، أو من حي معين في المدينة ، أن يجتمع برجل من مدينة اخرى أو من حي آخر في مدينته هو . من أجل ذلك يلجأ الناس عادة الى خلق جو اجتماعي يجمع بينهم في مناسبات مختلفة : في الحفلات الرياضية والخطابية ، وفي الأندية الأدبية والسياسية ، وفي الاتصال فيما بينهم من طريق الصحف والمجلات وأعمال البر والاحسان ، وفي الاجتماعات المختلطة بين الجنسين رجالاً ونساءً .

والمبشرون يعرفون هذه كلها في بلادهم فأحبوا أن ينقلوها الى بلادنا ، لا حباً بنا نحن لكي تكون الصلات بيننا أوثق والحياة عندنا أكثر فائدة وأكثر مرحاً ، بل توصلاً الى اختراق السور الذي ضربه العُرف الشرقي حول الأسرة المسلمة كي يُفتح لهم باب جديد يلجونه للتبشير بيننا . تلك كانت غايتهم الأولى من النشاط الاجتماعي الذي أحبوا أن يبثوه في بيئتنا بواسطة المدارس الامريكية خاصة ، ومن طريق الخدمة الاجتماعية بين الفلاحين أيضاً .

جاء في كتاب اسمه مؤتمر العاملين المسيحيين بين المسلمين (١) : « نحن نَعني بالعمل الاجتماعي المسيحي تطبيق مبادىء يسوع المسيح في جميع الصلات الانسانية . إن المسلمين يدّعون أن في الاسلام ما يلبّي كل حاجة اجتماعية في البشر ، فعلينا أن نقاوم الإسلام دينياً بالأسلحة الروحية . فالنشاط الاجتماعي يجب أن يرافق التعليم المباشر للانجيل ويساعده

(1) Conference of Christian Workers Among Moslems , N. Y. 1924 .

ويتمه ... فلنبدأ بالصلات اليومية ، تلك التي تتصل بالطفل وبالمرأة ثم نتوسع في تلك الصلات حتى نبلغ الى المبادىء الواسعة التي أقرتها عصبة الأمم.. فأمام الكنيسة اليوم مناسبات ممتازة تتيح (للمبشر المسيحي) أن يتصل برجال ونساء في البيئة (الاسلامية) الراقية لم يكن بامكانه من قبل أن يتصل بهم ...

« من أجل ذلك نحن ننصح بالسير في الأعمال الاجتماعية على الأسس التالية :

« ايجاد بيوت للرجال والنساء وخصوصاً الطلبة منهم ومنهن — ايجاد أندية — الاعتناء بالتعليم الرياضي وأعمال الترفيه — حشد المتطوعين لأمثال هذه الأعمال .

« وبما أن جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات قد نصبتا نفسهما للوصول الى الشباب المسلم في النواحي الآنفة الذكر وفي غيرها أيضاً ، فالواجب يقضي ان تُشجّعا لتتسع دائرة عملها فتشمل الجماعات المسؤولة من المسلمين ومن الذين يرحبون بمثل هذه الجهود (من غير أن يفطنوا ، طبعاً ، الى الغرض التبشيري) .

« وعلى المبشرين أن يتعرفوا الى احوال المسلمين الاجتماعية والاقتصادية حولهم ثم يَسْعَوْا الى الاصلاح (في الظاهر) ، سعياً الى التأثير على الرأي العام (بأن غايتهم شريفة مجردة من الغرض التبشيري) . ومما يجب أن يهتم المبشرون به (في الظاهر) : اصلاح الأحداث — الحيلولة دون الزواج الباكر — الحيلولة دون تشغيل الأطفال — محاولة اصلاح الأحوال العامة للعمال فيما يتعلق بساعات العمل وبالأجور وبالأمور الصحية في المعامل — الرفق بالحيوان ... (ص ٣٤ — ٣٦) » .

من أجل ذلك نرى في الدرجة الأولى أن الجدران قد امتلأت في بلادنا بالدعوة الى « الرفق بالحيوان » وبجملة « الطفل للمدرسة لا للعمل » ، وبالدعوة الى « انصاف العمال » . ولكننا لا نرى اصلاحاً حقيقياً في هذا السبيل ، بل نرى مقابل ذلك « ظلماً للانسان » و « تشريداً للأطفال (١) » و « استغلالاً للعمال » . فالذين يقومون بهذه الدعوات الظاهرة لا يقصدون الاصلاح الحقيقي ، بل يقصدون التسلل بالتبشير الى الجماعات المسلمة .

والمسلمون خاصة لم يتقبلوا أعمال التبشير الاجتماعية (في ظاهرها) بسرور ، لأسباب مختلفة ، منها ان الاسلام نظام اجتماعي كامل ، وكل ما يأتي به هؤلاء المبشرون ، باعترافهم

(١) كتشريد أطفالنا الفلسطينيين من بلادهم وظلمهم في مخيماتهم بانفاق المال المخصص لهم على موظفين أجانب ووطنيين .

هم ، موجود في الاسلام وفي أشكال أتم وأحسن (١) . وهذا حق ، فالدين الاسلامي ليس عقيدة فقط بل هو عقيدة ونظام اجتماعي أيضاً . أما النصرانية فليست كذلك . وان ما يأتي به المبشرون على انه اصلاحات اجتماعية ، انما هي نتاج مشوه لمبادىء اجتماعية نشأت في القرون المتأخرة . وما كان أغنى المسلمين عن أن يتناولوا هذه المبادىء الاجتماعية ملونة بلون التبشير ! إن ثمة حاجة الى تجديد اجتماعي بين المسلمين ، لا ريب في ذلك . من أجل ذلك يحسن اللجوء الى المذاهب الاجتماعية ، اذا كانت موافقة ، من غير أن تمر بين أيدي المبشرين .

وهنالك أمر آخر يمنع المسلمين من تصديق أقوال المبشرين ، حتى في الاجتماع . يقول المبشر و . رايد :

« إن الوصول الى المسلمين صعب ... ذلك لأن المسلمين يشكّون في من يتبرع لهم (من المبشرين) ويَعزون عمله الى مأرب ما ... انني أنا (والكلام للمبشر رايد) أحاول ان انقل المسلم من محمد الى المسيح ، ومع ذلك يظن المسلم أن لي في ذلك غاية خاصة . أنا لا أحب المسلم لذاته ، ولا لأنه أخ لي في الانسانية . ولولا انني أريـــد ربحه الى صفوف النصارى لماكنت تعرضت له لأساعده » (٢) .

والمسلمون يعرفون هذا ، ولذلك قلما يثقون بالمبشرين وبأعمالهم الاجتماعية ، لا كرهاً بالأعمال الاجتماعية ، بل لأن هذه الأعمال تأتي دائماً ناقصة مشوهة لأنها في الحقيقة وسيلة تبشير ديني ، هو بدوره وسيلة أخرى إلى استعمار سياسي واقتصادي .

الاحسان طريق التبشير

الاحسان في حقيقته عطف من القوي على الضعيف ، عطف يتبدى في صور مختلفة أبرزها وأشهرها دفع المال . ولكن الاحسان قد يجري مجاريَ أخرى كالتعليم المجاني ، وهبة الثياب والكتب ، والمساعدة على ايجاد عمل وما يجري هذا المجرى . فلنبدأ هنا بالمال :

لم يكن المبشرون محسنين بالمعنى النبيل الذي نفهمه من هذه الكلمة ، ولكنهم كانوا يستغلون ما بأيديهم من وسائل الاحسان حتى يصلوا الى أهدافهم التبشيرية فالاستعمارية . ولقد كانوا فوق ذلك مقتصدين جداً لا ينفقون ولا ينفعون إلا بمقدار ما ينتظرون من فوائد

(1) Christian Workers 34 f., 68. ff.
(2) Quoted in Gairdner 264.

عاجلة . ألّف جماعة من المبشرين كتاباً اسمه « أسس جديدة للتبشير » (٢) قالوا فيه : كان التطبيب والتعليم من وسائل التبشير ، ويجب أن يبقيا كذلك . أما أعمال الخير فيجب أن تستعمل بحكمة فلا تنفق الأموال إلاّ في سبيلها : يجب أن تعطى الأموال أولاً للبعداء ، ثم يقل دفعها تدريجاً كلما زاد اقتراب هؤلاء الى الكنيسة (أي كلما زاد الأمل بانضمامهم الى المذهب الجديد) ، فاذا دخلوها منعت عنهم أعمال الخير . ثم يجب ألا نبالغ في الناحية الخيرية على كل حال (٢) .

اين يذهب معظم اموال الاحسان

وذكر دانيال بلس ان اموالاً أرسلت عقب فتنة ١٨٦٠ الى خوري قرية في لبنان ليوزعها على أهل قريته فاحتفظ بالأموال لنفسه . هذا فضلاً عن أن الكثيرين من الأهلين كانوا يدّعون بأن الدروز قد قتلوا أقاربهم وهدموا بيوتهم ليحصلوا على علي أموال لا حق لهم بها ، أو ليحصلوا على أكثر مما هو حق لهم . وكان ثمة أفراد أقوياء الأجسام ظلوا يعتمدون على أموال الاحسان زمناً طويلاً بعد فتنة ١٨٦٠ ويعيشون منها (٣) .

كان المبشرون يعرفون كيف تنفق هذه الأموال والى أين تذهب ، وكانوا يغمضون أعينهم لأنهم لم يكونوا يودون الاحسان إلى البائس والمحروم ، بل كانت كل طائفة منهم تتصيّد بتلك الأموال خرافاً جديدة لحظيرتها .

أما كيف يستغل المبشرون أعمال الخير في سبيل التبشير فتمثله القطعة التالية ؛

كتب ألمَر دوغلاس مقالاً عنوانه «كيف نضم الينا أطفال المسلمين في الجزائر » (٤)، ذكر فيه أن ملاجيء قد أنشئت في عدد من أقطار الجزائر في شمال افريقية لإطعام الأطفال الفقراء وكسائهم وايوائهم أحياناً . ثم قال إن هذه السبيل لا تجعل الأطفال نصارى ، لكنها لا تبقيهم مسلمين كآبائهم . ومثل هذه الجهود يبذلها المبشرون في شمالي افريقية ومصر (٥) . ولقد صدر في « نشرة الأخبار للمجلس المسيحي في الشرق الأوسط » (٦) مقال عنوانه

(1) Re - Thinking Missions (cf . Bibliography) .
(2) ibid 67 f. , cf . 70 f
(3) Bliss 159 ff ,
(4) MW , July 1935 pp . 283. f .
(5) cf. MW . Oct ., 1935 , pp . 1936 ff . ; Oct. 1936, pp . 392 ff .
(6) News Bulletin of the Near East Christian Gouncil, Beirut, Oct. 1945. pages 12 - 16 .

« جمعيات المتطوعين والخدمة الاجتماعية في مصر » ، جاء فيه أشياء كثيرة عن استغلال الحاجات الاجتماعية في الشعب المصري للتبسط في العمل المسيحي في القطر المصري كله . وكاتب المقال يريد أن تستأثر الجمعيات التبشيرية بكل نواحي الخدمة الاجتماعية ، وهو يضن بأن تقوم على ذلك الحكومة المصرية نفسها .

•

ويظهر ان الارساليات الكاثوليكية اكثر استخداماً للاحسان في سبيل التبشير . ولقد أهتم باباوات رومية في الحقبة الأخيرة بنشر النصرانية بين المسلمين ، حتّى أن البابا بندكتوس (١٩١٤ — ١٩٢٢) عرف باسم بابا الارساليات .

والارساليات الكاثوليكية كغيرها تتبع طريقين في التبشير : التبشير المباشر بمخاطبة غير النصارى (أو غير الكاثوليك أيضاً) رأساً بأمور العقيدة وبالتعليم المسيحي. أما الطريقة غير المباشرة فتقوم على الاحسان المادي وعلى العناية بالمرضى والتعليم وما أشبه ذلك . ويندر أن تستعمل الطريقة المباشرة مع المسلمين ، فان المبشر الكاثوليكي قد اتبع في كل مكان نزل فيه بين المسلمين الطريقة غير المباشرة (١) .

كتب صموئيل زويمر صاحب مجلة « العالم الاسلامي » (٢) مقالاً في مجلته (٣) عنوانه « استخدام الصدقات لاكتساب الصابئين » . ومع أن المقال كله بحث في أن الاسلام أجاز اعطاء الزكاة للمؤلّفة قلوبهم ، أي أولئك الذين دخلوا في الاسلام في عهد الرسول وكانوا ذوي حاجة وذوي اتجاه مادي ، فان المقصود من المقالة استخدام الاحسان في سبيل التبشير المسيحي أيضاً .

أما البروتستانت خاصة فانهم لا يرون أن توزع الارساليات إعانات من مالها هي ، وإن كانت أحياناً تقوم بتوزيع الاعانات الواردة اليها من أماكن مختلفة (٤) .

ومما جعل المسلمين ينظرون بحذر الى الاعمال الاجتماعية التي كان المبشرون يتظاهرون بها رثاء الناس أمرٌ على غاية من الأهمية . كان المبشرون يحسّنون أعمالهم الاجتماعية بقولهم انها اعمال الغرب المتقدم المتحضر في الشرق المتأخر ، وانها نعمة مسيحية بين مسلمين متقهقرين . ولكن المسلمين رأوا فساد الأخلاق يمشي مع هؤلاء الغربيين خطوة فخطوة .

(1) MW. July 1936. pp. 223 f .
(2) The Moslem World , editor : Samuel M . Zwemer .
(3) pp. 141 ff .
(4) MW . 1933 , pp . 124 f .

واتخذ الاحسان بعد الحرب العالمية الثانية شكلاً جديداً وطريقة جديدة . لقد أصبح مساعدات فنية للأمم المتخلّفة ، ثم لم يبق من حاجة لبذله من طريق التبشير ما دام قد أصبح بذله ممكناً من طريق الحكومات المستعمرة نفسها ، ولا غرو فان التبشير لم يكن سوى وسيلة الى الاستعمار ، فما الفائدة إذن من الاحتفاظ بوسيلة اذا كان الاستعمار قد وَجد خيراً منها ؟

أجمل عبدالعزيز فهمي أهداف المساعدات الفنية وأغراضها الحقيقية اجمالاً جيداً في كتابه « الاستعمار عدو الشعوب » (١) واستشهد بالحقائق التالية (٢) :

.... لقد أجاب مستر ترومان ، الرئيس الأميركي السابق ، على أسئلة طرحت عليه في مؤتمر الحزب الديمقراطي الذي عمد في أثناء الحملة الانتخابية لرئاسة الجمهورية ، في أواخر عام ١٩٥٢ ، فقال : « ان مشروع النقطة الرابعة يعني بالنسبة للولايات المتحدة توسيع نطاق التجارة وزيادة أسواق التصريف وتموين أميركا بالمواد الأولية » . وكذلك ذكر أحد زعماء الحزب في المؤتمر نفسه أن مشروعات النقطة الرابعة من شأنها أن تضع البلاد المتخلفة في خدمة الخطط العسكرية للولايات المتحدة الأميركية لأنها ستكون منابع للمواد الأولية الاستراتيجية . وقال وزير الخارجية الأميركية السابق ، المستر دين اتشنسون : أن الدافع على الرغبة في نجاح المشروع ليس حب أميركا للنوع البشري ، بل هو مصلحة أميركا العملية . ويؤكد مستر سنكلر ، وزير التجارة الأميركية في حكومة الرئيس ايزنهاور أهداف مشروع النقطة الرابعة فيقول : « اني أرجّح (٣) أن أرى روؤس الأموال الخاصة لا القروض الحكومية ، هي التي ستتدفق على الخارج . واذا ما ذهبت قروض خاصة الى الخارج فمن رأيي أنه يجب على الحكومة الأميركية أن تسهر على تأمين نجاحها كما يجب أن تتمتع (روؤس الأموال هذه) بقسط من الحماية » . وليس من الخفي على أحد أن هذه المساعدات لا تبذل الا مع خبراء ينفذون في الدرجة الأولى اتجاه حكوماتهم في البلاد المتخلفة لا حاجات تلك البلاد المتخلفة .

وأقرب مثال على التدخل السياسي مع المساعدات الفنية مشروع بناء السد العالي على نهر النيل في مصر. عرضت الولايات المتحدة على مصر تمويل بناء سد على النيل بأموال بعضها

(١) ١٢٧ — ١٤١ .

(٢) مجلة الغرفة التجارية (في الولايات المتحدة) — السنة العاشرة ، مارس (آذار) ١٩٥٣ ، العدد ٣ ، ص ٩٦،٩ (الاستعمار عدو الشعوب ١٣١) .

(٣) افضل ؟

هبة وبعضها قرض طويل الأمد، ولكنها اشترطت شروطاً كثيرة مختلفة رأي الجانب المصري أن يدرسها بإنعام نظر . وطال الأخذ والرد بين الجانبين المصري والأميركي ، واتفق أن السياسة العربية عامة والمصرية خاصة كانت قد اقتنعت في تلك الأثناء — خطأ أو صواباً — بالتقرب من المعسكر الشرقي وبشراء الأسلحة من الدول المتصلة بالاتحاد السوفياتي بعد أن رفضت دول المعسكر الغربي بيع الأسلحة للعرب إلا بشروط قاسية جداً منها ألا يُستعمل هذا السلاح في محاربة اسرائيل. ولما رأت الولايات المتحدة أن لا أمل باعادة مصر الى قبضة الدول الغربية ، الولايات المتحدة وبريطانية وفرنسا ، أعلنت انها في الوقت الحاضر لا تستطيع تمويل هذا السد لأسباب منها أن ثمة دولاً لها مصالح في مياه النيل فيجب أخذ رأيها في توزيع تلك المياه . ومنها أيضاً ان الولايات المتحدة تشك في أن مصر ، في الوقت الحاضر أيضاً ، تستطيع أن تقوم بقسطها المالي لإنجاز هذا السد . كأن الولايات المتحدة لم تكن تعرف ذلك قبل اليوم . وفي اليوم نفسه أصدرت بريطانيا بياناً تذكر فيه الصعوبات التي تحول دون مساهمتها في تمويل السد العالي لأسباب لا تختلف عن الأعذار التي انتحلتها الولايات المتحدة(١).

وبعد فان القسم الأوفر من المبالغ التي تدفع في البلاد المتخلفة يذهب الى الموظفين. وغني عن البيان أن المرتبات الضخمة يتناولها الموظفون الدوليون (أي الأميركيون في الأكثر) لا الموظفون المحليون الذين تنفذ المشاريع في بلادهم .

وفيما يلي مثال واحد بسيط على العمل اليسير الذي تقوم به وكالة الاغاثة للاجئين الفلسطينيين والدعاية الضخمة التي ترافق ذلك العمل . جاء في نشرة « الأمم المتحدة » (٢) تقرير جُعل عنوانه « اعمال وكالة اغاثة وتشغيل اللاجئين خلال عام ١٩٥٤ » . غير اننا اذا طالعنا القرير وجدناه يتناول السنوات الخمس من ١٩٥١ الى ١٩٥٥ . وهكذا يبرز في العنوان العنصر الأول للدعاية الضخمة ، وهو ان المبلغ الذي ذكر في التقرير والذي يقرب من مائة وخمسة وأربعين مليوناً من الدولارات لم ينفق على اللاجئين في عام واحد ، كما يوهم العنوان بل في خمسة أعوام . فالوكالة قد أنفقت على اللاجئين اذن تسعة وعشرين مليون دولار في كل عام كانت الحكومات العربية تدفع منها مليون دولار في العام . وإذا رجعنا النظر في التقرير رأينا أن في وكالة الاغاثة نحو تسعة آلاف موظف يتناولون رواتبهم من هذا المبلغ . ولا يعقل أن تقل رواتب هؤلاء ونفقات الأدارة عن عشرة ملايين دولار

(١) جريدة الحياة (بيروت) ، السنة ١١ ، العدد ٣١٣٣ ، الجمعة ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٥٦ ، ١٢ ذي الحجة ١٣٧٥ .

(٢) نشرة اسبوعية يصدرها مكتب الأمم المتحدة للانباء في الشرق الأوسط ، المجلد الثاني ، العدد ٣٧ ، القاهرة في ١٦ سبتمبر (ايلول) ١٩٥٥ .

بحال من الأحوال . ولكن لنفرض أن رواتب الموظفين ونفقات الأدارة تدفعها الأمم المتحدة ، وان المبلغ المذكور كله ، وهو ٢٩,٠٠٠,٠٠٠ دولار ، ينفق على اغاثة اللاجئين المسجلين في سجلات وكالة الأغاثة ، وعددهم ٩٦٠,٠٢١ لاجئاً ، فيكون ما يصيب اللاجيء في العام نحو ثلاثين دولاراً . والواقع انه لا يصيب اللاجيء في العام إلا نحو خمسة عشر دولاراً أو دولار وربع فقط في كل شهر . أما تقرير وكالة الأغاثة فقد تبجح فذكر (٣) « ان جميع النفقات والمصروفات (لكل لاجيء) تبلغ ٢٢٥ دولاراً (مائتين وخمسة وعشر دولاراً) في كل شهر بالأضافة الى المؤن الخاصة التي وزّعت عيناً على المراضع والأطفال والمرضى والمصابين بسوء التغذية » . ان مائتين وخمسة وعشرين دولاراً تساوي نحو ستة وتسعين جنيهاً أو ألف ريال سعودي أو نحو سبعمائة وخمسين ليرة سورية لبنانية. هذا المبلغ يوازي في الشرق الأوسط راتب موظف كبير في الدولة، ولكن وكالة الأغاثة ذكرته تبجحاً ودعاية .

وبما أن نشرة الأمم المتحدة هذه كانت تصلني ، فقد لفت هذا التقرير وما فيه من المغالطات نظري . فكتبت الى رئيس تحرير النشرة رسالة (٤) أستوضحه فيها عما جاء في التقرير المنشور . ولقد ورد علي جواب (٥) ينسب « ذكر الرقم ٢٢٥ دولاراً » الى خطأ آلي . ولكنني لا أذكر أن نشرة الأمم المتحدة قد صححت « هذا الخطأ الآلي » في عدد من أعدادها التالية . ثم انقطعت هذه النشرة عن الوصول إليّ .

غير أن ما هو أدهى من ذلك وأمرّ أن وكالة الأغاثة تسوم اللاجئين سوء العذاب بالاهمال والاذلال والتعذيب والتنكيل حتى سمّيت في الصحافة المحلية « وكالة الابادة » . وأخبار سوء معاملتها للاجئين تملأ الصحف العربية . أما ما يقال عن تحيز الوكالة لأعداء اللاجئين ولأساليبها التبشيرية والاستعمارية فكثير مشهور في الصحف المحلية ، وليس هذا الكتاب موضعاً له .

نشر الفساد

بعد فتنة سنة الستين (عام ١٨٦٠) م أرسلت فرنسة جيشاً لتحتل جبل لبنان دفاعاً عن الموارنة . « ولقد كان الاحتلال الفرنسي لعنة في سورية ، فقد فتح الافرنسيون يومذاك في

(١) نشرة الامم المتحدة الآنفة الذكر ، الصفحة ٢ ، في الوسط ، والصفحة ٣ ، في الوسط .
(٢) بتاريخ ٧ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٥ .
(٣) بتاريخ ٢٤ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٥ .

لبنان خمسين حانة وعدداً كبيراً من بيوت الدعارة . وكذلك تفشى السكر الى حد لم يكن من قبل معروفاً . ثم زال الاحتلال الفرنسي ، ولكن سيئاته لم تُزل » (١) .

ولم يكن الافرنسيون في ذلك وحدهم مَثَلَ السوء ، بل جاراهم الانكليز كخيل الرهان . وصلت الى بيروت سفينة حربية انكليزية فنزل بحارتها الى المدينة — على عادتهم — وجاء خمسة من هؤلاء سكارى الى حانة يديرها مسيو ترويه (٢) وطلبوا خمراً فلم يعطهم . عندئذ اندفعوا الى الحانة يحطمون ما فيها ، فأخذوا وسجنوا . ويقول المبشر جسب بصراحة أن هذا العمل قد حط من قدر الانكليز في عيون أهل بيروت ، وكان مما يقلل الثقة بالمبشرين (٣) .

ومما يستحق الذكر ويساعد على فهم هذه السياسة من الافساد الجديّ الذي كان يرافق الأعمال الاجتماعية التي كان الغربيون يقومون بها في بلادنا رياء وتغطية لمآربهم « أنه كان في بيروت عام ١٨٥٦ حانة واحدة يديرها رجل يوناني . غير أن « الباشا » — الحاكم — أغلقها . ولكن القنصل اليوناني احتج على ذلك ثم فتحها لأن صاحبها يتمتع بحماية دولة مسيحية ... وكذلك كانت الخمر تشحن من انكلترة الى الامبرطورية العثمانية لتفتك بالشعوب العثمانية كما هي الآن (٤) تفتك بالقبائل الافريقية » (٥) .

والانكليز قديمو العهد في صناعة الافساد الخلقي الولوج بالاستعمار الى مناطق العالم المختلفة . في عام ١٨٣٩ ثارت بين انكلترة والصين حرب عرفت باسم حرب الأفيون ، ذلك لأن الشركات البريطانية كانت قد أنشأت في البنغال — شرقي الهند — مزارع ومعامل للأفيون وأخذت ترسله الى الصين جهراً وسراً . ولما حاولت الصين أن تمنع دخول الأفيون الى بلادها حرصاً على صحة أهلها ، هبت انكلترة لمحاربة الصين دفاعاً عن حرية التجارة ، وانتهت حرب الافيون بانتصار انكلترة وعقد معاهدة نانكين (١٨٤٢) واستيلاء الانكليز على جزيرة هونغ كونغ . واستمر تهريب الأفيون الى الصين احتكاراً تاماً للانكليز وللشركات الانكليزية (٦) . وهكذا فرض الانكليز هذا المخدر بقوة السلاح على أهل الصين تنفيذاً لخطة أملتها مطامع الاستعمار (٧) .

(1) Jessup 233 ff., 730.
(2) Mr. Troyet.
(3) Jessup 235.
(٤) في زمن المبشر جسب : Jessup
(5) Jessup 120.
(٦) راجع الاستعمار عدو الشعوب ، ص ١٩ وما بعدها .
(٧) قصة العقاقير للدكتور محمود سلامة (سلسلة اقرأ رقم ١٢٤) ، ص ٩ .

ولا ريب في أن تهريب «حشيشة الكيف» (الحشيش) الى مصر لم يكن سببه براعة المهربين المحليين فقط وعجز الانكليز عن اكتشاف وسائل التهريب . ولقد ظهر الآن وراء كل شك ان عمليات التهريب الكبرى تستند الى مساعدات دولية هامة .

أما لماذا يستجيز الأوروبيون افساد الشعوب في آسية وأفريقية فليس ذلك فقط لأنهم يحبون الكسب والسيطرة ، بل لأنهم أيضاً يعتقدون أن الشعوب الملونة أقل منهم قدراً في سلم الانسانية . من هذا الاعتقاد نشأت فلسفة أوروبة في الاسترقاق والاستعمار .

منذ أوائل القرن السادس عشر للميلاد بدأ البرتغاليون تجارة الرقيق ، ثم تبعتهم في ذلك دول أوروبة . وبلغ الاتجار بالزنوج مداه في بريطانية ، حتى أن الملكة أليزابت الأولى شاركت الجلاّبين في تجارتهم هذه وأعارتهم بعض سفن أسطولها . وتطلبت انكلترة عذراً للاتجار بالرقيق الأسود فتبرع لها به رجال الدين . لقد وجدوا في التوراة (١) أن حام بن نوح كان قد أغضب أباه ، قيل أن نوحاً سكر يوماً ثم تعرى ونام في خبائه ، فأتفق أن ابنه حاماً أبصره على هذه الحال . فلما استيقظ نوح وعلم أن حاماً قد أبصره عارياً دعا عليه ولعن نسله الذين هم كنعان وقال بلفظ التوراة : « ... ملعون كنعان . عبد العبيد يكون لاخوته . وقال مبارك الرب آله سام . وليكن كنعان عبداً لهم (٢) . ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام . وليكن كنعان عبداً لهم » . وبما أن الأوروبيين يعتقدون انهم أبناء يافث وان الزنوج هم أبناء كنعان بن حام فقد أفتوا بأن استعباد الزنوج مباح أو هو واجب بلفظ التوراة ، والتوراة أساس الدين . والغريب في ذلك ان الأوروبيين قد وصلوا الى القرن العشرين من تاريخ المدنية ولا يزالون يعتقدون ، وخصوصاً الانكليز والاميركيين ، ان الرقيق مباح وان الاتجار بالبشر كالاتجار بالقطن والدجاج . على أن الأوروبيين يحرمون الرقيق في المؤتمرات والصحف والمجلات ، ولكنهم يسترقّون الناس ويهدرون الكرامات فعلاً كل يوم . ومعاملة الانكليز والهولنديين للزنوج والهنود معروف (٣) . أما معاملة الاميركيين البيض للاميركيين السود في الولايات المتحدة نفسها فقد بلغ من السوء والفظاعة والهمجية ما خرج عن طوق الخيال ، وامتلأت به الصحف والمجلات والكتب ، الا الضميرَ الاميركي فانه لا يزال متسعاً هادئاً ، لا هو يطفح بتلك الفظائع ولا هو يتحرك عند رؤيتها تمثل كل يوم أمام عينيه .

(١) سفر التكوين ٩ : ١٨ — ٢٧ .
(٢) سفر التكوين ٩ : ٢٦ .
(٣) يطالع القارىء بلا ريب كثيراً من أخبار النزاع العنصري الشعبي والرسمي في جنوبي افريقية .

جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات

مما لا ريب فيه أننا اصبحنا مقتنعين الآن بأن للتبشير ظاهراً وباطناً ، وبأن المبشرين يتوسلون بظاهر الأعمال الاجتماعية الرحيمة الى باطن التبشير الاستعماري . فمن اوجه النشاط الاجتماعي التي تُستغل في التبشير : جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات (١) ، المخيمات ، مؤتمرات الطلاب ، الألعاب الرياضية ، بيوت الطلبة ، ملاجىء الأطفال ثم نشر الكتب (٢) ؛ مظاهر كلها بريئة مفيدة ولكنها تحمل في طياتها التبشير الذي يقود الى الاستعمار . وبما ان الكلام على هذه كلها معناه إعادة الكلام على التبشير كله ، فاننا سنشير الى ما لم تسبق الإشارة اليه من قبل اشارة موجزة .

إن فروع جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات قد نشرت في الشرق لتكون عوناً على تغلغل التبشير المسيحي . يقول أديسون (٣) :

ان عوامل التعليم المسيحي في مصر ، تزيد قوة على قوتها بمؤسستي جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات ، وهما مؤسستان غير طائفيتين (٤) ... إن لهاتين الجمعيتين مراكز نشيطة ، وخصوصاً في القاهرة والاسكندرية . هذه الفروع تقدم (للمسلمين) مناسبات مختلفة للألعاب الرياضية .. وتهيىء في المجتمع ألواناً من النشاط تندر في الشرق ... وفي هذا اقتراب من المسلمين (بالتبشير) .

ويصرح الكاتب نفسه بمهمة جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات في اواخر كتابه ، وحينما يتكلم عن فلسطين خاصة ، فيقول :

منذ الاحتلال البريطاني لفلسطين اتسع التبشير البروتستانتي واخذ المبشرون يستخدمون

(١) لقد تبدل اسم هاتين الجمعيتين فأصبح : الجمعية المسيحية للشبان والجمعية المسيحية للشابات . وفي هذا التبديل غرض غير خفي . ان معناها اللفظي الأول كان : جمعية الشبان المسيحيين وحدهم والشابات المسيحيات وحدهن . اما الآن فالمعنى اللفظي قد أصبح : جمعية مسيحية (يديرها المسيحيون) للشبان (لكل الشبان) وللشابات (لكل الشابات) . على ان المقصد الحقيقي كان من قبل كما هو الآن . وهو الآن كما كان من قبل.
(2) Christian Workers 23 - 26 , 61 ff .
(3) Addison 159, cf . 110 .
(4) ibid 328 f .
لما قال اديسون عن جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات انهما (غير طائفتين) عنى انهما تقبلان أعضاء من جميع الأديان والمذاهب ، ولم يعن انهما لا تشتغلان بالأمور الدينية الطائفية .

كل شكل من اشكال التبشير استخداماً فعالاً . من ذلك التبشير الاجماعي والفردي ، ومن ذلك توزيع الأناجيل والكتب المسيحية الأخرى ، وكذلك التعليم الابتدائي والثانوي (حتى اصبح في فلسطين واحدة وأربعون مدرسة فيها اربعة آلاف وثمانمائة تلميذة . ثم هنالك الأعمال الطبية والمستشفيات والمستوصفات . ومن ذلك ايضاً الأعمال الاجتماعية التي تقدمها مؤسسات مثل مؤسستي جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات) .

ولقد كان ولبرت سميث اشد صراحة في مقال له عنوانه « جمعية الشبان المسيحيين في الشرق الأدنى » (١) ، قال :

« إن جمعية الشبان المسيحيين قد جاءت الى الشرق الأدنى لتعاون المؤسسات المسيحية . اما هدفها الرئيسي فهو تنشئة الشبان على اسس مسيحية . ولفروع هذه الجمعية منهاج دائم ، ولها اجتماعات تعرض فيها الدعوة بلا استحياء ولا تحوير . وهنالك ايضاً سلسلة من الاجتماعات التبشيرية » .

ومع كل هذه الأدلة الظاهرة على ان جمعية الشبان المسيحية وجمعية الشابات المسيحية آلات للتبشير ، فان نفراً من أصدقائنا قد أنكروا ذلك وأنكروا علينا حشر هاتين الجمعيتين بين المؤسسات التي تعمل في التبشير ، وكانوا يدّعون دائماً — ويصرّون على دعواهم — بأن الجمعيتين المذكورتين تقومان بنشاط اجتماعي فقط وليس لهما صلة بالتبشير البتة . على أن النص الآتي من كتاب «عمل الارساليات» تأليف كورنيليوس باتون صريح في هذا الشأن كل الصراحة (٢) :

« ان تقسيم العمل بين العاملين المسيحيين (في حقل التبشير) قد اقتضى ، بناء على الترتيب الحكيم ، ان يعهد الى جمعية الشبان المسيحيين بالعمل في المدن ، وخصوصاً بين الطلاب والطبقات المثقفة في المدن . اما الصين فأنها افضل الميادين الموافقة في العالم لمثل هذا النوع من التقرب من شعب غير مسيحي ... ان هذه الجمعية ، تستطيع ، بواسطة نشاطها الجانبي في الحياة الاجتماعية والرياضية ، ان تجتذب رجالاً ليس بالأمكان ان يتقبلوا النصرانية بطريقة شخصية ..... ان جمعية الشبان المسيحيين قد قامت بخدمة قيمة جداً .... من طريق الاجتماعات الخطابية العامة . فقد طاف بعض الخطباء بشيء من وسائل الايضاح المتعلقة بالتلغراف اللاسلكي وبغيره من الاختراعات مما يمكن ان يثير فضول الصينيين واهتمامهم. وقد سمع محاضرات الاستاذ روبرتسون ما لا يقل عن مائة ألف شخص وشاهدوا

(1) The Y.M.C.A. in the Near East, by Wilbert B. Smith, MW. Apr. 33, pp. 148ff.
(٢) باتون ٧٩ – ٨٣ .

تجاربه العلمية ..... وكان الاستاذ روبرتسون يضيف الى كلامه على العلم عرضاً للنصرانية على أساس من الحياة الشخصية والقومية في الصين . ولقد تعود عدد من الخطباء ايضاً ان يهتموا بالجانب الروحي . وكان الذين يحضرون هذه الاجتماعات الدينية الخالصة يزيدون على عدد الذين يأتون الى المحاضرات العادية . وفي أثناء رحلة (خطابية) مثل هذه خطا نحو ستة عشر ألف شخص خطوتهم الأولى نحو تقبل النصرانية . وهكذا يبرز النشاط الاجتماعي والفكري لجمعية الشبان المسيحيين بين وسائل التبشير في الصين .

.... اما جمعية الشابات المسيحيات فانها تحاول ان تصنع لنساء الصين ما تحاول جمعية الشبان المسيحيين صنعه للرجال » .

ولا ريب في ان عمل هاتين الجمعيتين في سائر بلاد العالم ، وفي البلاد العربية بطبيعة الحال ، لا يختلف عن عملهما في الصين في شيء البتة .

المرأة : فتاة واماً

ويهتم المبشرون خاصة بالمرأة . إن المرأة مدار الحياة الاجتماعية ، والوصول بالتبشير اليها وصول الى الاسرة كلها . من أجل ذلك كانت جمعية الشابات المسيحيات بفروعها ، ومن اجل ذلك كانت المنازل والمعاهد التي يعدها المبشرون للفتيات خاصة (١) .

ويصفق المبشرون باليدين لأن المرأة المسلمة قد تخطت عتبة دارها . لقد خرجت الى الهواء الطلق ، لقد نزعت عنها حجابها . ولكنهم لا يصفقون لأن المرأة المسلمة قد فعلت ذلك ، بل لأن فعلها هذا يتيح للمبشرين ان يتغلغلوا عن طريق المرأة في الأسرة المسلمة بتعاليمهم التبشيرية . ولهذا السبب خاصة اخذ المبشرون منذ أمد يأتون بالنساء المبشرات ليتصلن بالنساء المسلمات وهم يصيحون : لقد سنحت لنا فرصة جديدة (٢) .

وللمرأة عند المبشرين اهمية عظيمة ، قال نفر منهم (٣) :

« بما ان الأثر الذي تحدثه الأم في اطفالها — ذكوراً واناثاً — حتى السنة العاشرة من عمرهم ، بالغ في لاهمية ، وبما ان النساء هن العنصر المحافظ في الدفاع عن العقيدة ، فاننا نعتقد ان الهيئات التبشيرية يجب ان تؤكد جانب العمل بين النساء المسلمات على انه وسيلة مهمة في التعجيل بتنصير البلاد الاسلامية » .

من اجل ذلك اهتم المبشرون بالتبشير بين النساء اهتماماً خاصاً ، ووضعوا له البرامج

(1) cf. Supra ; cf. too MW. Oct. '37, pp. 362 ff.
(2) Milligan 64 f.
(3) Christian Workers 40.

المفصلةواكثروا من ارسال المبشرين والمبشرات لهذه الغاية ، ثم استعانوا على ذلك بكثير من الجمعيات النسائية في اميركا (١) .

وتبدّى موضوع المرأة في صورته الحقيقية من ان المرأة عنصر فعال في الحياة الدينية ، فاذا بالمؤتمر التبشيري الذي عقد في القاهرة عام ١٩٠٦ يتمخض ، فيما تمخض عنه ، عن هذا النداء الذي وضعته الاعضاء المبشرات في ذلك المؤتمر :

« ... لا سبيل إلا بجلب النساء المسلمات الى المسيح . إن عدد النساء المسلمات عظيم جد لا يقل عن مئة مليون ، فكل نشاط مجدٍ للوصول اليهن يجب ان يكون اوسع مما بذل إلى الآن . نحن لا نقترح ايجاد منظمات جديدة ، ولكن نطلب من كل هيئة تبشيرية ان تحمل فرعها النسائي على العمل واضعة نُصبَ عينيها هدفاً جديداً هو الوصول إلى نساء العالم المسلمات كلهن في هذا الجيل .. (٢) » .

ومنذ زمن قديم والمبشرون يرون ان يهاجموا هذا المعقل الحصين في الاسلام ، فزعموا ان المرأة المسلمة متأخرة ، وانها لا تتحرر إلا اذا دخلت في النصرانية (٣) . ثم انهم يزعمون ايضاً ان الدين الاسلامي نفسه مصدر ألمٍ للمرأة المسلمة ؛ انها تتألم بسببه طبيعياً وروحياً وعقلياً : انها تخاف من زوجها ومن الموت ومن الطلاق (٤) .

على ان الذي يفتريه المبشرون على المرأة المسلمة كثير لا سبيل الى حصره ولا الى تعداد وجوهه ، فلماذا يفعلون ذلك ؟ إن لذلك عندهم غايتين (٥) :

١ — ان يثيروا عاطفة الاغنياء من النصارى في اوروبة واميركة للبذل في سبيل التبشير .

٢ — ان يحطموا من عزيمة المسلمين ويحملوهم على الشعور بالنقص في أنفسهم .

ويبالغ بعض المبشرين فيزعم ان المسلمين لا يستطيعون ان يتخيلوا ان بامكان المرأة ان تتعلم الدين . فمن أجل ذلك يريد هذا المبشر الذكي ان يستغل المبشرون كلهم هذه الناحية فيرسلوا إلى افغانستان خاصة نساءً مبشرات منهم . من هذا السبيل تستطيع هؤلاء المبشرات ان يدخلن الى الحريم (٦) فيبشرن بين نسائه من غير ان يتسرب شك الى الافغانيين بحقيقة مهمتهن (٧) .

(1) Re - Thinking Missions 271. 273, cf. 285 .
(2) Gairdner 305 .
(3) Methods of Missions 21 .
(4) ibid. 111 f.
(5) ibid . 110.
(٦) لا يزال كثيرون من الغربيين يعتقدون بأن البيت الاسلامي دائرة مضروبة على نساء يتمتع بهن الرجل على هواه.
(7) Islam and Missions 182 .

وبعد ان تُدرِّب هؤلاء المبشراتُ الأجنبيات نساءً وطنيات يتوجب عليهن ان ينسحبن من ميدان التبشير ويتركن مكانهن لمبشرات وطنيات من ابناء البلاد . على ان المبشرات الأجنبيات يجب ان يبقَين مديرات للعمل ومبشرات من وراء ستار (١) . والمبشرة عندهم على كل حال امرأة ذات شخصية مسيحية مشعة موحية (٢) .

وحينما ينظر المبشرون من خلال الأعصر والحوادث لا يستطيعون ان يَرَوا الا التبشير. يرى المبشرون ان الحرب العالمية الاولى قد اثرت في كل صقع وشعب ، وكذلك فعلت بالمرأة المسلمة فنبهت فطرتها الى طلب الحرية . ان لهذا التبدل الطارىء على المرأة المسلمة عندهم قيمةً خاصة : ان نساء العالم الاسلامي قد اصبحن الآن — بعد هذا التبديل الجديد — اكثر تعرضاً لوصول المبشرين اليهن بالتعاليم المسيحية (٣) .

اما طريق التبشير بين الفتيات والنساء ، اللواتي تعضّهن الحاجة خاصة ، فقد لخصها مؤتمر قسطنطينة (في الجزائر) بما يلي (٤) :

« ان الحاجة الملحة المستعجلة انما هي إنشاء بيت او بيوت للفتيات المطلقات والأرامل الصغار . ويجب ألا تكون هذه البيوت مؤسسات كبيرة ، بل اماكن يخيم عليها الجو العائلي ، ثم تفرّق النساء فيها حسب احوالهن وحاجاتهن . وكذلك مكثُ هؤلاء النسوة في تلك البيوت يجب أن يطول أو يقصر حسب المقتضيات الشخصية لكل واحدة منهن . ثم ان كل فتاة يجب ان تعلّم من الصناعات المحلية ما يمكنها العيشُ به بعد ان تغادر تلك البيوت » .

« واخيراً نرى ان امثال هؤلاء النسوة يكنّ في اثناء مكثهن في هذه البيوت تحت تأثير الانجيل . ثم اننا نختار منهن أولئك اللواتي يرجى ان يمرّن أكثر من سواهن ليكنّ بدورهن مبشرات بين قومهن . ولقد اعتنق الافرنسيون ايضاً هذا الرأي في التبشير بين النساء » .

ويبدو انتشجيع الشبان غير المسيحيين على الزواج بالفتيات الأجنبيات المسيحيات من وسائل التبشير ايضاً . هذا الموضوع شائك يحتاج الى شيء من البسط حتى تُفهم مقاصدنا من طرقه. ان للزواج بالأجنبيات ، في جميع الشعوب ، عواملَ مختلفة . من هذه العوامل استظراف الجمال الغريب ، وإن كان في بعض الأحيان أقل قدراً من الجمال المألوف . ان الآسيوي الأسمر يميل الى الأوروبية المهقاء (٥) او التي أوتيت بسطة في الجسم وإن كانت بنت جلدته

(1) Re - Thinking Mission 182 .
(2) ibid 283 .
(3) Missionary Outlook 66 ff .
(4) Christian Workers 71 .
(٥) المهقاء هي البيضاء الخالصة البياض (كلون الكلس) أي التي لا يخالط بياضها حمرة او صفرة .

احسن منها في الناحية الروحية والالفة في الحياة البيتية وتوفير السعادة .

ولكن لما انتشرت الحضارة الغربية في الشرق وانتشر معها شيء يسير اوكثير من الثقافة الأجنبية والذوق الأجنبيّ وأساليب الحياة الأجتماعيّة المألوفة في الغرب ، ثم ظل جانب كبير من الحياة في الشرق موصداً دون هذه الأساليب التي اتفق انها اوثق صلة بالغريزة البشرية وأكثر تساهلاً في سلوك الأفراد الشخصي والاجتماعي ، مال المثقفون بالثقافة الغربية من الشرقيين الى الانفلات من البيئة الشرقية المغلقة للانطلاق في البيئة الغربية المشرعة الى كل جهة . ثم لما كثر ايضاً التردد بين الشرق والغرب للتجارة والاسفار وطلب العلم والبعثات المختلفة نشأت دواع من الالفة والحب والمصلحة واتفاق الأذواق بين الشرقيين والغربيات في الأكثر .

ولقد أجاز الاسلام الزواج بالكتابيات من اليهوديات والنصرانيات بعد أن سكنت عواصف العداوة بين الاسلام وبين اليهود والروم النصارى . ثم جئنا نحن اليوم نقيس الفرنسيات والبريطانيات والأميركيات على الروميات في صدر الاسلام بجامع النصرانية بينهن ، فنتزوج بهن من غير حرج ، مع ان الأميركيين والبريطانيين والإفرنسيين هم ألد أعدائنا اليوم . فاذا نحن عرفنا ان زواج المسلم بالنصرانية واليهودية كان محرماً في بدء الدعوة الاسلامية لاشتداد اوار الحرب والعداوة بين المسلمين وبين اليهود والنصارى ثم جاز الزواج بالنساء منهم لما زالت دواعي العداوة والحرب ادركنا ان الزواج بالفرنسيات والبريطانيات والأميركيات يجب ان يكون اليوم ممنوعاً حكماً ، للعداوة التي يحملها الغربيون للاسلام وللحروب الدائرة فعلاً بين المسلمين والغربيين في كل مكان . ولا ريب ابداً في ان الزواج بالإسرائيليات ، وباليهوديات اللواتي لا يسكن اسرائيل ايضاً ، يجب ان يكون محرماً قطعاً (١) .

ونأتي الآن الى الصعيد الشخصي ، الى الموضوع المقصود . قد تختلف اجنبية من اجنبية وقد تكون بعض الأجنبيات — في نواح معينة — افضل من الشرقية في تلك النواحي ، في الجمال مثلاً او العلم او السلوك الاجتماعي . ولكن حينما تضع الجماعات اسساً لحياتها السياسية والاجتماعية والخلقية تضرب عن اعتبار الشواذ ولا تلقي بالاً الى الأحوال النادرة بل تقصد الى القواعد العامة وتهتم بمصلحة العديد الأكثر . من اجل ذلك قد نرى مسلمين تزوجوا بأجنبيات وهم يعيشون عيشة هنيئة صحيحة ، بل قد نرى ايضاً أولاداً ولدوا من امهات غير مسلمات ثم هم مع ذلك ذوو محافظة على الشعائر وغيرة على الإيمان . ولكن القاعدة العامة هي أن الزواج بالأجنبيات غير المسلمات يسلب البيت الاسلامي جوّه

(١) راجع الاسرة في الشرع الإسلامي ، تأليف الدكتور عمر فروخ ، ص ٨٢ .

الروحي الاسلامي ويبدّل كثيراً من المثل العليا فيه . والغالب ان مثل هذا البيت لا ينشأ على اللغة العربية ، او قد ينشأ على لغة اجنبية الى جانب اللغة العربية . وإذا علمنا ان اللغة الأجنبية تكون في هذه الحال لغة الأم ادركنا تأثير تلك اللغة على الأولاد وخصوصاً حينما يكون الأب جاهلاً لتلك اللغة او قليل المعرفة بها .

ثم يجب ان ندرك وراء كل ريب ان الزواج بالأجنبيات ينشأ دائماً من دواع عارضة : من استلطاف في أمر من الأمور ، او فورة عاطفية ، او ألفة في رحلة ، او هرباً من نفقات الزواج في الشرق ، او من جبن اجتماعي في البيئة التي نشأ فيها الشاب المسلم وانفتاح البيئة الجديدة التي وجد فيها نفسه ، او ما يشبه ذلك من الأمور الوقتية الزائلة . وكذلك يجب ان نعلم ان اشخاصاً كثاراً لهم قيمة اجتماعية او سياسية او قيمة ذاتية على الأقل وُضع في طريقهم فتيات تزوجوهن ثم وجدوا انفسهم مضطرين الى الانسلاخ من بيئتهم فخسرتهم بيئتهم وفقدت بفقدهم عاملاً قوياً في انهاضها او اصلاحها .

ويتمثل الخطر من الزواج بالأجنبيات في صورة بارزة جداً حينما تكثر الزوجات غير المسلمات في البيئات الاسلامية فتتخلخل حينئذ تلك البيئات وتضعف الحياة الاسلامية فيها . ويحسن ان نذكر ايضاً ان الزواج بالاجنبيات يترك آثاراً سيئة في الأسرة والمجتمع . ان الصدمة النفسية التي تصيب فتاتنا اذا رأت قريبها أو مواطنها من بني امتها قد آثر عليها اخرى اجنبية ، تعظم احياناً حتى تحمل تلك الفتاة على نقمة مرة تنتهي بكبت او ثورة عنيفة او استهتار هادىء ، وكل ذلك شر كبير . وكذلك يسلب الزواج بالأجنبيات مجتمعنا عدداً من الرجال فيزيد فيه عدد النساء ، فيخلق ذلك لنا مشكلة اجتماعية او يعقد المشكلة الناشئة في مجتمعنا الشرقي ، وفي المجتمع العربي الى حد ابعد ، من زيادة عدد النساء على الرجال . ان زواج الشرقيين بالغربيات يحل ، في هذه الناحية ، من مشاكل المجتمع الغربي ليزيد في مشاكل المجتمع الشرقي . وهكذا يكون الغربيون ، قصدوا هم او لم يقصدوا وأردنا نحن أو لم نرد ، قد وصلوا الى اهداف لهم سياسية ودينية . وأشد من ذلك ايلاماً أن نفراً من قادة العرب ونفراً من القائمين على رأس الحركات القومية العربية متزوجون بأجنبيات . فكيف يستطيع هؤلاء ان يكونوا ذوي بأس وصلابة في كفاحهم القومي وفي بيئتهم بينما أولادهم يرثون من الحمية الفرنسية من أمهم مثلاً مقداراً كالمقدار الذي يرثونه من الحمية العربية من أبيهم .

•

ويتوسل المبشرون الى التأثير في اذهان الشرقيين بالأبنية الفخمة العظيمة . ان كنائس

الارساليات ومدارسها وانديتها يجب أن تكون في رأي هؤلاء المبشرين شاهقة غريبة المظهر حتى تؤثر في عقول الزائرين وفي عواطفهم وخيالاتهم (١) . ان ذلك في اعتقاد المبشرين يقرّب غير النصارى من النصرانية .

لا ريب في أن للمظاهر العاقلة تأثيراً في النفوس . ولكن ما علاقة البناء الجميل بصحة الدين ؟ ولو فرضنا ان ثمت مثل هذه العلاقة لوجب علينا أن نعتقد ان الأهرام في مصر وقلعة بعلبك في الجمهورية اللبنانية وهياكل بورما والهند تدل على ان عبادة الثور المصري وأن الوثنية الرومانية أفضل من النصرانية . هذا من الناحية النظرية ، اما من الناحية العلمية فان المبشرين قد أقاموا في القدس بناء فخماً يضم جمعية الشبان المسيحيين ، بناء يعد من أجمل الابنية وافخمها في الشرق . ومع ذلك فان المبشرين انفسهم قد ساعدوا على تسليم فلسطين لليهود . ان المبشرين لا يبشرون بالدين المسيحي بقدر ما يبشرون بالسيارات الاميركية والمنسوجات البريطانية . هم يدعون انهم يريدون ان ينشروا دين المسيح في أقاصي الأرض ثم هم يسلمون مهد المسيح نفسه الى اعداء المسيح .

ماذا تضم هذه الاندية ؟

تضم هذه الأندية نشاطاً اجتماعياً مختلف الأنواع والالوان . هنالك حفلات تقام ، ومحاضرات تلقى ، وليالي انس وسمر ، ومطاعم ، ومنامات يأوي اليها محبو الاقتصاد واسباب تسلية يغشاها الشباب . على ان الذي تضمه هذه الأندية ليس أمراً مقصوداً لذاته ، اي ان عمدة هذا النادي لا يهمها ان يأتي الناس ليتمتعوا بما في النادي من اسباب التثقيف والترويح ، بل يهمها ان تجتذب بهذه الأسباب اناساً يستمعون الى صوت المبشر الانكليزي او الاميركي او الفرنسي او الهولندي ، او ليجد حبّ الغرب طريقه الى قلوب الشرقيين على الاقل . اما التقوى المسيحية او الانسانية الغربية فيجب ان نبحث عنهما في الولايات المتحدة وميادين اوروبة !

ما الهدف الصحيح لهذه الابنية ؟

هذه الأبنية الضخمة ، وما تضم من اندية ومنامات ومطاعم وما الى ذلك ، انما هي للتأثير في اولئك الذين سيصبح لهم في بلادهم اهمية ما ، او لمساعدتهم — على الاصح — لأن تصبح

(1) Re-Mhinking Missions 13.

لهم تلك الأهمية (١) ، فيتيسر للغربيين حينئذ من طريق هؤلاء ان ينفذوا الى حياة الشرقيين .

ومن ابرز انواع الأندية «بيوت الشباب» . وهذه في الحقيقة نزُل ينزلها من تضيق في وجوههم سبل العيش من الشبان او ممن لا بيوت لهم ابداً . وقد اصبحت هذه النزل جزءاً من البرنامج التبشيري منذ عهد قريب — بعد الحرب العالمية الأولى — فقد اخذ المبشرون يؤوون إلى هذه النزل الصبيان والبنات والذين لا بيوت لهم ، وقد كان هؤلاء يعلّمون فيها أو يدربون على الأساليب المسيحية (٢) . ويعتمد البروتستانت الفرنسيون على مثل هـــذه الأندية في شمالي افريقية ، وفي جنوبي الجزائر على الأخص ، للتبشير وبسط النفوذ (٣) .

اما في لبنان خاصة فيعد اليسوعيون امثال هذه الأندية « حرباً صليبية مسيحية (٤) » فهم يقولون : « إن الصليبية الافخارستية تزدهر بين الأيفاع (٥) والصغار . من هؤلاء تحشد هذه الصليبية خيرَ الجنود للاخوية (٦) ، وهؤلاء هم نواة النادي الكاثوليكي الذي أنشيء في جامعة القديس يوسف اليسوعية في بيروت .

هذا النادي ، الذي لا يزال يعمل ، هو للنصارى الكاثوليك وحدهم وعلى غرار الجمعية الكاثوليكية للشبان الافرنسيين (٧) ، ولكن يمكن ان يُقبل فيه نفر من النصارى الأرثوذكس على ان يكونوا اعضاء مشتركين ، لا اعضاء عاملين . إن بحوث هذا النادي (٨) بحوث مذهبية كاثوليكية . واما منهاجه فهو في الدرجة الاولى « الحياة الروحية » الكاثوليكية . وابرز ما في هذا المنهاج القداديس والبحوث المذهبية (٩) .

التعليم المجاني

وأما التعليم الذي يظهر عليه طابع الاحسان فان المبشرين يهتمون به ايضاً . يعتقد اليسوعيون انه يجب ان يقوم الى جانب كل مدرسة يدفع طلابها النفقات المدرسية مدرسة

(1) Milligan 108 .
(2) ibid 108 f .
(3) cf. MW, Apr. '38, p. 207 .
(٤) في الأصل : صليبية افخارستية — Croissade Eucharistique .
(٥) الأيفاع : جمع يفع : الغلام في العاشرة من سنه او فوق ذلك قليلا .
(٦) الاخوية جمعية دينية مسيحية .
(7) Association Catholique de la jeunnness française ,
(٨) يعرف هذا النادي باسم : Foyer de la jeunnesse Catholique
'9) Les Jesuite en Syrie 5 : 23 ff .

صغيرة للفقراء مجانية ، لا لتعليمهم في الدرجة الأولى بل لحفظ المظهر التبشيري باديـا للعيان (١) . ان الفقراء أكثر انقياداً لقبول هذا المظهر من أندادهم من أبناء الأغنياء .

هذه النزعة في التعليم المجاني لا ينفرد بها اليسوعيون الافرنسيون وحدهم ، بل يتنازعها جميع المبشرين . ولقد استطاع المبشرون المشيخيون (٢) الأمريكيون ان يغلبوا المبشرين الآخرين في هذا الضرب من الاحسان (٣) . ومن الأمثلة التي تدل على اهتمام المبشرين بالتعليم المجاني ان المدارس الفرنسية والروسية (كانت) تعلم مجاناً ثم تقدم الكتب والطعام واللباس احياناً بلا مقابل (٤) .

المكتبات والمصور والاستكشاف والنشر

واستغل المبشرون جميع أوجه النشاط الاجتماعي للتبشير ، حتى تلك التي لا يسبق الوهم الى انها بؤرات تبشيرية . من هذه الأوجه كلها انشاء المكتبات لبيع الكتب في الظاهر ولتكون ستاراً لأدارة اعمال التبشير . ولقد اتفق ذلك في اول الأمر حينما كانت الدولة العثمانية تنظر الى المبشرين نظرتها الى الجواسيس ، كما مر معنا في فصل « السياسة » .

من هذه المكاتب مكتبة شارليه بازييه (٥)، وكانت لاتزال الى عهد قريب قائمة في السوق الطويلة في بيروت باسمها وبنائها . ثم هنالك المصور القديم المعروف باسم بونفيس (٦)، ولقد كان محله في بيروت مشهوراً ، وهو الذي خص نفسه باخذ مشاهد سورية ولبنان على بطاقات بريدية . على ان محل بونفيس قد زال الآن . وهنالك نفر كثيرون جاءوا الى هذه البلاد تجاراً وأساتذة وأطباء ولكنهم كانوا طلائع للتبشير على ما عرفنا من قبل . ويهمنا ان نعلم الآن ان اصحاب مكتبة شارليه بازييه والمصور بونفيس كانوا من البروتستانت الافرنسيين ، وانهم ظلوا يعيشون في بلادنا حتى عام ١٩٢٦ (٧) .

وهنالك نفر من المبشرين جاءوا الى بلادنا تحت ستار البحوث العلمية كالاستكشافات الجغرافية والجيولوجية . من هؤلاء وليم غودل وعالي سميث ووليم طومسن الذي ظل

---

(1) ibid . 7 : 7 .

(٢) المشيخيون فرقة من البروتستانت Presbyterian

(3) Richter 222 f .

(4) ibid . 227 .

(5) Charlier Béziés .

ولكنها بعد ذلك اصبحت تبيع الى جانب الكتب وادوات الكتابة اشياء اخرى .

(6) Bonfils .

(7) Biauquis 26 .

يعمل مبشراً تحت ستار العلم خمسين عاماً (١) .

ومما لا ريب فيه ان للكتب تأثيراً كبيراً في الناس . وتلك ظاهرة لم يغفلها المبشرون ، إذ هم يرون ان أشد الوسائل أثراً كان انتاج النشرات المسيحية الى المسلمين (٢) . وبقطع النظر عن قيمة هذا الأثر الذي يزعمونه ، فان سياستهم في انتاج تلك النشرات تتبع التوجيه التالي :

يحرص المبشرون في الدرجة الأولى على نشر الكتب الدينية كالأناجيل الأربعة ، وعلى نشر اشياء من التوراة . ثم انهم يطرقون في نشراتهم موضوعات مختلفة ولكن يفرغونها في قالب مسيحي ديني . والمبشرون حريصون جد الحرص على ان يتولى كتابة هذه الموضوعات أشخاص وطنيون لا مبشرون أجانب ، او اشخاص صبأوا الى النصرانية حديثاً ، لأن هؤلاء يكونون اقدر على فهم عقلية جماهيرهم وعلى عرض تلك الموضوعات على شكل يقرب من فهم تلك الجماهير (٣) .

وفي بعض الاحيان يختار المبشرون موضوعات اسلامية لها مقابل في الديانة النصرانية (٤) ثم يموهون الحقائق ويقفزون فوق الفروق . إن القرآن الكريم يسمي المسيح «كلمة الله » ، ومعنى ذلك ان الله تعالى ألقى كلمته ، أي أمره ، بأن يولد المسيح على ذلك الوجه المعجز في التاريخ . ولكن المبشرين يأخذون « كلمة الله » ليفسروها التفسير النصراني . ووجه الخلاف ان كل شيء في هذا العالم كما يرى المسلمون كان بأمر الله : « انما امره إذا أراد شيئاً ان يقول له : كن ، فيكون (٥) . اما النصارى فيعتقدون ان التعبير : « كلمة الله » تعبير خاص بالنصرانية يجب ان يفهم على ان المقصود به عيسى بن مريم وحده ، وانه دالّ على الالوهية في المسيح .

للمبشرين ان يفهموا ذلك كما يريدون ، ولكن ليس لهم ان يقولوا على الاسلام ما لا يعلمون ، ان كل موجود وكل حادث في العالم « امر » يلقى من الله : « انما أمره إذا أراد شيئاً ان يقول له : كن فيكون » . وفي القرآن الكريم آيات كريمات تجعل عيسى كآدم مثلاً ، وتجعل آدم يتلقّى من ربه « كلمات» لا كلمة واحدة :

— ان مثل عيسى عند الله كمثلِ آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون . الحق

---

(1) Wm Goodell , Elie Smith . Wm. Thomson . cf . Richter 97 f .

(2) Enc . of Missions 600 .

(3) cf . Re-Thinking Missions 180 ff .

(4) cf . Methods of Missions 79 ff .

(٥) القرآن الكريم ٣٦ (سورة يس) : ٨٢ .

من ربك فلا تكونن من الممترين (١) .

— فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، انه هو التوّاب الرحيم (٢) .

ومع اننا لسنا هنا في مجال حِجاج فقهي لا فائدة منه ، فإننا لا نريد ان يقول المبشرون والمستعمرون بعلمهم او بأهوائهم ما يضر بالدين والقومية والوطن ثم نظل ساكتين لا نقول كلمة حق في وجه جاهل او ظالم .

ولقد تبنى المبشرون الفرنسيون خاصة هذه الطريقة ، ثم اكثر من الكلام فيها المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون ، الذي يقف علمه واستشراقه على التبشير الديني للوصول الى اهداف استعمارية ، شأن العدد الاكبر من المبشرين المتزيين بكل زي والمتلبسين بكل لباس .

ويرى المبشرون ان يتوجهوا بالكتب إلى طبقتين من المسلمين على الأخص : إلى طلبة الأزهر في مصر ، على اعتبار ان الأزهر معقل الاسلام ، وان الصابىء الأزهري — إذا اتفق ذلك — يكون عوناً للمبشرين على زيادة التغلغل في العالم الاسلامي . وعلى كل فالتبشير بين الأزهريين لا يزال تجربة فقط ، وإن كان المبشرون ينتظرون ان يتسع وان يقوم في الدرجة الأولى على الجدال والوعظ (٣) .

وأما الطبقة الثانية التي يحب المبشرون ان يصلوا إليها بكتبهم الدينية فهي طبقة النساء . لأنهم يزعمون ان المرأة المسلمة محجوبة (عن المجتمع والعلم ...) فيجب ان توضع لها كتب تتّفق مع حالها وعقليتها ودرجة تفكيرها (٤) .

الصحافة خاصة

منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى والمبشرون يسعون الى استغلال الصحافة استغلالاً واسعاً في سبيل التبشير . انهم يرون ان المسلمين يكثرون من قراءة الصحف ، ولكنهم يرون ايضاً ان « المادة المسيحية » قل ان يقبل عليها القراء ، وقل ان يفسح لها الصحفيون مكاناً في صدر صحفهم إلا اذا عُدت في باب الاعلانات ودفع المبشرون عنها أجراً بعدد

(١) سورة آل عمران (٣ : ٥٩ — ٦٠) ، الممترين : الشاكين . امترى : شك .

(٢) سورة البقرة (٢ : ٣٧) .

(3) Gairdner 274 f.

(4) Methode of Missions 85 f.

سطورها (١) .

إن الصحافة لا توجه الرأي العام فقط او تهيئه لقبول ما تنشر عليه ، بل هي تخلق الرأي العام . ويعلن المبشرون انهم استغلوا الصحافة المصرية على الأخص للتعبير عن الآراء المسيحية ، اكثر مما استطاعوا في اي بلد اسلامي آخر . لقد ظهرت مقالات كثيرة في عدد من الصحف المصرية ، إما مأجورة في اكثر الأحيان ، او بلا اجرة في أحوال نادرة (٢) .

على ان المبشرين انشأوا في العالم صحفاً يومية واسبوعية خاصة بهم ، فهنالك « بشائر السلام » و « الشرق والغرب » في مصر . ثم هنالك النشرة الأسبوعية التي أنشأها البروتستانت في بيروت وظلت تصدر حتى الى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ثم وقفوها عن الصدور لأنه اصبح من المتعذر عليهم أداء رسالتهم التي نذروا أنفسهم لها ، كما قالوا هم .

•

ونحن سنتناول هنا الكلام موجزاً على جريدة « البشير » . وللقارىء ان يجعل هذا الجريدة نموذجاً لجميع الصحف التبشيرية :

كانت المنافسة شديدة بين البروتستانت والكاثوليك ، فلما انتقل مركز التبشير البروتستانتي من بلدة عبيه (في الشوف ، بلبنان) الى بيروت نقل اليسوعيون مركز نشاطهم من غزير (في شمالي لبنان) الى بيروت ايضاً . ولقد كانت الصحافة هي المظهر الأول للمنافسة بين الخصمين المتفقين على الاسلام . ويظهر ان ثلاث صحف من الصحف التبشيرية الأربع التي كانت تصدر في بيروت عام ١٨٧٠ كانت بروتستانتية ، وهنالك صحيفة واحدة فقط كانت كاثوليكية (٣) .

كانت جريدة البشير جريدة دينية في المقام الأول تقدم في مقام الشرف من صدرها اخبار رومية والبابوية . اما العمل الرئيسي لجريدة البشير فظاهر الى حد كبير في ردودها غير المتراخية على أعداء البابوية واعداء توحيد الايمان الكاثوليكي (٤) . ولقد كانت رومية دائماً نُصب عيني « البشير » وهو يتابع عمله الديني والتمديني (كذا) . اما الآن ، بعد ان كثر اعداؤه ، فان نار ردوده قد بردت قليلاً ولكنها لم تنطفىء (٥) .

(1) cf. Christian Literature 257 ff, Cach 89.

(2) cf. Cash 89 ; Christian Ltterature 259 f.

(3) Les Jesuitcs en Syrie 5 : 8.

(4) ibid. 6 : 28.

(5) ibid. 6 ; 30.

وكان محررو البشير يتمتعون بحماية فرنسا ، ولذلك اخذوا انفسهم برد هذا الدّين من المعروف الى الأمة الفرنسية التي تستحق ان تعد بنت الكنيسة البكر (١) .

ولقد اعتمد المبشرون مدينتين لنشر كتبهم وصحفهم : القاهرة وبيروت . اما القاهرة فاتخذها البروتستانت مركزاً لتوزيع المنشورات المسيحية في القطر المصري وفي جميع العالم الاسلامي (٢) ، كما انهم اقاموا المطبعة الأمريكية في بيروت ، تلك المطبعة التي اصبحت أهم وسائل التبشير في الشرق كله (٣) . اما اليسوعيون فقد ركزوا جميع جهودهم في المطبعة الكاثوليكية في بيروت منذ عام ١٨٧١ ، وقاموا من طريقها بعمل تبشيري في الدرجة الأولى (٤) .

الكشفية والمخيمات

حتّى الكشفية من وسائل التبشير عندهم ، جاء في مقررات مؤتمر المبشرين الذي انعقد في القدس ما يلي (٥) :

« نحبّ ان نؤكد الأهمية البالغة للعمل بين الصغار وللصغار قبل ان تتشكل عقليتهم واخلاقهم تشكلاً اسلامياً . ان جميع الوسائط التي استخدمت وظهر نجاحها يمكن ان تستخدم من جديد لتوقظ عقول الصغار وتجلو اخلاقهم ، سواءٌ في ذلك ما تعلق بالمدرسة او ماكان خارجاً عن نطاق المدرسة . فمن ذلك مثلاً : الكشفية للفتيان وللفتيات — مدارس الأحد (الدروس الدينية التي تعطى ايام الآحاد بصورة مباشرة او غير مباشرة) — جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات وسواهما من منظمات الشباب — المخيمات والمؤتمرات للطلاب والأندية والرياضة وما يتصل بذلك — بيوت الطلبة التي زادت الحاجة اليها لزيادة عدد الطلاب (إن هذه البيوت يجب ان تكثر حتى يمكن ان نجتذب هؤلاء الطلاب الى مملكة المسيح) — بيوت للأطفال يشرف عليها مبشرون فقط .

ومثل هذا يفعل الافرنسيون في المغرب العربي ايضاً ، حتّى انهم يرسلون قسيسين يشرفون على مخيمات الكشافين ويوجهونها توجيهاً ظاهراً لا استحياء فيه . ولقد عقد مؤتمران

(1) ibid . 6 : 32 .
(2) Gairdner 275 .
(3) Addison 123 : Gairdner 275 .
(4) Les Jesuites en Syrie 6 : 21 .
(5) Christian Workers 23 f .

قبل عام ١٩٣٨ لمنظمات الشباب المختلفة ومنها : الكشافة والمرشدات (للفتيان والفتيات) . كان البرنامج فيهما يدور خاصة حول هذه الموضوعات : « التوراة « كلمة الله » ، « الكنيسة » ، « جسد المسيح » .

وفي عام ١٩٣٥ نظمت مؤسسة « الحزمة المغربية (١) » ، بالتعاون مع « اللجنة التبشيرية لشبان فرنسا » ، مخيماً تبشيرياً نُقل بعد مدة الى جنوبي الجزائر . وقد اشترك في هذا المؤتمر التبشيري ستون من زعماء (حزمة التبشير) في فرنسة وسويسرا (٢) .

انعاش القرى

والصناعة والزراعة

ان الذين يعيشون في سورية ولبنان يعرفون شيئاً عن مشروع انعاش القرى الذي تقوم به الجامعة الاميركية في بيروت ؛ هذا المشروع الذي تجمع له الأموال من طريق الحفلات والتبرعات ، وربما جند له الشبان ذكوراً واناثاً على الأخص من المسلمين احياناً .

ويختلف مشروع انعاش القرى من غيره من وجوه التبشير في ان التبشير فيه يجب ان يكون مستتراً لا ظاهراً (٣) . من اجل ذلك خاطبنا بعض الشبان المسلمين الذين اشتركوا عن حسن نية في هذا المشروع فأدركنا انهم هم انفسهم لم يفطنوا الى عنصر التبشير فيه الا بعد ان دللناهم على مواطن ذلك . وهكذا يرى المبشرون ان تُصرف العناية الأولى للتبشير بين النساء في القرى والدساكر ، بعد ان كاد التبشير ان يكون قاصراً على سكان المدن (٤) .

ويجب ان يجري التبشير في المزارع على شكل خاص ، يعيش المبشرون مع الفلاحين عيشة فلاحة وزراعة من غير ان يتظاهروا بأنهم مبشرون ، ولكنهم يجربون ان يحيوا حياة شخصية مسيحية . وهكذا يعتقد هؤلاء ان التأثير المسيحي ينتقل من هذه الطريق الى الفلاحين غير النصارى انتقالاً هادئاً غير ملحوظ . على ان هذه الحياة يجب أن تكون عندهم جزءاً من حركة التبشير العامة (٥) .

(1) Gerbe nord - africaine .
(2) MW, Ap. '38. p. 207 .
(3) Re - Thinking Missions 277 .
(4) ibid . 177 ff.
(5) Re-Thinking Missions 230, cf, 214, 236, 278.

ويجب ان نعتبر ان التبشير الحقيقي يقوم في هذه المؤسسات الاجتماعية كالمدارس والكليات والمستشفيات والمستوصفات النقالة على الأخص والمحطات الزراعية ودور النشر. وكل تبشير خارج عن هذه المؤسسات إنما هو شذوذ عن القاعدة الصحيحة (١) .

وكذلك الصناعة تستحق من عناية المبشرين ما تستحقه الزراعة تماماً . لذلك فرض المبشرون على المبشرين النصارى منهم وعلى النصارى ممن ليسوا مبشرين ، أن يخالطوا العمال ويعايشوهم حتى يسيطروا على الأوساط الصناعية بروح نصراني . وعلى المبشرين ان يؤثروا في العمال غير النصارى بسلوكهم الشخصي فيمثلوا لهم بأقوالهم وأعمالهم أن التقدم مسيحي ، وأن الاختراعات والاكتشافات مسيحية ، وأن الطرق الحديثة في الصناعة مسيحية ايضاً (٢) .

●

وهكذا يبدو لنا بجلاء ، قبل أن ننفض القلم من مداده ، أن جميع أعمال البر والاحسان التي يقوم بها المبشرون ، إنما هي وسائل للوصول بالنصرانية الى الشعوب غير النصرانية ، ثم التسرب بالاستعمار الغربي الى الشعوب الشرقية . ان جميع ما يتظاهر به المبشرون من النبل انما هو خداع ونفاق ، حتى في تلك الأعمال التي لا يسبق الى وهمنا انها كذلك ، كمشروع انعاش القرى مثلاً .

---

(1) ibid 12 .
(2) ibid 243, cf. 732 ff .

الفصل العاشر

تشويه الثقافة العربية الاسلامية

وسيلة الى الحط من شأن العرب والمسلمين في نفوسهم

المبشرون وأنصارهم يشجعون اللغة العامية رمياً الى تفكيك وحدة العالم الاسلامي

●

رأينا في الفصول التسعة السابقة أن المبشرين قد درسوا العالم الاسلامي من جميع نواحيه ثم وضعوا الخطط للقضاء على كل مقاومة أو مناعة فيه ، في كل ناحية من تلك النواحي . لقد استغلوا في سبيل مآربهم كل وسيلة ، من العلم والطب والسياسة والحياة الاجتماعية ومن الثقافة والادب واللغة . لقد حرّصوا على أن يسلبوا الاسلام كل مناحي الشخصية وكل أسباب الحياة . ولكن العالم الاسلامي لم يمت . لقد ظل العالم الاسلامي يستمد الحياة من ثقافته التي ما زالت حية تنير العالم منذ الف وأربعمائة سنة . ان الشرقيين والعرب والمسلمين قد اقتنعوا أنهم أخذوا يتأخرون منذ مطلع العصور الحديثة في ميادين الاختراعات المادية والعلوم النظرية والعملية وفي عالم السياسة الدولية وفي أسباب الحرب وآلاتها ، ولكن الشرقيين والعرب والمسلمين موقنون حق الايقان أنهم في العصور الوسطى قد أدّوا للعالم كله رسالة من أعظم الرسالات التي أدتها أمة من الامم ، بشهادة الفرنجة أنفسهم قبل عصر التبشير وبعد عصر التبشير أيضاً (١) .

---

(1) Cf. George Sarton, Introductin to the History of Science (3 vols.) ; The Incubation of the Westsrn , Calture in the Middle East .
وقد نقل هذا الكتاب الثاني الى العربية أحدنا الدكتور عمر فروخ باسم « الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط » ، مكتبة المعارف ، بيروت ١٩٥٢ ، الطبعة الثانية ، المكتب التجاري ، بيروت ١٩٦٤ .
Aldo Miele, La Science arabe et son rôle dans l'évolution Scientifique mondiale ; Heinrich Suter, Die Mathematiker und Astronomen der Araber und ihre Werke ; Gustave Le Bon, La Civilization arabe (architecture) ; A. R. Nykl, Hispano - Arabic Pcetry and its Relations with the Old Provençal Troubadours. Joseph Hell, Die Kultur der Araber: Edward J. Byng, The World of the Arabs (Boston 1944) , Ch. XlV : Our debt to Arab Civilization, pp. 225-269 ; Ch. XV : what Moslem Thonght Can Teach Us. pp. 269 -281 .

رأى المبشرون والمستعمرون عظمة الثقافة العربية الاسلامية وانها مصدر عزة للشرق وللعرب والمسلمين . ثم انهم أيقنوا ان امة لها هذه الثقافة لا يمكن ان تخنع او تذل او تبيد . وهكذا انصرفت اذهان هؤلاء المبشرين والمستعمرين الى تشويه وجه هذه الثقافة والى الحط من شأنها في نفوس أصحابها . وكان العمل عليهم سهلاً ، او هكذا ظنوه ، فقسموا ذلك العمل قسمين : قسماً يتناول حقيقة الرسالة التي اديناها نحن الشرقيين العرب المسلمين وما فيها من اوجه العظمة والحقائق التي كانت أساس الرقي الانساني او ما فيها من الآراء الصحيحة الخالدة على الدهر ، ثم قسماً من الحقائق الحديثة التي لم تُعرف قبل العصر الحاضر .

اما القسم الأول فساروا فيه ينحلون حقائقه الصحيحة وآراءه الصائبة غيرَ العرب وغيرَ المسلمين ، يجمع هذا كله قول ارنست رينان الافرنسي : « الفلسفة العربية هي الفلسفة اليونانية مكتوبةً بأحرف عربية » . فكل مظهر عزيز في الفلسفة الاسلامية عند رينان واتباع رينان انما هو للفرس او لليونان او للنساطرة ولليعاقبة ، او انه مشكوك فيه . وكتبُ المبشرين والمستعمرين مملوءة بمثل هذا التجنّي على العبقرية العربية .

ولا نعلم نحن ما الذي دفع وزارة المعارف اللبنانية الى تبني هذا الرأي — غير اصابع اليسوعيين المبشرين المستعمرين — وترديده في صور مختلفة في امتحانات البكالوريا . فلقد سئل هذا السؤال في أشكاله المختلفة في دورات كثيرة (قبل الاستقلال والخروج من الانتداب الافرنسي وبعد ذلك) :

— تشرين الأول ١٩٣٤ : هل من فلسفة عربية ؟

— تشرين الأول ١٩٤١ : هل أضاف فلاسفة العرب شيئاً جديداً الى فلسفة الأقدمين حتى يمكن القول ان للعرب فلسفتهم كما لليونان فلسفتهم ؟

— تشرين الأول ١٩٤٤ : قال ارنست رينان : ليست الفلسفة العربية سوى الفلسفة اليونانية مكتوبة بأحرف عربية .

حزيران ١٩٤٦ : قيل : لم تستقم للعرب فلسفة لأنهم لم يوحدوا بين العناصر الأجنبية التي نقلوها ، انما اكتفوا بعرضها متجاورة لا متفاعلة .

— تشرين الأول ١٩٤٨ : قال ارنست رينان : ليست الفلسفة العربية سوى الفلسفة اليونانية مكتوبة بأحرف عربية .

هذا عدد من الدورات التي سئل فيها مثل هذا السوال . والويل للتلميذ الذي ينتصر للفلسفة « العربية » انتصاراً ظاهراً . اما كلمة « اسلامية » وحدها ، فقد تفسح للطالب المجال

ليجرب حظه مرة اخرى في دورة تالية ، اذا ظفر بها « مصحح » من ذوي الاتجاه المعلوم .

●

ونحن لاننكر ان يكون العرب قد بنَوا فلسفتهم على أساس ما قدمه اليونان للعالم ، ولكن من غير الانصاف ان نقول ان العرب لم يكونوا سوى نقلة ، سوى حمّالين حملوا الفلسفة كما هي من اليونان الى العالم . ان العرب قد زادوا في الفلسفة وناقشوا ونقحوا وصححوا وشرحوا وأدّوا رسالة قل ان ادّت مثلها امة في التاريخ (١) .

وأي قول اوضح واصوب ، في العلم ، من قول الدكتور جورج سارطون ، احد ثقاة « تأريخ العلم في العالم » حينما قال في هذا الشأن نفسه :

« غير ان اولئك الذين ينكرون محاسن العرب ويبخسونها قيمتها ليَحتجّون مرة ثانية بقولهم : ان الأخذ من مصادر متعددة ليس ، على كل حال ، خيراً من الأخذ من مصدر واحد . تلك طريقة في المجادلة مضللة وخصوصاً اذا كان الكلام يتناول الرياضيات . ثم ان الرياضيين العرب — في تينك الحالتين المذكورتين آنفاً — « لم ينسخوا من المصادر اليونانية والسنسكريتية نسخاً ، ولو انهم فعلوا ذلك لما جاءوا بفائدة ، ولكنهم جمعوا بين المصدرين ثم ألقحوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية . واذا لم يكن هذا الذي فعله العرب ابتكاراً فليس في العلم اذن ابتكار على الإطلاق . فالابتكار العلمي في الحقيقة انما هو حياكة الخيوط المتفرقة في نسيج واحد ، وليس ثمة ابتكارات مخلوقة من العدم (٢) » .

●

هذا ما يقوله الأجانب الغربيون عن قيمة الثقافة العربية وعن الرسالة العلمية التي اداها العرب والمسلمون الى العالم . ولكن الاستعمار يريد ان يسدل دائماً دون جهود الاسلام ستاراً كثيفاً . ونحن لا نستغرب ان يحاول الاستعمار تحطيم نفوس رعاياه — ولقد كان المنتدبون الأفرنسيون يفعلون ذلك قبل عهد الاستقلال عام ١٩٤٣ — ولكن ما عذر الحكومة اللبنانية

(١) راجع عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، للدكتور عمر فروخ الطبعة الثانية ١٩٥٢ (وقد نقل هذا الكتاب الانكليزية ، وطبع في واشنطون عام ١٩٥٤) ثم موضوعات محللة في تاريخ الفلسفة الاسلامية ، له ايضاً ص ٥ — ٦ ، ٢١ — ٢٣ ، ٥١ ، ٥٥ — ٥٦ ، ٦١ .

(٢) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط ، تأليف الدكتور جورج سارطون ، استاذ في جامعة هارفرد (بالولايات المتحدة) ، ورئيس الاتحاد الدولي لتاريخ العلم ، نقله الى اللغة العربية الدكتور عمر فروخ ، الطبعة الأولى ، منشورات مكتبة المعارف في بيروت ، ١٣٧٢ هـ — ١٩٥٢ م ، الصفحتان ٥٥ — ٥٦ .

في الاستمرار على سياسة الانتداب والأصرار على تنفيذها في هذه الناحية ، في عهد الاستقلال؟

واذا كان للعرب حق واضح في السير على رأس الموكب الفلسفي ، فان حقهم في « ادبهم العربي » اوضح . ان العرب مشهورون بالأدب ، ويكفيهم فخراً ان الادب العربي اقدم الآداب الحية الى اليوم . فلا الأدب الهندي ولا الأدب اليوناني او اللاتيني قد عاش بعد ان طلع العرب بأدبهم على العالم . وحسبنا ان نعلم ان اكثر الأدب الأوروبي الحديث قد قام على اسس معروفة في الأدب العربي نفسه . ان الأدب البروفنسالي — ادب جنوبي فرنسة في العصور الوسطى — قد بني فعلاً على ما عرفه الفرنسيون الأولون من الوان الأدب العربي في الشرق في اثناء الحروب الصليبية او في الأندلس (١) . اما نشوء الأدب الإيطالي خاصة فالمعروف ان دانتي الليغيري هو صاحب المقام الأول فيه ، ودانتي نفسه قد استمد كتابه الخالد « الكوميديا الالهية » من مصادر اسلامية ، من « الفتوحات المكية » لمحي الدين بن عربي على القطع ، ومن « رسالة الغفران » لأبي العلاء المعري في الأغلب (٢) .

وهنالك مجال متسع للبحث في قيمة الأدب العربي الذاتية وفي اثره في الآداب الأجنبية . ولكن دعاة الإستعمار ينكرون ذلك ويصفون الأدب العربي بالنقص والجمود وبالتخلخل وبأنه بعيد عن النزعة الإنسانية . ونحن لا نريد ان نستشهد باسماء تحط من قيمة كتابنا ولكننا سنعرض القضية عرضاً موجزاً يستطيع القارىء ان يقيس عليه .

نشرت (٣) مجلة لاروس الباريزية فصلاً عن العالم العربي فيه التمويهات التالية :

— العالم العربي هو مصر والشام والعراق والحجاز واليمن ونجد ، مساحته ثلاثة ملايين كيلومتر مربع وسكانه اربعون مليوناً .

— ان نصارى لبنان هم الذين بعثوا النهضة العربية .

— البربر وحدهم اصحاب المدنية في شمالي افريقية والأندلس .

ولقد تولى الاستاذ محمد كردعلي — رئيس المجمع العلمي العربي — بدمشق ، رحمه الله ، الرد على هذا المقال وبين وجه الحق في ما ذكرت مجلة لاروس :

١ — العالم العربي اوسع رقعة واكثر سكاناً مما زعم الكاتب الفرنسي المستعمر (وذلك

---

(1) cf. Nykl, Hispano - Arabic Poetry .
ثم طالع مقالا للمستشرق الدكتور الأستاذ يوسف هل : هل تأثر الشعر الغربي بالأدب العربي ، مجلة الأمالي ، بيروت ، السنة الأولى ، العدد الأول ، ٢ ايلول ١٩٣٨ ص ٣ — ٥ ، ثم ثلاثة مقالات في المجلة نفسها ، السنة الأولى الأعداد ٤ — ٥ — ٦ .

(2) ct. Miguel Asin Palacios « الأسلام والكوميديا الإلهية »

(٣) راجع « مجلة المجمع العلمي العربي » بدمشق ، تشرين الأول ١٩٤٨ ص ٦١٧ — ٦١٨ .

راجع الى حقائق جغرافية واحصاءات لا سبيل الى دفعها : كحذف المغرب كله من العالم العربي) . ثم ان مساحة شبه جزيرة العرب وحدها ثلاثة ملايين كيلومتر مربع .

٢ — ان النهضة العربية الحديثة بدأت في مصر لا في لبنان ، وهذا أيضاً بيّن من النظر في تاريخ النهضة الحديثة . ولكن المستعمرين يريدون سلب المسلمين كل شيء حتى النهضة اللغوية التي هي عنوان لغتهم وأدبهم .

٣ — ان البربر لم يقيموا وحدهم مدنية المغرب والأندلس ، بل شركهم العرب أيضاً (وعلى كل فان البربر كالعرب مسلمون ، والمدنية التي خلقوها مدنية عربية) .

ويختم الأستاذ محمد كردعلي مقاله بهذا الحكم الصائب :

« ولذلك نرى من واجبنا أن يشك كل عربي وكل مسلم في أكثر ما يصدر من « الأحكام من الافرنسيين على الاسلام والمسلمين ، ذلك لأنه ثبت أن من الفرنسيين من « لا ينظرون الى كل أمر الا بمنظار الاستعمار » .

ويظهر أن الأب يوحنا الفاخوري البوليسي لم يرقه رد الاستاذ محمد كردعلي فنشر في مجلة « المسرة » (١) رداً ملأه بتعابير جارفة بعيدة عن روح العلم . والاب يوحنا فاخوري من الذين وقفوا أنفسهم على انكار فضل العرب في الادب والفلسفة أيضاً (٢) ، ومن الذين يصرون على التعابير الجارفة التي استعملها هو أيضاً في رده على الاستاذ محمد كرد علي .

ولقد تناول الدكتور عدنان الخطيب (٣) الرد عن الاستاذ كردعلي مؤيداً رده بذكر احصاءات وتواريخ تقطع بأن النهضة الحديثة في العالم العربي قد بدأت في مصر .

•

وظل هذا الموضوع يجري في لبنان وخارج لبنان على أقلام نفر من المتأدبين الذين لا يملكون زمام انفسهم ، ومن الذين لا يمكن ان يكون لرأيهم الشخصي وزن يميل بالأمور ذات اليمين او ذات الشمال حتى غمس فيه قلمه مؤرخ كبير وثقة في تاريخ العرب ، هو استاذنا الدكتور فيليب حتي ، فقال (١) :

---

(١) مجلة المسرة ، حريصا (لبنان) تشرين الثاني ١٩٤٨ .

(٢) راجع ابو العلاء المعري فيلسوف الشعراء ، حريصا (لبنان) ١٩٤٤ . ص ١٤ الحاشية .

(٣) مجلة المجمع العلمي العربي، تموز ١٩٤٩ ص ٤٧٠ — ٤٧٨ .

(4) Enc. Americana (1948 Edition) under Arabic Literature, p. 129.

« ولم تبدأ أمارات (١) ، الحياة الأدبية الجديدة بالظهور إلا في القسم الأخير من القرن
« التاسع عشر . وكانت الكثرة من قادة هذه الحركة الجديدة نصارى من لبنان تعلموا او
« استوحوا من جهود المبشرين الاميركيين » .

وحبذا ان يعذرنا استاذنا الدكتور فيليب حتّي اذا قلنا ان النهضة بدأت في النصف الأول لا الاخير من القرن التاسع عشر . ثم ان حصر شرف الحركة الجديدة بنصارى لبنان فيه ظلم للتاريخ وللأدب معاً . وقد كنا نربأ بالدكتور فيليب حتي ان يساير قوماً ليسوا من نَجره ولا من أهل موكبه .

ولقد رد على الدكتور حتي ناقد في مجلة الثقافة (٢) فجرّحه . وكان الأخلق بالدكتور حتي ان لو ظل بعيداً عن هذا المجرى الضّحل الذي يخوض فيه بعض من لا شأن لهم بعد في عالم الأدب والتاريخ . انه اكثر علماً من ان يضع النصف الثاني مكان النصف الأول من القرن التاسع عشر ، حتى يهيّىء مكاناً قلقاً لأشخاص جاءوا في الحقيقة في اعقاب اليقظة الأدبية لا على رأسها . ان القضية قضية تاريخ وأرقام وكتب مطبوعة لا قضية عواطف .

•

بمثل هذا يحارب المبشرون والمستعمرون العرب والاسلام . اما اشد ما نلقاه نحن فهو ان هؤلاء يستخدمون في هذا السبيل افراداً منا احياناً ، افراداً لا يتورعون احياناً عن ان يسخروا العلم والضمير ويقلبوا الحقائق والأرقام رأساً على عقب حباً بالزلفى او الاتجار .

على ان هذا ايضاً لن يفت في عضد الشرق ، وستظل الثقافة العربية على الرغم من بضعة اسئلة في الامتحانات الرسمية وعلى الرغم من افراد باعوا انفسهم في غير سبيل الله — تمثل الرسالة التي اداها العرب في تاريخهم المجيد وفي تاريخ العالم .

•

ونحن نحب ان نأتي في هذا الفصل القصير برأي الدكتور فيليب حتّي في الفيلسوف المسلم ابن رشد لنرى ، رأيَ العين ، ان الشخص الذي يحاول ان يغمط الثقافة العربية ويبخس

---

(١) علامات

(٢) مجلة الثقافة (القاهرة) . السنة الحادية عشرة ، العدد ٥٣٨ (١٨ ابريل — نيسان ١٩٤٩) ص ٤٢ — ٤٣.

المسلمين حقهم لا يستطيع أن يفعل ذلك في كل مكان ، وخصوصاً في الساعات التي يكون فيها ضميره العلمي مستيقظاً ، قال الدكتور حتي (١) :

«كان اعظم فلاسفة الاسلام ، بالإضافة الى الأثر الذي احدثه في الغرب على الأخص ،
« الفلكي الأندلسي والطبيب وشارح كتب ارسطو ابو الوليد محمد بن رشد . وان اعظم ما
« لابن رشد في الطب كتابه الجامع المعروف باسم (الكليات) ، وفيه ان الانسان لا يصاب
« بالجدري مرتين . كما ان عمل شبكة العين فيه مشروح بوضوح . على ان نور ابن رشد
« الطبيب قد كُسف بنور ابن رشد الفيلسوف الشارح ... اما بين اليهود وفي العالم المسيحي
« فقد عُرف ابن رشد بأنه في الدرجة الأولى شارح لكتب ارسطو . ولكن يجب ان نذكر
« ان المقصود بالشارح في العصور الوسطى هو المؤلف الذي كان يستعين ببعض كتب الأولين
« العلمية او الفلسفية ليجعل منها اساساً أو إطاراً لكتبه هو ... ولقد اثار ابن رشد بشروحه
« على أرسطو عقول فقهاء النصرانية وعلمائها في العصور الوسطى الى حد لم يصل اليه مؤلف
« غيره ، فمنذ اواخر القرن الثاني عشر الى أواخر القرن السادس عشر — اربعة قرون
«كاملة — ظلت فلسفة ابن رشد هي المذهبَ الفكري السائد ، على الرغم من رد الفعل الديني
« الذي احدثته هذه الفلسفة اولاً بين المسلمين في الأندلس ، ثم بين التلمو ديين من اليهود ،
« واخيراً بين رجال الدين من النصارى . وما من شك في ان ابن رشد كان فيلسوفاً عقلياً ،
« وكان على حق في اخضاعه كل شيء — سوى الشريعة المُنْزَلة — لسلطان العقل . ولم
« يكن ابن رشد ، كما يخيّلُ الى بعضهم ، باعث الإلحاد ولا عدواً للدين ... ولقد مثل ابن
« رشد اقتراباً من الفلسفة الإرسطوطاليسية الخالصة (غير الممزوجة بالمذهب الاسكندراني) (٢).
« وبعد حذف اشياءَ لا يرضى عنها رجال الاكليروس في فلسفة ابن رشد ، غدت فلسفة
« ابن رشد موضوع الدراسة في جامعة باريس وفي سواها من مؤسسات الدراسة العليا .
« ولقد بقيت فلسفة ابن رشد ، بكل حسناتها وبكل ما اضيف اليها من اخطاء ، عاملاً حياً
« في الفكر الأوروبي حتى ولادة العلم التجريبي الحديث » .

---

(1) Philip K. Hitti, History of the Arabs, fourth Edition, London 1949, pp. 582 - 585.

ان نقل النص الإنكليزي من كتاب فيليب حتي هو لمؤلفي هذا الكتاب . على ان هناك ترجمة عربية للكتاب المذكور . راجع «تاريخ العرب» (مطول) . بقلم الدكتور فيليب حتي . نقله الى العربية الدكتور ادوار جرجي والدكتور جبرائيل جبور ، بيروت ١٩٤٩ — ١٩٥١ (راجع ٣ : ٦٩٣ — ٦٩٤) .

(٢) المذهب الإسكندراني مذهب فلسفي نشأ في الإسكندرية . وهو يعرف خطأ بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة او الفلسفة الأفلاطونية الجديدة . ويقوم المذهب الإسكندراني على محاولة التلفيق بين الفلسفة اليونانية والآراء المسيحية بتشويه الفلسفة اليونانية في الأكثر وتفسير العقائد المسيحية تفسيراً رمزياً .

ويرى اكثر الهاجمين على استعمار الشرق ان تقطيع اوصال العرب والمسلمين لا يمكن ان يتم ما دام هنالك « لغة واحدة » يتكلمها العرب ويعبرون بها العرب والمسلمون عن آرائهم وما دام هنالك « حرف عربي » يربط حاضر المسلمين الى تراثهم الماضي . فاذا حمل المبشر والمستعمرون العَرَب ، على الكتابة باللغة العامية اصبح لكل قطر عربي لغة خاصة به او لغات متعددة . ثم اذا هم استطاعوا ان يحملوا المسلمين على التخلي عن الحرف العربي وإحلال الحرف اللاتيني مكانه انقطعت صلة العرب تماماً بأدبهم القديم وبالمؤلفات الدينية واللغوية والأدبية والتاريخية والفكرية . حينئذ يصبح العرب « وحدات » لغوية فكرية غير متعارفة ، ثم تتنافر هذه الوحدات مع الزمن فيسهل اخضاعها بجهد أيسر من الجهد الذي تحتاج اليه هذه الغاية الآن .

وكان زعيمَ الحركة الرامية الى الكتابة في العامية وبالحرف اللاتيني الإستعماريون الفرنسيون وعلى رأسهم المستشرق الفرنسي والموظف في قسم الشؤون الشرقية في وزارة الخارجية الفرنسية لويس ماسينيون . ولقد حاول ماسينيون ان يبث دعوته هذه في المغرب وفي مصر وفي سورية ولبنان خاصة . وكذلك سعى لهذه الغاية مبشرون واستعماريون من امم اخرى. أما فيما يتعلق بلبنان خاصة فهنالك محاولات عملية كثيرة لم تنجح — ولن تنجح ان شاء الله . من هذه :

— « قواعد اللهجة اللبنانية السورية ، تأليف الأب رافائيل نخلة ... ويحاول الأب رافائيل نخلة في مؤلّفه هذا وضع قواعد ثابتة لهذه اللهجة ... والكتاب موضوع بالفرنسية والنصوص العربية منسوخة بالحرف اللاتيني » . والكتاب طبع في المطبعة اليسوعية ورقمه في قائمة المطبوعات اليسوعية ٢٩٦ (ص ٣٣ ، قائمة ١٩٥٠) .

— « التحفة العامية في قصة فنيانوس ، تأليف شكري الخوري ، نشرها الأب لاي اليسوعي ... مؤلفة بلغة لبنان العامية وتمثل ناحية هامة من حياة اللبنانيين » ، طبع المطبعة اليسوعية (قائمة المطبوعات اليسوعية رقم ٤٨٢ ، ص ٦٠ ، قائمة ١٩٥٠) .

— في متلو هلكتاب ! تأليف الخوري مارون غصن ، احد المدرسين في مدرسة عنطورا (لبنان) .

وهنالك محاولات كثيرة مثل هذه . ومع ان جميع المحاولات الأولى قد خرجت من المدارس الفرنسية فيجب ان نستثني من حَمَلَة هذه الحركة نفراً من الاساتذة ليس هذا رأيهم . من هؤلاء الاستاذ جورج الكفوري مدير الدروس العربية في الكلية العلمانية الفرنسية في بيروت سابقاً والذي تولى وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة في لبنان في اوائل عهد الاستقلال . للاستاذ جورج الكفوري كتاب قيم اسمه « اللغة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها (١) » . ان للاستاذ جورج الكفوري نظرات صائبة في صلة اللغة الفصحى بالعامية ، وهو يدعو الى تسهيل الفصحى ويرى من هذا التسهيل فوائد كثيرة ، ثم يقول : ومتى سهلت اللغة وأصبحت في متناول السواد الأكبر من الشعب أصبح من اليسير إحلالها (أي احلال اللغة الفصحى) مكان العامية .

•

وبعد ان نامت فكرة « الكتابة العامية بالحرف اللاتيني » رجعت من جديد وتحت ستار «تسهيل اللغة» الى الاستيقاظ . وآخر ما ظهر في هذا الباب « تبسيط قواعد العربية وتبويبها على اساس منطقي جديد (٢) » تأليف الدكتور انيس فريحة (احد اساتذة التاريخ واللغات السامية في الجامعة الاميركية في بيروت) .

اما الأساس الجديد الذي يقترحه انيس فريحة فهو موضع جدال كبير ، وأنـــا اعتقد انه في بعض الأماكن يعقّد ما كان الى الآن سهلاً في الصرف والنحو . فنحن المتشددين نقتصر في ادوات الجواب على كلمتين : « نعم ، بلى » لما بينهما من الاختلاف في المعنى ولأن لهما فائدة عملية في قراءتنا وكتاباتنا. اما الدكتور انيس فريحة فيدخل هاتين الاداتين في باب : « حروف تشترك بين الاسم والفعل » ، ثم يعدد منها ستاً هي : نعم ، بلى ، إي أجل ، جير (مماتة) ، جلل (مماتة) (٣) — ويقصد بكلمة مماتة انها لا تستعمل اليوم .

ولكن يبدو ان الدكتور انيس فريحة يريد أمراً آخر : انه يريد ان يجعل من اللغـــة العربية الفصحى والحرف العربي مشكلتين يستحيل حلهما ، ولذلك هو يرى أن ينتقل العرب الى الكتابة في العامية وبالحرف اللاتيني . انه يبسط رأيه هذا على منحى كبير وبشيء من التهكم كان يجب أن يترفع عنه من يدعو الى « أساس منطقي جديد » . انه يقول :

---

(١) صفحاته ١٢ ، بيروت ١٩٤٨ .

(٢) جونية ١٩٥٢ .

(٣) تبسيط قواعد العربية ، ص ٧ .

« يطالب مثلاً ، بعض الناس بتبني الحرف اللاتيني تسهيلاً للقراءة وتخفيضاً لنفقات الطباعة ... ونحن من المؤمنين بهذه النظرية ، ولا نرى حلاً للكتابة إلا بتبني الحرف اللاتيني وضبط الكلمات فيه مرة واحدة ... وأما الذين لا يرون مشكلة في الأمر ، وهم من لم يمارسوا التعليم، فيقولون : هؤلاء جماعة خارجون على العروبة والاسلام ! ويطالب بعض الناس بتيسير قواعد العربية لتقرب من العامية ، او لرفع العامية لتقرب من الفصحى ، فيتساءل البعض الآخر : وهل العربية معقدة لنبسطها او عسيرة لنيسرها ؟ انما انتم جماعة خارجون على العروبة والاسلام !

« لماذا يثور الناس كلما طالبنا بالتيسير ؟ لماذا يتهموننا بالخروج ؟ الأمر بسيط : لا يدركون أن هنالك مشكلة ! ولماذا لا يدركون : الأمر بسيط : الجهل ، الجهل عدو العرب الأكبر ! » .

وهنالك اخوان لنا في الجامعة الأميركية يرون رأي الدكتور فريحة ، ولكننا لن نثبت رأيهم هذا لأنهم لم يكتبوه بعد . فالدعوة الى العامية والى الحرف اللاتيني قد انتقلت الآن من اليسوعيين الى الجامعة الاميركية . أما تعليقنا المفصل على هذه الحركة الجديدة القديمة فهو قسمان : قسم هو صلة ذلك بالتبشير ، وقد مر الكلام عليه في أماكن مختلفة . ثم هنالك قسم يتعلق بالاقتراح من حيث هو اقتراح وما فيه من مآخذ فليس موضعه هنا . على أن ملاحظة واحدة ضرورية في هذا المقام : أن الدعوة الى العامية والى الحرف اللاتيني معناها :

١ ـ خلق مشكلة لا حل مشكلة .

٢ ـ قطع حاضر العرب ومستقبلهم بماضيهم .

٣ ـ تنفيذ لمآرب تبشيرية استعمارية ، لأن الأمر بدأ كذلك . ولا يمكن ان يكون سبب هذه الدعوة الآن غير سببها بالأمس .

٤ ـ ان كثيراً من كتاب الدكتور فريحة لا صلة له بتبسيط العربية على الاطلاق ، كجداول ضمائر الاشارة مثلاً . ان الدكتور فريحة يقترح لاسماء الاشارة ص ٣٣ ـ ٣٤) عدداً أكبر من العدد الذي تثبته كتب النحو المدرسية . ان الدكتور فريحة يريد أن يبرز أشكالاً كثيرة لضمائر الاشارة ، كما يسميها هو ، لكي يجسم مشاكل اللغة العربية الفصحى ومشاكل الكتابة بالحرف العربي توصلا الى الدفاع عن رأيه في اتخاذ العامية لغة كتابة واحلال الحرف اللاتيني محل الحرف العربي في الكتابة العربية .

وفي خلال ثلاث سنوات ، أي منذ صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، زاد نشاط الدكتور أنيس فريحة في حقل الدعوة الى اللغة العامية . ولسنا الآن في سبيل استخراج صورة

لنشاطه من كتبه ومقالاته وأحاديثه . ولكن الرجل كشف الآن عن اعتقاده وأصبح يقول صراحة وعلناً باللغة العامية المكتوبة بالحرف اللاتيني . وسنكتفي هنا بكلمة في كتابيه الأخيرين في الموضوع : في كتابه « محاضرات في اللهجات واسلوب دراستها » (١) وفي كتابه « نحو عربية ميسرة » (٢) ، وأحسب أنه استوفى معظم آرائه في هذين الكتابين . ومع ان خلاصة الكتاب الأول موجودة في الكتاب الثاني ، أو أن الكتاب الأول كله ملخص من الكتاب الثاني (٣) ، فان الدكتور أنيس فريحة ينضح في كتابه الثاني بالحقد على اللغة العربية الفصحى وبالبغض لأهلها وبالتهكم على تراثها والهزؤ برجالها . وفي ما يلي جمل مختارة من كتابه « نحو عربية ميسرة » :

« ولكن لا يصح اعتماد اللغة ، كما تحدرت الينا مدوّنة ، مصدراً لدراسة اللغة في عهودها السابقة . ذلك لأن الذين استنبطوا قواعدها وضبطوا أحكامها اعتمدوا الشعر الجاهلي اولاً ثم القرآن الكريم مادة لغوية . ومتى كانت لغة الشعر ولغة الأدب والدين مرآة تعكس لغة الناس في معاشهم ومكاسبهم » (ص ١١) .

« ولكن تجدر بنا الاشارة اولاً الى ان الجمع (جمع الكلمات في القواميس) تناول لغات عربية كثيرة ، وكان الحماس للجمع بالغاً مبلغه فأقحموا هذه الكثرة دون روية في التحقيق . وليس في قولنا هذا ما يقلل من احترامنا لاولئك العلماء الافذاذ . ولكن عمل المعاجم لا يتم بالطريقة الفردية . غير أن من يعرف لسان العرب او التاج او القاموس (١) لا يستطيع الا ان يرفع قبعته اجلالاً لجامعيها (ص ١٣) » .

« فان علينا في مواقفنا الرسمية ان نتكلم بلغة الاجيال الغابرة ، علينا ان نعبر عن أحاسيسنا ودواخلنا بلغة وقفت في مجراها عند نقطة معينة في الزمان والمكان (يقصد الدكتور فريحة : ظهور الاسلام) عندما أحيطت بهالة من التقديس ، وعندما سيج حولها بسياج من الاحكام ، فوقفت في تطورها عند هذه النقطة من الزمان والمكان » (ص ١٨ ـ ١٩) .

ـ « نحن نعلم ان الفصحى بعد ان أصبحت لغة الدين واللغة الرسمية أخضعت للقيود ، للقيود التي يفرضها الصرفيون والنحويون » (ص ٢٢) .

(١) القاهرة ١٩٥٥ .

(٢) بيروت ١٩٥٥ .

(٣) نحو عربية ميسرة ٧ ـ ٨ .

(١) يعرض الدكتور فريحة هنا بالمعاجم العربية وواضعيها لسان العرب لابن منظور ، وتاج العروس للمرتضى الزبيدي ، والقاموس المحيط للفيروزابادي .

— « غير ان منزلة العربية قضت ان يسيّج حولها بسياج من الأحكام والقواعد الشديدة » (ص ٢٣) .

— « ولكن نشاطهم (نشاط العرب) توقف عند زمن معين » (ص ٢٩) .

— « اذن لا يمكن الشعب السامي ان يكون قد أسهم في خلق العلم والفلسفة والفن ، لأن أساس العلم والفلسفة والفن اللذة العقلية والشغف الروحي والرغبة الملحة في استجلاء غوامض الكون » (ص ٥٣) .

— « اللغة ... ظاهرة انسانية لا علاقة لها بالآلهة ولم تهبط من عل ، بل نشأت من أسفل » (٧٣) .

— « وتحاول هذه المدرسة فرض هذه الفصحى بشكلها الذي وصلت به الى الناطقين بها من نقطة معينة في الزمان والمكان ، على مجتمع بَعُدَ عن هذه النقطة ، او قلْ على مجتمع يسير مع الحياة فهو لا يعرف الجمود » (ص ١٢٣) .

— غير ان القرآن الكريم نزل بلغة الأدب والشعر والدين لذلك العصر ، ومن الطبيعيّ ، بل من الضروري ، ان ينزل بلغة الأدب والشعر والدين . ونعتقد ان المجتمع الاسلامي الأول ، نسبة لإعجابه بهذه اللغة ونسبة لمقام القرآن الكريم في نفوسهم ، جهدوا ان يجعلوا من هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم لغة الناس اليومية . يدلك على ذلك مبلغ الجهد الذي انفق في سبيل ضبط احكام هذه اللغة ، وفي محاربة اللحن ، وفي اصرار المقامات العليا على ان تكون هذه اللغة لغة الدواوين والكتاب والمنشئين . ووضع سياج حول اللغة للحفاظ عليها امر طبيعي ، لا بل ضرورة ، لكل امة ناشئة » (١٢٥ — ١٢٦) .

— « اقول لنفسي انه يجب ان تخضع العربية لي وان تلين لفكري ، لا انِ يخضع فكري وعلمي لقوالب معينة تروق (١) لأذواق جيل من الناس ماتوا منذ مئات السنين » (١٤١)

— « اننا ناقمون على القواعد ... ان وضع الأحكام يقيد اللغة ... انه يقف في مجراها الطبيعي ويسد عليها الطريق كما حدث للغة العربية الفصحى . فان وضع الأحكام لها اوقف عمل النواميس اللغوية عند نقطة معينة في الزمان والمكان » (١٩٤) .

— « ولكن للناس أن يسألوا : ماذا سيحل بالقرآن الكريم ؟ وماذا سيحل بالأدب القديم : وجوابنا هو أن القرآن الكريم سيخلد ، سيبقى على ما هو عليه كما بقيت كتب دينية عديدة رغم انحراف لغة الناس عن لغة هذه الكتب » (ص ١٩٨) .

ان هذه الشواهد التي استقيتها من كتاب الدكتور انيس فريحة تدل على ان الدافع الحقيقي

(١) يقصد : راقت ، او كانت تروق .

لدعوته الى أن يهجر العرب لغتهم الأدبية (الفصحى) والمكتوبة بالحروف العربية الى لهجة من لهجاتهم العامية مكتوبة بالحرف اللاتيني ليس تيسير العربية ، ولكن قطع العرب صلتهم بالقرآن الكريم ، إلا ان يبقى ليقرأ في المساجد كما تقرأ اللاتينية في الكنائس الكاثوليكية . وكذلك يريد الدكتور فريحة أن يقطع العرب صلتهم بالأدب القديم لأنه هو لا يستطيع ان يفهم الأدب الجاهلي أو رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ولا ان يجد قيمة لشعر المتنبي .

كلنا نريد ، في حياتنا العصرية ، أن نيسر القراءة والكتابة في اللغة العربية ، كما يسّرنا حياتنا المنزلية بالاختراعات الأميركية ، وكما يسرنا انتقالنا بالطائرة والسيارة بدلاً من امتطاء الإبل والخيل والبغال والحمير . على ان الأمم لا تمزج عادة تراثها الروحي بالحياة الواقعة ، ذلك لأن الأمم تستمد بقاءها من التراث الروحي . نحن نعلم كالدكتور فريحة أن الاملاء في اللغة الالمانية واللغة الاسبانية أهون من الاملاء باللغة العربية ، ولكن الاملاء العربي أهون من الاملاء الانكليزي والفرنسي . ونحن لا نذكر شيئاً عن اللغة اليابانية أو الصينية . ولكن اللغة العربية بالاضافة الينا والى قومنا ليست واسطة للتفاهم فقط ، بل هي رابطة قومية أيضاً وجامعة دينية وخزانة للثقافة الأدبية والروحية . فنحن العربَ والمسلمين جميعاً نحتمل قواعد النحو العربي والكتابة بالحرف العربي ، ان صح أن في النحو العربي والحرف العربي كل هذه الصعوبات والمشاكل التي يدّعي الدكتور فريحة وجودها ، في سبيل الحفاظ على هذه الصلة بعالمنا الذي بلغ ذروة تطوره عند نقطة في الزمان والمكان . وبعد ، فنحن شاكرون لأسلافنا أنهم أقاموا سياجاً حول اللغة العربية ، ذلك لأنهم أقاموا هذا السياج حولنا نحن . ثم ان مشاكل اللغة العربية ، في النحو والخط ، ليست أكثر من مشاكل اللغة الانكليزية كثرة تقتضي هذه الحملة العنيفة على اللغة العربية والاسلام .

يحمل الدكتور فريحة على الرسم العربي (١) لأنه لا يثبت الحروف المصوتة (الدالة على الحركات) في صلب الكلمات . غير أنه اتفق في التاريخ أن الساميين اختاروا أن تتألف الكلمات من الحروف الساكنة وأن تعين حركات تلك الحروف بعلامات تسمى « شكلاً » . فكتابة الحرف العربي مشكولاً يسقط حجج الدكتور فريحة كلها ، إلا اذا ظل متمسكاً بأن طبع الكتب والمجلات بالحرف العربي ليس مشروعاً اقتصادياً ، وأن الطبع بالحرف اللاتيني اكثر توفيراً للوقت وللمال .

ولكن غاب عن الدكتور فريحة ان اللغات ، كل اللغات ، تصل الينا بالرواية اكثر مما

(١) نحو عربية ميسرة ١٩٠ — ١٩٢

تصل الينا بالكتابة . ان الطفل الفرنسي يلفظ العدد « الفين وسبعمائة وثمانية وتسعين (٢٧٩٨) كما يتلقاه بالرواية :

de mil sét sa' katr ve' diz uit

لا كما يراه مكتوباً في كتب القراءة والنحو في القواميس :

deux mille sept cent quatre - vingt dix - huit

ثم ما فائدة اثبات الاحرف المصوتة في الكلمات الانكليزية مثلاً ؟ ان الحرف u يلفظ في كل كلمة من الكلمات الانكليزية التالية لفظاً خاصاً. ان هذا الحرف u يقع ثلاث عشرة مرة في الكلمات الاحدى عشرة التالية ، ويلفظ على ثلاثة عشر وجهاً :

but , full, build. four, noun, muse, fur, furniture, furlough, funk, fruit .

انا لا استطيع ان اصدق ان الدكتور فريحة استاذ اللغات السامية لا يعرف هذه الاشياء ، وهل يعقل انه كتب ماكتب « من عقله » ومن غير ان يرجع الى القاموس . ولـكن الدكتور فريحة يروّج غاية للمبشرين ارادوا بها ان يكون لكل بقعة عربية لغتها المستقلة . ونحن نرجو الله ان يهديَ صديقنا الدكتور فريحة وألا يحقق له ولا للمبشرين أملاً .

ولقد فضح الدكتور فريحة نفسه لما ألقى السؤال الذي يقبع وراء دراساته وتعليلاته واقتراحاته ، ذلك السؤال الذي يفسر نقمته على اللغة الفصحى ويعلّل حقده على الحرف العربي وعلى الادب القديم . وبعد أن دعا الدكتور انيس فريحة للهجات العامية وللحرف اللاتيني ما شاءت له الدعوة وما شاءت له الدعوى قال (نحو عربية ميسرة ١٩٨ — ١٩٩)

« ولكن للناس (يقصد المسلمين) أن يسألوا : ماذا سيحل بالقرآن الكريم ؟...... وجوابنا هو أن القرآن الكريم سيخلد على ما هو عليه كما بقيت كتب دينية عديدة رغم انحراف لغة الناس عن لغة هذه الكتب . ورغم انحراف لغة الناس عن لغة هذه الكتب فان (لغة هذه الكتب) حافظت على روعتها وجلالها ومقامها الديني . هاك لغة التوراة الانكليزية المعروفة بترجمة الملك جايمس (١) . فانها على قدمها تعتبر في الانكليزية ، الى جانب مقامها الديني ، قطعة أدبية رائعة ... ولكنها تخالف لغة الناس . وقلْ مثل هذا في لغة شكسبير فانها حافظت على كيانها ومقامها . وفي لندن اليوم مسرح مشهور يعرف

(١) اوائل القرن السابع عشر الميلادي .

بـ Old Vic لا يمثَّل فيه الا روايات شكسبير بلغتها القديمة وبشعرها القديم وبتعابيرها القديمة. وانك اذا قست هذه اللغة بلغة جرائد لندن ، أو اذا قستها بلغة الشارع في أوكسفورد او كمبريدج وجدت فروقاً شاسعة . وها هي الكنيسة الكاثوليكية فانها تعتبر الترجمة اللاتينية للتوراة لغة الكنيسة الرسمية ، ولا يكون القداس الا باللغة اللاتينية. وقل مثل هذا في الكنيسة الارثوذكسية التي حافظت على اللغة اليونانية التقليدية ، والكنيسة المارونية التي احتفظت باللغة السريانية ، والكنيسة المسيحية الحبشية التي احتفظت باللغة السامية القديمة المعروفة بلغة الجعز . (على) أن الفارق بين هذه الكنائس التي احتفظت بلغاتها القديمة وبين الاسلام عظيم جداً ، ذلك لأن العامية المهذبة المحكية لا تختلف عن لغة القرآن الكريم اختلاف السريانية عن العربية او الإغريقية عن العربية او اللاتينية عن الفرنسية (١) . فلن تكون لغة القرآن الكريم غريبة عن افهام الناس . وسيظل الناس يتعلمونه ويحفظونه غيباً ويدرسون صرفه ونحوه وسحر بيانه كما يفعلون اليوم . وسيظلون يقرأونه ويستظهرونه تبركاً ... هذا فيما يتعلق بالمستقبل القريب . ولكن ما سيحدث في المستقبل البعيد ، بعد مئات السنين ؟ هنا ندخل في نطاق الحدس والتخمين . ولكن يتراءى لي ان في ذلك الزمن لن تكون الحياة الروحية وقفاً على الكلمة ولفظ الكلمة وشكل كتابة الكلمة ... عندها يكون للناس الحرية ان ينظروا الى الدين من خلال نظاراتهم لا من خلال نظاراتنا نحن ... نحن زائلون والحياة للأجيال القادمة ... لا تحرص ان تفرض على ابنك عقائدك وعاداتك ومقاييسك وذوقك ونظرك الى الحياة ... قد يسايرك (ابنك) بعض الطريق ، ولكنه في قرارة نفسه يضحك من حرصك هذا ويسير في طريقه الخاص ... »

وهكذا نجد بوضوح ان الحملة على العربية الفصحى انما هي في حقيقتها حملة على اللغة التي تجمع بين العرب والمسلمين ، وحملة على العروبة والاسلام ، وأمنية في ان يصبح القرآن كتاب دين لا صلة له بالحياة : يستطيع نفر من المسلمين أن يقرأوه من غير ان يفهموا منه شيئاً ومن غير ان يشعروا بما فيه إلا كما يشعر الوثني اذا نظر الى صورة معلقة في الجدار او الى وثن قائم على قاعدة من الحجارة .

غير ان الله الذي جعل في القرآن من عناصر الخلود ما حفظه الى اليوم ، بينما جميع اللغات التي كانت في عصره أو بعد عصره أيضاً قد بادت وانقرض المتكلمون بعدد كبير منها ، سيجعله خالداً ابداً .

(١) التركيب ضعيف ومبهم .

اننّا عرفنا في الفصول السابقة عدداً كبيراً من الوسائل التي يتوسل بها المبشرون الى الوصول الى الاسلام والمسلمين ، كما أدركنا أن التبشير انما هو في الحقيقة تمهيد الى السيطرة السياسية على بلاد الشرق لاستغلالها اقتصادياً .

فالتبشير اذن خطر ديني بالغ فوق ما هو خطر سياسي واقتصادي : انه خطر على كيان الامم الشرقية ، ان القضية بالنسبة الينا قضية بقاء أو فناء .

بيروت ٩ جمادى الاولى ١٣٧٢
٢٥ كانون الثاني ١٩٥٣
شتورا ٢٢ ذي الحجة ١٣٧٥
٣٠ تموز ١٩٥٦

الفصل الحادي عشر

حقـــائق من افريقيـــة *

لمّا استقلت البلدان الافريقية التي كانت خاضعة للاستعمار وضحَ لنا الى ايّ حدّ كان الاستعمار يطوي عنّا من أخبار تلك البلاد : في عدد السكّان ، وفي نسبة المسلمين الى سائر سكان تلك البلاد ، وفي الاحوال الروحية والاجتماعية السائدة في تلك البلاد .

ثم وضحت لنا أيضاً حقيقة مهمّة جـــدّاً : هي أن المستعمرين كانوا يعتقـــدون أن الصابئين الى النصرانية سيكونون أكثر ميلاً الى الدول الغربية الاجنبية منهم الى أقوامهم الباقين على الوثنيـــة أو على الاسلام (١) .

وسنرى في الصفحات التالية القليلة من هذا الفصل دلائل من الصلة الوثيقة بين التبشير وبين الاستعمار أكثر صراحة ، في بعض وجوهها ، من بعض ما كنّا قد رأينا من قبل . كنّا من قبل نستشهد بكتب ألّفها أصحابها في النصف الثاني من القرن الماضي أو في الربع الاول من القرن الحاضر ، يوم كان العقل الباطن في الاوروبيين يتمنّى الامانيّ أو يشير الى

* هذا الفصل مأخوذ في الاكثر من الكتب التالية ، ومن عدد من الصحف الاجنبية مثبت بعضها في الحواشي :

Dempsy , James : Mission on the Nile, London, London 1955 .
Dorman, Harry Gaylord, Jr. : Towards Understanding Islam , New York 1948.
Fontaine, Pierre : Dossier secret de l'Afrique du Nord, Paris 1957 .
Grove, C. P. ; The Planting of Christianity in Africa, London 1958 .
Grunebaum, G. F. Von : Modern Islam, the Search for Cultural Identity, University of California Press, Berkeley and Los Angeles 1962 .
Kerekes, Tibor : The Arab Middle East and Muslim Africa, New York 1961 .
Trimingham, J. Spencer : A History of Islam in West Africa, Oxford University Press, London, Glasgow and New York 1962 .
— — — ; The Christian Approach to Islam in the Sudan, London 1948 .
— — — Islam in Ethiopia, Oxford University Press 1952 .
Watt, W. Momtegomery ; Islam and the Integration of Society, London 1961 .
Westermann : Islam in the West and Central Sudan (Extract from the International Review of Missins, October 1912) .

موقفه المقبل من طرْف خفيّ وهو على مثل اليقين في نفسه أن استعماره قد أصبح جزءاً من البلاد التي قضى فيها أجيالاً . أما الآن فأمامنا عدد من الكتب التي أُلِّفَتْ والكارثة على وشْك أن تَحِلّ بالمستعمرين ، أو بعد أن حلّت فيهم فعلاً ، فاذا في تلك الكتب غضبة شديدة ونقمة ضارية على الشعوب التي خرجت من مُلْك يدها وقد كانت من قبل في يدها كالانعام .

في المغرب

الافرنسيون يسمّون المغرب شمالي افريقية ثم يجعلون سكّان المغرب قسمين : مسلمين وأوروبيين . أما المسلمون فهم العرب والبربر والسكّان الذين هم من أصل تركيّ أو زَنجيّ ممّن يدين بالاسلام . وأما الاوروبيون فهم الافرنسيون والانكليز والاميركيون وسائر الذين هم من أصل أوروبّي أوأميركيّ ومن أهل المشرق من الذين يدينون بالنصرانية أوباليهودية .

ولقد كان للأوروبيين في المغرب في أيام الاستعمار الفرنسي مركز ممتاز في السياسة والادارة والمجتمع . وأما المسلمون فكانوا يعاملون معاملة المستعبَدين في كلّ شيء (١) .

والواقع أن فرنسة ترى ، كسائر الدول المستعمرة ، أن الوعي الاسلامي خطر على النفوذ الاجنبي في البلاد الاسلامية . وهؤلاء الذين كانوا يستعمرون البلاد العربية خاصة كانوا يرون أن العروبة تتحوّل عملياً « حركة اسلامية » ثم تعمّ البلاد العربية والبلاد الاسلامية غير العربية على السواء .

في عام ١٩٥٧ صدر في باريس كتاب اسمه « الملفّ السرّيّ لشماليّ افريقية » ألّفه بيار فونتين وملأه بالحقد والمغالطات ، ولكنّه كشف عن عقدة الخوف من العروبة والاسلام وعن عقدة الخوف من الدور الذي يقوم به الرئيس جمال عبدالناصر .. قال بيار فونتين(٢) :

« ان جنون العظمة (ولنثبت للكاتب الفرنسيّ التعبير الذي اختاره) في ناصر (عامل) مساعد تنقلب به العروبة حركة جامعة اسلامية . وفي رأي المصري (٣) أنه من الواجب عليه أن يجمع في اتّحاد واسع جميع الدول العربية المستقلّة ما بين الدار البيضاء وبين طهران وأن يصبح هو لذلك الاتّحاد رئيساً روحياً على الاقلّ . على أن هذا لا يعني

(١) راجع وثبة المغرب للدكتور عمر فروخ ، ص ٨٣ ، ٩٢ — ٩٨ ، ١٠١ — ١٠٢ ، ١٠٧ — ١٠٨ ، ١١٣ — ١١٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ — ٢٤٢ .

(2) Fontaine 126 ss.

(٣) بدأ الكاتب الفرنسي كلمة « المصري » بحرف كبير لأنه يشير بها الى الرئيس جمال عبد الناصر ، كما يبدو من القرينة بوضوح .

أنه سينجح ؛ إنّنا نعلم أن دولاً عربية تقبل المعونة المصرية ثم هي تكافح نفوذ القاهرة سرّاً . أما في الوقت الحاضر فانّه يجب علينا ألاّ ننظر إلاّ في مخطّط الحركة الاسلامية ، بقطع النظر عن امكان نجاحه أو خيبته ، لأن ذلك المخطّط هو سبب الضجّة في شماليّ افريقية .....

« إن فرنسة تسهّل في كلّ عام للمسلمين الراغبين في الذهاب الى الحجّ طريق حجّهم باستئجارها لهم سفينةً خاصّة . وهاك ما تنقلب اليه هذه الرحلة الى الحجر الاسود في برنامج ناصر . ان الحجّ يمكن أن يكون قوّة عظيمة في يدنا لو أننا عرفنا كيف نستغلّها ... في مؤتمر سياسيّ دوريّ يجمع في كلّ عام قادة الدول الاسلامية ورجال الرأي والعلماء والكتّاب والتجّار وملوك الصناعة كما يجمع الشبّان أيضاً » .

« ان الحركة الاسلامية قد انتقلت الى الميدان العمليّ ، وان الشمال الافريقي ليس سوى لقمة (تنتظر) الابتلاع .....

« لا تبتسم أبداً ! ان تشاد (١) يعمل اليوم فيها رسلُ الشيوعيّة والدعاية للجامعة الاسلامية . وفي الحق ، لو أن البيض (٢) أرادوا لَوَقفَ ذلك كلّه في لحظة . ولكنّهم يتناهشون ويتربّص كلّ واحد منهم بجاره حتى يَحِل محلّه في الوقت المناسب ؛ وانه لَخَطَرٌ عليهم كبير ألا يُلقوا أذناً صاغية الى أصوات المسلمين المحمومة . ان حياة الروميّ (٣) لا تزن في الحقيقة الا قليلاً — مهما كان أصله ومهما كان دينه — حينما يقود اللهبُ الاخضر أتباعَه المتعصبين .

« والوحدة العربية (٤) موطىء قدم أقامته بريطانية ، ولم يكن أحد (من العرب) يُلقي اليه بالاً في زمانه . واننا نجد في أعلى السلّم من حركة القومية العربية حركة الجامعة الاسلامية التي تولّتها مصر ، مصر التي تتمتّع بقسط أكبر من التطوّر ومن التمدين الاوروبّي والتي تنعم بقسط أوفر من خبرة البيض الذين يظنّون أنهم يتّخذون من مصر تابعاً لهم . والجنون المصري يشجّعه عجز هيئة الأمم عن حلّ مشكلة سبعمائة ألف لاجىء عربي منذ نهاية الحرب الاسرائيلية الاسلامية (عام ١٩٤٨) ، تلك المشكلة التي ما زالت

(١) تشاد كانت مستعمرة فرنسية في غربي افريقية ثم استقلت .

(٢) البيض : الاوروبيون ، الدول الاوروبية .

(٣) الرومي : الاجنبي ، الاوروبي المسيحي .

(٤) في الاصل الفرنسي : Panarabisme

شعاراً دائماً للتحريض على الاوروبيين . ان قضية السيطرة الاسلامية قضية رئيسية بالاضافة الى شماليّ افريقية ، وستكون غداً قضية أكثر ثقلاً فيما يتعلّق بالمسلمين في القارّة السوداء، أولئك المسلمين الذين يقومون بعبادات محبّبة جدّاً الى (أصحاب) عدد من المذاهب الفطرية والوثنية . ان الدول العربية مجنّدة في صفوف الجامعة الاسلامية التي يقودها الرئيس الكولونل ناصر الذي أعد منهاجه للاستعمار اعداداً واضحاً . ان الدول الاسلامية غير العربية ترى في مصر قاهراً للبيض (الأوروبيّين ») .

ليس من عادتنا في هذا الكتاب أن نعلّق على ما نورده من أقوال رجال التبشير والاستعمار. ولكنّ التعليق هنا واجب لأنه يكشف عن وجه جديد من السياسة الاستعمارية : ان الخوف الحقيقي في نفوس المستعمرين ليس من الوحدة العربية ، بل من الوحدة العربية التي ستنقلب في رأيهم الى وحدة اسلامية . انهم يرون أن القوة الكامنة في الاسلام هي التهديد الصحيح للاستعمار .

ولقد سبق لنا القول بأن في المقاطع الآنفة كثيراً من الحقد والمغالطات والميل الى اسرائيل، ولكنّ الذي يهمنا في هذا النص الذي جئنا به هنا أن الاستعمار زائل عن البلاد العربية وعن البلاد الاسلامية غير العربية ، وأن التبشير الذي كان القوم يقومون به منذ مطلع القرن الماضي لم يكن لنشر النصرانية بل لبسط النفوذ الاجنبي على المناطق الواسعة في العالم العربي والعالم الاسلامي من وراء التبشير بالنصرانية .

في السودان

السودان هو المنطقة التي تمتدّ في أواسط افريقية من البحر الاحمر الى المحيط الاطلسيّ والتي يغلب على جلد أهلها السواد . ويحسن في معالجة موضوع التبشير هنا أن نقسم تلك المنطقة قسمين شرقياً وغربياً .

أما القسم الشرقي فنتناوله هنا ملاحظتان :

١) ان قسماً من أهل هذه المنطقة مسلمون ، بينما أهل القسم الآخر غير مسلمين ، بل وثنيون عامة أو نصارى في الحبشة خاصة .

٢) ان قسماً من أهل الشواطىء من هؤلاء كانوا قد امتزجوا منذ أقدم الازمنة بالعرب ، وخصوصاً بعرب اليمن ، ثم زاد ذلك الاختلاط كثيراً بعد الاسلام .

وأما القسم الغربي من السودان فان أهله لم يختلطوا بالعرب الا بعد الفتح الاسلامي في

المغرب ، وبعد قيام حركة المرابطين في القرن الخامس للهجرة والحادي عشر للميلاد خاصة وفي الجانب الشماليّ منه على الاخص .

في السودان الشرقي

حينما نقول السودان اليوم فاننا نعني بقعة من الارض ، جنوب مصر ، تبلغ نحو مليونين كيلومتراً مربعاً في مساحتها ، وهي التي أصبحت جمهورية مستقلة عام ١٩٥٦ .

منذ جاء ليفنيغستون (١) الى افريقية ، في منتصف القرن التاسع عشر ، تمتزج في نفسه عوامل التبشير بعوامل الاستكشاف ، جعلت دول الاستعمار تتسابق الى أواسط افريقية بالتبشير ظاهراً وبالاستيلاء على الاراضي الغنية في القارة التي كانت يومذاك لا تزال سوداء مظلمة مجهولة في الحقيقة .

وسبق الرهبانُ الكاثوليك من النمسة الى السودان ، في شباط (فبراير) من عام ١٨٤٨ . « ومع أن الهدف الرئيسي لتلك الارسالية كان التبشير بين الوثنيين ، فان أولئك الرهبان قد احتجّوا على قرار الحكومة المصرية بتحريم التبشير بين المسلمين » (١). ومع أن مراكز أخرى للتبشير قد أنشئت في السودان في السنوات التالية ، فان جميع تلك المراكز قد أغلقت في عام ١٨٦٠ لأن الرهبان كانوا يتعرّضون للاغتيال (٢) .

وظل الامر على ذلك حتى احتلّ الانكليز مصر ، سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢ م) ، ثم كانت الحملة الانكليزية المصرية على السودان لاخماد حركة المهدي ، سنة ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) .

وفي عام ١٨٩٩ جمع المبشرون البريطانيون والمبشرون الاميركيون جهودهم في السودان واتخذوا مراكز لهم في الخرطوم وأم درمان . غير أن التبشير بين المسلمين ظلّ ممنوعاً ، فان اللورد كتشنر ، وكان يومذاك الحاكم العام في مصر والسودان باسم بريطانية ، رفض أن يقوم المبشرون بأعمالهم في بلادِ أهلها مسلمون ، بينما الحكومة البريطانية لا

---

(١) راجع فوق، ص١٥، ١٨٥ .

(2) Trımınghan, Opproach 9.

(3) ibid 9 ff.

(4) ibid 12 f.

ترغب في عرقلة أعمالها السياسية في المناطق التي كانت قد بسطت عليها نفوذها أو لم تستطع بعد أن تثبت هذا النفوذ .

عند ذلك التفت المبشرون الى التعليم وأعانهم على ذلك اللورد كرومر الذي خلف كتشنر . فقد أسس المبشرون الانكليز مدرسة للبنات في الخرطوم ، عام ١٩٠٣ ، وأسس المبشرون الاميركيون في الخرطوم نفسها مدرسة للصبيان بعد عامين . ثم وسع كل فريق منهم جهوده التبشيرية من خلال التعليم . على أن هذه المدارس كانت قاصرة في أول الأمر ، وفي فترة غير قصيرة بعد ذلك ، على أولاد الجاليات المصرية والسورية وعلى المولّدين (الذين كان آباؤهم من الاجانب) ، وكان معظم هؤلاء غير مسلمين (١) .

ثم ان الحكومة الانكليزية قسمت السودان قسمين : قسماً شمال خط العرض ١٢ عدّته قسماً اسلامياً لا يجوز السماح فيه للمبشّرين بالقيام بأعمالهم علناً . وكذلك أوجبت الحكومة الانكليزية على المدارس التبشيرية ألا تعلّم الدين المسيحي لتلميذ اختار وليّ أمره أن يدخله فيها إلاّ اذا حصلت من الوليّ على اذن خطي بذلك . على أن هذا كله لم يمنع شيئاً من التبشير بوسائل مختلفة من طريق التعليم والتطبيب والسياسة ووظائف الحكومة مما عرفنا أشباهه في هذا الكتاب .

أما جنوب خط العرض ١٢ فعدته الحكومة الانكليزية قسماً وثنياً خالصاً ومنعت المسلمين من السفر اليه حتى تتيح للمبشرين المسيحيين أن يعملوا فيه بحرية ، ثم كانت هي تقدم لهم جميع المساعدات في سبيل ذلك . غير أن جنوب السودان ظلّ ميدان صراع بين الحركة الاسلامية وبين الارساليات التبشيرية المسيحية مما لا يدخل بحثه في نطاق هذا الكتاب . ولا ريب في أن استقلال السودان قد خفف كثيراً من أثر المبشرين الكاثوليك والبروتستانت حتى في جنوبي السودان .

الاضطراب في السودان

كان محمد علي باشا قد فتح السودان ، في سنة ١٢٣٧ هـ (١٨٢١ م) ، باسم العثمانيين . وكان للسودان، من قبل ومن بعد، مشاكل كثيرة منها جلب العبيد منه للبيع في مصر وفي غيرهـا .

(1) ibid 15 .

وجاء اسماعيل باشا الى عرش مصر في رجب من سنة ١٢٨٠ (١٨٦٣ م) . واحتاج اسماعيل باشا الى أن يسدّ نفقات كثيرة منها ما كان في سبيل الاصلاح كبناء السكك الحديدية وانشاء الطرق والمرافىء وشق قناة السويس ، ومنها ما ذهب في الاسراف على بناء القصور أو في السرقات . ثم كانت القلاقل في السودان واحتاج الى تمويل الحملات بمبالغ ضخمة . ففي سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) باع اسماعيل أسهمه في قناة السويس للحكومة البريطانية . وهكذا أصبحت معظم أسهم قناة السويس في يد الافرنسيين ويد الحكومة البريطانية . ثم غرق اسماعيل في الديون الاجنبية ، فتأسّس في مصر صندوق الديون العمومية . عندئذ فرضت فرنسة وانكلترة على اسماعيل لجنة منهما للاشراف على جميع الضرائب وعلى نفقات الدولة محافظة على حقّها في الديون وفي نصيبهما من دخل القناة . بذلك دخلت مصر في نطاق النفوذ البريطاني الفرنسي فعلياً . غير أن النفوذ البريطاني كان أغلب .

ومع دخول النفوذ الاجنبي الى ميدان الاقتصاد المصري دخل هذا النفوذ في الوقت نفسه الى الميدانين السياسيّ والعسكري . لقد استعان اسماعيل باشا في التغلّب على تجارة الرقيق بنفر من الاجانب منهم السير صموئيل بايكر والكولونل تشارلس غوردون ورودولف سلاتين (سلاطين باشا) . لقد عهد الى هؤلاء بالولاية على عدد من المناطق السودانية وفوّض اليهم العمل بجميع الوسائل التي يرونها ضرورية للقضاء على نشاط الجلاّبين . وهكذا دخل النفوذ البريطاني الى السودان أيضاً . ويحسن أن نذكر هنا أن الكولونل تشارلس غوردون — أو غوردون باشا كما أصبح يدعى فيما بعد — كان من المتّصلين بحركة التبشير ومن الذين كانوا يشجّعون على القيام بالتبشير في السودان خاصة . وكانت قضيّة التبشير في السودان خاصة تشغله الى درجة أنّه كتب بها رسالة أو رسائل الى أخته (١) .

في ذلك الحين كان غوردون باشا قد أصبح الحاكم العام في السودان فتقلّصت تجارة الرقيق قليلاً واتّسعت حركة التبشير كثيراً . ولكن في عام ١٨٧٩ استدعي غوردون الى انكلترة فنشطت تجارة الرقيق من غير أن تركد حركة التبشير التي كان غوردون قد دفعها في القسم الجنوبي من السودان خاصة .

يبدو أن هذا التدخّل البريطاني في حياة السودان الدينية على الاخصّ وفي حياته السياسية أيضاً (مضافاً الى هذا التدخّل الاجنبي شيء من الفوضى التي آل اليها الحكم المصري في السودان والتي كانت امتداداً للفوضى في مصر نفسها يومذاك) قد كان السبب الأوّل في

(1) Trimingham, Approach 10 - 11 .

الثورة الدينية التي أثارها محمد بن أحمد المعروف بالمهدي ، في رمضان من سنة ١٢٩٨ (صيف ١٨٨١ م) .

في ذلك الحين كان خديو مصر اسماعيل باشا قد خُلع (١٢٩٦ هـ — ١٨٧٩ م) وخلفه ابنه توفيق الذي كان أضعف من أبيه من الناحية الاقتصادية والناحية الادارية معاً ، وكان الانكليز خاصّة يسندون حكمه الضعيف لأنّ ضعفه كان يمكّنهم من تنفيذ رغباتهم في مصر والسودان . وعمّت مصرَ النقمة التي كانت قد عمّت السودان من قبل ، فقد كثر نفوذ الانكليز وزاد عدد الاجانب في مصر زيادة كبيرة جدّاً ، فنَشِبت ثورة أحمد عرابي بعد ثـورة المهدي في السودان بأسابيع .

وتمادت الثورتان ، ورأت بريطانية فيهما تهديداً لنفوذها ومصالحها في القارة الافريقية كلّها فاحتلّت مصر في شهر شعبان من سنة ١٢٩٩ (تموز — يوليو ١٨٨٢) .

وحرصت بريطانية على قمع حركة المهدي في السودان من وراء الجيش المصري فأبيدت النجدات المصرية التي أرسلت الى السودان . وفي ربيع الثاني من سنة ١٣٠١ (شباط — فبراير ١٨٨٤) أرسلت بريطانية حملة على السودان بقيادة غوردون ، ولكنّ حملـة غوردون أيضاً خابت وقتل غوردون نفسه ، لما سقطت الخرطوم في يد أتباع المهدي في ربيع الثاني من سنة ١٣٠٢ (كانون الثاني — يناير ١٨٨٥) .

وبعد ستّة أشهر من مقتل غوردون توفّي المهدي ، في ٨ رمضان ١٣٠٢ (حزيران — يونيو ١٨٨٥) فتولّى الجهاد بعده عبدالله بن محمد الفقيه المعروف بخليفة المهدي أو بالخليفة.

وفي ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م) أعد الانكليز حملة مشتركة (بريطانية مصرية) بقيـادة كتشنر استطاعت أن تقضي على حركة المهدي في معركة أم درمان ، في جمادى الثانية من سنة ١٣١٦ (أيلول ١٨٩٨) .

وقسم السودان من الناحية الاجتماعية قسمين : قسماً شمالياً وقسماً جنوبياً . أما القسم الشمالي فكان مسلماً ، وقد اقتصر انشاء المدارس الرسمية في السودان على هذا القسم . أما القسم الجنوبي (وقد كان معظم أهله من الوثنيين البدائيين) فقد ترك للمبشّرين الكاثوليك والبروتستانت يقومون فيه بالتعليم (١) ، أو بالتبشير تحت ستار التعليم . ومنذ عام ١٩٢٦ جعلت الحكومة الانكليزية المنتدبة على السودان تعطي المبشّرين اعانة من ميزانية السودان مساعدة لهم على التعليم (٢) .

(1) Dempsy 48.
(2) ibid . 48 f .

التكاتف في سبيل التبشير

ولقد انكشف العنصر السياسي في التبشير انكشافاً ظاهراً لمّا وقعت الازمة الاقتصادية في الولايات المتحدة (١٩٢٩ — ١٩٣٠) ثم في بريطانية (عام ١٩٣١) ، فقلّت المبالغ التي كانت تتدفّق على الارساليّات التبشيرية من تينك الدولتين وبردت حركة التبشير حينـــاً (١) .

على أن أغرب ما في هذه الصورة السياسية التبشيرية أن هيلاسلاسي امبرطور الحبشة الارثوذكسي كان يساعد الارساليّات الاجنبية التي هي بروتستانتية أو كاثوليكية عـلى التبشير في السودان (٢) .

ودخل على هذه الصورة الغريبة عنصر أشدّ غرابة هو التميز العنصري (٣) . والواقع أن السود الصابئين الى النصرانية لم يتمتّعوا بشيء من المساواة مع اخوانهم البيض الاوروبيين ، لا في الدولة ولا في الكنيسة . ومع أن عدداً من الارساليّات احتجّت (فقط) على سياسة التمييز العنصري ، فان نفراً من رؤساء الارساليات الهولندية خاصة وقفوا (نظرياً) من هذه القضية على الحياد (٤) . ولكنّهم أغلقوا أبواب الكنائس الكبرى في افريقية في وجه النصارى السود .

وقد كان من الطبيعي أن يؤدّي هذا المسلك الى ردّة فعل بين النصارى السود ضدّ النصارى البيض ، وخصوصاً في المدن التي تنهض فيها كنائس عظيمة البنيان (٥) . ولكن بما أن هذا النزاع كان نزاعاً داخلياً في النصرانية نفسها فاننا نكتفي هنا بالاشارة اليه فقط. أما النزاع السياسيّ فنخصّه بكلمة موجزة .

ظنّ المبشّرون أن التبشير سيجعل من الافريقيين غربيين في كلّ شيء حتى في الشعور السياسيّ . ولكنّ ذلك لم يتّفق دائماً . ان الافريقيين الذين تلقّوا العلم الغربي عـلى يد المبشرين أصبحوا هم أنفسهم كارهين للتبشير وللصلة التي يريد المبشّرون أن ينشؤوها بين الدين وبين السياسة . ففي كلّ مكان وصل اليه الوعي الوطني ظهر الكره للتبشير حتى قال غروف : « اننا لا نستطيع أن نخفي عن أنفسنا ولا عن غيرنا أن نفراً كثيرين يمثّلون

(١) Grove ١٣٧ راجع ٦٤-٦٥ . والحواشي التالية غير المنسوبة كلها من Grove
(٢) ١٤٣ س
(٣) راجع فوق ص
(٤) ١٠٥ ، ١٣٥
(٥) ٧٧

الجماعات الافريقية أظهروا امتعاضاً شديداً من التبشير وأخبرونا أن الصلة بين الكنائس والتبشير وبين التعليم يجب ، في رأيهم ، أن تنتهي بسرعة . وكان هؤلاء اذا تكلّموا في التعليم يقولون : مدارسكم ومدارسنا ، يحدّدون بذلك الفرق بين مدارس الارساليات وبين المدارس التي تديرها السلطات الافريقية المحلّيّة (١) . ومنهم من جعل يقتل المبشرين في الكونغو (٢) وفي غير الكونغو .

والواضح أن هذا الخلاف في الرأي يرجع الى عامل وراء التبشير ووراء التعليم؛ ان هذا العامل كان « الاستعمار ». يرى غروف أن السنوات العشر التي تلت الحرب العالمية الاولى قد خلقت نضجاً ووعياً بين الشعوب الافريقية . ومع أن الارساليّات التبشيرية كانت منذ أيامها الاولى ترى أن تبلغ الشعوب الافريقية رشدها بين شعوب العالم المتطوّرة وان يصبح الجميع أبناء متساوين لله الواحد ، فان تلك الارساليات كانت ترى أن يتمّ هذا في مدى طويل . إلاّ أن هذه التطورات قد جلبت معها مضايقات للارساليّات المسيحية ينبع معظمها من إلحاح الافريقيين على العمل السياسي السريع بالاضافة الى عمل مواز لذلك في سائر الميادين (٣) .

ان التعبير في المقطع السابق غامض في شكله الراهن ، مع أن المؤلّف غروف يدور حوله في صفحتين . ان المقصود من هذا المقطع أن الافريقيين لمّا تعلّموا في مدارس التبشير ووصلوا الى شيء من النضج بدأوا يطالبون باستقلال صحيح في السياسة والاقتصاد والاجتماع ، بينما كان المبشرون يعتقدون أن التعليم تحت اشراف المبشّرين سيجعل الافريقيين يطمئنّون الى الحكم الاجنبي وقتاً طويلاً على الأقلّ .

وهذا الذي كان يجري في أواسط افريقية وفي شرقها، في أراضي النفوذ البريطاني، كان يجري مثله في غربي افريقية . ان نيجيريا بلاد واسعة كثيرة السكّان . غير أن السكّان في نيجيريا يتفاوتون في الحياة الدينية : فالغالب على القسم الشمالي من نيجيرية الاسلام ، بينما الأكثرون في الجنوب من الوثنيين . فلما ملكت بريطانية هذا الجزء من القارة الافريقية منعت السكّان المسلمين أن يدخلوا الى القسم الجنوبي الوثني ثم أطلقت للمبشّرين حرّية العمل فيه . أن الحكومة البريطانية لم تسمح بحريّة مماثلة للمبشرين في القسم الشمالي لأن الاسلام فيه قوّة عظيمة، ولم تكن انكلترة راغبة في اغضاب المسلمين فيه حرصاً على مصالحها الاقتصادية والسياسية أولاً . ولكن منذ عام ١٩٢٧ أخذت الحكومة البريطانية

(١) ٢٨٢ – ٢٨٣ .
(2) Life Magazine, N. Y, Feb. 14, 1964 (Editorial)
(٣) ٢٨٠ .

تحضّ المبشرين على العمل في شماليّ نيجيرياثم تساعدهم على ذلك . ومع ان نيجيريا بقيت بعد بلوغها الى الحكم الذاتي في عام١٩٥٩ ، وبعد استقلالها عام ١٩٦٠ ، جزءاً من الامبرطورية البريطانية التي سمّيت جامعة الشعوب البريطانية ، فان أثر التبشير والمبشّرين يجب أن يكون قد خفّ كثيراً في الجزء الشماليّ من نيجيرية وفي القسم الجنوبي أيضاً .

التعليم في افريقية

كان المبشّرون أول من بدأ التعليم في افريقية السوداء . وفي أوغندة ظلّ التعليم في يد المبشّرين زهاء نصف قرن (١٨٧٧ – ١٩٢٥) . ولمّا تأسّس المجلس الاستشاري للتعليم الافريقي تمثّلت فيه دوائر الحكومة (البريطانية) والارساليّات التبشيرية والجماعات الافريقية والاجنبية (١) . وكان المبشّرون الانكليز يحملون أعباء أساسية في ادارة المدارس في جميع أنحاء افريقية البريطانية (٢) . ثم اتّسع التبشير اتّساعاً عظيماً بزيادة عدد المبشّرين البروتستانت والكاثوليك اذ بلغ عددهم في عام ١٩٢٥ نحو ٦٣٠٠ في جميع أنحاء افريقية (٣) .

أما في المستعمرات البلجيكية (الكونغو) والبرتغالية (أنغولا) فان المعاملة الممتازة كانت للارساليّات الكاثوليكية (٤) .

العامل السياسي

ويبدو العامل السياسي في التنافس في افريقية — كلّ دولة تحمي مبشّريها ، وكلّ ارسالية تبشيرية تناصر دولتها — واضحاً جداً في ميدانين : في ميدان الحرب وفي ميدان التبشير نفسه.

لمّا نشبت الحرب العالمية الاولى ، عام١٩١٤ ، عاملت كلّ دولة في مستعمراتها مبشّري أعدائها معاملة المحاربين : بالاسر والاعتقال والترحيل . وكانت انكلترة وفرنسة حريصتين على استئصال المبشّرين الالمان في البلاد التي كانتا تسيطران عليها (٥) .

ولمّا انتهت الحرب العالمية الاولى لم تسمح الحكومة الانكليزية لمبشّر غير انكليزي أن

(١) ١٠٦–١١٨
(٢) ١٨٩
(٣) ١٢١
(٤) ١١٩
(٥) ١٧، ٢١، ٨٨، ١٢٣

يدخل مناطق نفوذها الا اذا حصل على اذن بذلك (١) . أما البلجيكيّون فقسموا الارساليات التي تريد دخول الكونغو قسمين : ارساليّات وطنية وارساليات غير وطنية . أمـا الارساليّات الوطنية فكانت في عُرفهم تلك الارساليّات التي يكون ثلثا أعضاء المجلس الاداري فيها من البلجيكيّين (٢) . ولمّا احتلّت ايطالية الحبشة ، في عام ١٩٣٦ ، اضطُرّت الارساليات البروتستانتية الى مغادرة الحبشة كلّها (٣) .

وفي الحرب العالمية الاولى ترك المبشّرون عملهم التبشيري وجعلوا يطوفون في المناطق ويجمعون المتطوّعين لجيوش دولهم (٤) .

حال السود في الاسلام والنصرانية

ان المبشّرين بالنصرانية لا يريدون نصارى من السود يساوونهم في المنزلة ، ولكنّهم يريدون أشخاصاً يستتبعونهم في استغلال البلاد التي يبشّرون فيها . وهذا أمر ظاهر مـن مقارنة حال الذين يسلمون بحال الذين يتنصّرون . قال الاستاذ وسترمان (٥) :

« حينما يعتنق الزنجي الاسلام فانّه يصبح حالاً عضواً في هيئة اجتماعية أعلى (من تلك التي كان فيها من قبل) . ثم هو يبلغ بسرعة الى الشعور بالثقـة بنفسه والى الشعور بمقامه ، كما يشعر أنه قد أصبح عضواً في منظّمة منتشرة حول العالم كلّه . وكذلك تنشأ له صلات واضحة المعالم بالأوروبيين أنفسهم . ان الزنجيّ الذي كان يعيش في الادغال محتقراً يصبح بالاسلام ذا مقام ويجد أن الاوروبيين أنفسهم قد جعلوا — على الرُغم منهم — يعاملونه باحترام . أما اذا انتقل الوثني (والزنجي) الى الجماعة المسيحية (أي اذا صبأ الى النصرانية) ، فان الذي يحدث هو خلاف ذلك تماماً . اننا نحن الاوروبيين نبقى دائماً غرباء عن الافريقي ، وحينما هو يتبنّى حضارتنا في ظاهرها فانه في الحقيقة لا يفهمها . اننا لم نتعلّم بعد ، ولا المبشرون منا أيضاً ، أن نتفهّم الزنجيّ في خصائصه المميّزة له . اننّا لم نكلّف أنفسنا عناء الاهتمام بفهم حضارته وبترقية حضارته بعوامل من حضارتنـا وبالنصرانية . وبدلاً من أن نفعل ذلك رحنا نهدم حضارته ثم نحاول أن نبدّلها بحضارتنا . وهكذا نجدنا معرّضين الى أن نجعل من الزنجي صورة شوهاء للأوروبّي ، بينما الاسلام يجعل

(١) ٨٥

(٢) ٨٥ ، ١٠١ حاشية ٢

(٣) ١٤٣

(٤) ٦٨-٦٩

(5) Westermann 644 f.

منه افريقيّاً يحترم نفسه . وفوق ذلك لا نجد الزنجيّ المتمدين بالمدنية الأوروبية يبلغ تلك المساواة الاجتماعية التي يبلّغه اياها الاسلام بطبيعة الحال . ثم ان هنالك نفراً من الاوروبيين قلّما كلّفوا أنفسهم عناءً في اخفاء حقيقة (عندهم) هي أن الاسود (١) المسيحيّ لا يزال محتقراً في أعينهم كالزنجي الذي يسكن الادغال ، كما أنه ليس من النادر أن تـرى هؤلاء ينتهزون كلّ فرصة يظهرون فيها تفضيلهم للسود المسلمين (على السود المتنصّرين) . تلك الحقيقة وحدها تفسّر لنا بكلّ وضوح واقعاً هو أن الافريقيين الذين تلقّوا في المدة الاخيرة تعليماً مسيحياً قد انقلبوا دعاة للاسلام . وبما أن الافريقيين لا يأملون أبداً أن ينالوا (بالنصرانية) مقاماً اجتماعيّاً مساوياً لمقام اخوانهم في العقيدة من النصارى الاوروبيّين ، فقد نشأ فيهم استعداد لأن يروا في الاسلام الدين (الوحيد) للافريقيّ الحديث » .

المسلمون في الحبشة

ان البحث في شأن المسلمين في الدول غير الاسلامية لا يدخل ، من حيث المبدأ ، في نطاق هذا الكتاب . غير أن شأن المسلمين في الحبشة جزء متمّم في هذا النطاق . ان ملوك الحبشة النصارى أرادوا في القرن التاسع عشر أن يحملوا المسلمين الأحباش بالقوة على اعتناق النصرانية أو على مغادرة الحبشة . ثم ان ثيودور ملك الحبشة أراد أن يحالف بريطانية ضد الدول الاسلامية المجاورة له وخصوصاً مصر ، ثم كتب بذلك رسالة الى الملكة فيكتوريا في عام ١٨٦٣ . ولكنّ رسالته بقيت بلا ردّ فعدّ ثيودور ذلك اهانة وسجن القنصـل الانكليزي والمبشّرين البروتستانت الذين كانت الحكومة الحبشية قد سمحت لهم بالتبشير بين رعاياها المسلمين (٢) . ومنذ عامين سمحت الحكومة الحبشية للولايات المتحدة الاميركية بانشاء محطّة اذاعة تبشيرية في أديس أبابا اسمها « صوت الانجيل » .

وجاء الملك يوحنّا فأمر بتعبئة عامة ثم أعلن حرباً صليبية على المسلمين . ووصف الجنرال غوردون الملك يوحنّا هذا فقال (٣) : « انه مثلي ، متعصّب في الدين . انه يشعر أنه يحمل رسالة وأنه سوف يحقّقها : تلك الرسالة هي أن ينصّر جميع المسلمين » .

(١) ان ناقل المقال من الالمـانية الى الانكليزية يستعمل الكلمة الانكليزية « Nigger » . هذه الكلمة تعني « أسيودا » تصغيراً لكلمة « أسود » على سبيل الاحتقار ، كما تعني أيضاً نوعـاً من الخنافس (والخنفسة حشرة سوداء كريهة) .

(2) Trimingham, Islam in Ethiopia 118 , 119 , of. 122 ; A dictionary of Dates (Everyman's Library), under : Abyssinta .

(3) Trimingham , op. cit. 121.

وقد اتّفق أن الحكومة الحبشية استطاعت من طريق القهر أن تنصّر بعض المسلمين ، ولكن جماعات كثيرة من أولئك المقهورين على تبديل دينهم خرجوا من الكنيسة التي عمّدوا فيها الى المساجد ليعودوا الى ايمانهم . ولم يكن لذلك نتيجة الا ازدياد العداوة بين المسلمين والنصارى من الاحباش (١) .

والنصارى في الاصل أقليّة في الحبشة ، ولكنّ الاستعمار البريطاني خاصة هو الذي يدعم الاسرة المسيحية الحاكمة على كثرة من المسلمين يتكلّم العديد الأكبر منهم اللغة العربية ويعرفون جمعهم اللغة العربية لأنها لغة الاسلام .

وبعد الحرب العالمية الثانية أضاف الاستعمار البريطاني الاميركي ظلماً جديداً الى الظلم القديم فأضاف الاريترية الى الحبشة وأخضعها للاسرة المسيحيّة الحاكمة . ان الكثرة المطلقة من أهل الاريترية مسلمون . من أجل ذلك لمّا أجبر الاستعمار على مغادرة الايترية المسلمة فضّل أن تكون تلك المقاطعة تحت حكم ملك مسالم للسياسة الغربية ومستند في حكمه وسياسته اليها على أن تكون دولة مسلمة مستقلّة .

ونحن اذا كرّرنا النظر في المقاطعات الافريقية التي استقلّت ، بعد الحرب العالمية الثانية ، وجدنا أن الاستعمار قد أقام قبل مغادرته تلك البلاد حكومات اكثرها من الصابئين الى النصرانية ، مع أن الكثرة المطلقة من أهل تلك الدول الجديدة مسلمون . غير أن الاستعمار لم ينل من ذلك مآرب كثارا . ان معظم هؤلاء أصبحوا يشعرون أنهم مسؤولون أمام قومهم قبل أن يكونوا مسؤولين أمام الدول الاجنبية التي مهدت لهم سبيل الحكم لأنهم صابئون . ولمّا خاب ظنّ الاستعمار في باتريس لومومبا في الكونغو ، وجدنا باتريس لومومبا يسقط صريعاً في أحوال غامضة ، اذا لم تكن من تدبير الاستعمار فانها كانت على الاقلّ تتمتّع بحماية الاستعمار . وبعد مقتل لومومبا وجدت أسرته ملجأ أميناً ورعاية عطوفاً في الجمهورية العربية المتحدة لا في بلجيكة التي تمتّعت بخيرات الكونغو استيلاء ونهباً قرناً كاملا من الزمن .

(1) ibid . 122—123, cf . 127 .

ثلاثة ملاحق

•

في الآراء الجانبية أحياناً دلالات فوق ما في الآراء المقصودة بالتعبير . قد نجد في كتاب يبحث في الأدب أو الموسيقى أو العلم حقائق تاريخية اجتماعيّة قد لا نجدها في الكتب التي أُلّفت في التاريخ وفي علم الاجتماع .

في هذا الفصل القصير ثلاث حقائق من هذا الباب :

الملحق الأول :

حزب البعث(١) : الماركسية والقومية العربية

يرى ميشال عفلق (٢) في الاحزاب الشيوعية العربية أحلافاً طبيعية للمستعمرين والرجعيّين وخصوماً ألدّاء للحركات التقدّمية العربية . ومع ذلك فان ميشال عفلق يقول أن حزب البعث مدين في جانب واسع من برنامجه الاشتراكي للماركسيّة . وسئل ميشال عفلق عن أصحاب الفلسفات من الغربيين الذين يمكن أن يكونوا قد أثروا في توجيه تفكيره ، فقال : ولا واحد منهم . لقد قرأت كثيراً في شبابي ، ولكن لم يكن شيء مما قرأت ليغذّي العاطفة التي أردتها أن تكون عربية بكل ما في هذه الكلمة من معنى . ثم ان صلتي بالتيّارات الفكرية الغربية قد انقطعت منذ بداية الحرب العالمية الثانية .

ليس لنا في هذا المقام الا الاشارة الى الجانب الماركسي (الشيوعي) الذي كان البرنامج القومي العربي في رأي ميشال عفلق مديناً له ؛ من غير جدال في الموضوع .

(١) راجع فوق ، ص ١٧٦ — ١٧٨ .

(2) Le Monde (Paris) , 21-3-1963, p. 8, cal . 1 .
ميشال عفلق هو الامين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي .

الملحق الثاني :

زيارة البابا لفلسطين

زار البابا بولص السادس فلسطين زيارة بدأت في صباح اليوم الرابع من شهر كانون الثاني (يناير – جانفي) من عام ١٩٦٤ ثم انتهت بعد ظهر اليوم السادس من الشهر نفسه(١) لقد كانت هذه الزيارة مفاجئة للعالم لأن البابا في العــادة منذ الزمن الاقدم لا يغــادر مقرّه في الفاتيكان ، ولأن الزيارة نفسها الى فلسطين بالذات تحتمل تأويلات كثيرة شتّى . ونحن هنا لا نتعرّض لتكهّنات الصحافة العالمية ولا لتعليقات المعلقين في الدوائر الدولية ، لأن الانسان لا يمكن أن يخرج من تأويلات المتأوّلين وتعليقات المعلّقين الا بلغز أشد استغلاقاً من لغز الزيارة نفسها .

قبل ظهر الاربعاء في الثامن من شهر كانون الثاني استقبل البابا بولص السادس نحو ثلاثة آلاف من الزوّار الى روما وخطب فيهم خطبة كانت الخطبة الاولى له بعد رجوعه من فلسطين . في هذه الخطبة نوّه البابا بمكانة روما في الرسالة الروحية للكنيسة .

وصفت جريدة إل تمبو(٢) هذه الخطبة بأنها أهمّ الخطب التي ألقاها البابا بولص السادس الى الآن . وقد أكّد البابا في هذه الخطبة رسالة الكنيسة لنشر البشارة الطيبة (النصرانية) في العالم كله . ثم تتكلم الجريدة المذكورة ، وهي تعلق على خطاب البابا ، على عظمة رومية فتقول :

« إن الطرق التي كان بامكان العناية الآلهية أن تخطّطها لتنصير العالم لا تحصى . ولكن الحقيقة الواقعة أن الله قد اختار روما لهذه المهمّة ، لا في الماضي فحسب – حينما انقرضت الامبرطورية وتركت تلك المؤسسة الواسعة الخطيرة إرثاً لرومة – بل اليوم أيضاً .. »

وفي الشواهد التي اختارتها الجريدة من خطبة البابا فقرات لا تبعد عن ذلك كثيراً . وقد أحببت• أن أحصل على نص الخطاب كاملاً فكتبت الى الملحق الصحافي في سفارة الفاتيكان في بيروت في هذا الشأن . وقد تلطّف الملحق الصحافي فاتصل بي بالهاتف ثم أرسل اليّ بضعة أعداد من العدد الأسبوعي لجريدة « الرقيب الروماني »(٣) فيها أشياء كثيرة عن رحلة البابا ومن خطبه ، ولكن لم يكن في تلك الاعداد ذلك الخطاب الذي

(1) Tempo (settimanale), A. XXVI, N. 3, Milano 18-1-64, pag. 6-26.
(2) Il Tempo (Roma) , Anno XXl, N. 8, 9-1-1964, pag. 2.

• الكلام لأحدنا الدكتور عمر فروخ .

(3) Osservatori Romano (edition hebdomadaire française) .

أحببت أن أراه كاملاً . من أجل ذلك اكتفيت مكرهاً بالاشارة الى ما نشرته جريدة إل تمبو .

الملحق الثالث :

من الحملات على الثقافة العربية (١)

في مطلع عام ١٩٦٢ نشرت المطبعة التابعة لجامعة كاليفورنيا (الولايات المتحدة) كتاباً عنوانه : الاسلام الحديث (المعاصر) يبحث عن شخصية ثقافية(٢) للدكتور غوستاف فون غرونيباوم٥

إن عنوان الكتاب يدل على المقصد من وضعه : معنى العنوان أن الاسلام في العصر الحاضر حائر يبحث عن ثقافة يرى فيها صورة نفسه . والكتاب في معظمه تشكيك في قيمة الادب العربي وفي قيمة الاسلام . على أن وضع هذا الملحق الثالث راجع الى أمور منها أن الدكتور غرونيباوم يحمل على أحدنا(٣) حملة ظاهرها غير باطنها . هذه الحملة يمكن تفنيدها واظهار التحامل واضحاً فيها اذا اعتبرنا الأمور التالية :

أ – الدكتور غوستاف فون غرونيبام يهودي تخرّج ، فيما أذكر ، في فينا قبل أن أتخرّج أنا في المانية بعام أو عامين . ولما نشرتُ أطروحتي : صورة الاسلام كما تبدو في الشعر العربي من الهجرة الى وفاة عمر بن الخطاب(٥) أذكر أنه نشر عنها كلمة طيبة . ونحن لم نلتق الى الآن قط ، وان كنت أنا أعرف كتبه ، وهو فيما يبدو يعرف عدداً من كتبي . وليس من الغريب أن يكون اتجاهي في عدد من كتبي مخالف لاتجاهه في عدد من كتبه .

ب – ينتقد الدكتور غرونيباوم عدداً من الأقوال التي وردت في كتابي « عبقرية العرب » انتقاداً يظهر فيه التحامل وصرف الجمل عن معانيها وتشويه تلك الجمل . ولا ريب في أن الدكتور غرونيباوم لا يرمي الى انتقادي شخصياً بقدر ما يريد أن يحطّ من شأن النتاج العربي الاسلامي في الثقافة ، كما هو ظاهر في موقفه من الجمل التي ينتزعها من كتابي ومن الجمل التي ينتزعها من أقوال غيري . ثم ان اتجاهه في كتابه دالّ على ذلك .

(١) واجع الفصل العاشر .
(٢) راجع اسم الكتاب كاملا واسم المؤلف على الصفحة ٢٤٣ .
(٣) الدكتور عمر فروخ .

(4) Das Bild des Fruehislam .... Leipzig 1937.

جـ — يورد الدكتور غرونيباوم (ص ١٥٠) جملة يجمع محتواها من كتاب لمالك بنّبي (بن نبي) وكتاب لطه حسين وكتاب لي ، فيما يدعي . الجملة غامضة جداً . على أن المكان الذي يشير اليه غرونيباوم من كتابي عبقرية العرب فيه أن العرب كانوا متسامحين ومتواضعين في بذل العلم لجميع الناس على السواء ؛ أما غرونيباوم فيذكر أن المؤلف قال ذلك بنفخة من الغرور والاستكبار ، ولا أعلم أيّ المؤلّفين الثلاثة عني . أما أنا فان كتابي عبقرية العرب قد بنيته على فكرة أثبتها في المقدمة من الطبعة العربية الثانية (ص ٦ — ٧) ، وهي أن العرب يجب أن ينظروا الى القيمة الذاتية في العلوم التي جاء بها أسلافهم وأن يقوموا هم بدورهم في العصر الحاضر من غير أن يلهيهم التحدث بمجد أسلافهم عن الانتاج المنتظر منهم . ثم انني استشهدت في هذه المناسبة نفسها ببيت الشاعر :

ألهى بني تغلب عن كلّ مكرمة ... قصيدة قالهـا عمرو بن كلثوم !

كأني أقرّع الذين يفعلون ذلك من العرب .

د — على أن الذي كان يجب على الدكتور غرونيباوم أن يخجل منه ولا يغرر فيه بقرّائه الشاهد التالي :

في كتابي « عبقرية العرب » مقطع عن الدور الذي قام به العرب بنقل الفلسفة من العالم اليوناني القديم الى العالم الاوروبي في العصور الوسطى . في هذا الشاهد : « ولولا ذلك ... لما أمكن الغرب اللاتيني الكاثوليكي أن يتصل بالغرب اليوناني الارثوذكسي » .

تناول غرونيباوم هذه الجملة على الصفحة ١٦٣ ثم على الصفحة ١٦٤ وفي حاشية طويلة على الصفحة ١٦٤ نفسها وكذب عليّ كذباً وافترى عليّ افتراء أنا بريء منهما . ان حملته عليّ شخصياً في هذا الشأن ، صحّ أو لم يصحّ ، لا مبرّر لها .

قال « ان الاعجاب بالنفس لا يعرف حداً . ان السني اللبناني عمر فروخ (المولود عام ١٩٠٦) يؤكد لقرائه الذين يجب أن تكون بعض أفكاره قد وصلت اليهم ، وبمثل هذا الشكل المدوّي ، ... أن العرب بعد أن رفعوا عن أعناق البشر نير المذاهب القديمة ... أخرجوا الناس من ظلمات الجهل . وهو لا يدّعي فقط أنه لولا النقول العربية لكتب المفكرين اليونانيين لما استطاع الغرب أن يعرف النتاج الهلّيني (الثقافة اليونانية) ، ولكن (يزيد أنه) لولا العرب لكان من المستحيل تماماً على الغرب اللاتيني الكاثوليكي أن يتصل بالشرق اليوناني الارثوذكسي » .

ان هذا الكلام ، على الرغم من أنه صحيح ولا ادعاء فيه أو تبجّح ، ليس قولي أنا ، وانما أنا استشهدت به من كتاب للدكتور جورج سارطون ، شيخ مؤرخي العلم في العصر الحديث . والاشارة الى كتاب سارطون ظاهرة في حاشية كتابي مع أرقام الصفحات . وأنا أعتقد في الدرجة الاولى أن جورج سارطون الكاثوليكي أدرى بحقيقة الصلات بين العالم الكاثوليكي والعالم الارثوذكسي من غرونيباوم اليهودي . ثم ان الدكتور غرينيباوم لو كان يريد العلم والحقيقة في انتقاده لما وجّه كلماته النابية اليّ والى الثقافة العربية الاسلامية ، بل لناقش الدكتور سارطون مناقشة علمية غايتها تبيان وجه الحق في هذه القضية . ولكن القضية ليست قضية علم أو حق ، انها تحامل واستعمار . ان الدكتور غرونيباوم قد سلك المسلك الذي أملاه عليه ايمانه وبيئته ، وسأسلك أنا المسلك الذي يمليه علي ايماني وتمليه بيئتي . ثم ان في فضائل الاسلام والعرب ما يغنيني ويغني كل مسلم وكل عربي عن أن يكذب على التاريخ وعلى الحقيقة وعلى الحق . وكنت أود أن لو فعل الدكتور غرونيباوم مثل فعلي .

بيروت ، الاثنين في ٢٧ رمضان المبارك ١٣٨٣
١٠ — ٢ — ١٩٦٤

الفصل الثاني عشر

نتائج التبشير ــ الحوار ــ التبشير واسرائيل

●

لا ريب في ان وسائل التبشير والاستعمار قـــد تطورت بتطور العلم تطوراً كبيراً وتعددت الابواب التي يدخل منها التبشير والاستعمار الى حياة الشعوب . وكذلك تعددت أوجه التبشير والاستعمار فأصبح من العسير ان نحيط وصفاً بها جدّ منهـــا منذ الطبعة الثالثة (١٩٦٤م) . من أجل ذلك سنقصر الكلام على ثلاثة موضوعات : نتائج التبشير ثم الحوار ثم التبشير وإسرائيل .

(١) نتائج التبشير

لا شك في ان المبشرين قد أخفقوا في البلاد الاسلامية في هدفهم الذي كانوا قد أعلنوه منذ مطلع العصور الحديثة : نقل الناس الى النصرانية اعتقاداً وعملا . لقد انتقل افراد قليلون وجماعات قلائل الى النصرانية في عدد من البيئات التي يسودهـــا الجهل والفقر وتسيطر فيهـــا الدول الأجنبية المستعمِرة ، وخصوصاً في الشرق الأقصى وفي أواسط افريقيه وغربيها . غير أن هؤلاء المرتدين كانت الكثرة الغالبة منهم من غير المسلمين .

هؤلاء الذين دخلوا النصرانية حباً بالدنيا لم يهنأوا بالدنيا ، لأن الدول المستعمرة لم تحمل هؤلاء على النصرانية حتى تمتعهم بما يتمتع به النصراني الأوروبي والنصراني الأميركي الأبيضان . من اجل ذلك جعلت لهم كنائس بدائية خاصة بهم ومدارس فطرية خاصة بهم وحرمت عليهم كل نشاط يريده البيض لأنفسهم ثم انتظرت منهم ان يكونوا دائماً في خدمتها ضد قومهم وأبناء جلدتهم .

ومن حسن الحظ ان هؤلاء المرتدين قد عملوا بما أراده المستعمر منهم وكانوا عيوناً له وايدياً في وطنهم . ومن الأمثلة على ذلك دويلة بيافرا التي أنشأها الاستعمار في الاقليم الشرقي من نيجريا ، فانها بدأت تكيد لنيجريا وتفتح عليها أبواباً من الشر . وقد كان

أهل بيافرا في الأصل من قبائل الايبو الوثنية ثم أدخل جماعات منهم في النصرانية . ولما زال الأستعمار عن نيجيريا – ظاهرياً على الأقل – أقام الاستعمار لهؤلاء المرتدين دويلة .

ومع ان الحاكمين في نيجيريا الأم كانوا في أكثرهم من النصارى ، فانهم لم يَرْضَوْا عن بيافرا ولا عن اعمال أهل بيافرا فبدأو بالقضاء عليها . ولكن الأستعمار في جميع صوره الظاهرة والمستترة ساعد أهل بيافرا بالمال والسلاح والنفوذ. وأخيراً قُضي على دويلة بيافرا فزالت . وهذه المحاولة التي قام بها الاستعمار في بيافرا من نيجيريا قام بها أيضاً في جنوب السودان ، وفي أماكن أخرى .

غير ان الدول المستعمرة لم تتوقف عن بذل الجهود الهدامة في نيجيريا بوساطة المبشرين . إن الحكومة النيجيرية الاتحادية قد أنكرت التهمة القائلة بأن سياسة إبادة جماعية تجري مجراها في الاقليم الذي كانت فيه دويلة بيافرا . ولكن حكومة نيجيريا الاتحادية قد اصدرت بياناً أعلنت فيه انه سيتم في اقرب فرصة ترحيل القساوسة والراهبات الكاثوليك الأجانب الذين أدينوا أخيراً بتهمة دخول البلاد بطريق غير قانوني ثم اشتركوا في التآمر الاستعماري ضد وحدة نيجيريا . وقد تم بالفعل نقل عدد كبير من هؤلاء القساوسة والراهبات الأجانب إلى لاغوس تمهيداً لترحيلهم الى بلادهم الأصلية [1] .

ولقد كان من المنتظر ان يتراجع المد التبشيري بعد زوال الاستعمار عن الاقطار التي قام فيها المبشرون بنشاطهم ، وإن كان زوال هذا الاستعمار رمزياً فقط . وقد رأى احد المبشرين هذه الحقيقة وكتب فيها كُتيباً يبسُطها فيه .

في عام ١٩٦٤ اصدر المحترم (القس) بيرس بيفر كتاباً صغير الحجم اسمه «من الأرساليات (المتعددة) الى الارسالية (الموحدة)» [2]، أي : وجوب قيام اتجاه واحد في التبشير بدلاً من الاتجاهات الكثيرة المختلفة المتعادية والموجودة حالياً . في هذا الكتاب الصغير الحجم أشياء كثيرة هي التي قلنا بها نحن قبل عشرين عاماً . هذه الأشياء يشعر بها الآن الذين دخلوا في النصرانية على يد المبشرين ويشعر بها المبشرون أنفسهم .

---

(١) راجع جريدة الشعب (بيروت) في ٥/٢/٧٠ والجرائد الاخرى .

(2) From Missions to Mission , by R. Pierce Bearver (Reflection Collection) , copyright 1964 by National Board of Young Men's Christian Association , New York .

ثم يشعر المبشرون أيضاً ان التبشير كله في أزمة .

قال مؤلف هذا الكتاب :

« في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانت الحضارة الأوروبية والسيطرة السياسية والقوة العسكرية تجتاح العالم ؛ وكانت النصرانية تتسنم غارب هذا المد من الجاه الاوروبي الأميركي وتسير على سطحه هوناً فلا تلتقي في آسية وإفريقية إلا بنظم اجتماعية متصدعة وثقافات متفسخة (ص ١١ – ١٢) .

« وأصبحت الطريق ممهدة امام المبشرين ، فانتشرت النصرانية مع اتساع السيطرة الاوروبية (في العالم) . ولقد قام الاستعمار والسيطرة العسكرية بدورهما في نشر النصرانيه (ص ١٣) .

« أما الآن فقد تبدلت الحال ، إن الحربين العالميتين قد حطمتا الجاه الأوروبي في عيون الأسيويين والافريقيين ، فاذا هؤلاء لا يتقبّلون النصرانية (اليوم) على انها جانب من حضارة راقية متفوقة (ص ١٤) كما كان الشأن بالأمس .

« لقد أصبح يقال عن المبشرين إنهم عملاء للاستعمار ، ولا يزالون يُتهمون بأنهم ادوات لتغلغل النفوذ الأجنبي وللتخريب (ص ١٤) .

« ثم تبنت حكومات كثيرة في آسية وافريقية كالهند، وبورما واندونيسية والسودان، هذه النظرة فأخذت تضع العراقيل في وجه التبشير . وتبدو هذه العراقيل واضحة جداً في رفض تلك الحكومات منح المبشرين سِمات الدخول الى بلادها (ص ١٥) .

والذين كانوا قد اعتنقوا النصرانية على يد المبشرين « لا يقبلون اليوم ان يقال في النصرانية إنها دين إنساني (عام) ، وهم يصفونها بأنها دين عصبي خاص بالرجل الابيض الذي يعزل الشعوب الملونه عنه حتى في (الكنيسة) . ويقال اليوم ان اعتناق (الرجل الملون) لدين الرجل الابيض يجعل منه خائناً لأبناء جنسه ولأمته (ص ١٦)

« ان البلاد التي نشأت فيها الكنائس الجديدة (انتشرت فيها النصرانية على يد المبشرين) .... هي اليوم بلاد ثورة . هذه البلاد تسد اليوم الطريق على التبشير سداً محكماً . ونصارى هذه البلاد على وشك ان يخلعوا العقيدة النصرانية لأنها في نظرهم جزء أصيل في السيطرة الغربية وفي الاستعمار (ص ٤٠) .

« وكان أحد خبراء وزارة الخارجية (الاميركية) في الشؤون الأفريقية يخطب في اجتماع للمؤرخين الكاثوليك كانوا يتحاورون في النزاع بين النصرانية والاسلام فقال لهم : مما لا جدوى فيه للاميركيين وللاوروبيين ان يظلوا الى اليوم يتكلمون وكأن في استطاعتهم ان يقرروا مصير إفريقية . إن ابناء إفريقية هم الذين سيقررون دين إفريقية[1] المقبل: اهو النصرانية او الاسلام او الوثنية القبلية. وعلى كل حال، فان الدين الذي سيسود في إفريقية لن يكون اوروبياً (ص ٤٣) .

« ويأسف المؤلف لأن الكاثوليك والبروتستانت ، في اماكن كثيرة، لا يبدون كأنهم أبناء دين واحد» (ص٦٦) » .

هذه المختارات تمثل الكتاب الذي أُخذت منه ، ثم هي تنكشف عن حقيقة واقعة ومُرّة أيضاً ــ لنا ولأصحابها ــ حقيقة لا سبيل الى إنكارها ولا الى إنكار نتائجها ، وهي ان التبشير قد جاء الى البلاد التي نجح فيها كثيراً أو قليلا بالاستعمار وبالسيطرة الغربية وبالتحريش بين أبناء الوطن الواحد من غير ان يأتي بشيء من القيم الروحية . ولا شك في ان التمييز العنصري الذي تمارسه الحكومات البيضاء في إفريقية خاصة دليل واضح جداً على ان التبشير قد سلب طوائف الناس اسمى ما تأتي به الأديان كلها : قد سلبها المساواة والتسامح .

والمبشرون لم يقوموا بهذه الجهود في البلاد ذوات الاستقلال القاصر ، كدولة بيافرا المنقرضة ، بل في البلاد ذات الاستقلال الصحيح مثل الجزائر . إن عمل المبشرين في الحقيقة ليس متصلا بالاحسان والدعوة الصالحة ، بل متصل بالاستعمار والتجسس. نشرت الصحف الخبر التالي[2] :

أُعلن في الجزائر امس ان خمسة عشرة اجنبياً طُردوا من البلاد لنشرهم دعاية

---

(١) يقصد المؤلف أبناء المناطق الوسطى والمناطق الوسطى الغربية من قارة افريقية ممن استمالهم المبشرون الى عدد من فرق النصرانية .

(٢) راجع جريدة الأنوار (بيروت) ٢٨ - ١٢ - ٦٩ ، وجريدة النهار (بيروت) في التاريخ نفسه ، ص ٩ .

صهيونية متخذين من مذهب "شهود يهوه"[1] ستاراً لهم . واثبتت مستندات ضبطت ان هؤلاء الاجانب كانوا يحاولون انشاء منظمة تخريبية تهدف الى نشر نفوذ الدوائر الصهيونية الأجنبية في الجزائر .

وقالت جريدة المجاهد الجزائرية إن رئيس الجماعة كان محارباً قديماً في الحملة العسكرية الاستعمارية على الجزائر . و(كذلك) نشرت صوراً لستة من أعضاء الجماعة ولكنها أوردت اسماً واحداً هو مدموزيل لينز . وقالت ان الفتاة تلقت وثيقة تطلب منها توخي ما امكن من الحكمة مع موظفي وزارة الدفاع الوطني .

وأعلنت الصحيفة ان رسائل أخرى أرسلت من اوروبة الى فرع الشبكة في مدينة الجزائر تطلب وجوب نقل المسؤولين الى اماكن أعدت لهم سلفاً ، وعليهم ان يقابلوا الناس في سلام وهدوء .

(٢) الحوار وغايته الحقيقية

يصعُب على المبشرين ان يتصلوا بالناس ، وخصوصاً بالمثقفين وذوي المكانة الاجتماعية ، فلجأوا الى وسيلة جديدة سموها « الحوار » تقوم على جمع نفر من المثقفين ذوي الكلمة المسموعة في قومهم على مناقشات علنية لا تمتُّ بظاهرها إلى التبشير ، وان كانت غايتها الحقيقية زعزعة العقائد بجر الناس الى القول والرد ثم النفوذ من خلال الأخطاء والجمل المتشابهة الى التأثير على ذوي النفوس الضعيفة .

في عام ١٩٦٢ دعا البابا يوحنا الثالث والعشرون الى عقد المجمع المسكوني الثاني في رومية للبحث في جميع الشؤون ـ مما يتصل بموضوع هذا الكتاب ـ : إعداد المبشرين (من رجال الدين ومن غير رجال الدين) ـ إثارة حوار بين المسيحين وبين غير المسيحين ـ إبداء رأي الكنيسة في اليهود عامة وإسرائيل خاصة .

أما إعداد المبشرين من رجال الدين ومن غير رجال الدين فأمر اشرنا إليه في هذا الكتاب مراراً : إن المبشرين يجيئون إلينا في ثياب مختلفة : في ثياب رجال الدين

---

(١) شهود يهوه بدعة (فرقة) نصرانية اسست في الولايات المتحدة عام ١٨٧٢ م تفسر التوراة والانجيل تفسيراً خاصاً بها . وميولها يهودية . وهي تقوم بالتبشير الديني والسياسي معاً وتعمل على بعث السيطرة اليهودية في الاجتماع والسياسة .

وفي ثياب الأطباء وثياب المدرسين وثياب العلماء وثياب المكتشفين وفي ثياب الموظفين .

والحوار بين المبشرين وبين أتباع الأديان غير المسيحيين أمر قديم ، فإن عدداً كبيراً من المؤسسات الغربية كالمدارس والنوادي وجميات الشبان والشابات وسائل لحوار مستتر كثيراً أو قليلا — وغاية هذا الحوار زعزعة العقائد على ألسنة أشخاص معروفين في قومهم . والحوار كالمعاهدات يظفر بالغنائم فيها من كان أقوى يداً وأرفع صوتاً . ومما يؤسف له ان نفراً قد حملهم تيار هذا الحوار الى حيث لا يريدون . وعلى كلّ فان النتائج العملية لذلك الحوار لم تكن بعيدة الأثر في تحقيق الهدف الذي نُصِب لها ، ذلك لأن المخلصين أدركوا ان هذا الحوار هو وسيلة جديدة من وسائل التبشير الديني والسياسي معاً . ثم ان كثيرين من المخلصين كانوا يتتبعون الحركات العامة في العالم فعلموا بأهداف هذا الحوار . أما الذين ليس لهم تتبع لما يجري في العالم فقد ظنوا ان هذا الحوار فرصة لتبيين آرائهم ، وكانوا في ذلك مخطئين .

في المجموعة التي أصدرها المجمع المسكوني الثاني [1] تعريف وتفصيل لهذا الحوار . قالوا فيها في الحوار (٢ : ١٢٦) : « يجب إعداد رجال دين عندهم استعداد للحوار... رجال دين يعرفون كيف يصغون الى الآخرين وكيف يفتحون قلوبهم لجميع حاجات (النفس الانسانية) ؛ رجال دين في طبيعتهم ان يوقظوا الاهتمام في النفوس وان يكونوا مُعلين للايمان (المسيحي) ... رجال دين يستطيعون ان يتيحوا الفرص للعمل الارسالي الرسولي (التبشيري) وأن يبعثوا فيه الحياة بين غير رجال الدين بروح كاثوليكية فعلا ومن وجهات النظر العالمية » . ويقولون أيضاً (٢ : ١٧٨ — ١٧٩) : « وفوق ذلك يجب ان يُعَدّوا (أي القائمون بالحوار مع غير النصارى) بطريقة موافقة لتفهيمهم الوسائل الفنية والتي لا بد منها حتى يستطيعوا ان يتسللوا بنشاط في الجماعات التي تتألف منها الجماعة الانسانية ، وأن يبدأوا الحوار مع الآخرين ... ثم إن الكنيسة تستطيع ان تقوم بهذا الحوار من غير ان تهجر طبيعتها الخاصة بالوحي الذي لها ... وهي التي بُعِثت (مبشرة) الى جميع الناس » (٢ : ٢٠١) .

(1) Concile œcuménique Vatican II , Documents conciliaires (éd. du Centurion , Paris 1966) .

« إن على (كل) كاثوليكي ان يكون في مسلكه في الحياة شاهداً على إيمانه (عاملا به) وان يحاول التعاون وإثارة الحوار بحكمة ومحبة مع أولئك الذين ينتمون الى الاديان الأخرى » (٢ : ٢٠٣) .

أما فيما يتعلق بالمسلمين خاصة فهم يقولون (٢ : ٢٠٤ — ٢٠٥) : « بين (المسلمين والنصارى) روابط من إبراهيم ومن المسيح الذي يعدُّونه نبياً ومن امه مريم . فالمجمع المسكوني يحض الكاثوليك على ان يحاولوا نسيان العداوة التي كانت بين الدينين وبين الثقافتين وان يعوا واجبهم العام — في احترام متبادل — في سبيل خير الانسانية » .

وفي « موجز نصوص المجمع المسكوني » [1] يقولون في هذا الحوار : « والكاثوليك يأخذون على أنفسهم ان يتعاونوا مع جميع الناس ... ويحاوروهم — متوجهين اليهم بذكاء ولطف — في كيفية تحسين حال المؤسسات الاجتماعيه والعامة بما يتفق وروح الأنجيل » (ص ٣٢٣) . وفيه : « أما فيما يتعلق بالتبشير للتنصير وبتكريس المدنيين (تعيين نفر من غير رجال الدين للقيام بالتبشير) ، فيجب إعداد غير رجال الدين إعداداً خاصاً للقيام بالحوار مع الآخرين ، من المؤمنين (الكاثوليك) ومن غير المؤمنين حتى يبينوا للجميع رسالة المسيح » .

(٣) التبشير والاستعمار في فلسطين

سبق في هذا الكتاب حديث على التعاون بين التبشير والاستعمار وبين الصهيونية لانتزاع فلسطين من العرب ومن الاسلام . وكان هذا الحديث مبنياً على التخمين : من قراءة في الصحف الأجنبية ومن قرائن وملابسات مختلفة . أما الآن فقد انكشف الدور الذي قام به التبشير والاستعمار في التآمر على فلسطين .

وهذا الفصل — كجميع الفصول السابقة — مبني على مصادر منشورة مطبوعة وموجودة في المكتبات والمكاتب . وأقوال هذه الكتب التي سنعتمد عليها في هذا الفصل ناطقة بنفسها لاتحتاج إلى تفسير ولا تحتاج إلى تعليق . من أجل ذلك سنأخذ الفقرات منها ونثبتها في اماكنها ، ولن يكون لنا من الكلام إلا كلمات نصل بها بين تلك

(1) Synopse des textes conciliares , par J. Deretz et A. Nocent , éditons universitaires , Paris 1966 .

الفقرات للمحافظة على سلامة الانشاء

ان المؤامرة على فلسطين استغرقت قرناً ونصف قرن : مائة وخمسين سنة كاملة ، من عام ١٨١٨ الى عام ١٩٦٧ للميلاد .

يبدو أن التبشير في الهند (١) ، حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، لم يأت بالنتيجة التي كان المبشرون —والدول الغربية : ومنها بريطانية والولايات المتحدة خاصة— يتوخونها . من أجل ذلك عزم « **المجلس المفوض بأمر جمعيات التبشير في الخارج** » على تحويل الجانب الاكبر من نشاطه الى **الشرق الاوسط**، والى **فلسطين خاصة**، ثم الى **القدس** على الاخص

ففي خريف عام ١٨١٨ تأسست في الولايات المتحدة جمعية تبشيرية للعمل في فلسطين تستند الى الجهود الأميركية والاحسان الأميركي (ص٦٦) .

ومن العوامل التي شجعت على تأسيس هذه الجمعية الأميركيـة للتبشير في فلسطين ان الشرق الادنى لم يكن جزءاً من الامبرطورية البريطانية ولا كان خاضعاً للحكم البريطاني أو للنفوذ البريطاني. ولذلك تقرر السير في هـذا السبيل سيراً مستقلا عن الجمعيات التبشيرية البريطانية . ولقد كان في المركز الجغرافي العسكري للشرق الأدنى ولمنطقة البحر المتوسط عنصر إغراء كبير حمل الأميركين على إقامة جمعية للتبشير هناك . ان البحر المتوسط كان الطريق المؤدي إلى أقسام واسعة من العالم لم يكن التبشير قد بدأ فيها بعد ، كما كان باباً الى آسيه وإفريقية من غربيها (ص ٦٧) .

وكان الهدف الرئيسي للتبشير في فلسطين تبديل عقائد شعوب الشرق الأدنى وتبديل أنماط حياتهم ... وقـد وضعت خطط مختلفة للوصول إلى نفوس النصارى ونفوس المسلمين ونفوس اليهود في هذه البقعة من الأرض ... غير ان الصعوبة الكبيرة التي أدرك المبشرون أنهم سيلاقونها في الشرق الادنى كانت إعجـاب شعوب الشرق الادنى بثقافاتهم (ص ٦٨) . ثم إن القاهرة والاسكندرية مكانان مهمـان ، فإن المبشرين يستطيعون ان يستقروا في أي منها شاءوا بأمان فيصنعوا ترجمة عربية صحيحة للكتاب المقدس (ص ٧١) .

(١) الأرقام التالية في المتن تشير الى صفحات الكتاب التالي :
Nineteenth Century American Schools in the Levant, by Rao H. Lindsay, printed by Malloy Lithoprinting, Inc., Ann Arbor, Michigan 1965.

وكانت أرمينية مهمة كذلك . كانت الكنيسة الأرمنية قـد أضاعت مجدها منذ زمن طويل ، ولكن بالإمكان ان تكون الكنيسة الأرمنية وسيلة مهمة لتنصير غربي آسية ... بالتقدم منها إلى إيران والعراق وسورية وفلسطين وآسية الصغرى . وهكذا تستطيع الكنيسة المسيحية ، بلا حرب صليبية ، ان تسترد تلك المناطق التي خسرتها منذ أزمان طوال (ص٧٢) .

ومنذ الزمن البعيد (عام ١٨١٩ م) نشأت فكرة حل اليهود من ذنب التدبير لصَلب المسيح ، تلك الفكرة التي نفذتها البابوية عام ١٩٦٥ م — بعد مائة وستة وأربعين عاماً — فقد ذكر ليفي بارسونز في تقرير له عن الارساليـة في فلسطين قـوله : « ان جمهور المسيحيين يجب أن يدعو لليهود دعوة صالحة وأن يغفر لهم صلب المسيح (١) كما كان المسيح نفسه قد غفر لهم ذلك . إن عيون (اليهود) تشخص الى القدس ، فهم يعتقدون ان المسيح (المهدي) سيظهر فيها ... ويقول بارسونز إننا إذا استطعنا ان نحمـل البروتسطانت على ان يجعلوا في القدس نواة من اليهود تتقبل المسيح فان جميع يهود العالم سيقتفون خطاها حالا . وهكذا اهتمت جميع الارساليات التبشيرية بالخطوة التي خطتها الارسالية الأميركية (ص ٧٦ — ٧٧) .

لما أرسل المجلس المفوض بأمر الارساليات التبشيرية مبشريه الأولين الى الشرق الأدنى لم يكن ينتظر أن تكون نتائج عملهم بين المسلمين سريعة الظهور : لقد أدرك المجلس انه ليس من السهل حمل المسلم على تبديل دينه ، لان المسلمين مقتنعون بـأن الاسلام أسمى الاديان ، **ثم ان السلطة السياسية في يد المسلمين** . غير ان الاميركيين كانوا يأمـلون أن يتقوض البناء السياسي للدولة العثمانية في أثناء ذلك فيُقضى بالتالي على القوى الاسلامية . وكذلك كان منهم من يظن ان حركة الوهابيين الاصلاحية ستهدم الاسلام السَلَفي (ص ٧٨ — ٧٩) .

(١) كان النصارى يحملون عداء شديداً لليهود اعتقاداً منهم بان اليهود هم الذين طلبوا مـن الحاكم الروماني قتل المسيح ، وكانوا يحملون جميـع اليهود في جميع العصور شركاء في هذا الجرم .

وفي عام ١٩٦٤ ظهر كتاب اسمه « تاريخ الارساليـات التبشيرية » لمبشر وأسقف إنكليكاني (بروتسطانطي انكليزي) اسمه ستيفن نايل (١). جاء في مطلع هذا الكتاب (ص ١٦ — ١٧) :

« ... وُلد يسوع يهودياً ، ولم يدّعِ يوماً أنه كان شيئاً آخر . ثم انه لم يخط وراء حدود فلسطين الضيقة قط . لقد كانت لغته الآرامية ، وفي الارجح القريب من التأكيد انه كان يستطيـع أن يقرأ التوراة باللغة العبرية ... ومعنى هذا أن جانباً كبيراً مما قاله يسوع لا يستطيع أن يفهمه الرجل العادي إذا لم يكن يهودياً . ولقد اتخذ (المسيح) في التعبير (عن آرائه) اللغة المرموزة (الرمزية) التي كانت للشعب اليهودي ، ذلك الشعب المظلوم الشقي الذي تعوّض (تسلية) عن مصائبه صوراً براقة من الأمل في زمن سيأتي . إن الله لن يدع شعبه الى الابد بلا اطمئنان » .

على ان حرص الدول الغربية على جمع نواة من اليهود في مدينة القدس لم يكن تابعاً من عاطفة دينية فحسب ، بل من مصلحة سياسية أيضاً . فقـد بدأت « الارسالية الانكليكانية (الانكليزية) للعمل (للتبشير) بـين اليهود » بالاستقرار في القدس في عام ١٨٢٠ ، ثم جعلت تقوم ، منذ عام ١٨٢٤ ، بشيء يسير من العناية الطبية .

وقد تطورت هذه العناية الطبيه اليسيرة حتى نشأ منهـا في عام ١٨٤٨ مستشفى مشهور . وفي عام ١٨٥١ شاركت جمعية الارسالية التبشيرية في هذا العمل . ولقد أدى هذا العمل (تأسيس إرسالية في القدس) الى أغرب الاحداث في تاريخ الكنيسة الحديث. ان السلطات البريطانية والبروسية (الالمانية) اتفقت على تأسيس أسقفيـة مشتركة في مدينة القدس يشرف عليها أسقف مرسوم على المذهب الانكليكاني (الانكليزي) ، ولكن تعيينة يجري بالتناوب بين ملك انكلترة وملك بروسية (المانية) . ولقد كان في هذا العمل عوامل سياسية كما كان فيه عوامل دينية . لقد ظنت السلطات (الانكليزية والبروسية) أن الحماية التي تتمتع بها الروسية على النصارى الارثوذكس في الشرق والحماية الدينية التي تتمتع بها فرنسه على النصارى الكاثوليك يحسن ان تُوازنا بحماية انكليزية

(1) A History of Chr. Mission , by Stephen Neill [The Pelican Hist of the Church :] - Pelican Books A 628 , 1964 .

بريطانية على البروتسطانت . وقد كان الاسقف الاول على اسقفية القدس هـذه ميخائيل سلمون اسكندر — وهو حاخام يهودي متنصر — ... (ص ٣٠٤) .

وجود إسرائيل

« إن الامر العظيم الذي جدّ في العالم الاسلامي هو وجود إسرائيل ... فان التوازن (السياسي والقومي والديني) قد اضطرب بذلك اضطراباً كاملا في المنطقة كلهـا ... وللنصارى في ذلك آراء مختلفة ؛ إن نفراً منهم يرَون أن إسرائيل وحدة سياسية لا إهمية دينية لها . وان نفراً آخرين يعتقدون ان قيـام إسرائيل تحقيق لنبوءة التوراة ... أما أكثر النصارى الذين يعيشون في إسرائيل فهم مـن أتباع الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الشرقية (الروم الاثوذكس). وهؤلاء يتمتعون بقدر من الحرية الدينية . **أما النصارى من أصل عبري (يهودي) فقليلون جداً ، ثم هم موضع ريبة يُنظر اليهم كما يُنظر الى الخونة** » (٤٩٠) .

موقف البابوية من اليهود وإسرائيل

في أثناء الاعداد للمجمع المسكوني الثاني فوّض البابا يوحنـا الثالث والعشرون الكاردينال بِيا بوضع مرسوم يتعلق باليهود . تقول مجموعـة المجمع المسكوني (١) (٢ : ٢٠٤) أن البابا يوحنا الثالث والعشرين لما كان قاصداً رسولياً في الشرق الادنى(٢) اطلع على حال الشقاء التي كان فيها كثير من اليهود الذين هربوا من مضطهديهم ، وقدأنقذ حياة نفر كثيرين منهم. ثم انه أبدى عليهم عطفاً في مناسبات مختلفة . وفي تشرين الاول (اكتوبر) من عام ١٩٦١ جاء وفد من اليهود الاميركيين ليشكروا للبابا يوحنا الثالث والعشرين مواقفه منهم فاستقبلهم بهذه الكلمات : « أنا يوسف أخوكم . أجـل ، إن ثمة فرقاً بين الذي لا يؤمن إلا بالعهد القديم (أي التوراة — يعني اليهودي) وبين الذي يؤمن أيضاً بالعهد الجديد (أي الانجيل — يعني النصراني) أنـه الشريعة الهادية العليـا . ولكن هذا الفرق لا ينقص شيئاً من الاخوّة القائمة على أصلنا الواحد : ألسنا جميعـاً

(١) راجع ، فوق ، ص ٢٥٦ .
(٢) في تركية ، سنة ١٩٣٥ .

أبناء أب واحـــد في السماوات ؟ فيجب أن يكون بيننا حب مشرق ، حب نشيط فعّــال » .

وفي ذلك الوقت نفسه ، في أثناء الإعداد للمجمع الثاني أيضاً ، طلب معهد التوراة في روما أن يكون للمجمع تفسير (رأي) في « الوجود اليهودي » . وفي عام ١٩٦٠ قام العالم اليهودي يوليوس إيزاك (اسحاق) بزيارة للبابا (يوحنا الثالث والعشرين) طالباً منه ان يعدل الفقرات المعادية للسامية في التعليم الديني . وفي نحو هـــذا الوقت بعث المطران أويسترايشر رئيس المؤسسة اليهودية المسيحية في ستون هول (الولايات المتحدة) الى الكاردينال بيا عريضة وقعها خمسة عشر قسيساً يطلبون فيها أن تستمر إزالة العبارات التي تدعو الى سوء التفاهم ثم حذف التعابير الجارحة لليهود من العظات المسيحية (القداديس) . وفي عام ١٩٦٢ وضع الكاردينال بيا بصفته رئيساً للامانة العامـــة في (مؤسسة) وحدة المسيحيين (في الفاتيكان) المرسوم اليهودي (الذي يتضمن الفكرة المذكورة آنفاً). وتسرب خبر المرسوم اليهودي أو «الوثيقة لليهود» — وقيل ان مبعوثاً لاسرائيل سيحضر الجلسة التي ستعرض هذه الوثيقة فيها — وقيل أن هذا المبعوث قد زار البابا في شأن هذه الوثيقة — فحدث شيء من الهياج في الدول العربيـــة من أجل ذلك . فصُرِف النظر عن الوثيقة موقتاً . غير ان المجمع المسكوني الثاني عاد فأقر هذه الوثيقة.

من النقاط الاساسية في هذه الوثيقة ما يلي .

(أ) تقر الكنيسة بأن جذورها تذهب بعيداً في أرض إسرائيل القديمة ، وتقر بذلك بسرور ... إن جذورها ترقى الى الأسباط والأنبياء ، وخصوصاً الى ذلك اليوم الذي دُعي فيه إبراهيم ليخرج من بيت أبيه الوثني وليسير في طريق الإيمان الجريئة . إنهـــا ترقى إلى تلك الساعة التي اختار الله فيها موسى ليخرج أبناء إسرائيل من أرض العبودية وليصل بهم الى قرب الميعاد .

(ب) والكنيسة ، برغم إنها مؤسسة جديدة كل الجدّة ، مستمرة مـــع إسرائيل القديمة (في الوجود) . إن هذا التأكيد ليس فقط تعبيراً عن حقيقة تاريخية ، بل عن واقع يملأ وجود الكنيسة ووجود كل مسيحي ويعيش فيها .

(جـ) إن أوثق صلات الكنيسة بالشعب اليهودي « إنسانية » المسيح . إن الكنيسة

لا تستطيع أن تنسى — ولا تريد أن تنسى — أن الله [١] لما أصبح أخاً للبشر (اختار) أن يكون يهودياً . وبتعبير آخر ، ان مخلص العالم عاش ومات على انـــه شخص من الشعب الذي أنعم الله عليه فاختاره واعتنى به . ولا يسع الكنيسة انتنسى أيضاًان مريم أم يسوع كانت من بيت داوود ، وان الرسل والحواريين (تلاميذ المسيح) كانوا من نسل إبراهيم ، وان هؤلاء جميعاً قد قضَوْا أيام طفولتهم بين أبناء إسرائيل .

(هـ) ومع ان السكان القدماء في القدس كانوا كلهم من اليهود الذين آمنوا بيسوع مسيحاً مهدياً ، فان القسم الأكبر من الشعب المختار لم يؤمن بيسوع مسيحاً . ولقـــد استنتج اهل العصور الماضية من ذلك ما يلي : بمـــا أن اليهود بجملتهم (بمجموعهم) لم يؤمنوا بيسوع مسيحاً ، فان جميع بني إسرائيل أخذوا بهذه الجريرة . فالمجمع المسكوني يعلن — خلافاً لذلك — انه من الخطأ ان يستنتج الإنسان من الكتاب المقدس مثل هذه النتيجة ....

(و) فاتهام الشعب اليهودي بجملته ، إذن — مَن عاش منه في الماضي ومَن يعيش منه اليوم — باطل : إنه انسياق في الضلال وارتكاب للظلم . أما فيما يتعلق بالذين أرادوا قتل المسيح ، فانهم زمرة قليلة العدد من اليهود وروماني واحد وحفنة مـــن السوريين التابعين للكتيبة العاشرة التي كانت مرابطة في فلسطين . وقد قال السيد المسيـــح عنهم كلهم — كما قال رسله بعده — : اغفر لهم ، (يا رب) ، فانهم لا يدرون مـــا يفعلون ! (٢ : ٢٠٦ — ٢١١) .

إذاعة الوثيقة في الصحف العالمية

إن الوثيقة التي أقرها المجمع المسكوني الثاني نشرت في منشورات المجمـــع ، وهذه منشورات قلما يطلع عليها جمهور القراء . من أجل ذلك دُفعت خلاصة الوثيقة والغاية الأساسية منها الى وكالات الأنباء العالمية فوزعتها الوكالات على صحف العالم . نشرت جريدة النهار ما يلي [١] :

---

(١) هذا هو التعبير الوارد في الوثيقة إلى اليهود .

(٢) بيروت، بتاريخ ١٢—١٢—٦٩ ، الصفحة الاولى (راجع الصحف الباقية) .

وثيقة أقرها الفاتيكان

تطلب من الكاثوليك الاعتراف بالمعنى الديني لدولة إسرائيل ؟

نيويورك — ١١ كانون الأول (ديسمبر) — أ ب — (اسوشياتدبرس) اذاع رئيس أساقفة بالتيمور الكاردينال لورنس شيهان امس وثيقة اقرها الفاتيكان عن العلاقات الكاثوليكية — اليهودية ، ترمي الى إزالة العداء التاريخي بين اتباع الديانتين . وكانت امانة الفاتيكان لتشجيع الوحدة المسيحية (قد) اقرت هذه الوثيقة في الاسبوع الماضي في روما . وحضر الكاردينال شيهان الاجتماعي الذي تم إقرارها فيه .

وذكرت الوثيقة ان على الكاثوليك ان يعترفوا بالمعنى الديني لدولة إسرائيل بالنسبة الى اليهود وان يفهموا ويحترموا صلة اليهود بتلك الارض .

فهرس هجائي لاعلام الناس[1]

م = مكرر ، ح = في الحاشية

[1] لم نفهرس الاسماء الواردة في المصادر والمراجع ، سواء اكانت في قائمة المصادر والمراجع او في الحواشي .
وقد فهرسنا عددا من الالفاظ غير الاعلام وجدنا فهرستها ضرورية .

ت ، ث

ج

ح ، خ

د

ر ، ز

س

ش

ص ، ض

ط ، ظ

ع ، غ

ف ، ق

ك ، ل

م

ن

هـ ، و

ي

كتب للمؤلف

تاريخ الفكر العربي	١٤٠٠ ق ل
تاريخ الأدب العربيّ	
الجزء الأوّل (الجاهلية والعصر الاموي)	١٢٠٠
الجزء الثاني (العصر العبّاسي: ٣٩٩ هـ – ١٠٠٩م)	١٢٠٠
الجزء الثالث (من ٤٠٠ – ٩٢٢ هـ)	يصدر قريباً
تاريخ الجاهليّة	٤٠٠
العرب والاسلام في الحوض الشرقيّ من البحر الابيض المتوسّط	٣٠٠
العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسّط	٤٠٠
العرب في حضارتهم وثقافتهم	٤٠٠
الاسرة في الشرع الاسلامي (نقل الى التركية)	٤٠٠
التبشير والاستعمار في البلاد العربية (نقل الى الروسية والتركية والفارسية والأورديّة) الطبعة الرابعة	٤٠٠
القومية الفصحى	٣٠٠
الشابيّ شاعر الحبّ والحياة	٣٥٠

الكتاب	الثمن
شاعران معاصران (ابراهيم طوقان وابو القاسم الشابيّ)	٣٠٠
عبقرية العرب في العلم والفلسفة (نقل الى الانكليزية) ط ٣	٤٠٠
وثبة المغرب	٥٠٠
أبو تمّام : دراسة تحليلية	٣٥٠
أبو العلاء المعرّي	٢٠٠
حكيم المعرّة (نقل الى اللغة الفارسية)	٢٠٠
العرب والفلسفة اليونانية	٢٥٠
أبو نواس	١٥٠

دراسات قصيرة

الكتاب	الطبعة	الثمن
١ — الحجاج بن يوسف	(الطبعة الثانية)	٤٠
٢ — عمر بن ابي ربيعة	(الطبعة الثانية)	٧٥
٣ — عبد الله بن المقفع	(الطبعة الثانية)	٤٠
٤ — الرسائل والمقامات	(الطبعة الثانية)	١٠٠
٥ — ابن الرومي	(الطبعة الثانية)	٥٠
٦ — احمد شوقي	(الطبعة الثانية)	٦٠
٧ — ابن خلدون	(الطبعة الثانية)	٥٠
٨ — أثر الفلسفة الاسلامية في الفلسة الاوروبية	(الطبعة الثانية)	٧٥
٩ — شعراء البلاط الأموي	(الطبعة الثانية)	١٢٥
١٠ — الفارابيان : الفارابي وابن سينا	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١١ — أربعة ادباء معاصرون	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١٢ — خمسة شعراء جاهليون	(الطبعة الثانية)	١٥٠
١٣ — بشار بن برد	(الطبعة الثانية)	١٢٥
١٤ — نهج البلاغة	(الطبعة الثانية)	٥٠

الكتاب	الطبعة	الثمن
١٥ — اخوان الصفا	(الطبعة الثانية)	١٥٠
١٦ — ابن باجه	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١٧ — ابن طفيل	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١٨ — التصوف في الاسلام		٢٠٠
١٩ — الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب		١٥٠
٢٠ — موضوعات محللة في تاريخ الفلسفة الاسلامية		١٠٠
٢١ — ابو فراس		١٥٠

كتب منقولة عن الانجليزية

الكتاب	الثمن
أصدقاء لا سادة (السيرة السياسية للمشير محمّد أيوب خان بقلمه)	١٢٠٠
الطريق الى النجوم ، تأليف فان در يت ولّلي ، (رئيس المرصد الفلكي في غرينيش)	٤٠٠
الاسلام على مفترق الطرق (تأليف ليوبولد فايس : محمّد أسد) ط ٦	١٥٠
الثقافة الغربية في رعاية الشرق الاوسط (تأليف جورج سارطون موٌلف كتاب : مقدّمة الى تاريخ العلم)	١٥٠
Das Bild des Frühislam in der arabischen Dictung von der Higra bis zum Tode Umars : 1-23 d. H. (622-644 n. Chr.).	1200
On Public and Private Law in Islam (being a translation from the Arabic of السياسة الشرعية as-Siyâsa ash-Shar'iyya of Ibn Taymiyya (d. 728 A. H. = 1328 C. E.).	1800
Qur'anic Arabic	300
L'arabe coranique.	300